منشورات
ديوان الوقف الشيعي
٢٩

أصول العقيدة

الجزء الأول في التوحيد والعدل
ويليه
الجزء الثاني في النبوة

بقلم
السيد مهدي الصدر (قده)

العراق - بغداد
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

أصــول العقــيدة

الجزء الأول في التوحيد والعدل

ويليـه

الجزء الثاني في النبوة

بقلم

السيد مهدي الصدر

المؤلف في صفحات

وتحتوي علــى:

- ترجمته بقلم ولده السيد علي
- كلمة العلاّمة الدكتور محفوظ (رحمه اللّه) في تأبينه
- كلمة سماحة السيد حسين السيد إسماعيل الصدر (دام ظله) في تأبينه
- كلمة سماحة السيد حسين السيد محمد هادي الصدر (دام ظله) في تأبينه
- كلمة الأديب السيد حبيب الصدر في تأبينه
- قصيدة الشاعر الاستاذ محمد سعيد عبد الحسين الكاظمي (رحمه اللّه) في رثائه
- قصيدة الشاعر الاستاذ علي الحيدري في رثائه

بسم اللّه الرحمن الرحيم

العلاّمة السيد مهدي الصدر (رحمه اللّه)*

اسمه وكنيته: هو السيد ابو صالح محمد المهدي بن علي بن الحسن بن الهادي بن محمد علي بن صالح الموسوي العاملي الكاظمي.

ولادته ونشأته: ولد أعلى اللّه مقامه في ١٦/شعبان سنة ١٣٣٣هـ من أبوين علويين كريمين فأبوه هو التقي النقي السيد علي بن الامام الحسن الصدر وأمه البرة الجليلة العلوية كريمة السيد رضا الطباطبائي[١]، وكانت ولادته في دار جده آية اللّه السيد حسن الصدر (قدس سره) تلك الدار التي كانت مقصد العلماء والفضلاء، ونجعة طلبة العلوم، ومُختَلَفَ اصحاب الاسئلة والاستفتائات، فكانت البيئة التي نشأ فيها بيئة علمية دينية لا يفتأ يسمع المطارحات العلمية من عيون الافاضل والاسئلة الشرعية والاجتماعية من مختلف الطبقات مع اجوبتها من جده (قدس سره) مباشرة او من ابيه (رحمة اللّه عليه) نيابة عن السيد الجد، وكان الى جانب ذلك يرى من اهل بيته التهجد والعبادة أطراف الليل وأناء النهار ما أثر في نفسه اشد الاثر فنشأ مطبوعا على الورع والتقوى مراعيا للاحتياط اشد المراعاة محبا للعلم جادا في تحصيله.

---

* الكلمات والقصائد الواردة في هذه الصفحات كلها القيت في الحفل التأبيني الذي أقامته الأسرة لمناسبة الذكرى السنوية التاسعة لوفاة السيد المهدي (رحمة الله عليه).

[١] هو السيد رضا بن السيد زين العابدين بن السيد حسين بن السيد محمد المجاهد صاحب (المفاتيح) بن السيد علي الطباطبائي صاحب (الرياض) قدس الله اسرارهم.

خلقهُ وخُلقه: كان (رحمة الله عليه) حنطي اللون، ربعة الى الطول اقرب، مشرق الوجه صبيحه، عريض الجبهة، اسود العينين مع سكون في نظرهما، تهابه اذا رأيته ثم لا تلبث ان تألفه فلا تحب مفارقته، كان هادئ الطبع جادا فيما يقول وحين يستمع، يعمل عقله في كل المقامات ويتأنى في اتخاذ القرارات، وكان شديد الاحتياط دائمه في جميع عباداته ومعاملاته، وكان مجلسه حتى الخاص تربويا تعليميا دائما وبأسلوب محبب، وأختم الحديث عن خُلقه بقصة اليوم الثالث قبل وفاته إذ كان حينها قد سكن عن الحركة وكل عن الكلام وقد زارنا يومها الدكتور الفاضل الاستاذ عبد الهادي الخليلي بطلب مني لتقييم وضع السيد الصحي، وبعد ان أكمل الطبيب فحوصه وأوشك على المغادرة أشار اليَّ السيد بعينيه ففهمت انه يريدني أن أدنو منه فدنوت فهمس ولم يكن قد نطق قبل هذا بأكثر من يوم كامل، همس، اكرموا الطبيب.

دراسته: كانت بيئة السيد المتمثلة بمجالس جده ثم مجالس أبيه هي المدرسة الأولى له وقد درس النحو على العلامة الجليل الشيخ عبد الرزاق العاملي (قدس سره) والمنطق على حجة الإسلام السيد محمد جواد الصدر (قدس سره) ودرس الفقه عليه ايضا وعلى حجة الاسلام الشيخ فاضل اللنكراني (قدس سره) ودرس أصول الفقه على حجة الاسلام السيد طاهر الحيدري (قدس سره). قال الامام السيد علي الحسين شرف الدين في بغية الراغبين[1]، وكان قد رأى السيد المهدي في فترة تحصيله قال: (رأيته سنة ١٣٥٥ في الكاظمية يتلهف على الهجرة الى النجف الاشرف في طلب العلوم الشرعية

[1] بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين وهو سفر خالد يدون نسب وتاريخ وتراجم آل شرف الدين ومنهم آل الصدر.

ليخلي لها ذرعه ويقصر عليها وسعه،وكم حسرات في نفوس كرام، وقد راقني هديهُ وسمتهُ وتوسمتُ فيه كل خير).

محاضراته ومجالس وعظه: كان للسيد المهدي الريادة في تأسيس مجالس الوعظ والتثقيف الديني على الطراز الحديث في الكاظمية إذ كان في اول امره يرقى المنبر في دار أبيه التي انتقلوا إليها بعد وفاة جده آية اللّه السيد حسن الصدر (قدس) والواقعة في محلة القطانة في الجهة المقابلة لباب المراد بالقرب من طاق الجلبي وهي الآن جزء من شارع باب المراد، وكان لهم في كل ضحى جمعة مجلس يحضره جمع من الافاضل ولفيف من أهل البلد، وكان لمجالسه وخطاباته تأثير واضح على مختلف الشرائح الاجتماعية مما ادى الى الإقبال عليها، وقد وصف هذا المجلس الاديب الكبير الحوماني في كتابه (من يسمع) فقال: (وودت ان اشهد حفلا يقام صباح كل يوم جمعة في منزل العلامة السيد علي الصدر بالكاظمية ويكون خطيب الحفل نجله السيد مهدي الصدر وقد شهدت هذا الحفل مرارا فكنت أعجب ما أراني معجبا في ما اسمع بإخلاص الخطيب وهو يعظ ويرشد وبنصحه وهو يتخير العظات والعبر للمحدقين به ولو ان المجالس التي تبلغ الملايين في ابهاء المسلمين تستمع الى مثل هذا الخطيب التقي الفهامة، لما انحط المسلمون الى هذه الهوة التي تردوا فيها منذ قرون ثم لم يجدوا قائدا مخلصا ينهض بهم الى ذروة العز التي هي وقف على الاتعاظ بمثل هذه الحكم). ثم انتقل المجلس الى الحجرة التي دفن بها جمع من أعلام الأسرة ومنهم آيه اللّه السيد حسن الصدر وقبله العلامة السيد الهادي الصدر (قدس اللّه سريهما) وهي الحجرة الثالثة على يمين الداخل الى الصحن من باب المراد. ثم انتقل المجلس الى اعلى السور من جهة باب المراد فكانت المحاضرات والمجالس تعقد في سطح السور المكشوف في

ليالي الصيف وتوسعت وتعددت المحاضرات لتستوعب معظم ليالي الاسبوع وكانت تنتقل الى الحجرة الواسعة فوق باب المراد شتاءًا فكانت في بعض الليالي تضيق هي والحجرتان اللتان على جانبيها عن استيعاب الحضور وكان الشباب المؤمنون وجمع من وجهاء المدينة وعيونها يدأبون على حضور هذه المجالس لما تزودهم به من وسائل للدفاع عن دينهم وعقيدتهم في مقابل التيارات التي راجت في تلك الايام وبعض اولئك الشباب اصبحوا اليوم من اهل الحل والعقد في البلد وبعضهم لازال يتذكر تلك المجالس ويذكر فوائدها، وقد وصف سماحة العلامة السيد عبد الله شرف الدين نجل الامام عبد الحسين شرف الدين في حاشيته على البغية خطب السيد المهدي ومواعظه فقال: (أما في الخطابة والوعظ فله القدح المعلى، والمقام الأسمى، يجذب قلوب سامعيه بطلاقة لسانه، ومن بيانه، يدخل كلامه ونصحه في الاعماق ليكون له ابلغ الأثر في النفوس).

إمامته الجماعة: باشر السيد المهدي صلاة الجماعة ظهرا في مسجد الترك في محلة الانباريين ومغربا في صحن قريش حين اعتلت صحة أبيه السيد علي (رحمه الله) اي في عام ١٣٧٦هـ تقريبا واستمر على ذلك الى حين تمام انشاء الحسينية وبعد ذلك اقتصر على الخروج الى صلاة المغرب والعشاء وكان يؤديها في الحسينية.

تأسيس الحسينية: كانت إحدى أمنيات السيد الحسن الصدر (قدس الله سره) ماثلة أمام حفيده السيد المهدي وتلك الأمنية هي إنشاء مدرسة دينية في الكاظمية، لكن السيد الجد لم يتمكن من تنفيذ هذا المشروع طيلة حياته الشريفة ، ولم يتمكن أبناؤه من بعده من تحقيق هذه الأمنية، ولما حانت

الفرصة كان الدور قد وصل إلى الأحفاد، فقام السيد المهدي بهذا الأمر أتم قيام مدعوماً من المرجعية الدينية المتمثلة يومها بسماحة آية الله العظمى السيد محسن الحكيم (قدس سره) الذي قدم الدعم المعنوي الكامل للسيد، وبارك توجهه في إنشاء حسينية ومدرسة دينية ، وأذِن له بصرف الحقوق الشرعية في إنشائها، وتسابق المؤمنون مِن أهل البر في تمويل المشروع، حتى صار الحلم حقيقة ماثلة للعيان بعد جهود مضنية، جزى الله الجميع الف خير وكتب هذا العمل في ديوان حسناتهم. وبعد إنشاء الحسينية انتقل نشاط السيد التبليغي إليها وازدانت مجالس وعظ السيد وإرشاده بوجوه نيرة من أبناء البلدة على اختلاف أعمارهم وأعمالهم وثقافاتهم. واستمر هذا الامر حتى ثنيت الوسادة لفرعون العراق ودخل العراق في نفق الطغيان والظلم.

ايام المحنة: بعد استشهاد آية الله العظمى السيد محمد با قر الصدر (قدس سره) وما رافق هذه الطخية العمياء من بلايا ورزايا، قرر السيد المهدي أن يعتزل الناس وأن ينزوي عن العمل الاجتماعي اعتزالا للفتنة وتحاشيا لاحتمال ان يضغط عليه الجلاوزة لحضور مناسباتهم او ما شابه ذلك من ألوان التعاطي معهم فادعى المرض وحبس نفسه في داره مكبا على المطالعة والتأليف ومن المعلوم ان اختيار الرجل ان لا يخرج من داره قط أمر في غاية الصعوبة ولكنه مع ذلك لم يشتك ولا لمرة واحدة من سجنه الاختياري، بل كان صابرا محتسبا رغم ما كان يصدر من جلاوزة البعث واجهزة الامن من مضايقات.

مؤلفاته: ألف السيد المهدي في موضوعات متعددة، وكان الجامع بين هذه المؤلفات أنها سهلة العبارة، بعيدة عن التكلف، محببة العرض، مع رصانة وموضوعية ، والمؤلفات هي:

١. اصول العقيدة — في التوحيد والعدل.
٢. اصول العقيدة — في النبوة.
٣. اصول العقيدة — في الامامة.
٤. اصول العقيدة — في المعاد.
٥. أخلاق اهل البيت.
٦. فلسفة العبادات الاسلامية.
٧. سلسلة انوار السماء في اربعة عشر جزء كل جزء يمثل ترجمة لواحد من المعصومين.

مشايخه في الرواية:

١. أجازه والده السيد علي (رحمه الله) عن أبيه السيد حسن (قدس الله سره) بطرقه المسبوطة في رسالته المخطوطة (بغية الوعاة في طبقات مشايخ الإجازات).
٢. أجازه السيد عبد الحسين شرف الدين (قدس الله سره) بطرقه المعروفة المذكورة في رسالته المطبوعة (ثبت الإثبات في سلسلة الرواة).

عقبه: له من الذكور السيد صالح والسيد صادق والسيد كاظم والسيد محمد والسيد علي.

وفاته وتشييعه ودفنه: كان السيد صحيح الجسم معافى وليس مصابًا بأي مرض مزمن ، إلى أن جاءت سنة ١٩٩١م بويلاتها وقد اطلّع السيد عن قرب على تلك الويلات لأنه كان قد سافر إلى كربلاء المقدسة في فترة حرب الخليج ، ودارت هناك رحى الانتفاضة الشعبانية واستمر القتال لمدة اربعة عشر يوما بلياليها الطوال الثقيلة والسيد يلقن اهله اذا صال المجاهدون أقرأوا (إذا جاء

نصر الله والفتح) ويلقنهم إقرأوا (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) اذا صال الصداميون ثم انقضت تلك الايام بالكيفية التي تعرفونها فاعتلّ من يومها السيد ولم يستقم وضعه الصحي، وتوالت عليه الابتلاءات وتناقصت صحته حتى وافته المنية في اليوم الرابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ١٤١٨هـ الموافق ٢٧/تشرين الاول/١٩٩٧م وقد اعلن في صباح اليوم التالي خبر وفاته على مآذن الحضرة الكاظمية المطهرة وعدة من مساجد المدينة ودعي الناس للتوجه الى المغتسل فاحتشد الناس لحضور التشييع واغلقت المحلات والمتاجر كلياً ، وكان التشييع ضخماً مهيباً يصعب أن يتحقق مثله في مثل تلك الأيام ، وقد أم المصلين على جنازة السيد سماحة سيدنا الأجل السيد حسين بن السيد إسماعيل الصدر (حفظه الله) وبعد تمام التشييع في الكاظمية نقل نعش السيد إلى كربلاء وشيع في كربلاء أيضاً تشييعاً لائقاً ، ثم دفن في المقبرة التي كان قد أمر بشرائها في حياته في الوادي الجديد بكربلاء، وقبورها على هيئة القبور الحجازية.

مجالس الفاتحة:

- أقيمت مجالس الفاتحة في عدة أماكن ، فقد أقامت الأسرة في الكاظمية مجلس الفاتحة لمدة ثلاثة أيام برعاية بيضة البلد سماحة سيدنا السيد حسين بن السيد إسماعيل الصدر (حفظه الله) وذلك في حسينية آل الصدر.
- وبعدها مباشرة أقام سماحة آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر (قدس الله سره) مجلس الفاتحة ثلاثة أيام في مسجد الشيخ الطوسي في النجف الاشرف.
- وفي أثناء المجلس الأول كان السيد صالح (حفظه الله) النجل الاكبر للسيد قد أقام مجلس الفاتحة في الشام في مصلّى الحوزة الشيرازية .
- وأقام سماحة العلامة السيد حسين بن السيد محمد هادي الصدر (حفظه الله) مجلس الفاتحة في مؤسسة دار الإسلام بلندن .

- وأقـام السـيد جعفـر شـرف الـدين (رحمـه اللّه) نجـل الإمـام السـيد عبـد الحسين شرف الدين مجلس الفاتحة في لبنان .
- وأقام السيد احمد الهاشمي صهر السيد مجلس الفاتحة في كندا .

وكل هـذه المجـالس علـى مـا رأينـا أو سـمعنـا كانـت تليـق بمـن أقيمـت لـه وبمـن أقامها.

علي السيد مهدي الصدر

بسم اللّه الرحمن الرحيم

كلمات معدودات تتواضع في ذكرى مهديّ هاد

حسين علي محفوظ

قالوا في هذا البيت العظيم القديم، ان اهله إما عالم مجتهد، او صالح تقي. وهي سلسلة جمعت المراجع الأعلين، والمجتهدين الكبار، والعلماء الفضلاء والادباء البارعين.

تعود صلتنا بهذه الاسرة المجيدة الى اواخر القرن الثاني عشر، ومطالع القرن الثالث عشر، فقد اصهر جدنا الشيخ حسين محفوظ الى هذا البيت قبل قرنين. وجدتنا الكبرى هي العلوية رحمة بنت السيد صالح آل شرف الدين، عمة البيتين من آل الصدر، وهي صلة نعتز بها، ونطعم شذاها.

أدركت السيد حسن الصدر (قدس اللّه سره) وأنا طفل. وتوفي وأنا صغير ابن عشر. وكان بيته دار العلم، ومجمع المراجع والمجتهدين، وكان من أبحر المعرفة، وجبال العلم، وفحولة المؤلفين.

حضرنا مجالس آل الصدر، في بيوتهم، وفي صحن الروضة الكاظمية المقدسة، وقد كانت عامرة بأعيان هذا البيت وكبرائه، وافاضل الكاظمية واماثلها، وكان المرحوم السيد مهدي الصدر من لوامع حاضري هذه المجالس، صاحبناه سنين طوالا، كانت ربيع الزمان، وغرة الايام.

كان (رحمة اللّه عليه) من أمثلة الخُلق العظيم، ومن شواهد مكارم الاخلاق، التي أحبها، ودعا اليها وألف عيون كتبه في موضوعاتها، وهي غرر ودرر، وقلائد وعقود.

كانت مجالس السيد مهدي الصدر من فرائد المجالس في تلك الايام. والمجالس في الكاظمية من اعراف البلدة وتقاليدها منذ القديم، ويمتاز علماء

الكاظمية انهم كانوا يجمعون بين التعليم والتدريس، والموعظة والارشاد، وهو فصل ساطع من تاريخ الكاظمية تناولته في بعض أبحاثي، وقد كان المرحوم السيد مهدي الصدر من امثلته البارزة.

والاهتمام بالاخلاق امر خاض فيه الخواص من السالكين والعرفاء واهل الله، واهتموا به.

هذا ولا بد من الاشارة ايضا الى (حسينية الصدر) وهي من مآثر السيد الكبار، وقد أذن الله ان ترفع، ويذكر فيها اسمه، وهي من معالم الكاظمية ومجامعها المباركة، والشمس تستغني عن التعريف والنهار لا يحتاج الى دليل.

أحيي الكاظمية المقدسة، وأحيي الاخوال الأعزة آل الصدر، وأحيي هذا المجلس الزاهر، الذي تتمشى فيه انفاس السيد القدسية وتعطره نفحاته الطيبة.

كان السيد (رحمة الله عليه) أنموذجا في التواضع، وخفض الجناح، والادب، واللطف، وهي سجايا الصالحين التي كان منبره يشرق بانوارها ويفوح بمعطارها

وسلامة لكم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته....

حسين علي محفوظ

ألقى الكلمة بالنيابة
المهندس الحاج
عبد الكريم الدباغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا نبي الرحمة محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين واصحابه المنتجبين..

اصحاب السماحة والفضيلة العلماء الاعلام..
شيوخ العشائر المحترمين.
الوجهاء...الحضور الكريم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ايها الاحبة.. يتم هذا الاجتماع اليوم لمناسبة الذكرى التاسعة لوفاة علم من اعلامنا ورمز كبير من رموزنا وهو المرحوم سماحة حجة الاسلام والمسلمين السيد مهدي الصدر (قدس الله سره) الذي كانت له الريادة في نشر العلم والفقه والاخلاق في هذه المدينة المقدسة، ويشهد الصحن الشريف والسور المبارك والغرفة التي في اعلى السور على ذلك، هذا العالم الجليل والذي هو من أعلام اسرة آل الصدر، كان قد كرس حياته ووجوده وقلمه لخدمة الاسلام وخدمة العراق وخدمة هذه البلدة الطيبة المقدسة، فكان له بالاضافة الى الدروس الكثيرة والمحاضرات الكثيرة كتبه التي اثرت المكتبة الاسلامية في جانبي العقيدة والاخلاق مما كان لها الاثر الكبير في تربية ابنائنا وشبابنا وكانت ولا تزال مصدرا مهما في هذين العلمين الرئيسيين وكان (رضوان الله عليه) قد طبع خلقه الكريم و اخلاقه الرفيعة ضمن كتاب (اخلاق اهل البيت) وكان قد طبع سمو العلاقة الروحية ما بينه وبين الله ضمن كتاب (اصول العقيدة)، وبعد هذا كله فقد اسس هذا الصرح الشامخ الذي سعى في تأسيسه ليكون حسينية ومدرسة دينية وتكون هذه المؤسسة لخدمة الدين في هذه البلدة المقدسة الكاظمية الحبيبة، وقد بذل هو والكوكبة المؤمنة معه الكثير والكثير من الجهد المتواصل الى أن تمت وكملت وما اجتماعنا في هذا المكان إلا ثمرة

من ثمرات هذه المؤسسة المباركة، رحم الله سيدنا واسكنه الفسيح من جناته، ولنا بأنجاله الاعزاء الفضلاء كل الثقة والأمل على ان يتموا مسيرة سيدنا الراحل (قدس سره) لا سيما سماحة العلامة الحجة ولدنا العزيز السيد علي الصدر (حفظه الله ورعاه) فهو نعم الخلف لخير سلف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

السيد حسين السيد اسماعيل الصدر

القى الكلمة بالنيابة الشيخ نجاح الفتلاوي

كلمة سماحة السيد حسين السيد محمد هادي الصدر (دام ظله)

الحمد لله رب العالمين نحمده في السراء والضراء وحين البأس، والصلاة والسلام على القائد المصطفى الأمين محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه العزيز (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين).

هناك سؤال مركزي يطرح نفسه بالحاح، يقول هذا السؤال: هل ثمة من مؤشرات او معايير نستطيع من خلالها ان نقدم بعض الناس على بعض، وبتعبير آخر هل هناك معايير معينة في الاسلام يتفاضل بها الناس فتبصبح منزلة هذا الانسان اكبر بكثير من منزلة غيره لوجود هذه المؤشرات في شخصيته؟ هل نملك مثل هذه المعايير؟

والجواب: نعم اذا استقرءنا كتاب الله العزيز نجد ان القرآن الكريم يذكر اربعة معايير للتفاضل بين الناس:

المعاير الاول: العلم

المعيار الثاني: التقوى

المعيار الثالث: الجهاد

المعيار الرابع: الشهادة

ويكفي الانسان مجدا وعلوا ان يكون واجدا لمعيار من هذه المعايير، فكيف به اذا اشتمل على اكثر من معيار؟ كيف به اذا اشتمل على ما يقرب من جميعها؟ وهذا هو بالضبط ما اشتملت عليه شخصية سيدنا العم الراحل الكبير العلامة السيد مهدي الصدر (قدس الله نفسه الزكية).

انا حقيقة هنا اتمثل بقول الشاعر العربي، يقول:

اذا نحــنُ أثنينــا عليـك بصــالح فأنـت كمـا نثـني وفـوق الـذي نثـني

ولـولا خشـية ان يقـال ان منطلـق الحـديث يتصـل بخيـوط العاطفـة، ومـا للسـيد العم في وجداننا من مكانة، لكان لنا متسع كبير في القول ولكننا نريد ان يتسم حـديثنا عـن العلامـة العـم (رحمـه الله) بالموضـوعية الصـرفة والبعيـدة عـن المؤثرات العاطفية.

كان رحمه الله واحدا من ابرز علماء الكاظمية العاملين بل كان رائدا من رواد التربيـة والاصـلاح في هـذا البلـد الكـريم، وقـد قُدّر للمتحـدث اليكم ان يعـايش هذه المراحل منذ اكثر من نصف قرن، فكنت ارى انه شغوف بان يضع الدواء الناجع لما يعاينه المجتمع من امراض، المسألة ليست مسألة خطابة، على ان عصره ذاك لم يكن معظم العلماء فيه يتعاطون شؤون الخطابة والمنبر للاسف، وهـذه مـن المفارقـات. ان الحـوزة العلميـة العراقيـة قسـمت النـاس الى صـنفين قسمتهم الى علماء والى خطباء، وهذا لون من الوان الاستكبار، فنهج البلاغة هـو بعـض معطيـات منـبر امير المؤمنين، فـاذا كـان امير المؤمنين فـارس المنـبر فلماذا لا يكون علماء الشيعة في العالم فرسان منبر، ما هذا الاستعلاء؟ ما هذه الفوقية؟ هـذا عـالم وهـذا خطيـب!! اليـوم بحمـد الله (وهـذا مـن مؤشـرات الـوعي) زالـت هـذه الحالـة، اليـوم العـالم هـو عـالم وخطيـب، وهـو فـارس، وهـو معنيٌّ بكل جراح الشعب العراقي، بل بجراح الأمة بأسرها.

كرّس الراحل الكبير العلامة السيد العم المهدي حياته لخدمة الدين، وخدمة هذا البلد الامين وخدمة هذه البلدة الطيبة، وانتهى به المطاف بالمجالس التي كانت تعقد في بيته اولا، ثم في سور الصحن الكاظمي الشريف ثانيا، الى ان ارسى دعائم هذا الصرح، هذا الصرح الشامخ الذي يضمكم فعلا، والذي هو

من أهم الاعمال التي قام بها خدمة للدين وخدمة لمدرسة أهل البيت (ع)، وخدمة للمؤمنين. وهذه القاعة لا تقتصر خدماتها الآن على الجانب الديني فقط وإنما اصبحت محط انظار الكثير من الناس حيث انهم يقيمون فيها مجالسهم، وهكذا وفِّقَ لهذه الصدقة الجارية العظيمة التي قال عنها سيدنا الوالد المرحوم العلامة السيد محمد هادي الصدر مؤرخا هذا الصرح:

حسينية المهدي شُيدت على التُقى لتبقى منارًا للأنام مدى الدهرِ
ودونك فادخل بابَ حطّةَ معلنًا بتاريخها (هذا منارُ بني الصدر)

١٣٨٤هـ

يحق لآل الصدر ان يفخروا بهذا الانجاز العظيم الذي قدّمه الراحل الكبير، وهو انجاز قدمه بأسم الكاظمية وبأسم اهلها.

إن العلم معيار موضوعي يتفاضل الناس به، ولا يمكن ان يقاس الجاهل بالعالم:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(يَرْفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ).

انظر الى موقع العالم يذكر بعد ان يذكر الله تعالى نفسه، ويذكر ملائكته، ثم يذكر أولوا العلم، يقول الشاعر:

لا تُعجبن الجهول حلّتُه فذاك ميّتٌ وثوبُه كفنُ

فالجهل لون من الوان الموت، والعلم هو الحياة، لكن لابد ان تنعكس ثمار هذا العلم على الناس وعلى الامة وعلى المجتمع وهذا ما مارسه (وبكثافة) فقيدنا الراحل، وكانت محاضراته تعنى بالبناء العقائدي لشباب الأمة، وما كتبه في

اصـول العقيـدة إلا انعكـاس لهـذا المنحـى، اضـف الـى ذلـك اهتمامـه بـالالتزام السلوكي بأداء الفـرائض، وأنـا اعـرف مـن التـزم بـالفرائض بعـد الاسـتماع الـى احاديثه المؤثرة، ثم عنايته الكبيرة بالجانب الاخلاقـي والـتي انعكسـت ايضـا ـفي كتابه الشهير الموسوم بـ (أخلاق أهل البيت ع).

ثم نجد ان المعيار الموضوعي الثاني وهو التقوى والـذي تـدل عليـه الآيـة المباركة (إن أكـرمكم عنـد الله أتقـاكم) حيـث تكـون المكانـة والرفعـة علـى مقـدار مـا يتصف به الانسـان مـن تقـوى، ولقـد كـان علـى جانـب عظـيم مـن الـورع والتقـوى والاحتياط، وكان يأخذ نفسه بشدة، ويضـم الـى جانـب التقـوى صـفتين محببـتين كبيرتين همـا الإبـاء والوفـاء، فقـد كـان أبـيّ الـنفس عزيزهـا، ولم يكـن يستسـيغ لنفسـه ان يـداهن احـدا او يجامـل احـدا ـفي باطـل —حاشـاه– حـتى انـي سمعتـه يومـا يقـول بـأن رجـلا جـاءه يقـدم إليـه مبلغـا مـن الحقـوق الشـرعية رفـض ان يتقبل هذا المبلغ، قال لـه الرجل: (سيدنا هـذه حقـوق شـرعية) فأجابـه السـيد: نعم انا أعرف انها حقوق شـرعية، ولكـن مـن الـذي اخبـرك بـاني اقبـل الحقـوق الشرعية من كل أحد، انا اقبل الحقوق الشرعية لكن لا اقبلها مـن كـل احـد، ـفي اشارة واضحة الـى انـه كان يتـنزه، وكـان يحـرص بمقتضـى هـذا المعيـار —معيـار التقـوى– ان يكـون دقيقـا عـاملا بـالورع والاحتيـاط، صـحيح انـه لم يقتـل بسـيف الظالم ولكن صحيح ايضا ان الكاظميـة المقدسـة شـهدت ظـاهرة تجلـت بموقـف علمـين مـن أعلامهـا، همـا العلامـة الشـيخ محمـد حسـن آل ياسـين والعلامـة السيد مهدي الصـدر، لانهما شخّصـا ان الطـاغوت سـوف لـن يـدع الفرصـة تمـر دون محاولة احضـارهما الـى منتدياته ومحافلـه واغراضـه، فتمـت العمليـة بقـرار شخصـي اصـدر السـيد مهـدي الصـدر امـرا بـأن يكـون حبـيس داره لا ينطلـق منهـا لا الـى جمعـة ولا الـى جماعـة، هـو ـفي المنـزل لا يبارحـه وجلاوزة الامـن مـع ذلـك لا يتركونه بل يضـايقونه بـين الحـين والحـين فيقـال لهـم بـان السـيد مـريض، وقـد

يصر بعضهم على الدخول وقد لا يصر آخرون، لماذا هذا القرار الصعب، قرار السجن في الدار؟ لانه آثر ان لا يمكّن الطاغوت من حرف واحد يخدم به كيانه الظالم وأيامه السود، وهذا موقف جهادي عظيم، هذا موقف عال، وهذا الموقف بالذات لم ينفرد به هو، بل شاركه فيه علم آخر من أعلام الكاظمية — اسأل الله ان يمنّ عليه بالعافية والشفاء — وهو العلامة الشيخ محمد حسن آل ياسين، حيث انه ترك ايضا الذهاب الى صلاة الجماعة والحضور في المجالس العامة لكي لا يمكن الطاغوت من حرف واحد يمكن ان يستفيد منه في إحكام قبضته او تبرير جرائمه، اذن هذه الحالة المأساوية صحيح انها لم تنته بقتل مباشر من قبل الطاغوت ولكنها مهدت هذه الاجواء الخانقة التي ادت براحلنا الكبير الى ان يعيش في أشد حالات الضنك والضيق النفسي تمهيدا للانتقال من هذا العالم الى العالم الآخر.

لقد ورد في الحديث الشريف (اذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية او ولد صالح يستغفر له او ورقة علم ينتفع بها) وقد شاء الله ان تكون الصدقة الجارية التي تركها هذا العالم العامل المجاهد صدقة بمستوى هذه الحسينية الشامخة، التي نسأل الله سبحانه وتعالى ان يجعلها مهوى القلوب والأفئدة وحصنا من حصون الاسلام وحصنا من حصون أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الولد الصالح فنجله الاكبر العلامة السيد صالح اسم على مسمى، وهو ليس في العراق الان وانما في سوريا ويعكف على الدراسة والتدريس ويحاضر في الجامعة الاسلامية العالمية، واخوه العلامة السيد علي ناهض بمهماته الرسالية، وهو مشروع رسالي واعد نسأل الله سبحانه وتعالى ان يأخذ بيديه وبيد باقي انجال سيدنا العم الى مرافئ الخدمة والخير والنور.

واما الورقة فهي ليست ورقة وانما هي مجموعة من المؤلفات الثمينة الجديرة بان تقدم الى شباب الامة سواء كانت كتبه في اصول العقيدة: التوحيد، النبوة، والامامة، هذا هو المطبوع منها على ما يعلق بذاكرتي الآن، وكتابه في الاخلاق ايضا، ناهيك عن المخطوطات التي تنتظر النور، وبذلك فان سيدنا المحتفى بذكراه اشتمل على هذه الخصال بأسرها: من صدقة جارية، الى اولاد بررة صالحين، الى كتب علمية تحمل هديه وروحه وعمله الى الاجيال.

نستمطر شآبيب الرحمة والرضون لهذا العلم المجاهد الكبير، وندعو الله سبحانه وتعالى ان يرزقنا وإياكم ان نستضيء بنور سيرته وان نستفيد مما ترك لنا من علوم وآثار.

اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

بسم اللّه الرحمن الرحيم

(المهدي الراحل وذاكرة التاريخ)

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين صلاة دائمة زاكية... قال اللّه في محكم كتابه المبين: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً).. صدق اللّه العلي العظيم

حضرات السادة الافاضل..

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته..

حتى لحظة المساء الاخير من ذلك اليوم التشريني الكئيب كانت نظراته الشاحبة تتجول ولهى في وجوه محبيه ممن تحلقوا حول قلبه المتأهب للصمت. وكأنه تلمس بشفافيته التي لم تجزعْ لهول المنون غلالة الأسى التي غلّفت وجوههم الوجمة الحائرة.

فراحت شفتاه الوهنتان (التي لم تبحْ بالآه) تتمتم ببضع كلمات أجرأها خالصة للحب والوداع كانت آخر ما نضحت به روحه الطاهرة وآخر ما اغتالته يد الردى من على فمه المفعم بالبشر الفم الذي ما لبث مبتسما للموت ابتسامته من قبل للحياة.

وبكلماته الوادعة المؤمنة أسبل فقيدنا الغالي طرفيه للموت راضيا مرضيا فيما كانت الطوالع الغر لانجاله النجباء هي خاتمة ما وقعت عليه مقلتاه (رحمه اللّه برحمته الواسعة).

أجل... أذعن القلب المضرج بالطهر لمشيئة بارئه، وغادرت الروح الحدبة السمحاء الجسد المثقل بأعباء السنين الخوالي لتطوف حرةً طليقة مطمئنة كيمامة بيضاء في رحاب رب غفور كريم.

بيد ان ذكراك (ايها العزيز الراحل) لن تبرح الالسن والضمائر. وان صورتك الألقة لما تزل لصق الحنايا والضلوع، وان سيرتك الحافلة بدرر المأثر وحلو السجايا ستبقى نبراسا على مر الزمن، وان حياتك التي اطفأت أجمل سنيها في تنكب المهمات الصعبة وتحريض الهمم المخلصة وتوخي الغايات النبيلة ستظل (للمقتفين) دليل عمل ومنار طريق.

أيه (أبا صالح) كم كان بمقدورك ان تشفق على مهجتك المسكونة بالوجع من عناء المسير الطويل، وكم كان عليك ان تتمهل في خطوك، وأن لا تغال في مطمحك، وان ترخي شيئا من قبضتك وان تترجل و(العمر في خريفه) قليلا عن صهوتك فأذا بك تفني مهجتك وعُدّتكَ ذبًّا عن المبادئ وقراعًا عن الأرث وصونًا للغروس المباركة التي وضع (اجدادك الميامين) طيب الله ثراهم أوزارها على عاتقك، فهالك وأنت في معترك الواقع المرير ما عايشته من تداعيات الظروف.

وأهتراء الاوضاع وطغيان الاوغاد من زبانية البعث المنهار وهم يستهدفون الشرفاء اصحاب الاقلام النبيلة والكلمة الواعية والهدي القويم بالويل والثبور.

ولكنك لم تلو جيدا لصعلوك ولا مددت يدا لجلواز ولا حابيت فئة على حساب القيم العليا ولا اهدرت مبدأ سعيا لمصلحة او ابتغاء لغانمة.

لقد آثرت (سيدي) ان تعتزل الناس وتدعي السُقم مضطرا وان تنزوي في بيتك متقلبا بين اهليك وكتبك لتتفادى ملاقاة الظالمين وتتقي شرورهم وتتدرع من خبثهم وغدرهم صابرا محتسبا مستغرقا في تأملاتك مكبا على بحثك وتقصيك وتأليفك.. حتى سالت من بين انامك المبدعة روائع المؤلفات في

مقدمتها أصول العقيدة في التوحيد والعدل، وأصول العقيدة في النبوة، وأصول العقيدة في الإمامة، وهو مخطوط، وأصول العقيدة في المعاد وهو مطبوع على الآلة الكاتبة، ومجلد ضخم في أخلاق اهل البيت دُرس في مدارس قُمّ الدينية وفي الجامع الأزهر بمصر.

يضاف اليها كتاب فلسفة العبادات الاسلامية وهو مخطوط وسلسلة أنوار السماء في اربعة عشر جزءا يمثل اربعة عشر معصوما وهو مخطوط أيضا.

وان ينسى الكاظميون فلن ينسوا منبرك الرائد ضحى كل جمعة وهو يتصدر دار ابيك الحجة في (القطانة). ثم وهو يتوسط مثوى اجدادك الجهابذة الراقدين في حجرتهم بالصحن الكاظمي الشريف ثم في اعلى سوره من جهة باب المراد. وكيف تقاطر عليه شُغاّفُ وعظك وحُفّاظُ درسك حتى قال الحوماني عنه في كتاب (من يسمع): (ولو ان المجالس التي تبلغ الملايين في أبهاء المسلمين تستمع الى مثل هذا الخطيب التقي الفهامة لما انحط المسلمون الى هذه الهوة)، وقد تطرق سماحة العلامة السيد عبد الله شرف الدين نجل الامام عبد الحسين شرف الدين قدس سره واصفا: (اما في الخطابة والوعظ فله القدح المُعلى والمقام الأسمى يجذب قلوب سامعيه بطلاقة لسانه ومن بيانه يدخل كلامه ونصحه في الاعماق فيكون له ابلغ الاثر في النفوس).

ولابد ان تتناسل في ذاكرة المفجوعين لرزئك من رهطك وبني بلدتك فرائد امامتك لهم ظهرا في مسجد الترك ومغربًا في صحن قريش ثم انتقالتها الى فضاء هذا الصرح الحسيني الفسيح الذي استمد فصول تطوره وعوائد نمائه من رحيق فكرك ونزيف جهدك وثمرة دأبك وحصيلة جهادك ونفحات ايمانك. لكي يكون مثابةً للعلم وموئلاً للهدي ومنتدىً لرواد الفضل وملتقى لأهل الحل والعقد في مدينة جدك موسى بن جعفر (عليه السلام).

ويجدر بنا ان نستحضر بكل إجلال مبادرتك المباركة باستنقاذ مكتبة جدك الامام الحسن (نور ضريحه) من براثن الزمن الغادر، حيث اودعتها في قاعة افردتها خصيصا لهذا الغرض في هذه الحسينية فيما تحرزت على مؤلفاته الخطية متحينًا سنوح الفرصة الملائمة لتخرج الى الناس بالصورة اللائقة وكان مقدرا للمكتبة حينذاك ان يكون بمتناول ايدي الباحثين وطلبة العلم لينهلوا من كوثرها العذب بالذي اليه يبتغون ولكنها العاديات وتعاقب الصروف هي التي حالت دون ذلك.

ايها الحفل الكريم.... وعرين عمنا المهدي (كما ترونه) لم يقم إلا للعمل الاسلامي المحض ومنبره لم ينهض الا لنشر الفضيلة ولسانه لم ينطق إلا بالكلم الطيب والحق المبين وإزاره لم يشد الا على ورع وتقى ومعروف.

حقا ان ما تجشمه (رحمه الله) في اعلاء هذا الصرح من أعباء وأزمات كان شديد الوطأة وعزاؤه انه كان دائم التطلع الى الدور الذي سيلعبه في مقبلات الايام.

حتى ذوى جسده الطاهر وجفت عروقه وتداعت اعضاؤه واجبر خافقة الوهن على ان يستريح على سرير المرض.

بيد ان نبضك (سيدي) يؤرشف حياة ما صيغت إلا على نحو متفرد وهدير صوتك هو صدى التاريخ يحكي اسرار رسالتك في الحياة وبوح قلمك وسطوع بيانك وثاقب حجتك تذكرنا برجال الرعيل الاول.

ترسمنا خارطة العراق فألفيناها منقوشة على جدار قلبك وتقصينا محيط الاسلام فوجدناه موثوقا حول خاصرتك وتقنا الى واحة سماحتك فتذوقنا نكهة الألفة الحقيقية.

وحسبنا من استذكارنا لرحيلك في هذا اليوم انك قيضت لنا من حملة إرثك وورثة فضلك من لا يدعوا (بعونه تعالى) قاصيا ودانيا الا وأفردوا له نصيبا من حقل ودادك الزاهي او سقوه شربةً من شهد محبتك الصافية.

وانك قد رسمت للجيل معالم الطريق الصحيح وزرعت فينا قيما وأرسيت لنا أصولا لن تفلت من ايدي الخيرين من بعدك. ولئن انفذت الحتوف فيك سهاما وغيبك الثرى عن أعين محبيك فانك (وأيم الحق) لحاضر بيننا صباح مساء.

تخف معنا لصلاة الفجر ونحتسي سوية شاي الصباح وترقب خطونا في دروب الحياة وتشد من عزمنا اذا ما أزرى بنا المسير واخذت بنا الاخطار، وستستوطن ذكراك (ايها العم الراحل) خواطرنا ضوءا يلمع في الاحداق وزهوا يأتلق في الحنايا ومنارا يهدي الى السعادة وزهرا وآسا يورق في الضمير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

حبيب محمد هادي الصدر
بغداد ٢٢/تموز/٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أصاب الكاظمية ما أصابا ... وجرّعها شقيٌّ العصر صابا
تتبّع ثلّة الأخيار قتلاً ... ومال الله نهبًا واغتصابا
فأطبقت الحناجر في بلادي ... ولفّ الثأر رايته وغابا
وظل الصدر معتكفًا بركنٍ ... وتنزو فوق منبره الذّنابى
جفا عشّاقه عشرين عامًا ... وقد يستوطن السيفُ القرابا
ولكنّ الغمام وإن تمادى ... فإنّ الشمس لا تخشى السحابا

أمطْ عن موطني صدأ الليالي ... وكفكفْ عن محاسنه الترابا
وسلْ عهدًا أعار الدهر عقدًا ... وفكرًا ألهمَ الدنيا صوابا
يجبك العصر بعد العصر عنها ... ومن أحرى من الدنيا جوابا
على قطبين كم طحنتْ قرونًا ... وأسقت أهلها عسلاً وصابا
وضمّ صعيدُها ملكًا وعبدًا ... سواء في أديم الأرض ذابا
وربّ مغامر نبذته صفرًا ... ومغمور تملكها حسابا
فكانت أعدل القاضين حكمًا ... وأنزلهم بمجرمها عقابا

مدينتيَ العريقةَ أيُّ دفءٍ ... يذكّرني الترائب لا الترابا
فما أمٌّ كمثلك أرضعتني ... محالبها رحيقًا مستطابا
بحبّ الآل يعبق كل حينٍ ... فيكلؤني ويملأني شبابا
روى عطش السنين وقد تداعتْ ... ليحملني الى الدنيا كتابا
ويرفعني دعاءً مستجابًا ... يقرّبني من الملكوت قابا

أحـــنُّ ومـــاء دجلـــة في عروقـــي يحـــرّكُ في دمـــي موجًـــا عُبابـــا
يعيـــد الكاظميـــة وهـــي جـــذلى بســـــــــادتها ولاءً وانتســـــــابا
أجيـــلُ الفكـــر مـــن صـــدر لصـــدرٍ واستقصـــــي المنـــابر والرحابـــا
ومـــــن أفـــق الى أفـــقٍ صـــعودًا ومـــــن بلـــد الى بلـــد طلابـــا

مـــن الهـــادي الى المهـــديّ جيـــلٌ شـــأى للمجـــد فـــاختزل الحســـابا
صـــدور أُفعمـــت ورعـــا وعزمًـــا واخـــرى أغنـــت الـــدنيا كتابـــا
فســـل عبـــد الحســـين إذ اشـــرأبّتْ لـــه الأعنـــاق وهـــو يلـــي الصـــعابا
مضـــــى والكاظميـــــة في دمـــــاه وإن منحتـــــه لبنـــــانٌ ثيابـــــا
وذاد عـــن الحمـــى فســـقى فرنســـا زعافًـــا بـــئس مـــا سُـــقيتْ شـــرابا
أبـــاحوا داره فالـــــدار نهـــــبٌ ولكـــــن ضـــــلّ ســـــعيهمُ وخابـــــا
(فصـــولاً) بثهـــا (ومراجعـــات) أحاطـــت كـــل مســـألة جوابـــا
نفـــتْ عـــن جملـــة التـــأريخ قشـــرًا وأهـــــدت للملايـــــين اللبابـــــا
فـــأزهى منـــه أزهرهـــا رياضًـــا ونـــور الشـــمس يكتســـح الضـــبابا

وتأريخًـــا طـــواهُ محمـــــدوها مصـــــابيحًا وآســـــادًا غضـــــابا
تصـــدّر مجلـــس الأعيـــان صـــدرٌ فقـــاد الجمـــع قدّيسًـــا مُهابـــا
وربّانًـــا وفُلـــكُ القطـــر تجـــري بحكمتـــــه وتختـــــرق العُبابـــــا

وقـــوّض فلســـفاتِ الكـــون صـــدرٌ وطـــاف بشـــرقها ونـــأى اغترابـــا
بـــنى (أسُسًـــا) و(فلســـفةً) فطـــارتْ بســـــائر فلســـــفاتهمُ ذُبابـــــا
وفـــضّ الإقتصـــاد فكـــان غثًـــا وعـــاد لشـــرعنا فجلـــى الصـــوابا
وألـــف في (اقتصـــاد الـــدين) ســـفرًا وجـــدّد للشـــريعة منـــه بابـــا

ولمــا أن أحــس البغــيُ عصــفًا … يكــاد يُحيــل بُنيَتَــهُ خرابــا
تجســد كاســرًا وانقــضّ وحشًــا … وأنشــب في الهــدى ظفــرًا ونابــا
مضــت (بنــت الهــدى) ومضــى أخوهــا … ومثلهمــا مــتى دُعيــا أجابــا
غــداة تمــثّلا نجفًــا أبيًّــا … وعزمــا كاظميًّــا لــن يهابــا
فــرى ليلاءهــا وأبــان فجــرًا … حســينيًا أعــدّ لــه خضــابا
تقــدّم أوّلا وتــلاه ثــانٍ … ليحــدُث في المعادلــة انقلابــا
أحــال قــرارهم رُعبًــا وألقــى … بصــقر القــوم مــن رهــب غرابــا
وصــبّ الشــعلتين لهيــب نــارٍ … وكوفانــا وأنــذرهم عــذابا

حملــتُ الكاظميــة وهــي أمــي … رؤىً تنســابُ في دمــيَ انســيابا
أرى الــدنيا تلــوذ بســاحتيها … وشمــس القــدس تحتضــن القبابــا
سُــباعيا ينــوء أبي بحملــي … يســدّدني ويلهمــني الصــوابا
مــع (المهــديّ) وهــو يُنــير جــيلاً … فــنملأ مــن معارفــه العيابــا
نصــلي المغــربين صــلاة جمــع … ونصــغي الــوعظ منــه والخطابــا
ونحيــي الليــل في رمضــان ذكــرًا … الى أن يــؤذنَ الســحرُ اقترابــا
أيــا أبنــاء بلــدتيَ الغيــارى … أرى في البلــدة اليــوم العجابــا
أرى موتــا يــدبّ بهــا بطيئًــا … وأنــتم مــن يعيــد لهــا الشــبابا

رحلــت أبــا علــيّ والمنايــا … مصــيباتٌ مؤجلــةٌ كتابــا
أجبــت وزادك التقــوى نــداءً … وغــادرت الحمــى أنقــى ثيابــا
وخلّفــتَ المنــازل شاخصــات … مــع الــذكرى يجــددن المصــابا
وأنفاسًــا لرحلتنــا وقــودًا … إذا جــدّ الســرى رفــد الركابــا

(أصولا للعقيدة) كنّ سيفًا ... على زمن من الإلحاد نابا
وآثارًا تركت لنا صنوفًا ... مناهلَ رقَّ موردها عِذابا

ذكرتكَ والمدى يُرخي ضبابا ... وصدق الود قد يجلو الضبابا
(بعقد السادة) استوقفت قلبي ... فحيّا القلبُ (تحت الطاق) بابا
طرقناه لمعضلة ألمّتْ ... ومسألة نروم لها جوابا
ندبنا صدرها (المهدي) فلبّى ... وخاض غمارها حَكَمًا مجابا
على الصحن الشريف أقام حفلاً ... وكان قضاؤه فيها صوابا

وقالوا لم يمتْ عَلَمٌ رسمنا ... له صورًا وحنّطنا كتابا
فقل ما قيمة العِلم المسجّى ... على الأدراج يلتحفُ الترابا
سيشرق عمرُهُ الثاني اذا ما ... تعهّدْنا المنصّةَ والخطابا
وجددنا لهذا الصرح روحًا ... وجاوزنا الحواجز والصعابا
لقد مرّت بنا حقبٌ عجاف ... حُرمنا ماءها حتى السرابا
أليس الداء ان نحيا ظماءً ... ونختم في القوارير الشرابا
ألم يأنِ الربيع فتمطروها ... فإن ربوعنا أمست يبابا

على مهديّها أسفى ولكنْ ... أرى في الفرع مهديًّا شبابا
ومثل ابي عليّ ليس يُنسى ... وإن واراه أهلوه الترابا
جزاه اللّه عنا كل خيرٍ ... وأحسن في الختام له المآبا

محمد سعيد الكاظمي

(حييتُ ذكراك)

في الذكرى السنوية التاسعة لرحيل العلامة السيد محمد مهدي الصدر (ره)

حييــتُ ذكــراك في فكــري وفي قلمــي ... يــا مــنهلا ســائغا عــذبا لكــل ظمــي

ورحــت انثرهــا نثــر النجــوم علــى ... أديم فجــر نــدي الزهــر مبتســم

بــل رحــت اســترق الألفــاظ عــل بهــا ... أُحصــي مفــاخر بيــت الطهــر والقــيم

واســتعيد مــن الــذكرى مواقفــهُ ... فواحــة بعمــيم اللطــف والهمــم

فقلــت ايّ ســفين أســتقل ومــا ... أُحصـي مـن الفضـل بل مـاذا يقـول فمـي؟

مــا إن تفيــأت في ظــل "بكاظمــة" ... الا وهدهــدني حلــم "لــذي ســلم"

ومــا ترنمــت في الاســحار منتشــيًا ... إلا وصــاح بي الاصــباح لا تــنم

وانشـر علـى الشـفق المحمـر طيـف هـوىً ... يســري لربــع تــراث مشــرق فخــم

وليــت تســعفني في القــول قــافيتي ... وليــت يبلغــني مــا ابتغــي حلمــي

مــن "غــار حــراء" أم مــن ليلــة شــرفت ... علــى الليــالي بمســرى "ســيد الأُمــم"؟

أم مــن مبيــت "علــي" عنــد مربضــه ... والشــرك ملــتحمٌ ســاقا علــى قــدم؟

أم مـن دمـاء جـرت فـوق الطفـوف بكـت ... لهــا عيــونٌ الــورى مصــحوبة بــدم؟

نعــم البيــوت الــتي بــالنص طهرهــا ... قــدمًا مــن اختارهــا بــاللوح والقلــم

يبقــى تــراث "أبي الزهــراء" بيــنهم ... تــراث "يعقــوب" في " الأســباط" والــرحم

حــتى نــرى رايــة " المهــدي" عاليــة ... بــين " المقــام" وظــل " الــركن" و" الحــرم"

قــوم بنــت للهــدى والــوعي أذرعهــم ... قواعــدا قــد رعاهــا بــارئ النســم

"صــدرٌ" طــوى بــين أضــلاع لــه شــرعا ... يزينهــا "شــرف" بــالحلم والحكــم

وزادهــا "حســنٌ" علمــا وتضــحية ... ومــا بنــت كــف "إسماعيــل" مــن شــيم

ومــن رعــى "ثــورة العشــرين" ســاعده ... ووحــد الصــف في فعــل وفي كلــم

نــالوا المفــاخر والأيثــار رائــدهم ... حفــظ الشــريعة مــن زيــغ ومــن تُهــم

مــا بــين "هــاد" و "مهــدي" سمــا شــرفًا ... "وبــاقر" و "جــواد" "صــادق" فهــم

ومــن "تعــانق والبــدران" زانهــم ... تــاج الشــهادة حــتى ضــرجوا بــدم

رأوا شــريعة "طــه" تشــتكي ظمــأً ... والنــاس مــا بــين مقتــول ومنهــزم

فقارعوا الموت كي يحيوا بصولتهم ... شريعةً دُنست من غاشم نهم

حتى هووا كالجبال الراسيات على ... بحر لجي بعاتي الموج ملتطم

وسوف تبقى الدماء الزاكيات هدىً ... للثائرين تروي الارض كالديم

وداره الحوزةُ الكبرى ممنعة ... كالشمس تمنحنا نورا مع النعم

يضل "جبريل" مفتونًا يطوف بها ... عبر العصور طواف الحاج بالحرم

مبادئ سنها "طه" وأطرها ... حب "الوصي" وغذوها أُولو الشيم

حييت ذكراك رغم الهم والسقم ... وما رمتني به الأيام من حمم

إذ أن نبع الولا بالصبر يرفدني ... والحب يوقض من عزي ومن هممي

فجئت أحمل أحزانا بسطت لها ... كفي على خافقي من شدة الألم

أرثي فقيدا تسامى عزةً وإبًا ... "أبا علي" وهل يرقى له كلمي

أرثي السماحة والأحكام تصدر عن ... صدر حوى علم "صدر الدين" عن أمم

حيث التقى والنقى والصالحات وما ... بنت أئمة خير العرب والعجم

إن غبت عنا ستبقى بين اظهرنا ... وإن رماك الردى نارًا على علم

كذا " العقائد" للأجيال مدرسة ... تروي عقائد "أهل البيت" للأُمم

والبيت يبقى " عليا" يُستضل به ... والشمس تمنح آيات من النعم

★ ★ ★

يا وراثًا مجد "إسماعيل" لا خليتَ ... منك الديار ودم للعلم والكرم

تضل دارة "موسى" مربضا لكم ... وللجهاد كما كانت من القدم

تزهو بطلعتك الغراء باحتُها ... وطود عزمك في الآفاق كالهرم

قُصّادها والولاء المحض رائدهم ... ما بين منتجع فيها ومعتصم

وأنت باقٍ منار الوافدين لها ... واسمًا على جبهة العليا "لخير سمي"

★ ★ ★

يا شعب يا وارث الأمجاد معذرةً ... اذا عتبت بقلب فاض بالألم

فيما التخاصم والأعداء ترقبنا ... تُحيك مجزرةٌ شوهاء في الظلم

ونحن ما بين مفتونٍ بنزعته ... وطالب عظةً من غير مُلتزم

والنار تسري ووقاد تسير بها ... لفتنة خوضها يُفضي الى الندم

حتى كأن "بني الهادي" سفينتهم ... من سار في ركبها الميمون قيل عمي

ومن يناصر أصحاب الرسول له ... نارٌ مؤججةٌ في مرتع وخم

والحق من قال هذا او يروجهُ ... عن الكتاب ودين الله في صمم

فلنضرب الحقد في سيفٍ وفي قلم ... والنار نطفؤها من مصدر الضرم

وهاكم رغم كُثر العاديات يدي ... بيضاء تمنحكم ودي مع القسم

⋆ ⋆ ⋆

⋆ ⋆ ⋆

السيد علي الحيدري

٢٠٠٦/٧/٢٢م

أصـول العقـيدة

الجزء الأوّل

في

التّوحيد والعدل

بقلم

السّيّد مهدي الصّـدر

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

﴿إنّ ٱلّذِينَ قالُوا رَبُّنا ٱللهُ ثمّ ٱسْـتَقامُوا تَتَنزّلُ عَلَيْهِمُ ٱلملائِكَـةُ ألّا تَخافُوا ولا تَحْزَنوا وأبْشِروا بالجَنّـةِ ٱلتي كُنْتُم تُوعَـدون * نَحْنُ أولياؤُكُم في ٱلحياةِ ٱلدُّنيا وفي الآخِرَةِ ولكُم فيها ما تَشْتَهي أنفُسُكُم ولكُم فيها ما تَدَّعُون * نُزُلاً مِن غَفُورٍ رَحِيمٍ * ومَنْ أحْسَنُ قَوْلاً مِمّن دَعا إلى ٱللهِ وعَمِلَ صالِحاً وقالَ إنّني مِنَ ٱلمُسْلِمِين ﴾ .

(فصِّلت / ٣٠ ـ ٣٣)

﴿إنّ ٱلّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ أولئكَ هُمْ خَيْرُ ٱلبَرِيَّةِ * جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالِدِينَ فيها أبَداً ، رضيَ اللهُ عنهُمْ ورَضُوا عَنْهُ ، ذلكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

(البيِّنة / ٧ ـ ٨)

المقـدّمة

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

يحتلّ عِلْمُ التوحيد مركزَ الصّدارة بين العلوم، لجلالة موضوعه، وسُموِّ غايته، وخطر شأنه في دنيا العقيدة والإيمان.

لذلك دأب العلماء المسـلمون على تدوين أسـفاره، وتنسيق أبحاثه، وعرضها بأُطُرٍ وأساليبَ مختلفةٍ باختلافِ العصور والأذواق.

ومن الواضح أنّ أسفارَ العقيدة مُحاطةٌ بركامٍ من الألفاظ والمصطلحات العلمية الغامضة، ممّا يعيق الكثيرين من اجتناء ثمارها والإفادة منها.

وغدوا يلتمسون مَنْ يؤنس وحشتها، ويسلس قيادتها، ويخرجها بأسلوب شَيِّقٍ يستهوي النفوس ويغريها بالبحث والتتبُّع.

وكنتُ ممّن استـشعر ضرورة الاضطلاع بهذه المهمّـة، ورغبَ في تحقيق تلك الأمنية، فتطوّعتُ بهذا المجهود المتواضع عسى أن تجد فيه الجماهير الواعية بعض تلك الأماني.

ويحسن بي التنويه عن محتوى هذا الكتاب: أنّه لم يوضع للمتضلِّعين في علم الكلام، وإنّما وُضِعَ لتثقيف الجماهير المؤمنة وتركيز عقيدتها، وتزويدها بالقدر الممكن من المعارف الدينية.

من أجل ذلك، فقد جَهِدْتُ ما ٱستطعتُ في تجنُّبِ المفاهيم الفلسـفية الغامضة والمصطلحات العلمية المبهمة، ليستشعر القارئ ـ وهو يطالع الكتاب ـ أنّه يسـير في رحلة فكرية شيِّقة لا وصبَ فيها ولا عناء.

فيجتلي طرفاً ممتعاً من صنوف المشاهد والروائع الكونية من عالم السماء وعالم الجوّ وعالم الأرض، إلى عوالم الإنسان والحيوان والنّبات، مستعرضاً تلك المتاحف الإلٰهية المدهشة، الزاخرة بآيات القدرة والإبداع.

ويشهد فيما يشهده خلال هذا الكتاب، فصلاً يهزّ الوجدان ويستثير المشاعر، حيث يرى صراعاً فكريّاً بين معسكرين لا يفتآن عن الصراع مدى الحياة.

ذٰلِكُم هما: معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، في صراعهما بين الحقّ والباطل، والإيمان والكفر، فيجتلي آنذاك قوّة الإيمان وعزّته وانتصاره، إزاءَ وَهَنِ الكفر وخِسَّته واندحاره، ممّا يضاعف غِبطة المؤمن واعتزازه بإيمانه.

وما أن ينتهي المطّلع من هذا الفصل، حتّى يجد حقلين آخرين يعتبران مركز الثّقل من العقيدة، وهما، التوحيد... والعدل... ليرى فيهما خلاصات مختارة لأهم أبحاثهما وأشدّها ضرورة في عالم العقيدة والإيمان.

ورجائي من الله عزّ وجلّ أن يجعل هذا المجهود المتواضع، خالصاً لوجهه الكريم، وفائزاً بشرف قبوله ورضاه. وأن ينفعني به وإخواني المؤمنين، ويثيبني عليه يوم الدِّين ﴿**يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلّا مَنْ أتىٰ اللهَ بقلبٍ سَليم**﴾، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل.

العراق ـ الكاظمية

مهدي السّيّد علي الصّدر

مقدّمة الطبّعة الثالثة

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

وُلِدَ هذا الكتاب في ظرف مكفهرّ صاخب بالغزو الفكري، والمفاهيم الإلحادية الوافدة الّتي افتتن بها الأغرار والجهلاء، وأدّت بهم إلى الضّياع والشّقاء.

وانخدع أولئك الأغرار بالأفكار الزائفة، وراحوا يتلقّفونها تلقّف الببغاء دون وعي وتمحيص في أهدافها الماكرة وواقعها الرخيص، واغتبطوا بها اغتباط مَنْ أصاب كنزاً ضخماً، أو حقّق فتحاً علميّاً.

وقد عزّ على قادة الفكر الإسلامي أن يشهدوا انحراف تلك الفئات المخدوعة بتيّار التهريج والتضليل ما أذهلها عن تطلّعاتها السامية، واسترداد أمجادها العريقة الشامخة، الّتي ما برحت تتضوّع أرجاً وطيباً، وتشعّ سناً وسموّاً.

من أجل ذلك تطوّع المفكِّرون من أنصار الإسلام في تأليف أبحاث وأسفار في التوحيد، تجلو واقع الإيمان، وتعرض دلائله وبراهينه عرضاً علمياً رائعاً، يعزِّز قيمه، ويحبط الشّبهات المثارة حوله، ويحميه من كيد الغواة والمضلِّلين.

وهذا الكتاب إسهام متواضع ومشاركة بسيطة في تلك الأبحاث الرائدة والجهود الفكرية في دعم العقيدة ومناصرة الإيمان، آملاً أن يحقِّق الغاية المنشودة منه، ويؤدِّي دوره المرجوّ في تصعيد الوعي الديني، وتركيز مفاهيم الإيمان، ونشر مُثُله، واسترفاد مُعطياته.

طُبع لأوّل مرّة في النجف الأشرف ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، وبعد نفاده طُبع ثانية في بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، قبل أن يتسنّى لي تجديد العهد به وإعادة النظر فيه.

ولمّا نفدت الطبعة الثانية، وحاولتُ استعادة طبعه، عدتُ إليه محقِّقاً ومدقِّقاً فيه، فعزمتُ على توسيع أبحاثه، واستكمال مواضيعه، فأضفتُ إليه أبحاثاً جديدةً مهمّةً، وطعّمتُ محتوياته بطرائفَ وأفكار علميّة حديثة، فخرج ـ كما يراه القارئ الكريم ـ أكثر تكاملاً، وأوفر جدوى وعطاءً.

فمن المفاهيم المزيدة في هذه الطّبعة:

ـ عالم الأرض وما تجلّى عليه من روعة الإبداع، ودقّة الصّنع، وآيات الحكمة والتدبير.

ـ بحث (الحُسْن والقُبْح العقليّين) الوارد في بحث العدل.

ـ طروحات جديدة واسعة في مناقشة دارون وتفنيد نظريّته.

ـ توسيع أبعاد مناقشة المادِّيِّين ونقض براهينهم وإحباط مزاعمهم.

ـ تكثيف الشواهد والدلائل المعروضة في بحثَي العدل والتوحيد، وتعميق وتوسيع مضامينها.

مراعياً في تلك الإضافات أن تكون ملائمة ومواكبة لخطّة الكتاب، ومستواه الفكري، ونهجه المرسوم. راجياً من المولى عزّ وجلّ القبول والرِّضا، إنّه أرحم الرّاحمين.

مهدي السّيّد عليّ الصّدر

الفِطْـرة

﴿فأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفاً، فطرةَ اللهِ الّتي فطرَ النّاسَ عَليها، لا تبديلَ لخلقِ اللهِ، ذلك الدِّين القَيِّم﴾

القرآن الكريم

«كلّ مولود، يُولدُ على الفِطْرَةِ، حتّى يكون أبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه».

الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم

فُطِرَ الإنسان على حبِّ الاستطلاع، والتعرّف على حقائق الأشياء، فهو لا ينفكّ دائباً في اكتشاف أسرار الحياة، والتوصّل إلى كنه ما يحيط به من الكائنات. وبهذه الغريزة الاستطلاعية قطع الإنسان أشواطاً بعيدة في العلوم والمعارف، وترقّى في مدارج المدنيّة، وأحرز ما أحرزه من الاكتشافات والمخترعات.

وبهذه الغريزة نفسها توصّل إلى الإيمان بالله، ونال شرف العقيدة بالله، ذلك أنّه يُدرِك بفطرته السليمة أنّ كلّ معلول يستلزم علّة توجده، وكلّ مصنوع يتوقّف على صانع، وأنّه يستحيل ـ بحكم العقل والبداهة ـ وجود معلول من غير علّة، ومصنوع من غير صانع.

أدرك ذلك ثمّ تطلّع في رحاب هذا الكون وآفاقه الفسيحة، فرأى في صفحاته المشرقة آيات الخلق، وروعة الإبداع، ودقّة النظام وحكمة التدبير، ما جعله يوقن بفطرته أنّ لهذا العالم خالقاً عظيماً ومدبّراً حكيماً، لاستحالة وجوده من غير موجد.

وبهذا الشعور الفطري آمن الإنسان، وكلّما ازداد وعياً وشعوراً بأسرار الكون وخصائص عناصره، ازداد إيماناً ويقيناً.

والإيمان كما هو فطري في البشر، كذلك هو ضرورة إنسانية.. وحاجة نفسية مُلحّة، لا يستغني عنها كلّ فرد، لأنّ النفس تصبو إلى العقيدة، وتهفو إليها لرسوخ الحاسّة الدينية فيها، فإن ظفرت بها أحسّت بالطمأنينة والرّخاء، وإن خسرتها شعرت بالقلق والعناء.

ذلك لأنّ الإيمان يشحن النفس ويمدّها بطاقاته الروحية الضخمة الّتي يستلهمها المؤمن ويستمدّ منها القوّة ومضاء العزيمة والجَلَد والثّبات في خوض غمرات الحياة ومعاناة أزماتها الخانقة، لإيمانه بلطف الله تعالى، وحكمة تدبيره، وسموّ عنايته ورعايته في سائر ظروفه وأطواره، فيجد لذلك من راحة الضمير وطمأنينة النفس ما لا يستشعره الملحد لخسرانه نعمة الإيمان بالله والتوكّل عليه.

فلولا الإيمان بالله وحسن عزائه وتسليته للمنكوبين في الحياة، لقضى الإنسان همّاً وكمداً، فَمَنْ يُسلِّيه عن معاناة ضروب الأرزاء والظُلامات غير إيمانه بالله ورجائه منه أن يكافيه في الحياة الآخرة ما يُعوِّضه عن آلامه العاجلة، فيسعد هناك في دار كرامته متمتِّعاً بما اشتهت نفسه ولذّت عينه، من جنّات ونعيم خالِدَين.

«ولولا الإيمان بالله لكان الإنسان أسوأ حظّاً في الحياة، وأدنى رتبة من البهائم والحشرات.

فالبهائم تجوع كما يجوع الإنسان، ولكنّها في نجْوة من همِّ الرِّزق وكرب الحاجة وخوف الفقر وذلّ السؤال.

وهي في أجسادها تلتذّ كما يلتذّ الإنسان، وتألم كما يألم، ولكنّها في راحة ممّا يأكل القلوب، ويقرِّح الجفون، ويقضّ المضاجع: كالحسد والكذب والنميمة والنِّفاق والخيانة والعقوق ونكران الجميل.

وهي تعرف بنوع من الإدراك ما يضرّها وما ينفعها، ولكنّها في نجْوة من أعباء التكليف، وأثقال الأوزار وكرب الحيرة وعذاب الضمير.

وهي تمرض كما يمرض الإنسان، وتموت كما يموت، ولكنّها في راحة من التفكير في عُقبى المرض: فِراق الأحباب، وسكرات الموت، ومصير الموتى وراء القبور.

أمّا هذا الحيوان الفيلسوف الضعيف، الجزوع المطماع الفخور المترف المتكبِّر الّذي لا يأتيه شقاء الحياة إلّا من تفكيره، فإنّه لا علاج لشقائه إلّا بالإيمان.

فالإيمان هو الّذي يقوِّيه، وهو الّذي يعزِّيه، وهو الّذي يرضِّيه وهو الّذي يجعله إنساناً يسعى إلى مَثَله الأعلى.

ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق، وأسوأها حظّاً، وأعظمها شقاءً، وأشدّها بلاءً، وأحطّها رتبة، وأرذلها مصيراً»[١].

من أجل ذلك، فقد أدرك علماء النفس أهمية الإيمان، وعظيم أثره في إسعاد النفوس وتزويدها بالصّبر والثّبات، فطفقوا يدعون إليه رغم تباعد الكثيرين منهم عنه.

قال ديل كارنيجي في كتابه «دَع القلق وابدأ الحياة»:

«إنّ أحدث العلوم وهو الطّبّ النفسي يبشِّر بمبادئ الدِّين، لماذا؟... لأنّ أطبّاء النفس يُدركون أنّ الإيمان القوي والإستمساك بالدِّين والصّلاة كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتّر العصبي، وأن تشفي أكثر من نصف الأمراض الّتي نشكوها».

وقال أيضاً: «تدلّ الإحصاءات في أمريكا على أنّه، في كلّ خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار. وفي كلّ مائة وعشرين ثانية يُصاب شخص بالجنون، ومعظم حوادث الانتحار وكثير من حالات الجنون على الأرجح يمكن أن يُقطع دابرها إذا أصاب هؤلاء الناس شيئاً من الأمان والإطمئنان، وسكينة النفس الّتي يجلبها الدِّين وتجلبها الصّلاة».

---

(١) قصّة الإيمان، للشيخ نديم الجسر، ص ٤٤١، بتصرّف واختصار.

وقال و. ج. ماكبريد في كتابه (عدوّك الأوّل الخوف):

«ويُدرك علماء النفس اليوم عظيم أثر الدِّين الصحيح في تزويد الرِّجال والنِّساء بالجَلَد والإيمان الضّروريين لتحمّل تحدِّي الحياة وتلقِّي سهام الحظ الغشوم.

وهناك اعتقاد يتعاظم على الأيام، بأنّ كثيراً من التوتر العصبي الّذي يمتاز به العصر راجع إلى أنّ الناس وقد أضاعوا إيمانهم بالله، قد أضاعوا في الوقت نفسه إيمانهم بأنفسهم بحيث إنّهم إذا ما واجهتهم أزمة على شيء من الخطورة بالنسبة إليهم وجدوا أنفسهم وليس لهم من معين إلّا طرائق الهرب المعروفة من مثل الشراب والمخدّرات والانتحار والجنون»[1].

هذا إلى أنّ حياة المؤمن فسيحة الأرجاء، واسعة المدى، لاعتقاده في المعاد وحُسن مآبه وشرف مصيره به، وفي ذلك أمل كبير لا يستشعره الملحدون الّذين جحدوا الله واليوم الآخر، فعاشوا حياةً قصيرةً ومصيراً خاسراً.

والإيمان بعد هذا ضرورة عقلية:

فشكر المُنْعِم فرض يقتضيه العقل ويمليه الوجدان. إذ كلّما فكّر الإنسان في نفسه، وجدها محفوفة بصنوف النِّعم وألوان اللّطف، وأدرك بداهة أنّ تلك النِّعم والألطاف لم يغنمها بمشيئته أو مشيئة غيره من البشر، فهي لا محالة من واهب قدير كريم.

وواجب الشكر يفرض على الانسان أن يعرف ذلك المُنعِم التماساً لشكره وطلباً لرضاه... «وهذا هو الإيمان».

والإيمان كذلك ضرورة أخلاقية:

فهو العامل القوي في تهذيب الضمائر وتقويم الأخلاق وإصلاح المجتمع والأفراد،

---

(١) السلسلة السيكولوجية، نشر دار العلم للملايين.

بما يَغرزُهُ في وعي المؤمن، ويشعره باطِّلاع الله عليه، ورقابته له، ومجازاته إيّاه على أعماله... إنْ خيراً فخير.. وإنْ شرّاً فشرّ.

وبهذا الشعور يستقيم الإنسان، وتسمو أخلاقه إلى أوج الفضيلة والكمال، ويغدو الإنسان مثالياً متحلِّياً بخصائص الإنسانية الرفيعة.

وعلى نقيض ذلك، إذا ما تجرّد المرء من الإيمان، وانعدم فيه شعوره النبيل، ماتت في نفسه الفضائل، وتلاشت فيها بواعث الخير، واستبدّت به نوازع الشرور والآثام.

وما هذه الفوضى الأخلاقية ومآسيها المحزنة إلّا نتائج حتميّة لضعف قِيَم الإنسان ومفاهيمه.

وما يعانيه العالم من كوارث الحروب وأرزائها الّتي زعزعت كيان المجتمع البشري بالأمس وتُنذره اليوم بالدّمار، إلّا من آثار جدب الضمائر وإقفارها من خصائص الإيمان ومُثُله الرفيعة، ممّا أثار في الأمم الكافرة هَوَس الحروب لاستبعاد الشعوب وابتزاز خيراتها.

قال الأستاذ أ. كريسي موريسون، رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك سابقاً:

«إنّ الاحتشام والاحترام والسّخاء وعظمة الأخلاق والقِيَم والمشاعر السامية، وكلّ ما يمكن اعتباره نفحات إلٰهية، لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد..

لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدِّين.

سوف يتحوّل النظام إلى فوضى.

سوف ينعدم التوازن وضبط النّفس والتمسّك.

سوف يتفشّى الشرّ في كلّ مكان.

إنّها لحاجة ملحّة أن نقوِّي من صلتنا وعلاقتنا بالله»[١].

---

(١) الإسلام يتحدّى، للأستاذ وحيدالدّين خان، ص ٢٨٢.

والإيمان فوق ذلك... ضمانة دينية من ضمانات حفظ النّفس.

فقد تواترت الأديان السماوية واتّفقت كلمة الأنبياء معزّزة بالحجج والبراهين على وجود الله تعالى، وعظيم إكرامه للمؤمنين وأليم عقابه للكافرين، لذلك كان محتّماً على العقل أن يؤمن بالله حفظاً لنفسه ووقايةً لها من العذاب. وإذا كان الإيمان فطريّاً في النّفوس، وكان حافلاً بتلك الخصائص والفضائل، فعلامَ جحد الجاحدون وآثروا الكفر على الإيمان؟...

إنّ من الناس من انحطّت مداركهم، وتبلّد وعيهم، وعَشَت بصائرهم عن اجتلاء آيات الألوهية رغم سطوعها وإشراقها، فعموا عنها كما يعمى الخفّاش في ضوء النّهار، فهم كالأنعام أو أضلّ.

ومن الناس مَنْ طغى عليهم الجمود، وأغوتهم نزعة التقليد والمحاكاة، فقلّدوا آباءهم رغم جهلهم وضلالهم، وتأثّروا بالمحيط الكافر الّذي يعيشـونه، ممّا صيّرهم ضحايا التقليد والجمود.

ومن الناس مَنْ آثروا الكفر على الإيمان استجابة لأهوائهم المريضة وإشباعاً لغرائزهم الجامحـة، كيلا يتقيّـدوا بمبدإ الطُّهْرِ والعَـفافِ الّذي تفرضه العقـيدة ويمليه الإيمان، فانغمسوا في حمأة الرّذيلة والفساد.

وحين تنكّرت البشرية لواقع الإيمان، تداركتها العناية الإلٰهية بلُطفها السامي وتوجّهها الرشيد، فأرسلت إليها رُسُلَها الميامينَ يحملونَ لها مشاعل النّور، لينيروا لها طرائق الحـياة، وينقذوها من متاهات الكفر والضّلالة، ويقـودوها إلى مناهج الحقّ والعدل والسّلام.

البراهين الفلسفيّة
على وجود الله تعالى

لا تتوقّف معرفة الله عزّ وجلّ على البراهين الفلسفية والأدلّة العقلية، فهي من اليُسر والوضوح ما جعلها قريبة المنال، يدركها الإنسان بفطرته كما ألمحنا إليها أو بشيء من التوجيه والإرشاد.

وقد كان اعتماد البشر منذ القِدَم على البراهين الكونية في نشدان العقيدة والإيمان أكثر من البراهين الفلسفية لدقّة الثانية عن نَظَرِ أكثر الأفهام.

كما أكثرَ القرآن الكريم من لفت الأنظار والعقول إلى صنوف الآيات الكونية لتستجلي منها العِبَر والدلائل على صانعها القدير.

فمن ذلك ما حكاه عن ابراهيم الخليل في تأمّلاته ومحاكماته الفكرية في بعض الآيات السماوية والإهتداء بها والإنطلاق منها إلى قمّة الإيمان واليقين:

﴿وكَذلِكَ نُرِي إبراهيمَ مَلَكُوتَ ٱلسّمٰوات والأرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ ٱلمُوقِنِين * فلمّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هٰذا رَبِّي، فلمّا أفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فلمّا رَأى القَمَرَ بازِغاً قالَ هٰذا رَبِّي، فلمّا أفَلَ قالَ لَئِن لم يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ ٱلقَوْمِ الضّالّين* فلمّا رَأى الشَّمْسَ بازِغَةً، قالَ هٰذا رَبِّي هٰذا أكْبَرُ، فلمّا أفَلَتْ قالَ يا قومِ إنِّي بَريءٌ مِمّا تُشْرِكُون * إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسّمٰواتِ وٱلأرْضَ حَنِيفاً مُسلماً وما أنا مِنَ ٱلمُشْرِكِين﴾. (الأنعام / ٧٥ ـ ٧٨)

من أجل ذلك لم يكن الإيمان منوطاً بالبراهين الفلسفية وليست هي الوسيلة الوحيدة إليه.

بَيْدَ أنّ احتدام الجدل والنّقاش بين أنصار الإيمان وأشياع الكفر، هو الّذي دفع العلماء الإلهيين إلى وضع طائفة من البراهين الفلسفية الدالّة على وجود الله عزّ وجلّ تفنيداً لخصومهم واحتجاجاً عليهم، فجاءت تلك البراهين آية في الروعة والبلاغة وسطوع البرهان.

وهي عديدة متشابهة وإن اختلفت أساليبها وأُطُرها، بَيْدَ أنِّي أعرض نماذج منها مقتصراً على أوضحها دلالة وأقواها حجّة.

١ ـ برهان الخلق:

وهو أقوى البراهين حجّة وأيسرها فهماً، وصورته:

أنّ كلّ موجود لابدّ له من موجِد، وكلّ مصنوع لابدّ له من صانع، لاستحالة وجود الشيء ـ عقلاً وبداهةً ـ من غير مُوجِد.

وهكذا كلّما استعرضتَ الموجوداتِ وجَدْتَ كلّاً منها مفتقراً إلى مُوجِد، وهذا المُوجِد مُفتقِراً إلى مُوجِدٍ آخر، دواليك، دون أن تلمح فيها ما يؤهِّل وجوده لذاته.

وحيث كانت الموجودات كذلك، فلابدّ من مُوجِد يوجدها ولا يتوقّف وجوده على غيره، وهو الله الواجب الوجود.

وبتقرير آخر:

إنّ الموجود لا يخلو من ثلاثة فروض، فهو إمّا:

واجب الوجود أو ممكن الوجود أو مستحيل الوجود، فواجب الوجود، هو الموجود بنفسه ولذاته، من غير مُوجِد.

(أي ما كانت علّة إيجاده ذاتية فيه).

وممكن الوجود هو: ما يتوقّف وجوده على غيره.

وإذا استعرضنا الموجودات، وجدناها ممكنة الوجود، لقصورها وافتقارها إلى غيرها، وكلّ ممكن لا بدّ له من مُوجِد، فلابدّ لهذه الموجودات من موجود لذاته، يوجدها، ولا يتوقّف وجوده على إيجاد غيره، ولولاه لم توجد سائر الأشياء والموجودات لفقدها علّة إيجادها، وهي موجودة بداهة، فصانعها موجود ضرورة وحتماً.

وأمّا المستحيل، فهو: ما يمتنع وجوده، كاستحالة اجتماع النقيضين أو الضدّين، كالوجود والعدم، والنور والظلام.

٢ ـ برهان الغاية:

وخلاصته: أنّ مَنْ نظر إلى الكون نظرة فاحصة مدقِّقة، رأى كلّ موجود فيه متّصفاً بغاية سامية، ونظام دقيق، وتدبير حكيم.

فالفلك في علياء السماء ـ رغم عناصره الجمّة وأجرامه الهائلة ـ يدور بانسجام وانتظام مدهشين.

والإنسان وما زُوِّد به من الأعضاء والجوارح، وقيام كلّ منها بوظائفه الخاصّة، وما مُنح من المواهب العقلية والطاقات الفكرية.

والحيوان وما اتّصف به من عجائب الفطنة والإلهام.

والنبات وما اتّصف به من وسائل النموّ والتكاثر.

مَنْ تأمّل ذلك كلّه، اضطرّتهُ البداهة إلى الإيمان بخالق الكون ومدبِّره، لاستحالة وجود الشيء من غير مُوجِد، والنظام من غير مُنظِّم، والتدبير من غير مُدبِّر.

٣ـ برهان الأخلاق:

وهذا البرهان يثبت وجود الله عزّ وجلّ بالنزعة الخِلقيّة المغروسة في الإنسان والمسيطرة عليه، والّتي يستحيل وجودها من غير إرادة موجّهة.

ذلك أنّ قانون الأخلاق هو مجموعة أوامر ونواهي توجيهيّة شاقّة على النّفس، تناقض أهواءها، وتقيّد غرائزها العارمة.

والإنسان رغم ذلك يتقيّد بذلك القانون ويستجيب له رغبة وطواعية، فيهوى الحقّ والعدل والمروءة، وإن كانت مخالفة لهواه، ويمقت الباطل والجور والإثرة، وإن كانت موافقة له، ويؤثر الواجب المُجهد على أهوائه المحبّبة إليه.

وهذا برهان ساطع على الخلّاق الحكيم، الّذي خلق الإنسان وغرس في نفسه تلك النّزعة الخِلقيّة، وحبّبها إليه رغم قيودها الشاقّة.

وقد يزعم البعض أنّ تلك النّزعة الخلقيّة ناشئة ومتطوّرة عن التقاليد والأعراف الإجتماعية حتّى غدت نزعات وأشواقاً مسيطرة عليه.

وهو زعم باطل، لأنّ إدراك العلّة لا ينفي حكمة الخالقِ وسموّ غايته، فمعرفة أسرار الطاقة الكهربائية لا تُبطِل الغاية من صنعها وتوليدها. وخفي عليهم أنّ تعليلهم ذلك مُفتقِر إلى تعليل آخر، حيث علّلوا النّزعة بالتقاليد الإجتماعية.

إذن فَمَنْ الّذي غرسَ تلك التقاليد في وعي الإنسان، وفرضَ سلطانها عليه رغم قيودها الباهضة؟

أليسَ ذلك دليلاً على أنّ للنّزعة الخلقية غارساً.. خارجاً عن نطاق الإنسان؟ غرسها في نفسه وحبّبها إليه لأغراضه الحكيمة.

البراهين الكونيّة
على وجود الله تعالى

وعلامَ نلتمس البراهين الفلسفية على وجود الله، وهذا الكون زاخر بصنوف الآيات والبراهين على وجوده وتوحيده، وهي تدعو إلى الإيمان بقناعة ويُسر.

لذلك كان اعتماد البشر منذ القِدَم على البراهين الكونية في طلب العقيدة أكثر منه على البراهين الفلسفية، بل هي لا تغني عن براهين الكون شيئاً.

حسبك ما أحرزه أعلام الصّحابة في فجر الإسلام من سموّ الإيمان وقوّة اليقين ما لم يحرزه عظماء الفلاسفة والحكماء، لاهتدائهم بأنوار النّبيّ ﷺ وتَبَصُّرِهم بآياتِ الله وبراهين خلقه.

بيدَ أنّ للفلسفة الإلهٰية قيمتها في مضمار الجدل والنقاش، ولكنّها سبيل خطر لا يأمنه إلّا العلماء الأفذاذ.

فمن الحكمة في تثقيف الجماهير بالمعرفة الإلهٰيـة، إرشادهم بالبراهين الكونيـة وتنويرهم بالقرآن الكريم وآثار أهل البيت عليهم السلام، وهذا هو أفضل وسيلة، وأيسر سبيل لنيل المعرفة وكسب الإيمان، وأغناها عن جفاف الفلسفة وجهدها الفكري.

ومن الخير للإنسان أن لا يُسْرِف في البحث عن كنه الله تعالى وإدراك حقيقته، فذلك ممّا يستحيل على العقل إدراكه والتوصّل إليه.

لأنّ العقل مهما إتّسع أفقه وعظم وعيه، محدود القدرة والإدراك، ومتى أرهقه الإنسان وكلّفه فوق وسعه ضلّ عن القصد، وزجّه في متاهات الظّنون والأوهام.

فالعقل في إدراك الحقائق كآلة التصوير، تستطيع إلتقاط الصّور المحدودة وتعجز عن تصوير غير المحدود.

كذلك العقل، فإنّه يستطيع إدراك ما كان داخلاً في إطار قدرته من القضايا المحدودة، ويرتدّ عاجزاً كليلاً عمّا سواها.

وحيث كان الله سبحانه منزّهاً عن حدود الذات والصِّفات ونطاق الزّمان والمكان، استحال على العقل تصوّره وإدراكه.

وكيف يتطاول الإنسان إلى البحث عن كنه الله تعالى، وهو عاجز عن إدراك كنه مخلوقاته، واكتشاف ألغازها الغامضة؟؟!

فأين هو من معرفة أسرار الحياة والرّوح والعقل، وكثير من دقائق المرئيّات وجلائلها...؟

وكلّ ما توصّل إليه البشر من معرفة الله عزّ وجلّ، إنّما هو: بالتفكير في آيات صنعه، فاستدلّوا بها على وجوده، وبغاياتها على حكمته، وبانسجامها وانتظامها على وحدانيّته.

من أجل ذلك جاء التحذير الرّهيب عن التفكير في ذات الله تعالى في نصوص عديدة، منها قول الإمام الباقر عليه السلام: «**إيّاكم والتفكّر في الله، ولكن إذا أردتُم أن تنظروا إلى عظمته، فانظروا إلى عظيم خلقه**»[1].

وقال الصّادق عليه السلام: «**مَنْ نظرَ في الله كيف هو، هلك**»[2].

ولا يفوتني وأنا أحاول استعراض طرف من الآيات الكونية، أن أنوِّه بحقيقة

---

(١) عن الوافي، ج ١، ص ٨٣، عن الكافي.

(٢) نفس المصدر.

هامّة، تعتبر مفتاحاً للأبحاث التالية:

وهي: أنّ كلّ موجود اتّصف بغاية خاصّة وفائدة ملحوظة كالكتاب المؤلّف، والقصر المشيّد، والجهاز المخترَع، فإنّه يدلّ دلالة واضحة أنّ موجده ذو عقل وقصد، عرف الغاية من صنعه فأوجده لأجلها. وكلّما قَوِيَتْ الصِّلة وانجلت الحكمة بين الموجود وغايته، قَوِيَ اليقين: بحكمة المُوجِد، وقصده لما أوجد. ندرك ذلك وإن لم نرَ المُوجِد، أو يخبرنا عنه مُخبِر، وتلك حقيقة ناصعة لا ريبَ فيها.

تأمّل ذلك جيّداً، ثمّ انظر هذا الكون العظيم، بعناصره المختلفة وآياته الباهرة كالسماء وما ازدانت به من شمس وقمر وكواكب، والأرض وما حوته من صنوف الأحياء البشرية والحيوانية والنباتية، وأنواع الجمادات وما ارتستمت عليها جميعاً من آيات القدرة والإبداع، وروعة الإنسجام، ودقّة النظام، وحكمة التدبير، وسموّ الغاية.

متى تأمّلتَ ذلك، أيقنتَ أنّ لهذا الكون خالقاً عظيماً، ومدبِّراً حكيماً، خلقه بقدرته، وأنشأه بإرادته وقصده.

وحيث كان استعراض الآيات الكونية متعذِّراً لاتِّساع آفاق الكون وتعدّد جوانبه ووفرة عناصره، فلا مناصَ من الاقتصار على طرف يسير منها.

وقد ارتأيتُ بحث تلك الآيات على ضوء العلم الحديث، تجاوباً مع روح العصر والتماساً للأسلوب المؤثِّر، مشيراً إلى أبرز مظاهر القدرة والإبداع فيها.

فليس الغرض بحث تلك الآيات بحثاً مسهباً، وإنّما الغرض هو اجتلاء أبرز وأهمّ ما تتّسم به من صنوف الشواهد والدلائل على مُوجدها القدير الحكيم.

عالم السّماء

وأوّل ما نبدأ باستعراض عالم السّماء، وهو أدقّ العوالم سرّاً، وأظهرها عظمةً وجلالاً:

١ ـ الشّمس:

وهي: كُرَةٌ غازيّةٌ ضخمةٌ جدّاً تتوقّد وتشعّ حرارةً وضوءاً.

وقد جعلها الله سبباً في جمال الكون، وعمارة الأرض، وازدهار حياة الأحياء فيها.

فمن آيات صنعها، وروائع خصائصها، ودقّة تدبيرها، وسموّ غاياتها: أنّها تفوق الأرض ضخامةً وحجماً بمليون وربع مليون مرّة، وتبلغ أبعاد قطرها زهاء (٨٦٥) ألف ميل.

ويبلغ بعدها عن الأرض نحواً من (٩٣) مليون ميل.

وضوؤها يصل إلى الأرض في ثمان دقائق وربع.

فمن عجائبها الكُثر: أنّها ذات طاقات حرارية هائلة، قدّرها المعنيّون بدراسة الفلك بـ«عشرين مليون درجة مئوية» في غمار أعماقها، وقدّروها على مستوى سطحها الخارجي بـ «ستة آلاف درجة مئوية».

وقد أثبت العلم أنّ تحديد ذلك البُعْد وتلك الدرجة الحرارية هما في غاية الحكمة والصواب، لتكييف حرارة الشمس وجعلها ملائمة لا تزيد ولا تنقص عمّا تحتاجه الأحياء، إذ كلّ اختلاف في مقاييس الحرارة والبُعْد يسبّب دمارها وفناءها.

فلو كانت طاقتها الحرارية ضعف ما هي عليها الآن، لأحترقنا بلظاها، ولو كانت نصفه لأهلكنا البرد والإنجماد.

وهكذا لو بعدت ضعف بُعْدها الحالي لغدت الأرض زمهريراً تستحيل فيها الحياة، ولو تدانت إلى نصفه، لأضطرمت الأرض بشواظها وأهلكت سائر الأحياء.

ومن عجائب الشمس المدهشة، طاقتها الحرارية والضوئية الهائلة الّتي ما برحت تشعّها ملايين السنين والأعوام، دون أن تنضب أو تبيد.

فقد ذكر العلماء أنّ السنتمتر المربع من سطح الشمس يشعّ في الدقيقة الواحدة (٨٩) ألف سعرة حرارية، ويعمل عمل محـرِّك قوّته: (تسعة) أحصنة، فالمتر المربع يعمل ما يعادل (٩٠) ألف حصان، وسطح الشمس كلّه يعمل في إشعاعه عمل (خمسمائة وثمانين ألف مليون مليون حصان)، كلّ ذلك عدا الانفجارات المدهشة الّتي تحدث أيضاً في الشمس والّتي سجّلتها المراصد.

فمن ذلك ما أذاعه مرصد (هارفارد)، حيث قال مديره الدكتور (دونالد): «إنّ الإنفجار الّذي حدث في الشمس قد سجّلته عدّة أفلام بواسطة (الكونجراف) وهو جهاز لتسجيل الشعلات النارية والضوئية الخارجة من الشمس، واتّضح منه أنّ قوّة الإنفجار الّذي حدث يعادل انفجار (مائة مليون) قنبلة هيدروجينية، دفعة واحدة».

وهكذا القول في طاقاتها الضوئية، فقد قدّر الخبراء أنّ السنتمتر المربع الواحد من سطح الشمس يشعّ من الضوء ما يعدل (خمسين ألف شمعة)، فلو ضاعفت هذا النور بما يساوي قرص الشمس، فكم تقدّر طاقتها الضوئية ؟!!

وبالرغم ممّا تستهلكه من تلكم الطاقات النارية والنورية الخارقتين، فإنّها لا تنضب ولا تبيد، وفيها فوق ذلك من القوى المخزونة ما يؤهِّلها للإشعاع كما هي عليه الآن ملايين السنين والأعوام.

وإن تعجب فعجب لما أودع الله في الشمس من عظمة الفوائد والمنافع أن جعلها سبباً لازدهار الأرض وحياة الأحياء.

فهي مصدر الحرارة والضوء الضروريَّين لسائر الأحياء، ولولاها لتخبّط العالم في دياجير الظّلام واستحالت فيه حياة الإنسان والحيوان والنّبات، لتوقّفها عن الحرارة والضوء.

وهي ملاك عملية التبخير والتصعيد لتكييف مياه الأبحر، وجعلها ماءً عذباً يروي الناس والأحياء، ولولاها لهلكت ظَمأً وجفافاً.

فانظر كيف جعل الله الشمس ينبوعاً دافقاً يفيض على الدنيا بألوان الخير والجمال.

وليست الشمس وحيدة في عالم السماء، وإنّما هي إحدى الشموس الكُثُر الّتي يزخر بها الفضاء، وفيه ما يفوق الشمس فخامة وحرارة وضوءاً، غير أنّها تبدو ضئيلة لبُعْدها الشاسع.

يقول شابلي أستاذ علم الفلك بجامعة هارفارد:

«إنّ عدد الشموس وهي النجوم المشتعلة الّتي أمكن رصدها بالأجهزة الخاصّة بالرّصد يبلغ (مائة مليون مليون مليون شمس)، وهذه لا تعتبر شيئاً بالنسبة لما لم تستطع الأجهزة رصده لبُعْد هذه النجوم عن قدرة الأجهزة».

وإليك مثلاً (الشِّعرىٰ اليمانيّة)، فإنّها تفوق الشمس حرارة وضوءاً بـ (ستة وعشرين) ضعفاً، فلو حلّت محلّ الشمس لاحترقت الكرة الأرضية بلظاها وغلت مياهها.

والنّجم (سهيل) فإنّه أشدُّ ضَوْءاً من الشمس بـ (ألفين وخمسمائة ضعف)، و (السِماك الرامح) أكبر حجماً من الشمس بـ (ثمانين مرّة)، وأسطع منها بـ (ثمانية آلاف

مرّة). و(كوكب الجوزاء) أعظم حجماً من الشمس بـ (تسعين مليون ضعف)، ومن النّجوم ما يشعّ خمسمائة ألف ضعف من إشعاع الشمس، إذ يشعّ في الدقيقة الواحدة ما تشعّه الشمس في سنة كاملة.

هذا ما يعرضه المختصّون بدراسة الفلك، وهو يصوِّر سعة الفضاء ومداه اللّانهائي، كما يصوِّر ضآلَةَ كرتنا الأرضية إزاء تلك الأجرام الهائلة.

أفلا تدلّ الشمس ونظائرها في عالم السماء على الخلّاق القدير والمدبِّر الحكيم ...؟ لاستحالة وجودها من غير موجد!!

٢ ـ القمر:

وهو كوكب سيّار مُعتِم، تابع للأرض، يدور حولها، ويستمدّ نوره من الشمس، وهو أجمل الكواكب السماوية وأقربها إلى الأرض، وأكثرها نفعاً بعد الشمس، يبعد عنّا قرابةَ (٢٤٠) ألف ميل. وحجمه: أصغر من الأرض زهاء (٥٠) مرّة. وقطره: (٢٢٠٠) ميل. وقد ارتسمت عليه آيات الحكمة والإبداع، كما ارتسمت على الشمس.

فمن حكمة نظامه: أنّه لا ينفكّ عن ملاحقة الأرض، يجري نحوها، ويدور حولها، لا يتخلّف عن سيره، ولا يحيد عن مداره، فيقطع في السنة (١٢) دورة، كلّ دورة تستغرق شهراً كاملاً.

فتراهُ في مطلع الشهر هلالاً دقيقاً، ثمّ ينمو قليلاً قليلاً حتّى يغدو بدراً كاملاً وضّاءً، ثمّ يتضاءل تدريجياً كما نما حتّى يختفي آخر الشهر ليعود كما بدأ من جديد.

وهكذا تتجدّد سيرته بانتظام واطِّراد مدهشين، ليكون رمزاً للشهور ودليلاً عليها.

ومن آيات القصد والتدبير فيه: أنّه جُعِلَ في مستواه العلوي المرسوم، إذ كلّ اختلاف في أبعاد قُرْبه وبُعْده يُحْدِث أضراراً بليغة في عالم الأرض والأحياء.

فلو اقترب إلى الأرض ثلث مسافة بُعْده عنها لأحدث ذلك طوفاناً جارفاً يغمر الأرض ماءً ودماراً، لأثره البليغ في عملية المدّ والجزر.

ولو بَعُدَ عن الأرض ضعفَ بُعْده الراهن لتعطّلت عملية المدّ والجزر، وتراكمت الرواسب البحرية في الموانئ، وتعذّر الانتفاع بها.

وهكذا القول في تقدير جرمه وحجمه: إذ لو كَبُرَ حجمه عمّا هو عليه، لتصاعدت قوّة جذبه لمياه الأبحر، وأثار مدّاً طاغياً يجرف الأرض ويدمِّرها تدميراً. ولو صَغُرَ كذلك لضعف عن إجراء عملية المدّ والجزر، وسبّب الإضرار بالموانئ. وكذلك تجلّت حكمة دورته الشهرية حول الأرض. حيث لا تزيد عن ثلاثين يوماً، ولا تنقص عن تسعة وعشرين يوماً. فلو تباطأت دورته لاختلّت الأشهر القمرية، وصار عمر الشهر سنة كاملة. ولو أسرعَ في مساره ودورته لصار عمر الشهر أسبوعاً وضاعت بذلك مقاييس الشهور والأعوام.

ويُعتبر القمر ثاني الشمس أهمية ونفعاً: فهو الّذي يطلّ على الدنيا بطلعته الجميلة ونوره المتلألئ ليؤنس وحشة اللّيل ويخفِّف ظلامه الرّهيب، ولولاه لغدا اللّيل حالكاً مُفزِعاً، وبه يهتدي السائرون ـ كما أسلفنا ـ في مهامه القفار ولُجَجِ البحار.

وللقمر أهمية بالغة في تسبيب المدّ والجزر اللّذَين يغمران الموانئ البحرية ويزيحان الرواسب الطينية عنها، ولولاهما لتراكمت فيها وانعدم نفعها.

وليس القمر وحيداً في عالم السماء. فقد اكتشفت المراصد أقماراً جمّة تجري في الفضاء، وتدور حول الكواكب السيارة كما يدور القمر حول الأرض:

فللمرّيخ ونبتون قمران.

ولأورانوس (٥) أقمار.

ولزُحَل (٩) أقمار.

وللمُشْتري (١٢) قمراً.

أفلا يدلّ القمر بخلقه ومنافعه ونظامه على الصانع القدير والمنظِّم الحكيم. لقد أدهش الناسَ اختراعُ الأقمارِ الصناعية وإطلاقُها عبرَ الفضاء، فعلامَ لم يدهشهم هذا القمر الأصيل رغم المفارقات الجسيمة بينه وبينها؟!!

٣ـ النّجوم:

وهي أجرام منيرة، عظيمة الحجم، نائية البُعْد، تُضاهي الشمس أو القمر روعةً وإبداعاً، غير أنّ بُعْدها الشاسع يُظهرها نقطاً نورانية في السماء.

وناهيكَ في أبعادها أنّ ضوء الشمس يصل الأرض في ثمان دقائق، بيدَ أنّ أقرب نجم إلى الأرض لا يصلها ضوؤه إلّا بأربع سنين ضوئية.

وحيث أنّ مقاييس الأبعاد لا تفي بتحديد أبعاد النجوم الشاسعة، فقد ابتكر الفلكيون السنة الضوئية مقياساً لها، وهي عبارة عن المسافة الّتي يقطعها الضوء وسرعته في الثانية (١٨٦) ألف ميل، مضروبة في دقيقة، فساعة، فيوم، فشهر، فسنة، وحاصل الضّرب هو بُعْد السنة الضوئية، وهي بتحديد آخر (٦ مليون مليون ميل) تقريباً.

وإنّه ليدهشنا جدّاً ما يرويه العلماء عن أبعاد الكواكب، تلك الأبعاد المفرطة الدالّة على سعة الفضاء ومداه اللّانهائي، حيث قال أحدهم:

«إنّ معظم النجـوم الّتي نراها بالعين المجرّدة في الغـالب على أبعاد تتراوح بين المئتين والثلاث مائة سنة ضوئية، وأبعاد النجوم الّتي تُرى بالتلسكوب تُقاس بألوف السنين الضوئيـة، وقد ثبت مؤخّراً أنّ بُعْـد بعضها مليون سـنة من سني النـور أو أكثر»[١].

وقال آخر:

«وقد انتهى رأى علماء الفلك إلى أنّ مجموعتنا النجمـية قد تشتمل على مائة بليون من النجوم، بعضها أصغر كثيراً من شمسنا، وبعضها أكبر منها أضعافاً مضاعفة، وهي: المجموعة النجمية الّتي يُسمِّيها علماء الفلك (المجرّة)، وهي من الضّخامة والسّعة بحيث يقضي شعاع الضـوء ـ الّذي ينتقل بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية ـ مائة ألف سنة في مسيره من أحد طرفيها إلى الآخر.

ومن وراء المجرّة الّتي نحن فيها وعلى بُعْدٍ أعظمَ ممّا يستطيع العقل البشري أن يتصوّره مجرّاتٍ أخرى، وهي ليست بعـيدة عنّا فحسـب، بل بعضها بعـيد أيضاً عن البعض الآخر أعظم البُعْد.[٢]

وقد أصبح معروفاً على وجه التحـقيق وجود (مائة ألف) أو أكثر، من هذه المجرّات.[٣]

وقد تمكّن العلماء بعمليات رياضية معقّدة طويلة من أن يقرّوا أبعاد النـجوم وسرعتها وجرمها، فإذا درسـنا المجرّات البعيدة، تبيّن لنا أمر يدهشنا كلّ الدَّهْشِ، وهو: أنّ هذه المجرّات تبدو آخذة في الإبتعاد عنّا مندفعة في الفضاء بسرعة هائلة، قد

---

(١) عجائب السماء والفلك، لمنصور حنّا جرداق، أستاذ علم الفلك في الجامعة الأمريكية.

(٢) يبعُد أقرب المجـرّات عن مجـرّتنا بنحو (٧٠٠) ألف سـنة ضوئيـة. قصّة السماوات والأرض، ص ١٦.

(٣) وجاء في سبيل موسوعة علمية، للدكتور أحمد زكي (١٠٠ مليون) مجرّة، ص ٤٥٧.

تبلغ (١٤) ألف ميل في الثانية، وتبدو علاوة على هذا، أنّها كلّما ازدادت بُعْداً ازدادت سرعة اندفاعها». [(١)]

«هذه هي الفكرة المفزعة الّتي أظهرها البحث في السنين الأخيرة عن عالم آخِذ في التمدّد والانتشار بسرعة هائلة» [(٢)].

وبِسَبَبِ هذا البُعْد السحيق، تبدو الأجرام السماوية ضئيلة خافتة، وهي أعظم ما تكون ضخامةً ونوراً.

فالشمس رغم ضخامتها الهائلة تُعتبر ضئيلة إزاء بعض الأجرام الّتي يعجّ بها الفضاء، وفيها ما هو أكبر كثيراً منها، بحيث يسع حيِّزهُ المجموعة الشمسية بأسرها ومداراتها، كما أنّ فيها ما هو أقوى حرارة وضوءاً من الشمس، كما أشرت إليه.

وهكذا تبدو النجوم ـ للعين المجرّدة ـ متقاربة بعضها مع الآخر، بيدَ أنّها متباعدة تباعداً شاسعاً مذهلاً.

قال الفلكي الشهير (جيمس جينز):

---

(١) «وكلّما تباعدت المجرّات عن بعضها، ازدادت سرعتها، فالمجرّات القريبة من مجرّتنا تتباعد بسرعة بضعة ملايين من الأميال في الساعة الواحدة، وتتباعد المجرّات الّتي على مسافات أكبر بسرعة تزيد على (٢٠٠) مليون ميل في الساعة، وتصل سرعة المجرّات الواقعة على أضعاف هذه المسافات من مجرّتنا إلى سرعة الضوء، وفيما وراء تلك المسافات تزيد سرعة تباعد المجرّات عنّا على سرعة الضوء...

إنّ اتِّساع السماوات وآفاقها هي أعظم نتيجة تمخّضت عنها النظرية النسبية المشهورة، وقد تحقّق ذلك بالمشاهدة والرّصد.

﴿والسّماءَ بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون﴾، لهذه الآية الكريمة روعتها وروعة مدلولها بما حوت من معانٍ فلكية وطبيعية ورياضية.. إنّها الإعجاز بعينه». عن كتاب قصّة السماوات والأرض، للدكتورين محمّد جمال الدّين الفندي ومحمّد يوسف حسن، ص ٣٣.

(٢) مجلّة المختار، من مقال عنوانه: «العلم ينظر إلى السماء»، لكاتبه: بروس بلوفن.

«هذا الجمع الحاشد من النّجـوم يسبح في كَوْنٍ مُتّسع الأرجاء اتِّساعاً يجعل اقتراب نجم من نجم آخر في أيّ مكان حادثاً نادراً يصعب تصوّر حدوثه، ولهذا نرى كلّاً منها يسـبح منفرداً في عظمـة وجلال، كأنّه سفينة تسبح في محيط لا تشاركها فيه سواها، وإذا مثّلنا الكون بنموذج ذي مقياس رسم معيّن تُعرَض فيه النّجـوم بحجم السفن، كان متوسط المسافة بين كلّ سـفينة وأقرب جارة لها يزيد على مليون من الأميال»(١).

والنجوم بعد هذا ذات منافع للناس، فهي الأعلام الّتي يستهدي بها الناس في ظلمات البرِّ والبحر. وهي القلائد الوهّاجة الّتي ازدانَ بها جيد السماء، ولولاها لغدت موحشة في اللّيل الحالك.

أليست هذه النجوم آيات ناطقة.. تُعْرِب عن قدرة بارئها وعظمته وحكمته...؟

٤ ـ الفَـلَك:

وهو من أعظم المظاهر السماوية صنعاً، وأدقّها نظاماً، وأروعها جمالاً وجلالاً. وهو يتألّف من العناصر التالية:

أ ـ الشمس: وهي أمّ الكواكب، ومحور مدارها.

ب ـ الكواكب السيارة التسعة، المخـتلفة حجماً وأبعاداً وسـيراً: فـبعضها أصغر من الأرض وبعضها أكبر منها أضعافاً وبعضها قريب من الشمس وبعضها بعيد عنها، وبعضها سريع السّير وبعضها بطيئة.

وهي بأسرها تدور حول الشمس في مدارات بيضـوية تختلف سعةً وضيقاً، وقُرْباً وبُعْداً من الشمس.

---

(١) طريق إلى الله، للأستاذ عبدالرزّاق نوفل، ص ١٧.

ج ـ التـوابع: وهي أقمار تابعة للكواكب السـيّارة، فيها الصـغير الّذي يبلغ قطره بضعة أميال، وفيها الكبير المضاهي لقمرنا، وفيها ما يفوقه ضخامة وكبراً.

وتتفاوت هذه التوابع عدداً، حسب كوكبها المتبوع:

فللأرض قمر واحد، وللمرِّيخ ونبتون قمران، ولأورانوس خمسة أقمار، ولزُحَل تسعة أقمار، وللمُشْتري إثنا عشر قمراً، كما ذكرنا ذلك آنفاً.

وهذه الأقمار كلّها تدور حول الكـواكب السـيّارة كما تدور الكـواكب حول الشمس.

د ـ النجميّات: وهي كواكب صغيرة تنوف على (٤٠٠) كوكب، تدور حول الشمس بين مداري المرِّيخ والمُشْتري.

هـ ـ المذنّبات: وهي أجرام سديمية ذات ذنب مضيء، تدور حول الشمس مجاورة لفلك البروج.

هذه هي عناصر الفـلك، وكلّها تسبح في الفضـاء حول الشمس في مدارات بيضوية، تختلف سعتها باختلاف أبعادها عن الشمس، لا يفتر عملها، ولا تحيد عن مدارها ملايين السنين والأعوام.

ومن مدهشات الفلك أنّه رغم ضخامته ووفرة عناصره ودقّة نظامه، لا يثبت في موضع واحد، فإنّه يسير بأسرته الكبيرة ماخراً عباب الفضاء بسرعة (٧٢) ألف كيلومتر في الساعة متّجهاً نحو نجمة النّسر الواقع.

ورغم سير الفلك السريع المتواصل، فهو لا ينفكّ عن احتفاظه بهيئته وانسجامه ونظامه.

تُرى.. مَنْ أنشأ الفلك، وألّف عناصره، وشرّع نظامه؟ ومَنْ أمسك أجرامه الهائلة عن السقوط؟

ولئن علّلوا تماسك الأجرام بقانون الجاذبية. فَمَن ابتدع الجاذبية، وسنّ قانونها..؟

ومَنْ سيّر الفلك باستمرار، ونظام ثابتين، لا يصيبه كلل ولا ينتابه عطب.

ولئن عزوا تماسك الأجرام إلى الجاذبية، فذلك لا يُعلِّل ولا يحتِّم سيرها الدائب الرّتيب في مداراتها الواسعة.

أفلا يدلّ السّير المنظّم على المسيِّر الحكيم..؟

ومَنْ الّذي حصر الكواكب في مداراتها؟ لا تحيد عنها ولا تزيغ، ووقاها شرّ التصادم رغم كثرتها واختلاف سيرها، فطالما اصطدم المشاة والرّكبان وهم مبصرون، فلِمَ لا تصطدم الكواكب، وهي عديمة البصر والشعور؟

أليسَ ذلك دليلاً على أنّ للفلك صانعاً، أنشأه بإرادته، وسيّره بحكمته، كيف يشاء..؟

عالم الجـوّ

والآن فلنتّجه إلى عالم الجوّ، نشاهد طرفاً من آياته وعبره وهي كثيرة، نقتصر على لمحات منها:

١ ـ الهـواء:

وهو سرّ الحياة، وقوام الأحياء من إنسان وحيوان ونبات، وقد ألّفه الله تعالى من عناصر وأجـزاء، أهمّها: غاز الأوكسـجين والآزوت (النتروجين)، ولكلٍّ منهما خصائصه وآثاره.

فمن خصائص الأوكسجين: أنّه يقوم بتنقية دم الإنسان والحيوان، وتزويدها بالطاقة الحيوية، لممارسة نشاطاتها المختلفة.

كما يعمل الآزوت على تخفيف حدّة الأوكسجين وسرعة احتراقه.

ومن دلائل القصد والتدبير في الهواء، تقدير عناصره وضبطها وتجديدها بدقّة واطّراد بالغين بما يضمن عمران الحياة وازدهار الأحياء.

فنسبة الأوكسجين مثلاً في الهواء (٢١٪) وهي النسبة الملائمة لجميع الأحياء، إذ كلّ ارتفاع أو انخفاض فيها يلحق بها الكوارث الماحقة:

فلو ارتفعت هذه النسبة (٥٠٪) لاندلعت الحرائق في الأرض والتهمت ما عليها بجذوة نار أو شرارة برق لسرعة احتراق الأوكسجين.

ولو هبطت تلك النسـبة إلى (١٠٪) لتعرّض النوع البشري والحيواني لخطر الاختناق، وتعذّرت الحياة على الأرض.

دورة الأوكسجين:

وحيث كانت الأحياء تستهلك كمّيات جسيمة هائلة من الأوكسجين، تستنشقه نقيّاً وتلفظه سامّاً (ثاني أوكسيد الكاربون). فالبشر يستهلك منه سنوياً زهاء (١٦٠) ألف مليون متر مكعب. والحيوان والنّبات يستهلكان أضعاف ذلك، وهذا ما يُسبِّب هبوط نسبة الأوكسجين عن مستواه المرسوم في الجوّ، واستحالته غازاً سامّاً قاتلاً.

وقد تلافت العناية الإلهية هذا الخطر الماحق عن طريق النّبات، حيث جعلته يمتصّ ـ في النّهار ـ ثاني أوكسيد الكاربون، ويحيله أوكسجيناً نقيّاً، وبذلك يتكيّف الهواء، وتتعادل عناصره مدى الحياة.

دورة ثاني أوكسيد الكاربون:

ولهذا الغاز دور خطير وأثر فعّال في عالم النّبات: فهو أبرز عناصر غذائه، وعوامل نموّه وازدهاره، ولولاه لتلاشى النّبات، وتلاشت بذلك حياة الإنسان والحيوان لتوقّفهما عليه.

فالنّبات يمتصّ ثاني أوكسيد الكاربون من الجوّ، ويحيله بعملية التركيب الضوئي وتفاعلاته الكيمياوية المدهشة إلى عنصرين (الأوكسجين والكاربون)، فيلفظ آنذاك العنصر الأوّل إلى الجوّ ويختزن الكاربون لتقويم كيانه، وانتاج أزهاره وثماره.

وحيث كانت نسبة ثاني أوكسيد الكاربون ضئيلة في الجوّ، تساوي (ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف جزء)، فهي سريعة النفاد، يستهلكها النّبات في أمدٍ قصير، وتنعدم في الهواء.

وقد تدارك اللّطف الإلهي خطورة ذلك، فجدّد هذا العنصر الحيويّ، ونظّم دورته في الحياة، وأمدّه بروافد من عمليات التنفّس والتعفّن والإحتراق المنطلقة في الجوّ. وبهذا تولّدت عناصر الهواء، وجرت دورته عبرَ العصور، زاخرةً بمقوّمات الحياة.

ومن العجيب أن يغدو ذلك الغاز السام الخانق للبشر ملائماً للنّبات، وعاملاً أصيلاً من عوامل حياته ونضارته؟!!

ومن خصائص الهواء انتشاره الهائل وضغطه، فهو يملأ الخافقين، ويضغط على الأجسام بما يعادل ثقله كيلوغراماً لكل سنتمتر مربع منها، ونحن رغم ذلك لا نحسّ بثقله ولا نتبيّن لونه ورائحته.

ولهذا الضغط أهمية كُبرى في حياة الإنسان والحيوان، فلولاه لانفجرت أوعيتهما الدموية وكان مصيرهما الهلاك.

لذلك كان تيّار الهواء زاخراً جيّاشاً على الأرض، وكلّما تباعد الفضاء وأفرط في العلوّ تضاءلت نسبة الهواء فيه وقلّت كثافته، ممّا يُسبِّب اختناق الإنسان هناك وانفجار أوعيته الدموية لقلّة الأوكسجين وضعف الضغط.

ومن صفات الهواء: أنّه رغم اتحاد عناصره متكيّف الأطوار والحالات، حارٌ وباردٌ، عاصفٌ ورخاءٌ، عقيمٌ ولاقحٌ، وذلك آية خضوعه لمسيطر حكيم، يصرفه لصالح الخلق كيف يشاء.

وللهواء فوق ذلك آثار هامّة في ازدهار الحياة وخدمة الأحياء، فهو ينقل الأصوات إلى المسامع، ولولاه لخيّم الصّمت والسكون على الأرض واستحال التفاهم فيها، وينقل الصور المذاعة كما ينقل الأصوات، فتظهر على أجهزة التلفزيون ناطقة متحرِّكة.

وهكذا يحمل السحب والغيوم، ويسيِّرها إلى الآفاق البعيدة ليعمّ خيرها سائر الأقطار.

ويقوم بوظائف خطيرة أخرى: كتلقيح الأشجار، وتسيير السّفن، وإشعال النّار، وتبريد المياه، وتجفيف الرطوبات، ونحوها من المهام.

وذلك ما يشعر بوضوح أنّ له منشئاً ومسخِّراً يُصرِّفه لعمران الأرض وصالح الأحياء فيها.

٢ ـ اللّيل والنّهار:

وهما ناشئان من دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، فما استقبل الشمس منها كان نهاراً، وما استدبرها كان ليلاً.

وقد سيّرهما الله عزّ وجلّ بحكمة تدبيره، ودقّة نظامه، ما جعلهما مثاراً للدهشة والعبرة: فهما ضدّان مختلفان، ضياء وظلام، لا يفتآن يتنازعان البقاء، يقهر كلّ منهما ضدّه، ثمّ يعود القاهر مقهوراً والمقهور قاهراً دواليك.

ثمّ انظر كيف يتداخل اللّيل والنّهار ويسترق كلّ منهما طرفاً من نقيضه، ممّا يُسبِّب اختلافهما طولاً وقصراً، وزيادةً ونقصاناً، حيث يتطاول النّهار قليلاً حتّى يتساوى مع اللّيل طولاً في ٢١ آذار، فيحدث الإعتدال الربيعي آنذاك.

وهكذا يتزايد النّهار حتّى يبلغ غاية الطّول، واللّيل غاية القصر في ٢٢ حزيران، وهو يوم الإنقلاب الصّيفي.

ثمّ يأخذ النّهار بالتناقص التدريجي حتّى يتساوى مع اللّيل في ٢٣ أيلول، فيحدث حينذاك الإعتدال الخريفي. وهكذا يستمرّ النّهار بالتناقص حتى يبلغ غاية القصر واللّيل أقصى الطّول في ٢٢ كانون الأوّل، وهو يوم الانقلاب الشتوي.

وعلى هذا النظام الرتيب يتداخل اللّيل والنّهار، ويتسابقان في حلبة الزّمن، وتتجلّى حكمة التدبير في تقديرهما وشدّة ملائمتهما لحياة الأحياء، حيث كان أقصى طولهما في أكثر المسكون من الأرض خمس عشرة ساعة.

فلو طالَ النّهار، مائة ساعة مثلاً، لتعرّضت الأحياء للخطر الجسيم، فالإنسان تُحفِّزه أطماعه على مواصلة أعماله، واستهلاك طاقاته الحيوية، ممّا يُسبِّب إرهاقه ومرضه. والحيوان لا يكفّ عن الحركة، ولا يستنيم للرّاحة، فيكون مصيره النّفق والتّلف. والنّبات يحترق بطول وقدة الشمس، فيغدو هشيماً تذروه الرِّياح. وهكذا لو طالَ اللّيل، تلك المدّة، لعاق الإنسان عن ممارسة أعماله وكسب معاشه، ومنع الحيوان من التقمّم وطلب قوته، فيموت سغباً وجوعاً. ويحرم النّبات من عنصري الحرارة والضّوء الضروريين له، فيتلاشى تفسّخاً وتعفّناً. أفلا يدلّ ذلك على المدبِّر، الحكيم، القدير؟

٣ـ الصّحو والمطر:

وهما من آيات قدرة الله تعالى، ولطفه العميم. فالماء سرّ الحياة، وقوام الأحياء، وأنّى لها بالماء، وأغلب الأرض مغمور بمياه الأبحر، وهي ملح أجاج، لا تروي ظمأ، ولا تجدي نفعاً؟ فحوّل الله عزّ وجلّ مياهها المُرّة ـ بعملية التبخير والتصعيد ـ غيثاً هتوناً، وماءً عذباً، يروي الناس وسائر الأحياء.

ومن مظاهر حكمة التدبير: تعاقب الصّحو والمطر، وعدم استمرارهما في أغلب الأرض أمداً طويلاً. فلو استمرّ المطر وقتاً مديداً، لتشبّع الجوّ بالرّطوبة وأفرط البلل في الهواء، ممّا يوجب استرخاء الأبدان وانحلالها، وتفسّخ النّبات وتلاشيه.

وإنّما تكاثرت الأمطار في المناطق الإستوائية لارتفاع درجات الحرارة فيها، وحاجتها الملحّة إلى المطر المتواصل.

ولو دامَ الصّحو طويلاً لغدا الجوّ جافّاً مُحرقاً، يلهب الإنسان ويحرق النّبات ويجفِّف الأنهار، وبتعاقب المطر والصّحو، اعتدل الهواء وازدهرت حياة الأحياء.

وهكذا تجد حسن القصد والتدبير جليّاً في هطول الغيث على الأرض، حيث يتقاطر رذاذاً ليكون أكثر تغلغلاً في الأرض وإرواءً لها، ولو انهمر كالشـلّال الهادر لهدّم المباني ودمّر المزارع وأفسد الطّرق.

فإن قيل:

«أوَليسَ قد يكون في بعض السنين الضّرر العظيم، لشدّة ما يقع منه، أو بَرد فيه حطم الغلّات... بلى قد يكون ذلك لفرط ما فيه من صلاح الإنسان، وكفِّه عن المعاصي والتمادي فيها، فتكون المصلحة فيما يصلح له من دينه أرجح ممّا عسى أن يزرى في ماله»[1].

---

(١) توحيد المفضل، بتصرّف.

عالم الأرض

الكرة الأرضية هي: أجلّ الكواكب السيّارة، وأرفعها قدراً؛ لأنّها مهبط الوحي وموطن الأنبياء والمرسلين، ومنزل الخلائق والعباد.

وهي من أبرز وأجلى مظاهر قدرة الله عزّ وجلّ، وآيات إبداعه، وبالغ حكمته.

وحيث استطلع الباحث مسارحها الرّحبة، وأسرارها الدقيقة وخصائصها الجمّة، امتلأ دهشةً وإعجاباً، وطفق ينشد الآية الكريمة:

﴿وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

(الذّاريات/ ٢١ و٢٢).

وفيما يلي عرض خاطف لاح لأبرز تلك الآيات:

١ ـ حجم الأرض:

لقد صمّم الله حجم الأرض تصميماً حكيماً، وقدّر كتلتها تقديراً هادفاً يلائم حياة الأحياء، ويضمن لها الرّخاء والاستقرار.

حسبك أنّها لو تضخّمت أو تضاءلت عن حجمها المقدّر المرسوم لأضرّ ذلك بها أضراراً خطيرة:

فحجم الأرض مثلاً زهاء (٢٦) ألف مليون ميل مكعّب، فلو افترضنا أنّه كان أوسع مدىً، وأكثر ضخامةً من ذلك، لتضاعفت قوّة جاذبية الأرض، فيزداد تبعاً لذلك وزن الإنسان، ويغدو جسمُه عبئاً ثقيلاً عليه، يرهقه ويعيقه عن طلب العيش، ومستلزمات الحياة.

ولو كان حجم الأرض أصغر من نصابه المحدود، لنجمت عنه مضاعفات خطيرة:

١ ـ ضعف جاذبيّتها عن مقياسها الضروري لعمران الأرض، وحياة الأحياء فيها.

٢ ـ إفلات الهواء من محيطها وتهرّبه إلى أعالي الفضاء.

٣ ـ تبخّر المياه، وتصاعدها، وتبدّدها في الآفاق.

فتصبح الأرض آنذاك قاحلة جرداء كالقمر خِلوّاً من الهواء والماء، واستحالت فيها الحياة.

٢ ـ دوران الأرض:

للأرض دورتان: دورة حول محورها، لتوليد اللّيل والنّهار. وأخرى في مسارها حول الشمس، لتنظيم الفصول الأربعة.

وقد قدّر الله عزّ وجلّ سرعة كلا الدورتين تقديراً باهراً في الدِّقّة والضّبط: فهي تدور حول محورها بسرعة (١٠٠٠) ميل في الساعة، تقطعها خلال (٢٤) ساعة، ينتظم بها اللّيل والنّهار بأبعادهما المألوفة، وساعاتهما الملائمة للأحياء.

وكلّ زيادة أو نقص في تلك السرعة يُحدث أضراراً خطيرة:

فلو كانت سرعة دورتها (١٠٠) ميل في الساعة، لتصاعدت ساعات اللّيل والنّهار تصاعداً خطيراً، وأصبحت زهاء (٢٤٠) ساعة، وذلك ما يُسبِّب اختلال نظام الحياة، واحتراق الزّروع والنّباتات في لهب الشمس، وذبولها وتفسّخها في غسق اللّيل. واضطراب مقاييس الأعمال والاستجمام في اللّيل والنّهار.

وتدور الأرض دورتها السنوية حول الشمس مستغرقة (٣٦٥) يوماً، فتنشأ منها الفصول الأربعة، الّتي تُكيِّف الجوّ حسب مناخها، متدرِّجة من جوٍّ قارصٍ إلى معتدلٍ إلى قائظٍ وهكذا دواليك، حماية للأحياء من مُفاجآت الأجواء المتناقضة،

وتقلّباتها الخطيرة.

ويُقرِّر العلم أنّ سرعة الأرض في طوافها السنوي (١٨) ميلاً في الثانية، وهي السرعة الهادفة البنّاءة الّتي لو انخفضت إلى ثلثها أو ازدادت عن ضعفها بقليل لأصبحت الأرض في مستوى من القُرْب أو البُعْد عن الشمس تستحيل فيه الحياة.

٣ـ مَيْل الأرض:

وهكذا قرّر العلم أنّ الأرض مائلة عن محورها بـ (٢٣) درجة، وهذا المَيْل غاية في الإتقان والإحكام، إذ لو انعدم أو زاد لأضرّ بالأرض أضراراً جسيمة.

فلو لم تكن الأرض مائلة: لتصاعدت أبخرة المحيطات نحو القطبين الشمالي والجنوبي، مكوِّنة جبالاً شامخة واسعة من الجليد تحيل الأرض زمهريراً تتعذّر فيه الحياة، وتتلاشى فيها الفصول الأربعة.

ولو ازداد ميلها عن درجته المرسومة: لأصبحت أجواء المنطقتين المعتدلتين كجوِّ القطبين ليل طويل، وبرد شديد، أو نهار مديد وحرّ هجير.

٤ـ بُعْد الأرض عن الشمس:

لقد أوضحنا في الأبحاث السالفة أنّ الأرض تبعد عن الشمس نحو (٩٣) مليون ميل، وقد ثبت علميّاً أنّ هذا البُعْد في غاية الصّواب والحكمة. إذ لو كان نصف هذا المدى لاحترقت الأرض بشواظ الشمس، أو كان ضعفه لأصابها الإنجماد.

٥ـ جاذبيّة الأرض:

وتعتبر الجاذبية من أروع آيات الأرض، وأعظمها نعمةً ولطفاً بالعباد، رغم خفائها، وجهل العلم بواقعها الخفيّ.

وكلّما عُرِف عنها: هو أنّ الأجسام المادِّية تتجاذب بقوّة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتي الجسمين.

فالأرض تجذب الأجسام الملاصقة لها، أو القريبة منها بقوّة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتها في كتلة تلك الأجسام.

بَيْدَ أنّ للجاذبية آثارها ومعطياتها الخطيرة:

فلولاها لفقدت الأجسام وزنها وثقلها على الأرض، وأصبحت كَريشةٍ في مهبِّ الرِّيح طائرة كلّ مطار.

ولولا اجتذابها للهواء الجوِّي لتسرّب من محيطها إلى أعالي الفضاء، وصارت الأرض كالقمر عديمة الهواء، لصغر حجمه، وضعف جاذبيّته، وامتنعت فيها الحياة.

وهي الّتي تجتذب قطر السّحاب وتستدرّ عطاءها لتحيلها أنهاراً وعيوناً في الأرض، ولولا الجاذبية لتماسك السّحاب في الجوّ، وكفّ عن الإنهار، وفقدت الأرض مياهها، وتعذّرت فيها الحياة.

وتجتذب كذلك المياه الدافقة من قمم الجبال إلى السهول والوديان لاستغلال قوّة اندفاعها في تسيير الأجهزة المولِّدة للطاقة.

وهي الّتي تحجر مياه الأبحر في مستقرِّها، وتكبحها عن مهاجمة اليابسة بدوافع المدّ، أو مثيرات العواصف، أو تحرّكات الأرض.

وهي القوّة الإلهٰية الجبّارة الّتي تُمسِك كواكب السماء وأجرامها العتيدة عن الإنهيار في الفضاء، وتضبط مسارها ومواقعها، ولولاها لتصادمت وتساقطت، ودمّرت نظام الكون.

٦ ـ قشرة الأرض:

وقد حدّد الله عزّ وجلّ سمك هذه القشرة بحكمته البالغة، وتدبيره الباهر، إذ لو

ازداد سمكها بضعة أقدام عمّا هي عليـه، لنضب عنصرا الأوكسـجين وثاني أوكسيد الكاربون في الجـوّ، فتعرّضت ـ بذلك ـ حياة الإنسـان والحيـوان والنـبّات للهلاك والدّمار، لامتصـاص القشرة ـ آنذاك ـ واسـتنفادها هٰذين العنـصرين الضروريين للأحياء.

٧ـ الغلاف الجوِّي:

وهكذا أمدّ الله الأرض بتدبيره السديد الحكيم، فأحاطها بغلاف جوِّي كثافته (١٠٠) ميل، وهو تخطيط إيجابي رائع، فلو هبط الغلاف عن أبعاده ومستواه إلى ربع ذلك أو نصـفه، لتساقطت آلاف الشّهب المحترقة في الفضاء الخارجي على الأرض، واحترقت بشواظها اللّاهب، واستحالت فيها الحياة.

ونستنتج من هذا العرض الخاطف، أنّ الله تعالى قد أعدّ كوكب الأرض إعداداً هادفاً بنّاءً، وزوّده بجميع متطلّبات الحياة، وازدهار الأحياء، وخصّه بين الكواكب بأسمى وأكمل مفاهيم العناية والرّعاية واللّطف الغامر الفيّاض.

عالم الإنسـان

يُعتبر الإنســان أسمى وأروع مظاهر القدرة الإلهيـة وإبداعها الفذّ، لتميّزه على سائر الخلق بخصائصـه ومواهبه الجسـمية والفكرية. تلك الخصائص والمواهب الّتي ما برح العلماء يستجلون غوامضها، ويستكشفون أسرارها ولم يعرفوا منها إلّا النّزر اليسير.

أتحْسَبُ أنّكَ جـرمٌ صـغير   وفيكَ ٱنطوى العالمُ الأكبرُ

واستقصاء بحث الإنسان يتطلّب موسوعة علمية ضخمة، تعالج جوانب حياته ومختلف شؤونه، لذلك أجدني مضطرّاً إلى الإشارة والتلويح عن أبرز الآيات والعِبَر في عالمه الفسيح. حسب العناوين التالية:

١ ـ أطوار الجنين:

إنّ في خلق الإنسان وتطوّره في عالم الجنين من نطفة دقيقة لا تُدركها العـين المجرّدة، إلى إنسان كامل وسيم، لبرهان ساطع على مبدعه القدير.

فالجنين يستهلّ حياته الأولى باقتران نطفة الرّجل ببويضة الأنثى، وباقترانهما يدخل الجنين في طوره الأوّل، ثمّ سرعان ما تنقسم البيضة الملقّحة إلى خليّتين، فأربع، فثمان، وهكذا... تتكاثر حتّى تغدو ملايين الخلايا لتكوّن المواد الأوّلية لصياغة الجنين وتكوينه، ومنها يقطع الجنـين مراحل التطوّر، شهراً بعد شهر، حتّى يتكامل خلقه، ونموّه.

فهو في الشهر الأوّل: ينمو ويكبر خمسين ضعفاً عن بدْء تكوينه، يوم كان بيضة مخصبة كذرّة الرّمل.

وقد واكبت العناية الإلٰهية (الجنين) وأحاطته بصنوف الرعاية: فحصّنته بكيس الأمنيون: وهو كيس يضمّ سائلاً يغمر الجنين ليعطيه دفئاً ملائماً لا يتغيّر باختلاف الجوّ ودرجات حرارته، ويقيه في الوقت نفسه شرّ الصّدمات الّتي قد تُصيب الأمّ. وعن طريق المشيمة يتغذّى الجنين بما تزوِّده خلايا الحبل السرِّي من دم الأمّ.

وفي نهاية الشهر الثاني: يصبح حجم الجنين كبيضة الدجاجة تقريباً.

وفي نهاية الشهر الثالث: يتخلّق الجنين وتبدو عليه السمات البشرية.

وفي نهاية الشهر الرابع: تتجلّى به الفروق الجنسية.

وفي نهاية الشهر السادس: يظهر له الحاجبان والأهداب.

وفي نهاية الشهر السابع: يصفو جلده أكثر من ذي قبل ويظهر عليه الشعر الدقيق.

وفي خلال الشهر التاسع: يكتمل نموّه ويصبح مؤهّلاً لخروجه إلى عالم النور.

وحينما يُولد الطّفل يبدأ بالتنفّس واستنشاق الهواء، إذ لو تنفّس في بطن أمّه لاختنق بسائل الكيس وهلك.

وأنّى تأمّلت خلق الجنين، وجدتَ آيات القدرة والإبداع تطالعك في جميع خصائصه وجوانبه:

من ذلك أنّ الله عزّ وجلّ ابتدعه من نطفة دقيقة جدّاً، بحيث لو جُمعت نطف البشر الأحياء في العالم كلّه لوسعتهم جوزة صغيرة.

ثمّ أودع في كلِّ نطفة سماتها البدنية وخصائصها الموروثة ممّا سبّب اختلاف البشر صوراً وأجناساً، نتيجة اختلاف صفاتهم الموروثة.

فكيف اختلف البشر وتمايزوا، وكلّهم من نطفة واحدة لا يتميّز بعضها عن بعض ؟!

وكيف احتشدت عوامل الوراثة في نطف الملايين من البشر، فحفظت لكلّ إنسان سماته الخاصّة وخلاله الموروثة ؟!

وكيف اتّحدت خلايا الجنين في جوهرها ومادّتها، واختلفت في أطوارها ونتائجها ؟... فاستحال بعضها لحماً وبعضها أعصاباً، وبعضها أوردة وشرايين، وغدا بعضها عيناً باصرة، أو لساناً ناطقاً، أو أذناً واعية، وكلّها من مادّة واحدة.

وكيف اتّفقت عناصر أبدان البشر، فكلّهم من لحم ودم وأعصاب، ثمّ اختلفوا في ألوانهم وسماتهم ومواهبهم وطبائعهم، فمنهم الأبيض والأسود، والجميل والقبيح، والذكيّ والبليد، والكريم والبخيل.

وفي هذا الاختلاف غايات حكيمة: إذ لو تشابه الناس في سماتهم، لعسر التمييز بينهم، فيعطي أحدهم ما يستحقّه الآخر، ويؤخذ البريء بجُرم شبيهه الجاني.

ولو اتّفقوا في المواهب، لتقلّصت دوائر العلوم والفنون، المتنوّعة بتنوّع المواهب، وانحصرت في نطاق ضيّق.

ولو اتّفقوا في الطّباع لانعدمت فيهم مقاييس الفضل والكمال، فلا يُفضّل الكريم على اللّئيم، ولا يتميّز الشجاع عن الجبان.

فهل يستطيع عاقل أن يتجاهل جلال القصد، وسموّ الحكمة في خلق الإنسان وإبداعه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا ٱلْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا ٱلْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ ٱلْخالِقِينَ﴾. (المؤمنون / ١٢ ـ ١٤)

٢ ـ حكمة التصوير:

وهكذا تجلّت حكمة الله عزّ وجلّ في صياغة الإنسان، وجمال تصويره، إذ أودعَ فيه أسرار الحسن والكمال، ولخّص فيه جمال الكون وجاذبيّته ما جعله آيةً فريدةً، ونموذجاً فذّاً في جمال الطّلعة، وحُسن الهيئة، ورشاقة القدّ، فلا يتخيّل الفكر صورة أروع ولا أكمل منه.

فكان من حكمة صنع الله تعالى وإبداعه في الإنسان:

أن منحه عينين ليُبصر بهما مجالات الحياة، ومظاهر الجمال والجلال فيها.

ووهبه اللِّسان ليكون أداة للتفاهم، وترجماناً عن النّفس.

وأعطاه الأذنين لسماع الكلام والأصوات.

ومنحه الأنف للتنفّس وشَمِّ الرّوائح.

وأكرمه باليدين ليجتلب بهما المنافع، ويدفعَ بهما المضارّ.

ومنحه الرِّجلين لتحملانه حيث شاء من رواح وغدوّ.

وأعطاه جميع ما يحتاجه من صنوف الأعضاء والجوارح، مصوِّراً كلّ عضو وجارحة تصويراً رائعاً دقيقاً، ملائماً لوظائفه وأعماله، ثمّ ألّف بينهما تأليفاً متناسقاً بديعاً، فغدا الإنسان بذلك مظهراً رائعاً للجمال والكمال.

تُرى، لو نقص الإنسان من كمال خلقه، ألا يستوجب ذلك نقصه وتشويهه، كمَن فقدَ بعض أعضائه وجوارحه؟

ولو ازداد عضواً على أعضائه لسبّب تشويهه وإزعاجه، كمَن ازداد إصبعاً في يده أو رجله.

ولو تغيّرت هندسة تلك الأعضاء واختلفت مواطنها الحكيمة، لأصبحت باعثاً على سرعة تلفها وعُسر الإنتفاع بها، كما لو جُعِلَت العين في مؤخّر الرّأس أو في اليدين مثلاً.

ثمّ انظر كيف ينمو الإنسان نموّاً محدوداً لا يتعدّاه رغم ما يتعاطاه من عوامل النموّ من طعام وشراب.

وكيف تنمو أعضاؤه نموّاً متناسقاً لا يشذّ بعضها عن بعض ولو تخالفت.. لقبح الإنسان، كما لو نمت إحدى عينيه أو يديه أو رجليه عن ثانيتها نموّاً كبيراً.

فَمَن تأمّل ذلك، تجلّت له حكمة التصوير الإلهي في الإنسان، واعتقد بداهة بمصوِّره القدير الحكيم.

أرأيتَ لو شاهدتَ تمثالاً رائعاً، ألا توقن بأنّ له ناحتاً ماهراً وإن لم تره، أو تسمع به. فذلك في الإنسان الناطق أجدر منه بالتمثال الجماد.

﴿**فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين**﴾.

٣ـ سموّ الإبداع:

كثيراً ما يُدهش الإنسان وتبهره المكتشفات العلمية والأجهزة المختَرَعة كالتلفون والرّاديو والتلفزيون ونحو ذلك، وهي جديرة بالدهشة والإعجاب، لروعة ابتكارها ودقّة تصميمها وسموّ غاياتها.

بيدَ أنّ الإنسان لو فكّر في نفسه وما تنطوي عليه من صنوف الأجهزة والجوارح، وما تتّصف به من سموّ الإبداع ودقّة التصميم، وعظمة الوظائف والأعمال، لازداد دهشة وإعجاباً عن تلك المختَرَعات العلمية، للفوارق الجسيمة بينهما.

فالأجهزة العلمية موسومة بالقصور الذاتي، فهي لذلك مفتقرة إلى مَنْ يديرها ويشرف على أعمالها، كما هي عاجزة عن تكييف نفسها وتطوير وظائفها حسب مقتضيات الحال. إذ أنّها لا تعي من أعمالها شيئاً.

أمّا الأجهـزة البشرية، فإنّها تعمل تلـقائياً ولذاتها غير محـتاجة إلى مسـيِّر ومشرف، وهي قادرة على تطـوير وظائفها حسب متطلّبات الإنسان، فكلّ جهاز بشري يمارس عملين أو أعمالاً مختلفة في آنٍ واحدٍ: عمله الفردي الخاص، والعمل في زمرة الأجهزة الكثيرة الأخرى، وكلّها تعمل في تجاوب وتآزر مدهشين.

وفوق ذلك، ليس في الأجهزة الصـناعية ما يُشْعِر بالرّاحة والتّعب، أو اللّذّة والألم، أو السرور والحـزن، أو يُدرِك عملـه ووظيفـته، أو يستـطيع التحصّـن ضدّ الطّوارئ، أو إصلاح ما يعطب منه، ونحو ذلك ممّا تتمتّع به أجهزة الإنسان وأعضاؤه.

لذلك كانت الأجهزة البشرية مظهراً رائعاً من مظاهر القدرة الإلٰهـية وإبداعها المدهش، تلك الّتي لو شـاء الإنسان محاكاتها لاسـتلزم ذلك مدينة واسعة الأرجاء تضمّ آلاف المصانع والمختبرات وتحوي آلاف المهندسين والخـبراء، وكلّها يعمل ليلاً ونهاراً، لعجزوا عن محاكاتها وأداء وظائفها الدقيقة الرّتيبة.

ولو حاولـنا وصف وظائف الأعضـاء ودراسـتها، لاقتضـانا ذلك موسـوعة فسلجية ضخمة ينوء بها هذا الكتاب المجمل، فجدير بهواة تلك الأبحاث أن يرجعوا إلى ما كتبه الباحثون المختصّون في هذا الحقل العلمي الواسع.

٤ ـ عظمة المواهب:

وإن تعجب فعجبٌ لما وهب الله تعالى الإنسـان من أنواع المواهب الفكـرية والطاقات العقلية الّتي ميّزه بها على خلقه وشرّفه عليهم ما جعله نموذجاً فذّاً وتجسيداً حيّاً لقدرته الجبّارة وإبداعه الفذّ.

وإنّك لتُدْهَش وأنتَ تستعرض تلك المواهب، فلا تدري أيّها أرفع شأناً وأبلغ أثراً في حياة الإنسان. فلكلٍّ موهبة أثر بالغ ودور خطير في حياته.

ويحتلّ العقل مركزاً طليعياً بين تلك المواهب، فهو نظام عقدها، ورائدها الأمين وموجّهها الحكيم.

ومن تلك المواهب: قدرة الإنسان على التعلّم، واستيعاب العلوم. وفي الوقت الّذي منح الله الإنسان هذه القدرة، وأطلعه على مختلف العلوم، حجب عنه ما ليس في طاقته أو صالحه علمه وعرفانه، كعلم الغيب، وأسرار القلوب، وأقدار الأعمار ونحو ذلك ممّا ينوء به وعي الإنسان أو يُسبّب قلقه وإزعاجه.

فلو علم الإنسان أمد حياته مثلاً، وكان قصير العمر، استحالت حياته جحيماً مستعراً بالهموم والأحزان، لترقّبه الموت والهلاك.

وإن كان طويل العمر، دفعه ذلك على الاغترار بالحياة والانهماك في الآثام، مرجئاً طاعته وإنابته إلى الله تعالى إلى آخر حياته، ممّا يُسبّب شقاءه وحرمانه من قُرْب المولى ورضاه.

ومن تلك المواهب: ملكة النّطق وقدرة الإنسان على التعبير عمّا يدور في خلده ويخطر على باله، من مختلف المفاهيم والمعاني، ولولاها لكان كالحيوان الأعجم، لا يستطيع بياناً ولا يُعْرِب عن قصد.

ومن تلك المواهب: قدرته على الكتابة، وتسجيل مختلف العلوم والفنون، وضبط التواريخ والمعاملات، ولولاها لدُرِسَت العلوم وضاعَ تراثها الموروث، وارتبكت حياة الناس ومعاملاتهم.

وهكذا تتوالى نِعَم الله عزّ وجلّ ومواهبه على الانسان، ظاهرة وباطنة. فكان من مواهبه الظاهرة، الحواس الخمس: البصر والسّمع والشّمّ والذّوق واللّمس، الّتي لولاها لغدا الإنسان قاصراً أبكمَ في الحياة.

وكان من مواهبه الباطنة: كالمشاعر النفسية الّتي هي سرّ رُقيّ الإنسان وتألّق حياته الفكرية، وهي:

١ ـ **الحسّ المشترك**: وهو صحيفة النّفس الّتي تنعكس عليها صور المحسوسات بالحواسّ الخمس، فهو من الحواس بمنزلة الفلم من آلة التصوير، والحواسّ منه بمثابة مراسلي الأنباء أزاء مرسلهم.

٢ ـ **الخَيال**: وهو قوّة تحفظ صور المطبوعات في الحسِّ المشترك لتعرضها على النفس بعد غيابها عن الحواس ومحوها في الحسّ المشترك.

٣ ـ **الوَهْم**: وهو قوّة تُدرك المعاني الجزئية في المحسوسات كالمحبّة في شخص والعداوة في آخر.

٤ ـ **المتخيّلة**: وهي قوّة تجسِّد المعاني في صور حسِّية، وتؤلِّف بين الصّور والمعاني.

فتأليف الصور: كتخيّل إنسان نصفه حيوان ونصفه الآخر إنسان.

وتأليف المعاني: كتخيّل الشجاعة والكرم مجتمعين في شخص.

وتأليف الصّور والمعاني: كتخيّل أسد متّصف بالجبن، وشاة متّصفة بالجرأة والإقدام.

٥ ـ **الحافظة**: وهي قوّة تختزن المعاني لتذكِّر بها الإنسان عند استذكاره إيّاها.

وللحافظة أهمية كُبرى في حياة الإنسان، فلولاها لارتبكت حياته «فلم يحفظ ما له وما عليه، وما أخذ وما أعطى، وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له، ولم يذكر مَنْ أحسنَ إليه ممّن أساء إليه، وما نفعه ممّا ضرّه، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره، ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة، بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الإنسانية.

ولا تقلّ نعمة النِّسيان في الإنسان عن نعمة الحفظ فيه، فلولا النِّسيان لما سلا أحد من مصيبة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشيء من متاع الدّنيا، ولا رجا غفلة من سلطان، ولا فترة من حاسد.

أفلا ترى كيف جُعِلَ في الإنسان الحفظ والنِّسيان، وهما مختلفان متضادّان، وجُعِلَ له في كلٍّ منهما ضرب من المصلحة»[١].

أليست هذه المواهب العظيمة برهاناً صارخاً ودليلاً ناطقاً على قدرة الله وسموّ عنايته ورعايته للإنسان.

---

(١) توحيد المفضل، بتصرّف.

نظـريّة دارون

جاء دارون بنظـرية التطـوّر وتجاهل جميع الخصـائص والمواهـب الجسـمية والفكرية الّتي ٱزدان بها الإنســان وفاقَ بها ســائر الخلـق، وجهد دارون في محـقها وتشويهها، فلوّثَ تاريخ الإنسان، ومسخَ كرامتـه، واستنزله من علياء إنســانيّته إلى حضيض البهائم والقرود.

فكان لنظريّته آثار سيِّئة في تضليل الجماهير الغربية وخدعها بزخارف الألفاظ العلمية، ممّا زعزع عقائدهم، ودمّر أخلاقهم وطعنهم في صميم إنسانيّتهم.

وشاء أعداء الإسلام أن يشيعوا تلك الضلالة في الأوساط الإسلامية لتضليل المسلمين وزجّهم في متاهات الزّيغ والإلحاد.

لذلك أجدني ملزماً بتفنيد تلك النظرية، وجلاء زيفها بأسلوب لامح خاطف يلائم وجازة هذه الرّسالة.

كان من دعاة فكرة التطوّر (لامارك الفرنسي) الّذي عزى نشأة الأجيال إلى جرثومة ضئيلة واحدة، حدثت تلقائياً وتولّدت ذاتياً، ثمّ سارت في مدارج التطوّر حتّى استحالت إلى أحياء نباتيّة فحيوانيّة فإنسان، فهو في وجهة نظـره منحدر من سلالة حيوان يشبه القرد.

ثمّ جاء دارون، وشايعه على ذلك الرّأي، وخالفه في فكرة التولّد الذاتي تفادياً من سخفها وسخرية العلماء منها، وركّز نظريّته على الأركان التالية:

١ ـ تنازع البقاء.

٢ ـ الانتخاب الطبيعي.

٣ ـ المطابقة.

٤ ـ الوراثة.

وهذه النظرية، فضلاً عن مناقضتها للأديان السماوية وكتبها المقدّسة، ومخالفتها لإجماع العلماء والحكماء، عبرَ القرون في مولد البشرية ونشأتها، هي مناقضة لصميم العلم وقوانينه الأصيلة. وإليك توضيح ذلك:

١ و ٢ ـ تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي:

أمّا تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي: فمغزاهما أنّ الأحياء تتنازع لأجلِ البقاء، فتنتخب الطّبيعة الأقوى والأكمل منها، وتبيد الأضعف وتمحوه.

وهذا الرّأي باطل.. من وجوه:

أوّلاً: إنّ الإنتخاب المزعوم يستلزم الإدراك الواعي، والقصد الهادف والقدرة على اختيار الأصلح والأكمل والأقوى من الأحياء.

وذلك محال على الطّبيعة القاصرة ذاتياً، والمجرّدة من الشعور والإدراك. إذ لو كانت تملك الوعي، وتستطيع حسن الإختيار لكان الأجدر بها أن تمنع تكوّن الأحياء الدقيقة والضعيفة وتوصد في وجهها أبواب الحياة، فذلك أولى وأيسر من محقها وإبادتها بعد وجودها.

هذا إلى أنّ الانتخاب الطبيعي كثيراً ما ينعكس واقعه ويختلّ مقياسه، فيغدو الواهن الضعيف قاهراً منتصراً، والقوي العملاق مقهوراً مدحوراً.

فالجراثيم والفيروسات ـ رغم دقّتها وضآلتها ـ تغتال وتردي أشدّاء البشر والوحوش الضواري، وتصرعهم لقاً.

والحروب تفني الأبطال الأقوياء وتعفي الجبناء والضعفاء من الشيوخ والنساء.

والموت يخترم الأقوياء والضعفاء على حدٍّ سواء، فكيف ينسجم ذلك والانتخاب الطبيعي المزعوم؟!!

ثانياً: إذا كان الانتخاب الطبيعي قانوناً ثابتاً، فلماذا نجد الحشود الزّاخرة من الحشرات الضئيلة كالنّمل والبقّ والنّجرس والبرغوث ونحوها من مختلف الأنـواع. نجدها اليوم ثابتة الأشكال عمّا كانت عليه في أقدم العصور، لم يطرأ عليها أيّ تطوّر وارتقاء؟

وقد نوّهت الدراسات الحديثة عن هذا الواقع الحسِّي، وضرب الباحثون أمثلة لما أسلفناه.

فـ(بنات وردان) هذه الحشرات البغيضة وُجِدَت على سطح الأرض قبل أكثر من مائتـين وخمسـين مليون سـنة، وهي كما كانت عليه منذ وجودها، وستحتفظ بشكلها ملايين أخرى من السنين.

وهكذا (النّملة) فإنّها ظهرت على الأرض قبل أكثر من سبعين مليون سـنة بشكلها الحالي، لم يطرأ عليها أيّ تغيير عبرَ تأريخها الموغل في القِدَم.

والواقع أنّ أكثر العلماء يعـترفون اليـوم بأنّ علم الحشرات يتحدّى قوانـين التطّور، وأنّه اليوم نفس ما كان عليه منذ مئات الملايين من السنين.(١)

هذا إلى الشـواهد العلمية المفنِّدة لنظرية التطوّر والمناقِضـة لمفهـومها تناقضاً صارخاً.

منها دودة القـزّ «فإنّها تُولَد دودة تحيا أيام حياتها المعروفة ثمّ تنسج لنفسها شرنقة فتدخل فيها، وهناك لا تموت فقط بل يسيل جسمها ويستحيل إلى مادّة أوّلية

---

(١) مجلّة ألف باء العراقية، الصادرة في كانون الثاني ١٩٧٢، باختصار.

لا شكل لها، ثمّ تتركّب هذه المادّة بنفسها فتكون جسماً لا نسبة بين شكله وشكل الدودة، فتكون فراشة ذات أجنحة وغرائز أخرى غير غرائز الدودة»[1].

فلو درجت دودة القزّ مدارج النشوء والإرتقاء ـ حسب نظرية التطوّر ـ لتحوّلت إلى حمامة أو دجاجة وتلاشى وجودها وانعدمت بانعدامها مادّة القزّ والحرير.

وهذا مناقض ـ بداهةً ـ لتواجدها وبقاء نوعها واستمرار إنتاجها عبرَ العصور القديمة والحديثة.

وهكذا نجد جميع الأحياء كبيرها وصغيرها، قويّها وضعيفها تعيش جنباً إلى جنب، ولم تلحظ البشرية عبرَ تأريخها نملة تطوّرت إلى نحلة، أو نحلة إلى عصفور.

حسبكَ في ذلك قرارات الباحثين المتخصِّصين في هذه الأبحاث الناجمة عن دراساتهم ومشاهداتهم:

شاهد البروفسور (سميث) أستاذ علم المحيطات في جامعة رودس، سمكة غريبة طولها خمسة أقدام، ذات لون أزرق وعينين زرقاوين. وصعق لرؤيتها، وقال:

«ما كنت لأندهش لو أنِّي رأيتُ السمكة تمشي في الشارع».

وذلك لاعتقاد العلماء بأنّ هذه السمكة المسمّاة (السيلانكات) إنقرضت قبل سبعين مليون سنة.

وقال الدكتور (ميلو) مدير معهد مدغشقر للبحث العلمي، وهو يعلِّق على هذا الإكتشاف في مجلّة علمية سنة ١٩٥٥:

«خلال مئات الملايين من السنين ظلّت سمكة (السيلانكات) كما هي من حيث الشكل والبنية بشكل يضعنا شبه حائرين أمام هذه المعضلة تواجه نظرية التطوّر».

---

(١) على أطلال المذهب المادِّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٠١.

وعثر نفر من الغوّاصين على بعض حلزونيات الأعماق من (نيوبيلينا) على عُمق ميلين قريباً من سواحل أمريكا الوسطى.

وكتب عالم المحيطات (كارل ستوكز) في كتابه (أسس تاريخ الأرض)، يقول: «إنّ متحجّرات لهذه الحلزونيات تعود إلى ما يقرب من (٣٥٠) مليون سنة، هي الّتي كانت مصدر معلوماتنا عن هذه المخلوقات قبل أن يكتشف العلماء أنّ حلزون (النيوبيلينا) لم ينقرض، وما زال يعيش على الأرض كما هو منذ أقدم العصور».

وعثر بعض صيّادي الأسماك عند إحدى الجزر القريبة من نيوزيلاند على عضية (السفينودون) المنقرضة.

وبالمقارنة مع بقايا متحجِّرة من هذه الّتي كان الاعتقاد سائداً بأنّها عاشت على الأرض قبل (مائة وخمسين مليون سنة) وانقرضت منذ ذلك الحين. وجد العلماء أنّ هذه لم تنقرض، بل ولم يطرأ عليها أيّ تغيير طيلة هذه الملايين من السنين. وقد تناول عالِم الحياة الجيولوجية الشهير (جورج غيلورد سمبسن) هذا الإكتشاف المثير بالبحث في كتابه (معنى التطوّر)، وممّا قاله بهذا الصّدد:

«إنّ عضية (السفينود) تُقدِّم لنا دليلاً رائعاً على عقم نظرية النشوء والإرتقاء، فهي تكاد في كلّ شيء تشبه أسلافها الّذين عاشوا في العصر الجوراسي (من ٢٠٠ إلى ١٢٠ مليون سنة قبل الميلاد)»[(١)].

ثالثاً: إنّ البشرية لم تُبصِر ولم تسمع في تأريخها المديد حيواناً مُخَضْرَماً متوسِّطاً بين القرد والإنسان، وهو الحلقة المفقودة في هذه الأرض.

رابعاً: استحالة التطوّر، لاستلزامه وقتاً لا يتّسع له عمر الحياة الأرضيّة، فكَم تستغرق الخلية من السنين لتقطع مراحل التطوّر من حالتها البدائية الأولى حتّى نشأة الملايين من أصناف النباتات والحيوانات، وحتّى يبلغ التطوّر قمّته وغايته في الإنسان؟

---

(١) مجلّة ألف باء البغدادية، لشهر كانون الثاني ١٩٧٢، باختصار.

وهذا ما يجيب عنه (باتو) في كتابه (التحليل الرياضي لنظريّة التطوّر): «إنّ تعميم صفة من الصفات عن طريق الطّفرة في سلالة من السلالات لايمكن أن يستغرق أقلّ من مليون جيل من الأجيال المتتابعة»[١].

خامساً: لقد قرّر الخبراء نتائج أبحاثهم ودراساتهم في أقدم الحفريّات لأقدم الهياكل والرّفاة الإنسانية، أنّه ليس هناك أيّ فرق بينها وبين إنسان اليوم.

قال العلّامة الألماني (فون باير) وهو من أقطاب الحفريين والبيولوجيين في كتابه (دحض المذهب الدارويني): «إنّ الرأي القائل بأنّ النوع الإنساني متولّد من القردة السمبانية هو بلا شكّ أدخل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الإنسان، وجدير بأن ينقل إلى أخلاقنا جميع الحماقات مطبوعة بطابع جديد، يستحيل أن يقوم بدليل على هذا الرّأي المضحك من جهة المكتشفات الحفرية»[٢].

ونشرت صحيفة الأهرام القاهرية في عددها الصادر ٨ تشرين الثاني ١٩٧٢، الخبر التالي: «واشنطن، في ١٩٧٢/١/٧ وكالات الأنباء: أعلن ريتشارد ليكي، أحد علماء علم الإنسان في كينيا أنّه تمّ اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام، ويُعدّ أقدم أثر للإنسان الأوّل. وقال العالم: إنّ هذا الإكتشاف يمتدّ في أثره مليوناً ونصف مليون عام عن أثر يمكن العثور عليه حين الآن. وقد تمّ اكتشاف عظام الجمجمة مع عظام لساق بشرية ترجع إلى نفس الحقبة من التاريخ في جبل حجريّ بصحراء تقع شرق بحيرة رودلفا في كينيا. وقال العالم: إنّ هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريّات القائمة بشأن تطوّر الإنسان عن أجداده فيما قبل التاريخ»[٣].

---

(١) الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٧٢.

(٢) على أطلال المذهب المادّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٠٣.

(٣) عن مطارحات في الفكر المادّي والفكر الديني، للعلّامة المفضال الشيخ محمّدمهدي شمس الدّين.

وقال الأستاذ (فيركو) الألماني، وهو من أعلام التاريخ الطبيعي للإنسان: «إذا درسنا الإنسان الحفري في العهد الرابع، وهو الّذي يجب أن يكون الإنسان فيه أقرب إلى أسلافه، نجد إنساناً مشابهاً لنا كلّ الشّبه. فإنّ جماجم جميع الرِّجال الحفريين تثبت بطريقة لا تقبل المنازعة بأنّهم كانوا يؤلِّفون مجتمعاً محترماً للغاية، وكان حجم الرأس فيهم على درجة يعتبر الكثير من معاصرينا أنفسهم سعداء إذا كان لهم رأس مثله...»(١).

شبهة زائفة:

ومن مزاعم أنصار التطوّر وشبهاتهم الّتي ركّزوا عليها نظريّتهم أنّهم وجدوا في بعض الحفريات بقايا هيكل إنسان ناقص التكوين والتركيب مختلف عن الإنسان المعاصر، وصفوه بأنّه: ذو جبهة ضيِّقة، وفكّ ناتئ، وعنق لا يلتوي، ورأس كبير الحجم من الوراء، صغير من الأمام، واستنتجوا من ذلك نقص الإنسان القديم، وتخلّفه الجسمي والفكري عن إنسان اليوم، وأنّه على زعمهم سارَ في مدارج التطوّر عبرَ آلاف السنين حتّى بلغ قمّة الكمال الّذي يتحلّى به الآن.

وهذه شبهة واهية، ورأي خطل للنقائض التالية:

١ ـ يتناقض هذا الإدّعاء وشهادات أعلام البيولوجيين وأقطاب الحفريين المصرِّحة والمؤكِّدة بمشابهة الهياكل الإنسانية القديمة بالإنسان الحديث، ومساواتها مساواة تامّة كما صرّحت بذلك أقوالهم السالفة.

٢ ـ ويتنافى كذلك وواقع الإنسان القديم وسمات أفراده الجسمية والفكرية، وأنّهم كانوا أقوى بدناً، وأوفر صحّة، وأطول عمراً، وأعظم قدرة على مواجهة مشاكل الحياة وأزماتها المرهقة من الإنسان الحديث.

---

(١) على أطلال المذهب المادِّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٠٥.

ولو كان الإنسان القديم ـ كما يزعمون ـ ناقصاً هزيلاً جسماً وشعوراً، لما استطاع أن يعيش في جوٍّ مليء بالمخاوف والأخطار، تُطارده الوحوش الضواري فيتغلّب عليها، وتنتابه طوارئ الحياة وضغوطها، فيواجهها بكلِّ جَلَد وصمود.

٣ ـ إنّ ذلك الهيكل الإنساني القديم المتخلّف تكويناً وشعوراً لا يكون برهاناً علمياً على تطوّره وارتقائه إلى مستوى الإنسان المعاصر وكماله الجسمي والعقلي، حيث لا يجوز أن يكون ذلك الهيكل مقياساً عامّاً، وحُكْماً شاملاً على أفراد جنسه ومعاصريه ونقصهم وتخلّفهم جميعاً.

فطالما شهد الناس قديماً وحديثاً صوراً من شواذّ البشر، وناقصي التكوين والإدراك كالأقزام المُتّسِمينَ بالدمامة والقصر، أو فاقدي اليدين أو الرجلين خِلقيّاً أو المُتّصِفين بالعاهات الجسدية والعقلية ونحوهم من الشواذ والنشاز الخلقي.

ومن البديهي أنّ الشاذّ لا يُقاس عليه، ولا يُعتبر مصداقاً لعامّة نوعه.

سادساً: والأحياء فوق ذلك مهما تكاثرت وتشابهت فإنّه لا بدّ من تغايرها وتمايز بعضها عن بعض، واحتفاظ كلّ نوع بسماته الخاصّة وإطاره المعيّن المحدود لدلالة الفوارق المميّزة بينها.

فلو كان تنوّع الأحياء ناجماً عن الانتخاب الطبيعي لتلاشت جميع السمات والأطر الفاصلة والمميّزة بينها واستحالت إلى نوع واحد لا يتميّز بعضه عن بعض.

سابعاً: وممّا يؤخذ على دارون أنّه تجاهل أمرين بديهين:

١ ـ أنكر القصد والغاية في خلق الأحياء وتدبيرها، وعزى ذلك إلى النواميس الطبيعية والنّظم الآلية المجرّدة من الوعي والإدراك.

وهذه مكابرة صارخة، إذ كيف ينكر عاقل مظاهر القصد والغاية في سائر الكائنات، وكلّها ألسن ناطقة بحكمة بادئها وجلالة غايته وقصده ممّا أشرنا إليه في الأبحاث السالفة.

٢ ـ وهكذا تجاهلَ داروِن قوّة الفطن والإلهام الّتي فُطِرَ عليها الحيوان واستطاع أن يصنع بها المدهشات، رغم حرمانه من العقل والإدراك: كإعداد مساكنه، وجلب أقواته، وأساليب تكاثره، وصيانة نوعه، معلّلاً ذلك بأنّها عادات اقتبسها وراثة عن آبائه.

وَفاتَهُ أنّ هذا التعليل يستلزم أفضليّة الحيوان على الإنسان، وهو مناقض لنظرية التطوّر.

فلماذا لم يرث الإنسان العلوم والفنون عن أسلافه عفواً، من غير ممارسة وتعلّم؟

وفاته كذلك أنّ بعض أصناف الحيوان يمارس أعماله الإلهامية وإن لم يرَ أسلافه أو يراه أسلافه، ممّا ستجده مفصّلاً في عالم الحيوان ومظاهر الفطن والإلهام فيه.

وكذلك غفلَ أو تغافلَ داروِن عن قيم الجمال والحسن المتجلّية على فئات الأحياء رغم مؤشّراتها إلى القدرة الخلّاقة الّتي صاغتها وأبدعتها.

فالانتخاب الطبيعي واختيار الأقوى من الأحياء لا يُفسِّر انتخاب الأجمل والأروع منها:

فحقول النبات تزهو بصنوف الأشكال والألوان والعطور الساحرة الفاتنة.

وفي عالم الحيوان صور رائعة جذّابة كالعنادل والطواويس والغزلان.

وذلك برهان على قُدْرَةِ الصَنّاع الّتي حَبَتْها الجمال، وأضفت عليها روائع الإبداع. وليست من اختيار الطبيعة القاصرة وانتخابها المزعوم.

٣ ـ المُطابقة:

وأمّا المطابقة: وهي الرّكن الثالث لنظرية داروِن، ومغزاها حسب تفسيره أنّ المحيط الّذي يعيش فيه الحيوان وطرائق عيشه وأساليب طلبه فيه، هي سبب تنوّع

الحيوانات واختلاف أشكالها. فالأسد مثلاً إنّما صار مفترساً ذا أنياب حادّة وبراثن قاطعة لتعيّشه في محيط الغاب وممارسته حياة القنص والافتراس، فلو عاش في محيط عشبي كما تعيش البهائم العشبية لتلاشت أنيابه وبراثنه على مرّ العصور، وغدا كسائر الحيوانات العشبية.

وهكذا زوّد البطّ بغشاء يَتَخلّلُ أصابعه، لحياته في محيط مائي ومزاولة السباحة، كما طالَ عنق الزرافة لتغذيتها بأشجار الغاب الباسقة.

كيف يستسيغ العاقل هذه الفروض الوهمية، الّتي يأباها العقل والوجدان؟!

فمن الثابت أنّه ليس في قدرة المحيط وإمكانه تكييف الحيوان وتغيير شيء من أعضائه، أو تطويره إلى حيوان آخر أسمى وأكمل منه، وإنّ آثار المحيط محدودة لا تتجاوز الأعراض الطفيفة، كاللّون مثلاً.

ناهيكَ ما يشهده الناس في البيئة الواحدة، والمحيط الواحد من أصناف الحيوانات البرِّيّة المختلفة حجماً وصورةً وقوّةً وضعفاً وطبعاً ومعاشاً، وهي رغم ذلك لم يطرأ عليها أيّ تطوّر عبرَ تاريخ الإنسان وآماده السحيقة.

وهكذا الحيوانات البحرية، حيث يحتشد في البحيرة الواحدة أشتات وأصناف من الأسماك المتفاوتة والمتغايرة لوناً وشكلاً وحجماً، وكلّ منها محتفظ بسماته الخاصّة وأشكاله المتمايزة، لم يتغيّر مدى الدهور والأحقاب.

وكيف أثّر المحيط وأساليب العيش فيه في تطوير الحيوان وتكييف أعضائه ولم يؤثِّر في تطوير الإنسان، وهو سيِّد الأحياء، فتنشأ له على مرّ القرون ما حرمته ظروفه، أو أتلفته الطّوارئ من حاسّتي السّمع أو البصر، أو جارحة اليد أو الرِّجل، أن تضاعف طاقاته السمعية أو البصرية، بحيث يستطيع رؤية المرئيات النائية أو الدقيقة الّتي لا يتبيّنها إلّا بالمراصد المقرِّبة والمجاهر المكبِّرة.

وعلامَ لم تخلق له جناحين يطير بهما حيث شاء من أقطار الأرض، وأجواء الفضاء ممّا هو في أمسّ الحاجة إليه.

والبشرية بعد هذا كلّه لم ترَ ولم تسمع في تاريخها المديد شاةً تطوّرت إلى أسد، أو أسداً تحوّل شاةً، فجميع أشكال الحيوان وهيآتهِ وأعضائهِ فطريّة فيه، لم تُحدثها الأوساط المعاشية، وإنّما هي من آيات حكمة الله عزّ وجلّ وجميل صنعه، حيث أعدّ كلّ حيوان وزوّده بمؤهّلات العيش وضرورات حياته الخاصّة.

قال الأستاذ (جينو) المدرِّس بجامعة ناسي في كتابه (الأصول التكوينيّة للأنواع) الّذي نالَ عليه جائزة مرموقة لا ينالها إلّا المتفوِّقون من علماء التاريخ الطبيعي:

«إنّ هذه البيئات لا تصلح لإيجاد أيّ تغيير وراثي ثابت. وعلى ذلك، فإنّ البطّ وسائر الطيور المائية تُرى متمتِّعة بأرجل ذات أصابع متّصلة بغشاء، فيُظنّ أنّ هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها، ولكنّ الأمر على العكس من ذلك، فإنّها قد وُجدت لها مقدّماً بدون تأثير من الخارج، وأخذ البطّ يعوم لأنّه وجدَ لنفسه أرجلاً مغشّاة تصلح للعَوْم قد أُعِدّت من قبل للعَوْم، أي أنّها خُلِقت لتعوم قبل أن تستفيد من تركيب أرجلها في العَوْم»(١).

ومن هنا يتجلّى وهن فكرة (المطابقة) وعجز البيئة والمحيط عن تكييف الحيوان وتطويره.

بَيْدَ أنّ الداروينيِّين يدعمون هذه الفكرة ويُقرِّرونَها بأسلوب متّسم بالبحث والتنقيب، وهو أشبه بالفروض الظنِّيّة منه إلى البراهين العلمية السليمة.

من ذلك: احتجاجهم بوجود أعضاء زائدة عديمة الجدوى والنّفع في بعض

---

(١) على أطلال المذهب المادِّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٠٨.

الحيوانات البائدة المكتشفة في أعماق الأرض. كالعيون الأثرية في بعض الحيـوانات القاطنة في ظلام الكهـوف، أو القابعـة في الأحجار المظلمة. وكالأطراف الزائدة في بعض الحيوانات الفقرية، والّتي ضمرت وتلاشت في بعضها الآخر كالحيّات.

فاستدلّوا بذلك على وجود تلك الزّوائد في أصول تلك الحيوانات ثمّ ضمرت وزالت في فروعها وأعقابها تدريجياً لتأثير المحيط فيها، وانتفاء نفعها وغاياتها فيه.

وهذا الاستنتاج لا يعتبر قانوناً ثابتاً، ومقياساً مطّرداً عامّاً على جميع فـئات الحيوان وأصنافه، وذلك:

١ ـ إنّ وجـود عضو زائد في الأصـول العُليا من الحيـوان لا يستلزم ضرورة التطوّر، وحتميّة الإرتقاء في أعقابها بفقدانها ذلك العضو. فقد درج العرب واليهود على ختان أولادهم، منذ قرون سحيقة وأحقاب مديدة، ورغم ذلك لم يولد فرد منهم مختوناً إلّا لإعجاز نادر.

حسبكَ ما أحصـاهُ بعض علماء الحفـريّات عن الأنواع الّتي وُجـدت في بطن الأرض، فقال:

«إنّ ثمانية وعشرين في المائة لم تتغيّر، وسبعة في المائة أنواع مهاجرة، وخمسة وستّين في المائة لا سلف لها، وأمّا الأنواع الّتي نشأت بالتغيّر أو الأنواع الجديدة فلا وجود لها في شيء من بقايا الحفريّات»[(١)].

٢ ـ إنّ تلك الحيـوانات البائدة ذات الأعضـاء الأثرية الزائـدة قد تكون من الشواذ والمشوّهات خلقياً كمَن له ستّ أصابع، أو له أربع أيدٍ، أو له يدٌ فيها ثديٌ بارز كذي الثدية[(*)] الخارجي، أو له رأسان على جسدٍ واحد، أو كالتوأمين الملتصقين

---

(١) الإسلام ونظريّة دارون، لمحمّد أحمد باشميل، ص ٦٨.

(*) هذا الرّجل قُتِلَ في معركة النّهروان، وهو من الخوارج.

جانبياً التصاقاً كاملاً، ونحوها من الشواذ الّتي لا يجوز في منطق العلم اتخاذها أساساً لنظرية علمية صائبة.

وقد أعرب (دارون) عن نقطة الضعف في نظريّته هذه، فقال في إحدى رسائله:

«إنِّي لستُ من قلّة العقل بحيث أتصوّر بأنّ نجاحي يتعدّى رسم دوائر واسعة لبيان أصل الأنواع»[1].

وقال (أغاسير) وهو من أشهر علماء الطبيعة في أوربا:

«إنّ ثمّة فرقاً واضحاً بين تناسل الأنواع، وبين خلق الأنواع. فالحيوانات تتناسل فتنتج نوعها، أمّا الله فهو وحده القادر على خلق نوع جديد».

وقال:

«إنّ الفكرة الّتي يعتنقها الداروينيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلّا افتراضاً اعتباطياً يتعارَض والآراء الفسيولوجية الرصينة»[2].

ونشرت مجلّة (الإيكونوميست) البريطانية في عدد ١٠ آذار سنة ١٩٧٣، ونقلته عنها جريدة الأخبار المصرية تاريخ ٢٣ آذار من السنة نفسها:

«إنّ المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا الأمريكية قرّر أن تشير جميع الكتب المدرسية للعلوم إلى أنّ نظرية دارون هي افتراضية وليست حقيقية»[3].

وقال الأستاذ (روبرت روم) عضو المجمع العلمي البريطاني، وهو من علماء البيولوجيا المعاصرين:

---

(١) على أطلال المذهب المادِّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٠٢.

(٢) الإسلام ونظرية دارون، لمحمّد أحمد باشميل، هامش ص ٥٤.

(٣) شبهات الملحدين، للشيخ محمّدجواد مغنية.

«إنّ بحوثه الخاصّة في البيولوجيا خلال الخمسين سنة الأخيرة لم تُقنعه أنّ الصّور الحديثة للحياة نجمت عن التطوّر فحسب... وإنّ دارون رغم المكانة الّتي سيحتلّها في تاريخ الحيوان والنّبات، إلّا أنّ نظريّته في الانتخاب الطبيعي تبدو في تقديري أبعد ما تكون عن الإرضاء، بل حتّى (ألفر راسل والاس)، وهو الّذي أعلنها مع دارون سنة ١٨٥٨، قد عدل عنها فيما بعد»[(١)].

٤ ـ الوراثة:

وهي الرّكن الرابع لنظرية دارون. ومغزاها حسب نظريّته: أنّ الأبناء يرثون صفات آبائهم الجسدية والمكتسبة ثمّ يورِّثونها إلى أعقابهم، فتنشأ بذلك سلالة تختلف عن الآباء شكلاً وتتّحد نوعاً، كاختلاف الحمار عن الحصان، وكلاهما من فصيل واحد.

أمّا قصّة الوراثة، فهي قصّة شهيرة معروفة من قديم الزّمن قبل أن يعرفها علماء الغرب بآماد طويلة، كما وقد أشار إليها أهل البيت عليهم السلام في نصوص عديدة:

منها ما رواه الشيخ الصّدوق رحمه الله، عن أبي عبدالله الصّادق عليه السلام، قال:

«إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كلّ صورة بينه وبين أبيه إلى آدم، ثمّ خلقه على صورة أحدهم، فلا يقولنّ أحد هذا لا يشبهني شيئاً من آبائي»[(٢)].

فلا ريب في قصّة الوراثة، ولكن الشيء الّذي نرفضه وننكره على دارون اقتصارها على دعم نظريّته بأساليب فرضيّة، وتفسيرها تفسيراً آلياً محضاً مجرّداً من دلائل الإرادة والقصد.

---

(١) كتاب الإنسان روح لا جسد، للدكتور رؤوف عبيد، ج ٢، ص ٧٦٥.

(٢) البحار، ج ١٤، ص ٢٧٤، عن علل الشّرائع، الطبعة الحديثة.

ويحقّ لنا أن نناقشه ونحاجّه في النقاط التالية:

١ ـ لقد صرّح المعنيّون بأبحاث الوراثة بامتناع توريث الصفات المكتسبة وانتقالها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد، فلم يعهد الناس أبناء طبيب أو مهندس أو فنّان برعوا في الطبّ أو الهندسة أو الفنّ وراثة عن آبائهم دونما تعلّم واكتساب. فجميع ما يتحلّى به الأسلاف من ألوان الخصائص والمزايا الكسبية لا تنتقل وراثياً إلى أعقابهم.

كما صرّح بذلك الفزيولوجي الألماني الشهير (بلوجر)، حيث قال:

«قد بحثتُ من قُرْب جميع المشاهدات الّتي قيل إنّها تثبت انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة أي الصفات الّتي لا تشتق من التركيب الأوّلي للبيضة وللجرثومة المنويّة، بل الصفات الّتي اكتسبها الجسم بعد تكوّنه بتأثير الأسباب الخارجية، فلم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال هذه الصفات بالوراثة»[(١)].

وقال الفزيولوجي الكبير (دوبرا ريموند):

«إذا أردنا أن نكون مخلصين، وجبَ علينا أن نعترف بأنّ وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرّد الحوادث المراد تعليلها، وانّها هي نفسها من الافتراضات الغامضة»[(٢)].

وقال الأستاذ الشهير (أ. كريسي موريون) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم في نيويورك في كتابه (العلم يدعو إلى الإيمان): ص ١٤٥ ـ ١٧٨:

«إنّ القائلين بنظرية التطوّر لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة (الجينات). لقد رأينا أنّ الجينات متّفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية

---

(١) على أطلال المذهب المادّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٠٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٩.

للذرّات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحيّة. وهي تحفظ التصميم، وسِجِلّ السّلف، والخواصّ الّتي لكلِّ شيء حي، وهي تتحكّم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزّهر والثمر لكلِّ نبات تماماً.

كما تُقرِّر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكلِّ حيوان بما فيه الإنسان. ويلاحظ أنّ جميع الكائنات منفصل بعضها عن بعض بهُوّات كثيفة لا يمكن عبورها، حتّى أنّ الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك...

إنّ ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكِّر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتمّ عن طريق التطوّر المادِّي، ودون قصد ابتداعي...».

والبشر بعد هذا وذاك، رغم تشابههم في الصّور والمظاهر الشكلية، فإنّ لكلِّ فرد منهم شخصيّته المستقلّة، وفرديّته المتميِّزة عن أفراد جنسه.

قال الدكتور (ألكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، ص ٢٨٢:

«يُميِّز الأفراد كلّاً منهم عن الآخر بسهولة تقاطيع وجوههم وإشارتهم، وطريقتهم في المشي، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصّة. إلّا أنّه يمكن دائماً معرفة كلّ فرد بواسطة أبعاد أجزاء معيّنة من هيكله.. وكذلك فإنّ خطوط أطراف الأصابع مميّزات قاطعة للفرد. ومن ثمّ فإنّ بصمات الأصابع هي التوقيع الحقيقي للإنسان».

«فمن المحتمل أنّه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الّذين استوطنوا هذه الأرض كان تركيبها الكيمياوي متماثلاً... ومن ثمّ فإنّ فرديّتنا تتأصّل جذورها في أعماق ذاتنا. وتطبع الفرديّة جميع أجزاء الجسم المركّبة. فهي موجودة في العمليات الفسيولوجية. كما هي موجودة في التركيب الكيمياوي للأخلاط والخلايا».

وعلى ضوء هذا الواقع العلمي المرتكز على الخبرة الواسعة والأبحاث الدقيقة العميقة، نجد استحالة تطوّر الإنسان وارتقائه من عالم البهيمة إلى سويه الرفيع،

وامتناع ذلك بداهةً ووجداناً على التطوّر العشوائي المزعوم المؤدِّي إلى وحدة الصّور والأشكال البشرية، وجعلها صورة واحدة كنسخ الكتاب المطبوع.

٢ ـ قد يزعم دارون أنّ انتقال تلك الصفات وتوارثها كان نتيجة للطّفرات الفجائية الطارئة صدفة واتفاقاً على الحيوان وعن طريقها تناقلتها الأعقاب عن الأسلاف.

وهذه حجّة واهية، وزعم مردود، لأنّ توارث الصفات لو كان بالصدفة الطارئة فلماذا دامت هذه الصدفة وعاش الإنسان محفوفاً بصنوف العناية والتدبير، ولم تكيِّفه الصدف العابرة إلى طور أسمى وأكمل ممّا هو عليه، كأن تضاعف من طاقاته الجسمية والفكرية، فتزوِّده مثلاً بجناحين يطير بهما في أقطار الأرض وأجواء الفضاء، أو تؤهِّله لإدراك أسرار الغيب، ومعرفة ألغاز الكون وخفاياه المعماة.

٣ ـ إذا كان الإنسان ناشئاً من تطوّر القرد، وتكامله وتحلِّيه بخصائص الإنسانية ومواهبها الجليلة، فلماذا شمل قانون التطوّر بعض القرود وأغفل البعض الآخر منها، فهي على حالها لم يَعْرُها أيّ تطوّر وارتقاء حتّى اليوم، وليس في القانون ما يُشعِر بالتبعيض، كما ليس في القرود المشابهة للإنسان فروق تستلزم هذا الخلاف.

وهنا اعترف دارون بقصوره وعجزه عن ردِّ هذا الإشكال، فقال: «طالما تساءل بعض الباحثين: كيف أنّ أثر الانتخاب الطبيعي ما دام بالغاً إلى تلك الحدود البعيدة القصيّة، لم يُستحدث في أنواع معيّنة تراكيب إنْ استحدثت فيها كانت ذات فائدة كبيرة لها؟..

غير أنّه ممّا يُضاد بديهة العقل أن نحاول الإجابة على هذا السؤال وأمثاله إجابة بيِّنة، إذا ما قدّرنا مبلغ جهلنا بتاريخ كلّ نوع من الأنواع»[1].

---

(١) أصل الأنواع، دارون، ص ٤٤٧.

٤ ـ إن نشأة الإنسان وتطوّره من القرد يستلزم وجود حيوان متوسِّط بين القرد والإنسان، وهو الحلقة المفقودة في هذه الأرض، فأين هو؟!!

٥ ـ إنّ الطّفرة لا تكون سبباً حتمياً في رُقي الحيوان وتطويره إلى سويّ وأرقى وأكمل ممّا هو عليه، إذ قد تُسبِّب هلاكه أو إضعافه أو تشويهه، كما صرّح بذلك الدكتور (وولتر ادوارد لامبرتس) أستاذ الوراثة في جامعة كاليفورنيا، حيث قال:

«إنّ الدراسة الطويلة المتّصلة لهذه الطّفرات في كثير من الكائنات تدلّ على أنّ الغالبية العظمى من الطّفرات تكون من النوع المُميت، أمّا الأنواع غير المُميتة منها، فإنّ التغييرات المصاحبة لها تكون من النوع الّذي يؤدّي إلى التشويه أو على الأقل من النوع المتعادل الّذي يُحدث تأثيرات فسيولوجية تُضعف من قوّة الفرد.

فمن الصّعب إذن أن تؤدّي تجمّع هذه الطّفرات الوراثية إلى التغيّرات اللّازمة لنشأة أنواع جديدة تُعتبر أكثر تقدّماً ورُقيّاً من أسلافها»[١].

هذا إلى أنّ الطّفرات الفجائية لو كانت السبب الوحيد في تنوّع الأحياء وتطوّرها لأودى ذلك بنظرية التطوّر ونسفها نسفاً، لارتكازها على وحدة مبدأ الأحياء، وانبثاقها جميعاً من جرثومة واحدة، ارتقت صعداً في مدارج التطوّر والانتخاب الطبيعي من أحياء نباتيّة فحيوانيّة حتّى بلغت قمّة التطوّر في الإنسان.

وهذا مناقض لواقع الطّفرة بداهة ووجداناً.

٦ ـ والتشابه بعد هذا كلّه بين حيوانين لا يحتّم انحدارهما من أصل واحد، فمشابهة البعوضة للفيل، والهرّ للأسد، والحمار للحصان، لا يستلزم اتحاد أصولها إلّا في الفروض الظنّية.

---

(١) الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٧٢.

فوجود ملامح الشّبه بين الإنسان والقرد لا يوجب انبثاقهما من أصل واحد، وانحدار الإنسان من سلالة القرود، للفوارق الكبيرة الجسمية والعقلية بينهما.

فمن الفوارق الجسدية، اختلافهما في الدماغ «وقد أجمع الباحثون أنّ معدّل وزن الدماغ في أصناف الإنسان العُليا يكون متوسّطه في الرِّجال (١٣٦٠ غراماً)، وفي النِّساء (١٢٠٠ غراماً)، وأعلاه (١٦٧٥ غراماً)، وأدناه (١٠٢٥ غراماً)، وما نقص عن ذلك يدلّ على البلاهة واضطراب العقل والجسم معاً.

وأمّا في القردة وهي أكبر الحيوانات دماغاً (بالنسبة لجسمها)، وخصوصاً أصنافها العُليا الأكثر شبهاً بالإنسان كالأورانج، فمعدّل الوزن المتوسّط لأدمغتها (٣٦٠ غراماً)، وأقصاه (٤٢٠ غراماً)»[١].

وهكذا يتّسع بَوْن الفوارق في الخصائص العقلية والفكرية المتجلِّية في الإنسان، حيث فاقَ سائر الأحياء وسادهم بمحاكماته العقلية، وطاقاته الفكرية الضخمة، كقدرته على هضم العلوم واستيعابها، وانتاجه الفنِّي الرائع، وتفهّمه واعتناقه للدِّين، ورعايته مبادئه وأحكامه، ونحو ذلك ممّا يعجز الحيوان عن وعيه وإدراكه.

وهكذا يمتاز الإنسان عن الحيوان بقوّة النطق الّتي يستطيع بفضلها التفاهم والتعبير عمّا يدور في خلده من مختلف المعاني والمفاهيم الّتي لا يملكها الحيوان الأعجم.

إلى كثير من الفوارق والخصائص الّتي ازدان بها الإنسان وعطل منها الحيوان، ممّا أشرت إليه آنفاً في (عظمة المواهب) من عالم الإنسان.

هذه لمحات خاطفة من مناقشة دارون، ومَنْ شاء التوسّع فليرجع إلى الكتب المتخصِّصة والواسعة في ردِّه.

---

(١) كتاب الوجود، للسيّد محمود أبو الفيض المنوفي، ص ٢٠٩.

عالم الحيـوان

وهكذا نجد عالم الحيوان عجيباً مدهشاً زاخراً بأصنافه العديدة وفصائله الجمّة الّتي هي أكثر من مليوني فصيلة، كما يُقدِّرها المعنيّون بدراسة الحيوان.

ولو استعرضنا أوصاف الحيوان، وطبائعه، وأساليب معاشه وخصائصه المختلفة، لاقتضانا بحثاً مسهباً يحرف هذا الكتاب عن موضوعه ونهجه المرسوم.

بيدَ أنِّي أقتصر على جانب واحد من خصائصه، وهو جانب الفطنة والإلهام الّذي حباهُ الله تعالى به، ومكّنه من ممارسة أعماله المدهشة رغم حرمانه من العقل والإدراك.

وإليكَ أمثلة مجملة من مظاهر الإلهام في نماذج مختلفة من الحيوان كالنّمل، والنّحل، والطّير، والسّمك، معروضة كما يلي:

١ ـ النّمل:

وهو رغم ضآلته، مضرب الأمثال في همّته ونشاطه وروحه الإجتماعية، وتعاطفه المثالي، فترى أفراده يتعاونون على إعداد مساكنهم وجلب أقواتهم تعاون البشر في إنجاز مهمّاتهم.

وللنّمل براعة فائقة في هندسة قراه وتصميم بيوته بأسلوب يلائم حياته، يُنْشِئُها على طبقات ومرافق يستغلّ بعضها لسكناه والآخر لمؤنته وطعامه.

وهو ذو فطنة مدهشة في طلب قوته، وادّخاره، وصيانته من التعفّن والفساد. يخرج للرّعي أسراباً، وحين تعثر إحداهنّ على طعام أسرّت به إلى أخدانها فيسرعن إلى جلبه وحرزه، فإذا ناءتْ إحداهنّ بحملها سارعَ النّمل لمؤآزَرَتها والتخفيف عنها.

ثمّ يعمد إلى الحبوب المدّخرة فيقسمها نصفين، خشية عليها من التسوّس والإنبات، إلّا الكزبرة يقسمها أرباعاً لأنّ كلّ نصف منها قابل للإنبات.

وإذا خشى أن يدبّ الفساد والعفن إلى طعامه، نشره على وجه الأرض صيانة له من ذلك.

ويضرب النّمل أرفع مثل في التعاطف والتآزر والصّفاء، فقرية النّمل بأسرها ومجموع سكّانها تسعى جاهدة متكاتفة في إنجاز مهمّاتها وتحقيق صالحها العام.

فمِنْها المعنيّ بهندسة القرية وإنشائها، ومنها حرّاس القرية وحُماتها من غزو النّمال الأخرى، ومنها المُكلّف بتربية صغار النّمل، ومنها جلّابة الطّعام وخزنه، وكلّها تعمل في تكافل وتعاطف مدهشين.

قال أحد الباحثين في الحيوان:

«رأيتُ إحدى نمالي مكسورة الرِّجل وأخواتها يطعمنها ويعتنين بها، وظللتُ أشهد منهنّ هذا المعروف مدّة ثلاثة أشهر بطولها»(١).

وأعجب من ذلك، الوئام والسّلام اللّذين يعيشها النّمل، فبرغم وفرة النّمل وازدحامه في قريته الّتي قد تبلغ (٥٠٠) ألف نملة، لا يحدث بينها تحاسد وخصام، وكلّهنّ ينعمنَ بحياة سليمة وادعة لم تحقّقها البشرية ولا تحلم بها، وفي ذلك عبرة للإنسان الّذي لا ينفكّ عن محاربة أخوانه البشر والكيد لهم.

---

(١) محاسن الطبيعة، اللورد أفبري.

وقد صرّح علماء الحيـوان: أنّ للنّمل ـكما لغـيره من أصناف الحيـوان ـ لغة يتـفاهم بها أفـراده، ولولا ذلك لما اسـتطاع الإسهام بأعماله الإشـتراكية ونشـاطه الإجتماعي.

ومواطن العبرة من هذا البحث، كيف استطاع النّمل إنجاز أعماله الدقيقة، ذات الغاية الهادفة، وهو خِلوٌ من العقل والإدراك؟!

أليسَ ذلك دليلاً على أنّ للنّمل خالقاً وهبه الفطنة والإلهام لتنظيم حياته وتدبير شأنه...؟

٢ ـ النّحـل:

وللنّحل من الفطنة والإلهام ما يفوق النّمل، فمن مظاهر فطنته تصميم خلاياه بأسلوب رائع يعجز المهندسون عن محاكاته إلّا باستخدام الأدوات والآلات، حيث أنشأ ثقوبها مسدّسة الأضلاع، وهي: الشكل الفريد الّذي لا تحدث بينها فرج مهملة، لا تجدي نفعاً.

وكوّن الخليّـة من مرافق عـديدة وزّعها بين رعـاياه، فلملكة النحّـل مرفقها الخاص، ولذكور النّحل وعُمّاله كذلك، وأعدّ للعسل مخزناً ملائماً له.

ومن خصائص النّحل وصفاتها الإجتماعية أنّ أسرته مؤلّفة من الملكة، وهي أمّهنّ وسـيِّدتهنّ المُطاعـة، ورعاياها هم أبناؤها المخلصـون الّذين يبادلونها الحبّ، ويسعون في خدمتها وإسعادها.

وهذه الأسرة رغم عددها الكبير الّذي قد يبلغ (مائة ألف نحلة) تحيا حـياة إجتماعية: فمِنْها مَنْ يتولّى إعداد الخليّة وبناءَها، ومِنْها مَنْ يُعنى بتربية أفراخ النّحل، ومِنْها حرّاس الخليّة والمدافعة عنها، ومِنْها المتطوّع بإنتاج العسل، وكلّها تسير على نظام إجتماعي سديد، قوامه التآزر والتعاضد.

ومن غرائب النّحل: أنّه لا تجتمع ملكتان منهنّ في خليّة واحدة، فإذا اجتمعتا تنازعتا مُلك الخليّة وسلطانها، حتّى تقضي إحداهنّ على الأخرى، أو تنزح بثلّة من أتباعها إلى موطن آخر لتُنشئ بدورها خليّة جديدة، وبذلك تتكاثر الخلايا، ويزداد إنتاج العسل.

وما أروع خروج النّحل في طلب الرّعي، إذ يخرج زمراً وأسراباً يتنقّل بين أكمام الورد وأفنان الشّجر، مُنْتَخِباً من رحيقها ما لذّ له وطاب، ثمّ يعود أدراجه إلى الخليّة، بيدَ أنّه لا يدخلها حتّى تتحسّسه الملكة، حرصاً على سلامة النّحل وطيب مرعاه، فمَن أحسّت بقذارة رعيه وخُبثه، طردتهُ عن الخليّة، وربّما قتلته، صيانة للعسل من التسمّم والفساد.

ونحنُ إذا استعرضنا أعمال النّحل، وجدناها عجيبة مدهشة، رغم قصوره وحرمانه من الوعي والإدراك، وذلك ما يؤكّد أنّ فطنة النّحل ليست ذاتيّة فيه، وإنّما هي إلهام من المُبْدِع الأعظم الّذي خلق النّحل وسخّره لصالح الناس.

٣ـ الطّير:

وهكذا تتجلّى آيات القصد والتدبير في خلق الطّائر وتيسيره لما خُلِقَ له، فإنّه لمّا كان من شأنه التحليق في الجوّ. خُلِقَ فارِهَ الجسمِ مدمَجَ الأعضاء، ذا قادمتين عِوَضاً عن أربع، ومخرج واحد لِلذّرْقِ والبول بدلاً من اثنين منفصلين، وخُلِقَ ذا جؤجؤ ليستعين به على اختراق الهواء، واكتسى بدنه الرِّيش ليتخلّله الهواء ويعينه على الطّيران، وحيث كان يقتات الحبوب خُلِقَ ذا منقار صلب يلتقط به طعمه.

تأمّل كيف يحتضن الطّائر بيضه، ويُعنى بأفراخه عناية مدهشة، تراهُ جاثماً على بيضه أيّاماً عديدة، حتّى إذا انفلق البيض عن أفراخه طفق يرعاها برأفة بالغة وحنان جم، يغذّيها تارةً ويحتضنها أخرى، باذلاً في سبيل ذلك عناءً شديداً.

فَمَنْ الّذي قسر الطّير على احتضان بيضه، وهو الطّائر المتحرِّر الّذي لا يعرف القسر والتقيّد..؟ ومَنْ كلّفه بالتقاط الحبّ ولفظه بعد ازدراده في أفواه أفراخه تغذيةً لها..؟

ولماذا احتمل هذه المعاناة وهو خِلوٌ من الوعي والشعور، ولا يأمل في أفراخه ما يأمله الإنسان في أولاده من المكافأة..؟

ومن عجائب الطّير هجرة بعض أنواعه إلى الأصقاع النائية ثمّ عودته إلى موطنه الأوّل، قاطعاً في رحلته آلاف الأميال. من ذلك ما حكتهُ مجلّة المختار في عددها (٣٥) لسنة ١٩٤٦:

«إنّ سبعة من السنونو أُخِذَت في (برمن) بألمانية، ولوِّن ريشها بدهان أحمر يُميِّزها، ثمّ حُملت بالطائرة إلى (كرويدن) بانجلترا، ثمّ أُطلِقَ سراحها، وفي بكرة اليوم التالي عادت خمسة منها سالمة إلى أوكارها في (برمن)».

أليست هذه دلائل الفطنة والإلهام، تشهد بوجود المُلْهِم الأعظم الّذي خلق الطّير وزوّده بتلك القوى الإلهامية.

٤ ـ السّمك:

وهكذا تجد آيات القصد والتدبير واضحة في خلق السّمك وملائمته لمحيطه:

فحيث كان مقرّه الماء خلا من القوائم، وعُوِّض عنها بزعانف وأجنحة صلبة، يستخدمها في السباحة كما يستخدم الملّاح المجاذيف في تسيير السفينة وشقّها عباب الماء.

واكتسى درعاً من القشور، ليقيه أذى الصّخور والعوائق، وخلا من الرِّئة ـ لانتفاء جدواها في الماء ـ وعُوِّض عنها بغلاصم وخياشيم يتنفّس بها في أعماق الماء، حيث يعبّه بفمه ويلفظه من غلاصمه مستخلصاً بذلك الهواء المذاب بالماء.

وجُهِّز بكيس هوائيّ يعينه على الغوص في أعماق البحار ويضبط توازنه في طبقات المياه، وهو يتكيّف آليّاً حسب حاجة السّمك، فحينما يغور في الماء يتضاءل الكيس ليسهل انحداره إلى أعماقه، ومتى اتّجه إلى سطح الماء تضخّم ذلك الكيس ليمهِّد صعوده وطفوه عليه.

وللسّمك حاسّة مدهشة، يدرك بها العوائق والصّخور ويتفادى الاصطدام بها: ذلك أنّه زُوِّد بأعضاء حسّاسة مرهفة تحسّ بتغيّر الماء واختلاف ضغطه بمروره على بعض العوائق، فيتحاشاها وينحرف عنها.

ولمّا كان السّمك ضعيف البصر، لا يرى طعمه في لجج الماء وغمراته، مُنِحَ شامّة قويّة يستشمّ بها غذاءه ويهتدي إليه من بُعْدٍ شاسع.

ومن مظاهر التدبير في السّمك: وفرة نسله، فإنّه لمّا كان عرضةً للتّلف والنّفاد، لافتراس كباره صغاره، واصطياد الطّير قسماً منه، واستهلاك الإنسان كمّيات كبيرة منه، كان من الحكمة أن يكون بهذه الوفرة ليفي بأقوات الإنسان والحيوان.

وفي ذلك دلالة ساطعة بحُسن تدبير الخالق وسموّ حكمته وقصده.

ويشاء المادِّيون أن يتجاهلوا ويتعاموا عن فطنة الحيوان وإلهامه، زاعمين أنّ أعماله ونشاطاته ليست وليدة الإلهام، وإنّما هي من نتائج تجاربه المتوالية، أو بواعث حاجاته المُلحّة أو ثمرات تقليده ومحاكاته لعادات أسلافه.

وهو تخرّص واهم: كيف يقدر الحيوان على استقراء التجارب، وضبط وقائعها، واستنباط نتائجها وهو عديم الوعي ؟!!

وكيف تبعثه الحاجة على ممارسة أعماله، وهو يمارسها قبل إحتياجه إليها ؟!!

فالنّمل مثلاً يدّخر في الصّيف مؤنة الشّتاء، ويجهد في صيانة قوته لمستقبله في وقت هو مستغنٍ عنه.

ولو كانت الحاجة ـ كما يزعمون ـ باعثـة على أعماله، فعلامَ يسهم في أعمال لا تخصّ فرده، وإنّما تعمّ نوعه وكافّة أفراده.

وهكذا ينتقض زعم محاكاتها لآبائها بنمطٍ من الحيوان يمارس أعماله الإلهامية، وهو لم يرَ آباءه ولم يره آباؤه.

ولو جازت المحاكاة على الحيوان، فلِمَ لا يستطيع الإنسان الجاهل محاكاة آبائه العلماء والفنِّيين ومجاراتهم في نشاطاتهم العلمية والفنِّية..؟!!

وكيف يحقِّق الحيوان ما يعجز عنه الإنسان؟!!

وإليك مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة، يُعْرِب عن فطنة الحيوان وممارسة أعماله رغم حرمانه من رؤية أسلافه:

«من تلك المشاهدات، أنّ الحشرة المسمّاة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة(*)، أي أنّها لا ترى لها ذرِّيّة أبداً وليس فرد من أفرادها رأى له أُمّاً أو ولداً. ولكن من العجيب أنّ هذه الحيوانات قبل أن تبيض، تُعنى غاية العناية بجمع جثث حيوانيّة تضعها بجنب البيض لِتَصْلُحَ غذاءً لصغارها متى خرجت. ألا يدلّ هذا على الإلهام الإلهي؟»[1].

«ومن عجائب الإلهام، أنّ الحيوانات المسمّاة (أوديتير) و (وسفكس) فإنّ صغارها متى وُلِدَت احتاجت أن تتغذّى بأجساد حيوانات حيّة. فترى أُمّهاتها متى باضت تعمد إلى اصطياد حيوانات لا تقتلها ولكن تضربها بحيث تمنعها الحركة وتركمها بعضها على بعض، على تلك الحالة من العجز. فإذا خرجت صغارها وجدت أمامها

(*) تأكل صغار العقرب أُمّهُنَّ ويخرُجْنَ من بَطنها.

(١) على أطلال المذهب المادِّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٢٣.

حيوانات حيّة، وإن كانت لا تستطيع الحركة»[1].

لغة الحيوان:

ويجدر بي أن أُلِمَّ إلمامة قصيرة في لغة الحيوان، وأشير إليها إشارة خاطفة: «أثبت العلم أنّ لكلِّ نوع من أنواع الحيوانات لغة خاصة به، يتفاهم بها، ويتعارف مع غيره على أحواله وأحوال ما حوله..

فهذه الدّجاجة تُصدِر أصواتاً خاصّة مميّزة، فسرعان ما يُقبِل إليها أفراخها وتلتقط معها الحبّ، وتُصدِر أصواتاً مخالفة، فإذا بالأفراخ تأوي إلى العشِّ في لحظة.

والنّحلة إذا عثرت على حقل مُزهر، عادت إلى الخليّة، وما أن تتوسّطها حتّى ترقص رقصاً خاصّاً، فإذا بالنّحل يندفع إليها، ويسير خلفها إلى حيث تهديه النّحلة إلى الزّهور.

والنّمل متى اكتشفت إحداهنّ طعاماً، عرّفت به لدّاتها وأترابها، فيسرعنَ إلى جلبه وٱدِّخاره، ويتآزرنَ على إنجاز مهامهنّ.

وأصوات الغراب مميّزة تميّزاً واضحاً، فنعيبه أكبر دليل على الخطر، وهو يُصدِره ليُحذِّر أبناء جنسه، بينما يُصدِر في مرحه ولعبه أصواتاً أخرى تقرب من القهقهة.

وأثبتت التجارب المتعدِّدة حقيقة واقعة، وهي: أنّ السّمك يسمع ويُميِّز ويستجيب، وهذه إثباتات وجود لغة وتخاطب بين الأسماك بعضها وبعض.

ويفهم الحيوان لغة الإنسان ويستجيب لها: كما يدعو الإنسان الدّجاج إلى الغذاء بصوتٍ معروف، ويدعو الأوز والبطّ بصوتٍ مُغاير، ويدعو الدّواب إلى الشّرب بالصفير.

---

(١) نفس المصدر، ص ١٢٤.

وكلّنا نعلم أنّ الكلب في المنزل يَعْرِفُ ويُنفِّذ أوامر سيِّده.

وفي أمريكا رجل اسمه (جاك ماينز) تخصّص في دراسـة الأوز البرِّي، وبلغ من علمه بلغتها أنّه يستطيع أن يدعو سرباً طائراً إلى النّزول حيث يختفي، وذلك بأن يُخاطب الأوز بلغتها، ويُخبرها بوجود بركة صالحة وطعام كثير...»[١].

(١) كتاب الله والعلم الحديـث، للأسـتاذ عبدالرزّاق نوفل، ص ١٣٤ ـ ١٣٩، بتصرّف واختصار.

عالم النّبات

وهكذا تأخذك الدهشة والإعجاب وأنت تستعرض عالم النّبات، وتستجلي صفاته وخصائصه الدالّة على مُبدعه العظيم.

وفيما يلي عرض خاطف وجيز لأطوار الشّجر وعناصره وخصائصه وآثاره حسب العناوين التالية:

١ ـ البذرة:

وهي في الأغلب: حبّة صغيرة متى استُنْبِتت في الأرض إنفلق أعلاها عن سُويق دقيق، وانشقّ أسفلها عن جُذير ضئيل، وتقطع البذرة مراحل التطوّر لتغدو بعد فترة من الزّمن شجرة باسقة ذات أغصان وارفة وأزهار عطرة وثمار شهيّة.

وقد أمدّت عناية الله تعالى (البذرة) بموارد الغذاء، ومقوّمات النموّ والإزدهار، فهي في طورها الأوّل وحينما يستيقض جنينها، يتغذّى بمحتوى البذرة حتّى إذا ترعرع قليلاً واستنفذ غذاءه منها، استمدّت البذرة تموينها من التربة والجوّ كما سنوضِّحه في الأبحاث التالية.

ومن عجائب (البذرة) أنّ الله عزّ وجلّ خطّط سمات وخصائص كلّ نوع منها كما خطّط بيوض الحيوان لتمايز بعضها عن الآخر.

وعلى ضوء هذا التخطيط تتواجد النّباتات والأشجار والثِّمار حسب أنواعها وإنتاجها.

٢ ـ الجـذور:

وهي رغم دقّتها وطراوتها تُمثّل أدواراً مدهشة: فهي تركّز الأشجار وتُمسكها عن السقوط كما تُمسك الأطناب عمد الخيمة، ولولاها لانقلع الشجر في الرّيح العاصف، وتُزوّدها بالغـذاء بامتصاصها المـياه والأملاح من الأرض وتوصلها بعروق دقيقـة إلى عناصر الشـجر وفروعه المختلفة، وقد فاقت الجذور بعملها هذا عباقرة المحلّلين والكيمياويين، حيث تعمد إلى تحليل التربة واسـتخلاص العناصر الغذائيـة للشجر ونبذ غيرها من المواد، تعمل ذلك تلقائياً من غير آلة وأداة، وذلك ما يقصر عنه أمهر المحلّلين والكيمياويين.

ومن خصائص الجذور أنّها مطبوعة على الغـور في الأرض، فلو رفعتها نحو الفضاء سرعان ما انعطفت إليها لأداء وظائفها المقرّرة.

كما أنّها لا يصدّها عائق عن سيرها وتغلغلها في حنايا الأرض، فهي تتنكّب العوائق والصّخور ما وسعها ذلك، فإن لم تجد بدّاً من اختراقها أفرزت عليها أحماضاً تذيبها وتيسّر نفاذها فيها، لذلك تجدها رغم ضعفها وطراوتها تثقب الصخور الصّلدة الّتي يعجز ثقبها السّنان النافذ.

وذلك برهان على عناية الله تعالى ورعايته لسـائر الكائنات والأحـياء حتّى الجذور الغائرة في التّراب.

٣ ـ السّـاق:

وهو عماد الشّـجر ومظهر جماله، وملاك نمـوّه وازدهاره: حيث ينقـل المـياه والأملاح من جذور الشّجر إلى فروعه المتشعّبة وعناصره المختلفة، كما يوزّع المواد الغذائية المصنوعة في أوراق الشّجر إلى مختلف أجزائه وفروعه.

ويختلف السّاق دقّة وضخامة وانتصاباً في الهواء وامتداداً على الأرض باختلاف

نوع الشّجر وإنتاجه، فما كان ثمره ثقيلاً كالرقّي والبطّيخ(*) والقرع، جُعِلَ ممتدّاً على الأرض، إذ لو كان منتصباً لتقصّف من حمله، فتراه منسبطاً تحفّ به ثماره إنبساط الهرّة وحولها جِراءَها ترتضع منها.

وذلك من آيات القصد والتدبير في عالم النّبات.

٤ ـ الوَرَق:

ثمّ ٱرمق بطرفك أوراق الشّجر تجدها متحلّية بلونها الجميل وهيئتها البديعة ونسجها الرّائع، ولها وظائف هامّة، نجملها في النقاط التالية:

أ ـ التركيب الضّوئي: وهو عملية يستخلص النّبات بها غذاءه: ذلك أنّ النّبات يستمدّ غذاءه من الأرض والجوّ، فيأخذ من الأرض المياه والأملاح، ومن الجوّ ثاني أوكسيد الكاربون، وتجتمع هذه العناصر في إطار الورق لتجري عليها تفاعلات كيمياوية، تحيلها إلى مواد غذائية للنّبات، كالسكّر والنّشاء. وسُمِّيت هذه العملية بالتركيب الضّوئي، لتوقّفها على ضوء الشمس.

ب ـ النّتح: وهو عملية تبخير المياه الزائدة عن حاجة الأشجار والنّبات بواسطة ثغور الورق، حيث تمتصّ أضعاف حاجتها من الماء ممّا يُسبِّب خفّة أملاحها، فيعمل على تركيزِ الزائدِ منه.

وللنّتح أهمية كبرى في تلطيف الجوّ وعذوبة هوائه، فقد تنتح شجرة واحدة زهاء خمسمائة لتر من الماء. وينتح رطل من النّبات أضعاف وزنه خمسمائة مرّة طيلة حياته.

(*) يُسمِّي العرب هٰذين النوعين بطِّيخاً فيقولون: بطِّيخ أحمر وبطِّيخ أصفر، أمّا استعمال لفظ (رقّي) فهو خاص بالعراقيين، وفي شبه الجزيرة العربية يقولون: حَبْحَب. دِبشي.

والجهاز الثّغري من روائع القدرة وآيات الإبداع، فهو ـ كما يتراءى في المجهر ـ مؤلّف من فتحة تُسمّى (الثّغر) وعلى جانبيه خليّتان تعملان على تنظيم فتحه وإغلاقه تبعاً لحالات النّتح ومقاديره المنوطة بحالات الجوّ، فهو يكثر بجفافه وارتفاع حرارته، ويقلّ بهبوطها.

وحينما تنشط عملية النّتح، تفتح الخلايا ثغور الورق للتبخير، ومتى ضعفت أقفلت ثغورها لمنعه.

ج ـ التنفّس: النّبات يتنفّس تنفّس الحيوان، يستنشق الأوكسجين ويلفظه ثاني أوكسيد الكاربون.

وفي حالة التركيب الضّوئي، يمتصّ ثاني أوكسيد الكاربون ويلفظه أوكسجيناً نقيّاً، نقيض عمله الأوّل.

وقد تجلّت حكمة الله وتدبيره في تكييف الهواء، وتعادل عنصريه، حيث تستهلك الأحياء أقداراً هائلة من الأوكسجين وذلك ما يُسبِّب نفاد عنصره في الجوّ، وصيرورته غازاً خانقاً، وقد تلافت العناية الإلهٰية هذا الخطر عن طريق النّبات، إذ جعله يمتصّ (ثاني أوكسيد الكاربون) لغذائه ويحيله ثانية إلى الجوّ أوكسجيناً نقيّاً.

وهكذا لو دأب الشّجر على امتصاص ثاني أوكسيد الكاربون لنفد عنصره الضروري في الهواء، بيدَ أنّ التدبير الإلهٰي عادله وعوّض عنه بما تلفظه أنفاس الأحياء.

فَمَنْ تأمّل وظائف الأوراق، وجدها مختبرات دقيقة مدهشة تعجّ بآيات الصانع الحكيم.

ورق الغصون إذا نظرتَ دفاتر مشحونة بأدلّة التوحيد

٥ ـ الأزهار:

ولو نظرتَ أفنان الشّجر وجدتها متوّجة بالأزهار اليانعة، ذات التركيب البديع، والألوان الزّاهية، والرّوائح العطرة، الّتي تنعش النّفس وتهزّ الوجدان.

ومن عجيب تدبير الأزهار: أساليب تلاقحها وتكاثرها، فمنها: ما يضمّ أعضاء التذكير والتأنيث، ويجري تلاقحها ذاتيّاً في نفس الزّهرة، ومنها: ما يُلقِّحه الهواء بما يحمله من ذرّات اللِّقاح، ومنها: ما تُلقِّحه الحشرات.

فالأزهار الملقّحة بالهواء عاطلة من الجمال والشّذى والأريج(*)، لاستغنائها عن اجتذاب الحشرات وتشويقها بهٰذهِ المغريات.

والأزهار الملقّحة بالحشرات مزدانة بالألوان الزّاهية، والأرج الفيّاح الباعثين على ارتيادها وتلقيحها.

وهكذا تتفتّح الأزهار وتنكمش بحساب وتقدير.

فالأزهار الّتي تُلقِّحها حشرات النّهار، تجدها مفترة ضاحكة خلال النّهار، فإذا خيّم اللّيل انكمشت وانطوت على نفسها حتّى الصّباح.

والأزهار الملقّحة بحشرات اللّيل، تراها ذاوية خلال النّهار، فإذا دجى اللّيل تفتّحت أكمامها وفاحَ أرجها اجتذاباً لتلك الحشرات، وتجد الأزهار الملقّحة بالهواء مفترة ضاحكة ليل نهار، لتلقِّحها به في كلّ وقت، وذلك برهان حسِّيّ على قدرة الصّانع وحكمة قصده وتدبيره.

٦ ـ الثِّمار:

وهكذا تجد آيات التقدير والتدبير جليّة في الثِّمار، والفواكه بألوانها الزّاهية وطعومها الشهيّة ومنافعها الجمّة.

(*) الأرج والأريج: عِطر الأزهار والأوراد.

فانظر كيف تطوّرت (البذرة) من خليّة دقيقة إلى شجرة باسقة مزدانة بالأزهار والثِّمار.

وكيف اتّحدت عناصر البذرة، واختلفت في نتائجها وأطوارها، فتفرّع منها السّاق والورق، والزّهر والثّمر، وكلّها من مادّة واحدة.

وكيف استحالت الأملاح الأرضية الّتي امتصّها الشّجر إلى أجزاء نباتيّة ذات حياة ونموّ.

وكيف انبثقت الأزهار والثِّمار من أخشاب الشّجر وعناصره المجرّدة من كلِّ طعم وعطر.

وتأمّل بعد هذا عامّة الأشجار والنّباتات، كيف اتّحدت مقوّمات نموّها وازدهارها، واختلفت في طبائعها وخصائصها.

فمنها: المُسَخِّن والمُبَرِّد، ومنها: المنبِّه والمنوِّم، والمحزِن والمفزع، والسّام والشّافي. وكلّها تعيش في صعيد واحد، وجوّ واحد، وماء واحد، وتنتج غذاءَها وثمارها من كاربون واحد.

وهكذا اختلفت وتمايزت طولاً وقصراً، ودقّةً وضخامةً، وفي أشكال أوراقها، وألوان أزهارها، وأرج عطرها، واختلاف ثمارها، وتنوّع طعومها، وسنيّ عمرها رغم تجاورها، ووحدة تربتها ومائها وهوائها.

أليسَ ذلك برهاناً ساطعاً على حكمة القصد والتدبير في عالم النّبات؟!!

وقد يعزو المادِّيون اختلاف الأشجار إلى اختلاف بذورها، وهو تعليل لا يبطل وجه الحكمة والتدبير في عالم النّبات.

فقد رأينا الأشجار ذات النّوع الواحد، قد اختلفت في الطّعم، وتفاضلت في الأكل، فالرمّان فيه الحلو والحامض والجيِّد والرّديء، وكلّه نوع واحد.

وفضلاً عن ذلك، مَنْ الّذي أوجد البذور، وصيّرها أنواعاً مختلفة، وكلّها من مادّة واحدة وعناصر متّفقة..؟

وذلك دليل على وجود الخالق وحكمة إيجاده وتدبيره.

﴿وَفِي ٱلأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ، وَجَنّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ، يُسْـقىٰ بِماءٍ واحِدٍ، وَنُفَضِّـلُ بَعْضَها عَلىٰ بَعْضٍ فِي ٱلأُكُلِ، إنّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. (الرّعد / ٤)

«ومن ضمن ما أثبتتهُ الإكتشافات الحديثة في النّبات أنّه يوجد به هرمونات كتلك الّتي توجد في الكائنات الحيّة الأخرى، وإنّ هذه الهرمونات عبارة عن مواد منسّقة ومنظّمة تشرف على جميع العمليات الحيـويّة الّتي تتمّ في النّـبات، ومن هذه الهرمونات ما يختصّ بالمحافظة على الأزهار فيحول دون سقوطها قبل اكتمال نموّها.

ومنها: ما يختصُّ بالثِّمار لنفس الغرض، وتوجد هرمونات تنظِّم عملية إنضاج الثِّمار وتُحدِّد الوقت المناسـب لذلك، وأيّ اختلال فيها قد يُسبِّب نضـوج الثِّمار في وقتٍ أسرع أو يؤخِّره..

كما أنّ هناك هرمونات تتدخّل في عمليـة توزيع الغـذاء على أجزاء النّـبات المختلفة، فتعطي الثِّمار الأفضلية على غيرها في الحصـول على الأغذية المجهّزة، وقد تحقّق العلماء من أنّ جميع الظّواهر المرضية في النّبات والّتي منها نقص الإنتاج الثّمري، أو رداءة صـنفه، أو إصابتـه بأيّة أمـراض إنّما يرجع ذلك إلى نقص إفراز الهرمـون الطبيعي في النّبات.

وقد أمكن تعويض ذلك باستعمال هرمونات صناعية تُشابه في نتائجها الهرمون الطبيعي الّذي يفرزه النّـبات، وما زال العلـم يبحـث أيّ أجزاء النّـبات يفـرز هذا الهرمون...»[1].

---

(١) الطريق إلى الله، للأستاذ عبدالرزّاق نوفل، ص ٤٦.

البراهين القرآنية
على وجود الله تعالى

لقد اشتمل القرآن الكريم على تبيان كلّ شيء، وحوى أسرار العلوم والمعارف وآيات التشريع والتوجيه، ما جعله الكتاب الخالد والمعجزة الخالدة عبرَ الحياة.

فكان من بدائعه، آياته الباهرة وبراهينه الساطعة على وجود الله تعالى، تلك الآيات والبراهين الّتي تُعتبر بحقٍّ المثل الأعلى في سموّ المنطق وقوّة الحجّة وشِدّةَ الإقناع، لأنّها تخاطب العقل وتحكّم الوجدان، وتساير الفطرة الإنسانية السليمة.

ولئن أقنعت أناساً وعجزت عن آخرين، فلا ينافي ذلك كقوّة إقناعها وسطوع حججها، حيث أنّها تقنع مَنْ يلتمس الحقّ، ويدين بشرعة العقل والوجدان.

أمّا المعاندون والمكابرون، فلا يقنعهم سائر البراهين، ولو كانت حسِّية عينيّة. لأنّهم ينظرون إليها من وراء حجاب، فتتلاشى أمامهم الحقائق وتخفى عليهم، وهي أجلى ما تكون وضوحاً وإشراقاً.

ولقد أحاطت الآيات القرآنية بأهمِّ البراهين الّتي استدلّ بها الحكماء على وجود الله تعالى، كبرهان الخلق، وبرهان الغاية، وبرهان الأخلاق، وغيرها من البراهين العديدة المختلفة.

وإليك نموذجاً من تلك الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿إِنّ في خَلْقِ ٱلسّمٰواتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلّتي تَجْرِي في ٱلْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ ٱلنّاسَ، وَما أَنْزَلَ ٱللّهُ مِنَ ٱلسّماءِ مِن ماءٍ فَأَحْيا بِهِ ٱلأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِها، وَبَثَّ فِيها مِن كُلِّ دابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ ٱلرِّياحِ، وَٱلسَّحابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وَٱلأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. (البقرة / ١٦٤)

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِياءً، وَٱلْقَمَرَ نُوراً، وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلحِسابَ، ما خَلَقَ ٱللهُ ذٰلِكَ إلّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ ٱلآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (يونس / ٥)

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّىٰ عادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ، وَلا ٱللَّيْلُ سابِقُ ٱلنَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. (يسٓ / ٣٨ ـ ٤٠)

وقال تعالى: ﴿قُلْ أرَأَيْتُمْ إن جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيامَةِ، مَنْ إلٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُم بِضِياءٍ، أفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أرَأيْتُمْ إن جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهارَ سَرْمَداً إلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيامَةِ، مَنْ إلٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (القصص / ٧١ ـ ٧٣)

وقال تعالى: ﴿أفَرَأَيْتُمُ ٱلْماءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأنتُمْ أنْزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾. (الواقعة / ٦٨ ـ ٧٠)

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هٰذا عَذْبٌ فُراتٌ، وَهٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ، وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾. (الفرقان / ٥٣)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا ٱلإنْسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنا ٱلْمُضْغَةَ عِظاماً، فَكَسَوْنا ٱلْعِظامَ لَحْماً، ثُمَّ أنشأْناهُ خَلْقاً آخَرَ، فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ ٱلْخالِقِينَ﴾.

(المؤمنون / ١٢ ـ ١٤)

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ، مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ، لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحىٰ رَبُّكَ إِلى ٱلنَّحْلِ، أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبالِ بُيُوتاً، وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَراتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً، يَخْرُجُ مِن بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ، فِيهِ شِفاءٌ لِلنّاسِ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (النّحل / ٦٦ ـ ٦٩)

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ، وَجَنّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُسْقىٰ بِماءٍ واحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. (الرّعد / ٤)

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها، وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنا فِيها جَنّاتٍ مِن نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ، وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. (يسٓ / ٣٤ ـ ٣٦)

إلى غير ذلك من الآيات الجمّة، الّتي يزخر بها القرآن الكريم.

براهين أهل البيت عليهم السلام
في إثبات الصّانع عزّ وجلّ

لقد كان أهل البيت عليهم السلام المَثَل الأعلى في الجهاد والفداء في سبيل العقيدة الإسلامية، والدعوة إلى الله تعالى، ما جعلهم قادة الرأي، ومشاعل النور، وهداة الأمم، وأدلّاءها المخلصين.

وقد حمل التأريخ إلينا صوراً رائعةً من بطولاتهم، وكفاحهم الحَربي والأدبي في تعزيز الإسلام، ونشر مبادئه الخالدة.

فمن صور كفاحهم الأدبي، مناظراتهم في دحض شبهات الملحدين، وتفنيد مزاعمهم، والاهتمام بإنقاذهم من الزّيغ والإلحاد ما وسعهم ذلك.

وقد كشفت تلك المناظرات عن رصيد علمي ضخم، وكنوز فكرية جبّارة، لا يزال المسلمون ينهلون من ينابيعها الثرّة، ويستوحون مفاهيمها الأصيلة، ما يزوِّدهم حقائق العقيدة والإيمان.

وتتّسم براهينهم في مضمار الجدل بسطوع الحجّة، وقوّة الإقناع، وحكمة الإرشاد والتوجيه، فإذا بناشد الحقّ مبهور بشعاعها، مأخوذ بأسرها.

وقد حمل الرّواة إلينا طرفاً ممتعاً من تلك البراهين، في إرشاد المادِّيين وهدايتهم إلى الإيمان. فمنهم مَن استجاب للحقِّ والهدى ومنهم مَنْ آثرَ المكابرة والإصرار على الغيِّ والضّلال.

وإليك طرفاً من تلك البراهين:

قال الصادق عليه السلام: «أوّل العِبَرِ والأدلّة على الباري جلّ قدسه بهيئة هذا العالم، وتأليف أجزائه، ونظمها على ما هي عليه، فإنّك إذا تأمّلت العالم بفكرك، وخَبِرته بعقلك، وجدته كالبيت المبني المُعدّ، فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسّماء مرفوعة كالسّقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنّجوم مضيئة منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذّخائر، وكلّ شيء فيها لشأنه مُعدّ، والإنسان كالمُمَلّك ذلك البيت، والمُخوّل جميع ما فيه، وضروب النّبات مهيّأة لمآدبه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملائمة، وإنّ خالِقَهُ هو الّذي ألّفه ونظمه، بعضاً على بعض، جلّ قدسه وتعالى جدّه، ولا إله غيره».

«فكِّر في هذه الأشياء الّتي نراها موجودة مُعدّة في العالم من مآدبهم، فالتّراب للبناء، والحديد للصّناعات، والخشب للسّفن وغيرها، والحجارة للأرحاء وغيرها، والنّحاس للأواني، والذّهب والفضّة للمعاملة والذّخيرة، والحبوب للغذاء، والثِّمار لِلغذاء والتَّفَكُّه، واللّحم للمآكل، والطِّيب للتلذّذ، والأدوية للتصحيح، والدّواب للحمولة، والحطب للتوقّد، والرّماد للكلس، والزّبل للأرض، وكم عسى أن يحصي المحصي من هذا وأشباهه.

أرأيتَ لو أنّ داخلاً دخل داراً فنظر إلى خزائن مملوءة من كلِّ ما يحتاج إليه الناس، ورأى كُلَّ ما فيها مجموعاً لأسباب معروفة، أكان يتوهّم أنّ مثل هذا يكون بالإهمال ومن غير عمد»[1].

---

(١) توحيد المفضل.

«وقال عبدالله الدّيصاني: يا جعفر بن محمّد! دُلّني على معبودي؟ فقال له أبو عبدالله: إجلس، فإذا غلام له صغير في كفّه بيضة يلعب بها، فقال أبو عبدالله: يا غلام ناولني البيضة، فناوله إيّاها، فقال أبو عبدالله: يا ديصاني! هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة، وفضّة ذائبة، فلا الذّهبة المائعة تختلط بالفضّة الذّائبة، ولا الفضّة الذّائبة تختلط بالذّهبة المائعة، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها (داخل) مفسد فيخبر عن فسادها، لا يدري أللذكر خُلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطّواويس، أترى لها مدبّراً.

فأطرقَ مليّاً، ثمّ قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّكَ إمام، وحجّة من الله على خلقه، وأنا تائب ممّا كنتُ فيه»[١].

ودخل رجل من الزّنادقة على أبي الحسن الرِّضا عليه السلام، وعنده جماعة، فقال أبو الحسن: «أيّها الرّجل! أرأيتَ إن كان القول قولكم وليس هو كما تقولون، ألسنا وإيّاكم شرعاً سواء لا يضرّنا ما صلّينا وصمنا، وزكّينا وأقررنا»، فسكت الرّجل.

ثمّ قال أبو الحسن عليه السلام: «وإن كان القول قولنا، وهو قولنا، ألستم قد هلكتم ونجونا...».

وقال أبو الحسن: «إنّي لمّا نظرتُ إلى جسدي ولم يمكنّي فيه زيادة ولا نقصان، في العرض والطّول، ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه، علمتُ أنّ لهذا البنيان بانياً فأقررتُ به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السّحاب، وتصريف الرّياح، ومجرى الشّمس والقمر والنّجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات البيّنات، علمتُ أنّ لهذا مقدّراً ومنشئاً»[٢].

---

(١) الوافي، كتاب العلم والعقل، عن الكافي.

(٢) نفس المصدر.

«وقال رجل للصّادق عليه السلام: يا ابن رسول الله! دُلّني على الله، فقال له: يا عبدالله! **هل ركبتَ سفينة قطّ ؟** قال: نعم، قال: **فهل كُسِرَت بك حيث لا سفينة تُنجيك، ولا سباحة تُغنيك ؟** قال: نعم، قال: **فهل تعلّق قلبكَ هناك أنّ شيئاً من الأشياء قادِر على أن يُخلِّصكَ من ورطتك ؟** قال، نعم. قال الصّادق عليه السلام: **فذلك الشيء هو الله، القادر على الإنجاء حيث لا مُنجي، وعلى الإغاثة حيث لا مُغيث**» (١).

«وعن الصّادق عليه السلام، قال: **سمعتُ أبي يُحدِّث عن أبيه، أنّ رجلاً قام إلى أمير المؤمنين** عليه السلام. فقال له: يا أمير المؤمنين! بماذا عرفتَ ربّك؟ قال: **بفسخ العزائم، ونقض الهمم، لمّا أن هممت، حال بيني وبين همّي، وعزمت فخالف القضاء عزمي، فعلمتُ أنّ المدبّر غيري**» (٢).

«وسأله أبو شاكر الدّيصاني: ما الدّليل على أنّ لك صانعاً؟ فقال: **وجدتُ نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إمّا أن أكون صنعتها أنا، فلا أخلو من أحد معنيين: إمّا أن أكون صنعتها وكانت موجودة، أو صنعتها وكانت معدومة، فإن كنتُ صنعتها وكانت موجودة فقد استغنيتُ بوجودها عن صنعها، وإن كانت معدومة، فإنّك تعلم أنّ المعدوم لا يحدث شيئاً، فقد ثبت المعنى الثالث، أنّ لي صانعاً وهو الله ربّ العالمين**» (٣).

«وقال الرّاوي: كنتُ أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفّع في المسجد الحرام، فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق، وأومأ بيده إلى موضع الطّواف، ما منهم أحدٌ أوجب له إسم الإنسانية إلّا ذلك الشيخ الجالس، يعني جعفر بن محمّد عليه السلام، فأمّا الباقون فرعاع وبهائم..

---

(١) البحار، ج ٢، ص ١٣، عن معاني الأخبار للصّدوق قدس سره.

(٢) البحار، ج ٢، ص ١٣، عن الخصال للصّدوق قدس سره.

(٣) البحار، ج ٢، ص ١٦، عن توحيد الشيخ الصّدوق قدس سره.

قال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبتَ هذا الإسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟

قال: لأنِّي رأيتُ عنده ما لم أرَ عندهم.

فقال ابن أبي العوجاء: لا بدّ من اختبار ما قلت فيه منه.

فقال له ابن المقفّع: لا تفعل فإنِّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك.

فقال: ليس ذا رأيك، ولكنّك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إيّاه المحلّ الّذي وضعت.

فقال ابن المقفّع: أمّا إذا تَوَهّمْتَ عليَّ هذا فقم إليه، وتحفّظ ما استطعت من الزّلل، ولا تثر عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال، وسمه ما لك أو عليك.

قال: فقام ابن أبي العوجاء، وبقيتُ وابن المقفّع، فرجع إلينا، وقال: يا ابن المقفّع! ما هذا ببشر، وإن كان في الدّنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهراً، ويتروّح إذا شاء باطناً، فهو هذا.

فقال: وكيف ذاك؟ قال: جلستُ إليه، فلمّا لم يبقَ عنده غيري، ابتدأني فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون ـ يعني أهل الطّواف ـ فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر كما تقولون، وليس كما يقولون، فقد استويتم وهم.

فقلت: يرحمك الله، وأيّ شيء نقول، وأيّ شيء يقولون، ما قولي وقولهم إلّا واحد؟

فقال: كيف يكون قولك وقولهم واحد، وهم يقولون: إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأنّ للسّماء إلهاً، وأنّها عمران، وأنتم تزعمون أنّ السّماء خراب ليس فيها أحد؟

قال: فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه، ويدعوهم إلى عبادته، حتّى لا يختلف منهم إثنان، ولِمَ احتجبَ عنهم، وأرسل إليهم الرّسل، ولو باشرهم بنفسه، كان أقرب إلى الإيمان.

فقال لي: ويلك... وكيف أحتجبَ عنكَ مَنْ أراكَ قدرته في نفسك؟ نشوؤُكَ ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوّتك، وسقمك بعد صحّتك، وصحّتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحُبُّك بعد بغضك، وبغضك بعد حُبِّك، وعزمك بعد إبائك، وإباؤُك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنتَ معتقده من ذهنك.

وما زال يَعُدُّ عليَّ قدرته الّتي هي في نفسي، الّتي لا أدفعها حتّى ظننتُ أنّه سيظهر فيما بيني وبينه»[1].

---

(١) البحار، ج ٢، ص ١٤، عن توحيد الصّدوق قدس سره.

أقوال علمـاء الغـرب
في إثبات الصّانع

لقد تَوالَتْ على الأمم الغربية إبّان نهضتها عوامل نكدة، وأزمات حالكة، كان لها آثارها السيِّئة في تضليلهم وزجِّهم في متاهات الزّيغ والإلحاد.

فكان من أسوأ تلك العوامل ما أشاعته الدعاية الإلحادية المُضلِّلة: أنّ العلم والإيمان عدوّان لدودان، ونقيضان لا يجتمعان.

وانخدع الغـرب بهذه الضّلالة ردحاً طويلاً من الزّمـن، وطفقوا بهَوَسٍ عارمٍ ينفرون من الإيمان، ويستخفّون بقيمه، ويتحلّلون من ضوابطه الموجّهة، ممّا سـبّب إنحلال الغربيين وتسيّب مفاهيمهم الرّوحية والأخلاقية.

ولمّا زخر المدّ العلمي، وبلغ أوجه في العصر الحديث، وشهد العالم فـتوحاته الباهرة، تجلّى لهم ضلالتهم وتجنّيهم على الإيمان والعلم بتلك التّهمة المفتراة.

وتجلّى لهم كذلك، أنّ العلم والإيمان صـنوان متآلفـان، فالعلم يدعم الإيمـان ويدعو إليه بأساليبه الحديثه وبراهينه التجريبية الّتي لم يعهدها البشر من قبل.

وكلّما ٱتّسـع نطاق العلـم، توثّقت أواصره بالإيمان، وازداد تعـزيزاً المبادئـه الرفيعة، كما صرّح بذلك قادة الفكر الغربي وأعلامه.

وإليك نموذجاً من شهاداتهم في هذا المجال لتكون عبرة وعظة لشبابنا المثقّف،

الّذي دفعه الغرور العلمي إلى مجافات العقيدة، والتنكّر للإيمان، محاكاةً للغرب، واقتداءً بضلاله القديم، دون أن يُميِّزوا بين واقع الغرب وظروفه الّتي سبّبت له هذا الطّيش والضّلال، وبين واقعنا الإسلامي الّذي يُمجِّد العلم والعلماء ويفرض طلب العلم على كلِّ مسلم.

قال العلّامة الشهير (أنشتاين):

«العلم بلا إيمان يمشي مشية الأعرج، والإيمان بلا علم يتلمّس تلمّس الأعمى».

وقال الدكتور (ايرفنج وليام) أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة مشيجان منذ سنة ١٩٤٥، نقلاً عن العالم الطبيعي والكاتب اللّامع (أوليفر ولدل):

«كلّما تقدّمت العلوم ضاقت بينها وبين الدِّين شقّة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله»[١].

وقال الدكتور (جون وليام كلوتس) أستاذ علم الأحياء والفسيولوجيا بكلِّية المعلِّمين بكونكورديا منذ سنة ١٩٤٥:

«لا شكّ أنّ العلوم قد ساعدتنا في زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقّدة، وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده»[٢].

وقال الدكتور (البرت ماكومب ونشتر) أستاذ الأحياء بجامعة بايلور، وعميد أكاديمية العلوم بفلوريدا سابقاً:

«إنّني لأشعر بالغبطة تملأ قلبي اليوم، بعد أن درستُ العلوم المختلفة، واشتغلتُ بها سنوات عديدة، ولم يكن في ذلك ما يُزعزع إيماني بالله، بل إنّ اشتغالي بالعلوم قد

(١) كتاب الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٥٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٨.

دعم إيماني بالله حتّى صار أشدّ قوّة وأمتن أساساً ممّا كان عليه من قبل»[١].

وفي الوقت الّذي فنّد العلماء فيه مزاعم التناقض بين العلم والإيمان، نسمع اعترافات الكثيرين منهم بإيمانهم بالله تعالى، واستدلالهم على وجوده بآيات العلم ودلائله المحسوسة، وإليك طرفاً منها:

قال (ديكارت) الفرنسي (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م):

«إنّي لم أخلق ذاتي بنفسي، وإلّا فقد أعطيتها سائر صفات الكمال الّتي أدركها، إذن أنا مخلوق بذات أخرى، وتلك الذّات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال، وإلّا اضطررتُ أن أطبّق عليها التعليل الّذي طبّقته على نفسي».

وقال (نيوتن) الإنجليزي، أكبر علماء الفلك في عصره:

«من المحقّق أنّ الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرّد فعل الجاذبية العامّة، لأنّ هذه القوّة تدفع الكواكب نحو الشّمس. فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشّمس أن توجد يد إلٰهية تدفعها على الخطّ المماس لمداراتها».

ثمّ قال:

«ومن الجليّ أنّه لا يوجد أيّ سبب طبيعي استطاع أن يوجّه جميع الكواكب وتوابعها للدّوران في وجهة واحدة، وعلى مستوى واحدٍ بدون حدوث أيّ تغيير يُذكر، فالنظر لهذا الترتيب يدلّ على وجود حكمةٍ سيطرت عليه».

وقال (هرشل) الإنجليزي من أكابر علماء الفلك:

«كلّما اتّسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القويّة على وجود خالق أزليّ لا حدّ لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم، وهو في الواقع صرح عظمة الله وحده».

---

(١) نفس المصدر، ص١٠٦.

وقال (لينيه) الفزيولوجي الفرنسي:

«إنّ الله الأزليّ الكبير، العالِم بكلِّ شيء، والمقتدِر على كلِّ شيء، قد تجلّى لي ببدائع صنائعه حتّى صرتُ دهشاً متحيِّراً، فأيّ قدرة وأيّ حكمة وأيّ إبداع أودعه مصنوعات يده، سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها. إنّ المنافع الّتي نستمدّها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الّذي سخّرها لنا، كما أنّ جمالها وتناسقها يُنبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها عن التلاشي وتحدّدها يقرّ بجلالته وعظمته»(١).

وقال الدكتور (ادوارد لوثركيل) أستاذ علم الأحياء، ورئيس القسم بجامعة فرانسيسكو:

«لقد عمّت في بلادنا في السنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدِّين ولم تتخطّ هذه الموجة معاهد العلم لدينا. ولا شكّ أنّ الكشوف العلمية الحديثة الّتي تشير إلى ضرورة وجود إله لهذا الكون، قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة إلى رحاب الله والإتّجاه إليه»(٢).

وقال (كلودم هاثاواي) مستشار هندسي بمعامل شركة جنرال ألكتريك، ومُصمِّم العقل الأليكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوِّية بمدينة لانجلي فيلد:

«لقد اشتغلتُ منذ سنوات عديدة بتصميم مخٍّ ألكتروني وهو يستطيع أن يحلّ بسرعة بعض المعادلات المعقّدة المتعلِّقة بنظرية (الشدّ في اتّجاهين)، ولقد حقّقنا هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المُفرغة والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر

---

(١) نُقلت الأقوال السالفة من دائرة معارف القرن العشرين، لمحمّد فريد وجدي، مادّة إله.

(٢) كتاب الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٢٨.

المعقّدة، ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم أكبر بيانو. وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين، وبعد أن واجهتُ كثيراً من المشكلات الّتي تطلّبها تصميمه، ووصلتُ إلى حلِّها، وصار من المستحيلات بالنسبة إليَّ أن يتصوّر عقلي أنّ مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأيّة طريقة أخرى غير استخدام العقل والذّكاء والتصميم. وليس العالم من حولنا إلّا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم. وبرغم استقلال بعضها عن بعض، فإنّها متشابكة متداخلة، وكلّ منها أكثر تعقيداً، في كلِّ ذرّة من ذرّات تركيبها، من ذلك المخّ الأليكتروني الّذي صنعته. فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيمي البيولوجي الّذي هو جسمي، والّذي ليس بدوره إلّا ذرّة من ذرّات الكون اللّانهائي في اتِّساعه وإبداعه، إلى مبدع يُبدعه؟»[1].

وقال العالم السوفيتي المُشرف على أبحاث الفضاء:

«إنّنا كلّما أمعنّا في استكشاف مجاهل الكون، ثبت لنا أنّ نظامه الرائع في دقّته يجري وفقَ قوانين تبلغ في كثرتها واختلاطها ودقّتها حدّاً يستحيل معه أن تكون قد وُجِدَت بشكل جزافي أو لعبت فيه الصِّدفة دورها، بل لا بدّ من أن يكون خلف كلّ هذا منظِّم ماهر»[2].

وقال (أندرو كونواي أيفي) عالِم الطبيعة ورئيس قسم الفسيولوجيا بجامعة نورث وسترين والأستاذ بكليّات الطبّ:

«إنّ الإعتقاد بوجود الله هو الوسيلة الفكرية الكاملة الوحيدة الّتي تجعل لهذا الوجود معنى. وهذا الإعتقاد هو الّذي يجعل لوجود الإنسان معنى أكثر من أنّه مجرّد

(١) كتاب الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٩١.

(٢) جريدة الأهرام والجمهورية عدد ٨ أكتوبر سنة ١٩٥٧، نقلاً عن وكالة تاس السوفيتية.

كتلة من المادّة أو الطّاقة. والإعتقاد بوجود الله هو المنبع لأسمى فكرة إنسانية حول المحبّة، والقاعدة الّتي تقوم عليها الأخوّة بين البشر بسبب اجتماعهم على محبّة الله وطاعته، وهو مصدر إحساسنا بالحقوق والواجبات، لأنّنا لانتساوى إلّا في نظر الحبّ والعدالة والرّحمة المطلقة. والإعتقاد بالله هو الحصن الّذي يعصمنا من الشرور. وهو بعد ذلك الأساس المتين الّذي يقوم عليه الإيمان وتدوم بسببه القيَم الروحية الّتي يُعتبر وجودها هيّناً بوجود الله...

وقد ينكر مُنكِر وجود الله، ولكنّه لا يستطيع أن يؤيّد إنكاره بدليل. وأحياناً يشكّ الإنسان في وجود شيء من الأشياء ولابدّ له في هذه الحالة أن يستند شكّه إلى أساس فكري.

ولكنّني لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلاً عقليّاً واحداً على عدم وجوده تعالى. وقد قرأتُ وسمعتُ في الوقت ذاته أدلّة كثيرة على وجوده، كما لمست نفسي بعض ما يتركه الإيمان من حلاوة في نفوس المؤمنين، وما يخلّفه الإلحاد من مرارة في نفوس الملحدين...»[1].

وسُئل العالم الدكتور (شارل ب. شتيمنتز): ما لون البحث الّذي سوف يعاصر أكبر تقدّم في المائة السنة القادمة؟ فأجاب قائلاً:

«إنّ أجلّ اكتشاف سيكون في الأمور الروحية الّتي يُخبرنا التاريخ بجلاء أنّها كانت أكبر قوّة في تنشئة البشر، مع أنّنا كنّا فقط نلعب بها ولم ندرسها بكيفيّة جدّيّة كما فعلنا بالقوى الطبيعية، ولكن سيأتي اليوم الّذي يعلم فيه الناس أنّ الأشياء المادّية لن تجيء بالسعادة وأنّها عاجزة عن الوصول بالإنسان إلى الإبداع والقوّة. وحينذاك

---

(١) الإنسان روح لا جسد، للدكتور رؤوف عبيد، ج ٢، ص ٤١١.

سوف يوجِّه العلماء تجاربهم نحـو دراسة الله، والصّـلاة، والقـوى الروحـية الّـتي لا يعرفون عنها إلّا النّزر اليسير.

وحينما يأتي ذلك اليوم، سوف يشهد العالم تقدّماً في جيلٍ واحدٍ ينبذ ما رآه في الأجيال الأربعة السابقة»[1].

(١) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٥.

مناقشــة المــادِّيين

مَنْ أمعنَ النظر فيما عرضته من خصائص وروائع العوالم السالفة، وجدها آيات باهرة، وألسناً ناطقة، تسبِّحُ بحمد خلّاقها العظيم القدير.

ولئن خَفَتْ آياتُ الألوهيّةِ على بعضِ العقول رغم سطوعها وإشراقها، فذاك لضعف العقول وكَلَلِها عن اجتلائها، فانبهرت بها كما ينبهر الخفّاش في ضوء النّهار.

إنّها لآيات وضّـاءة متلألئـةٌ، يدركُها كلّ ذي وعي سـليم خلا المتخلِّفـين والقاصرين من عُشاة البصائر الّذين تعاموا عنها، وآثروا الظّلام على النّور، والضّلال على الهدى، وطفقوا بصلف بالغ يهرفون بِشُبَهٍ ومزاعمَ تدعم واقعهم المنهار.

فيَحْسُنُ بي أن ألمّ إلمامة قصيرة بِطَرَفٍ من تلك الشّبه لتوضيح زيفها وتـفنيد حججها، عسى أن يجسِّد المؤمنون في ذلك قوّة ومناعة تعزِّز إيمانهم وتقيهم شرورها ومزالقها الخطيرة.

كما يُجسِّد المخدوعون بزخارفها وأوهامها قبساً من النّور، يهديهم إلى الإيمان، وينقذهم من الحيرة والضّلال.

١ ـ شبهة المادِّيين:

وهي من أبرز الشّبه، وأكثرها شيوعاً بين المادِّيين، الّذين زعموا أنّ العالم بهيئته الرائعة، ونظامه الدّقيق الرّتيب، لا يستلزم إلهاً وخالقاً، وإنّما هو من صنع المادّة وإيجادها.

وهذا خطأ فاضح، لأنّ من خَبِرَ المادّة، وعرفَ قصورها الذاتي استحال عليه أن يعزو إليها الخلق والإبداع للوجوه التالية:

(أ) إنّا لا نجد في المادّة ما يوجب وجودها لذاتها، وإنّما هي قاصرة، مفتقرة إلى مُوجِد غير مادّي، إذ لو كان مادّياً لكان محتاجاً مثلها، وذلك برهان على معلولية المادّة، وعجزها أن تكون علّة أوّلية للموجودات.

والمادّة فوق ذلك لا تخلو من ثلاثة فروض: (١) إمّا أن تكون ناشئة بذاتها، (٢) وإمّا أن تكون قديمة أزليّة، (٣) وإمّا أن يكون لها خالق وموجد.

والفرض الأوّل باطل بداهة، لاستحالةِ حدوثِ الشيء من غير مُحدِث، والمصنوع من غير صانع.

والفرض الثاني، وهو قِدَم المادّة، كالأوّل فساداً وبطلاناً، لأنّ المادّة متغيِّرة، وكلّ متغيِّر حادث، فالمادّة حادثة.

وقد أثبت العلم استحالة قِدَم المادّة وأزليّتها، إذ تنصّ قوانين الديناميكا الحرارية: أنّ عناصر الكون تستنفذ طاقاتها الحرارية تدريجياً، وأنّها ستؤول بعد طول الوقت إلى درجة الصفر، فتنعدم حينذاك الطاقة، وتستحيل الحياة. فوجود الكون زاخراً مزدهراً بألوان الحياة، دليل على حدوثه، وانتفاء أزليّته.

وأمّا الفرض الثالث، القائل بأنّ للمادّة مُنْشِئاً وخالِقاً، فهو الفرض المنطقي الصحيح، الّذي يُقنع العقل ويُرضي الوجدان.

(ب) إنّ من أبرز خصائص المادّة، اتّصافها بالقصور الذاتي، وفحواه: إنّ كلّ جسم ساكن لا يتحرّك إلّا بمُحرِّك، وكلّ مُتحرِّك لا يسكن إلّا بمُسكِّن. وحيث كانت المادّة قاصرة ذاتيّاً، لا تستطيع تكييف نفسها وتحريكها، أو إسكانها، إلّا بقوّة خارجة عنها، فهي لذلك عاجزة عن تطوير نفسها فضلاً عن خلق غيرها وإيجاده.

(ج) خلوّ المـادّة من العقل والحـياة: ومن مناقضـات المادِّيين، أنّهم اعترفوا بحرمان المادّة من العقل والحياة، ثمّ ألّهوها وعزوا إليها المعجزات.

فكيف جازَ عندهم أن تخلق المادّة هذا الكون، وهي فاقدة العقل والإدراك. وكيف استطاعت المادّة أن تمنح البشر عقولاً راجحةً، وألباباً نيِّرةً، وهي عديمة العقل. وبديهي أنّ فاقد الشيء لا يُعطيه، ومُعطي الشيء لا يكون فاقداً له. وأنّه كما يستحيل على الجاهل أن يمنح العلم، والفقير المُعْدَم أن يهب المال الجـمّ، كذلك يستحيل على المادّة أن تمنح العقل وهي خِلْوٌ منه.

وكيف أغدقت المادّة على الأحياء نعمة الرّوح والحياة وهي عاطلة منها؟

قال المفكِّر الفيسلوف (ليون دنير):

«إنّ المادّة ليست كلّ شيء، فهناك قوانين أسمى منها، قوانين للنظام وللتناسق، فليس الكون مجرّد آلة لا وعي فيها.

فكيف يتأتّى للمادّة العمـياء أن تحكم نفسها بنفسها عن طريق قوانين ذكيّـة حكيمة؟!، وكيف يتأتّى لها وهي مجرّدة من العقل ومن الشعور أن تنتج كائنات عاقلة شاعرة قادرة على أن تُميِّز بين الخير والشرّ وبين الأمر العادل والظالم..

إنّ منطقاً كهذا هو عدوان على المنطق، فليس من الحكمة أن نقبل القول بأنّ الجزء يمكن أن يكون أسمى من الكلّ، أو أنّ الذّكاء ممكن أن يجيء من مصدر غير ذكيّ..

إنّ الذّوق العام يقول لنا على العكس من ذلك، إنّه إذا كان الذّكاء وحبّ الخير والجمال كائنـين فينا، فينبغي أن يصلا إلينا من مصدر يملكهما بدرجة أعلى منّا، وإذا كان النـظام ظاهراً في جميع الأشـياء، فذلك لأنّ تفكيراً قد وضعها، ولأنّ عقلاً قد رسمها» [1].

---

(١) الرّوح والخلود، لعبدالعزيز جادو، من سلسلة إقرأ، عدد ٣٢٦.

إلى كثير من المآخذ الّتي لا يجد المادِّيون أزاءها جواباً مُقنعاً غير التـخبّط في ضروب الخرافات والأوهام.

فمن خرافاتهم في تعليل (العقل): أنّه منبثقٌ من خلايا الدّماغ وحركاته الآليّة، ليَسِموا العقل سمة مادِّية تُبعده عن واقعه الرّوحي، وذلك تعليل واهن لا يقرّه العلم. فما برحَ العلماء والفلاسفة القدماء والمُحْدَثون يبحثون أسرار العقل، ويستجلون واقعه، ويتحرّون منابعه، ولم يعرفوا منهُ إلّا اليسـير، ولم يهتدوا إلى كنهه برأي حاسم.

كما صرّح بذلك الدكتور الشهير (الكسيس كاريل) في كتابه (الإنســان ذلك المجهول):

«فهل هو (أي العقل) نتاج الخلايا العقلية مثلما ينتج البنكرياس الأنسولين، والكبد الصّفراء، ... أم هل يجب اعتباره كائناً غير مادِّي يوجد خارج الفراغ والزّمن، خارج أبعاد العالم الكوني، ويُدخِل نفسه في مخّنا بطريقة مجهولة لنا؟».

لذلك كان الحكم على الدّماغ بأنّه منبع العقل ومولِّده، حكماً تعسّـفيّاً لا يقرّه العلم.

وقال الدكتور (بول كليرانس أبرسولد) أسـتاذ الطبيعة الحيـويّة ومدير قسم النظائر والطاقة الذرِّية في معامل (أوك ريدج):

«وعندما تزايدَ علمي ومعرفتي بالأشياء من الذرّة إلى الأجرام السماوية، ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان، تبيّن لي أنّ هناك كثيراً من الأشياء الّـتي لم تسـتطع العلوم حتّى اليوم أن تجد لها تفسيراً، أو تكشِفَ عن أسرارها النقاب. وتستطيع العلوم أن تمضي مظفّرة في طريقها ملايين السنين، ومع ذلك فسوفَ تبقى كثير من المشكلات حول تفاصيل الذرّة والكون والعقل كما هي، ولا يصل الإنسان إلى حلٍّ لها أو الإحاطة بأسرارها»[1].

---

(١) كتاب الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٣٨.

هذا إلى أنّ مِنَ القرائن ما يجيز استقلال العقل عن الدّماغ وأنّ الدّماغ كالرّاديو في وجه من الشّبه، فكما يلتقط الرّاديو الأصوات المُذاعة لإيصالها إلى السامع، دون أن يكون له أي أثر في إحداثها. كذلك الدّماغ، فإنّه يلتقط الحقائق ليشعر بها الإنسان، دون أن يكون له أثر في تمحيصها ووزنها.

وأهم ما يُفنِّد المادِّيين (العقل الباطن) الّذي يُعتبر أوسع أفقاً وأبعاداً من العقل الظاهر، وهو يعمل أعمالاً مدهشة مستقلّاً عن الحواسّ وخارجاً عن نطاق الدّماغ وأعماله الآليّة.

وأكثر ما تتجلّى مظاهر العقل الباطن وآثاره، خلال النّوم المغناطيسي، عندما يفقد النائم حواسّه، ويتعطّل عقله الظاهر، فيطلعه العقل الباطن على أسرار غامضة، ما كان يعرفها ويتوصّل إليها في حالة اليقظة والإنتباه.

وهكذا تجلّى سخف التعليل المادِّي لـ «العقل» وتلاشى على ضوء الواقع الحسِّي:

إذ لو كان الدّماغ ـ كما يزعمون ـ منبعاً للعقل ومنطلقاً له، لتساوى البشر في مستوياتهم الفكرية والعقلية، ولما تمايزوا وتفاوتوا في مدارج الوعي والذّكاء، فتبوّأ بعضهم قمم العبقرية والنّبوغ واُتّسم البعض الآخر بالبلادة والغباء، رغم اتِّحاد تكوينهم الدّماغي.

حسبكَ ما قرّره العلماء الّذين حلّلوا دماغ (أنشتاين) بعد وفاته في المختبرات العلمية، أنّهم لم يشاهدوا فيه أيّ سمة تُميِّزه عن كافّة الأدمغة.

قال الدكتور (رؤوف عبيد) في كتابه (الإنسان روح لا جسد):

«فقد تقوّضت تماماً أركان النظرية المادِّية الّتي كانت تعتبر العقل نتاجاً للمخّ. ووضح الآن لعدد كبير من أفضل علماء الفسيولوجيا والنّفس والطبّ أنّها نظريّة زائفة، وأنّ الرّأي القائل بأنّ المخّ هو المحور للإنسان تدليس علميّ لم يكن له أساس حقيقي،

على حدِّ وصف الأستاذ (ج. ب. راين) بعد تجارب عشرات من السّنين في جامعة ديوك بالولايات المتحدة».

وقال الدكتور عبيد في كتابه المذكور ص ٦٦٨:

«وما ذكرنا عن ثبوت انتفاء الإرتباط المحتوم بين المخّ والعقل لا ينفي أنّ التفكير مرتبط أساساً بالمخّ، بل معناهُ فحسب أنّ المخّ هو جهاز التفكير لا مصدره، فإذا فسدَ الجهاز فسدَ بحسب الأصل التفكير، ولكن ليس المخّ هو مصدر التفكير، كما أنّ العقل لا يخضع خضوعاً محتوماً للمخّ».

وقال الأستاذ (وحيدالدّين خان) في كتابه (الإسلام يتحدّى) ص ١٠٢، وهو يُبرهن بأسلوب علميّ على انتفاء الترابط المعنوي بين العقل والمخّ:

«إنّ جميع أفكار الإنسان تبقى بصفة دائمة، وهذا الواقع يثبت بصراحة أنّ عقل الإنسان ليس بجزء من جسمه، فإنّ جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغيّر تغيّراً كاملاً في بضعة أعوام، ولكنّ سجل اللّاشعور لا يقبل أيّ تغيير رغم مرور مئات السنين، ولو كان هذا السجلّ الحافظ كائناً في الجسم أو في أحد أجزائه، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الأجزاء بعد سنوات عديدة.

وما أعجب هذا السجلّ الّذي تتحطّم جميع لوحاته تلقائياً ولكنّه لا يفنى ولا يزول !؟».

ومن سخافة المادّيين في تعليل ظاهرة الحياة: أنّ المادّة ـ على حسب زعمهم ـ تعمد إلى تركيب العناصر فتنبثق فيها الحياة عند تركيبها، كما تظهر خواصّ بعض العناصر الكيمياوية عند امتزاجها.

وهو تعليل باطل من وجوه:

(١) إنّ المادّة ـ كما أسلفنا ـ قاصرة ذاتيّاً، فكيف تستطيع تركيب العناصر وهي قاصرة عنه؟ ولماذا تركّبت بعد العناصر وبقيَ البعض الآخر بغير تركيب؟

وعلامَ تمـيّزت بعض العـناصر بالحـياة دون غـيرها من العـناصر الحيّـة؟ فما هذا الاختلاف في الأجزاء المادِّية، وليس بينها فروق تحتِّم هذا الخلاف.

(٢) ولو كانت الحـياة وليدة العـناصر المادِّيـة ونتاج تركيبها المـادِّي، لَنَجا الإنسان من سطوة المـوت ورهبته لانبثاق علّة الحـياة من كيانـه، وتعلّقها به تعلّق المعلول بعلّته على حدِّ زعمهم.

ولكنّه رغم ذلك التفسير الزّائف، كثيراً ما يغتاله الموت فجأة، ويخترمه عنوةً واعتباطاً وهو سليم الجسد والأعضاء.

وقد يحدث نقيض ذلك، ويُصاب بعض أعضاء الإنسان وعناصر كيانه بالشّلل أو القطع، ويظلّ رغم ذلك مستمتعاً بالحياة.

أليسَ ذلك برهان على زيف التعليل المادِّي للحياة وأنّها من منبع إلٰهي فيّاض.

وهكذا أثبتت الأبحاث النفسية: أنّ الإنسان ليس جسداً مادِّياً فحسب، وإنّما هو مزدان بأبهى وأروع الخصائص والسِّمات الرّوحية والفكرية المتميِّزة عن جسده المادِّي.

وآية ذلك: أنّ الجسد كثيراً ما يخضع وينقاد لمشيئة القاهر المتسلِّط، وعوامل قمعه وإرهابـه، بيدَ أنّ ضمير الإنسـان وإرادته الصّلبة وفكره الوثّاب، يظلّ شـامخاً مترفِّعاً عن تلك العوامل لا يخضع ولا يستكين.

ومن هنا نجد أرباب الكفاءات والمواهب يندفعون برغبة واختيار إلى التضحية والفداء في سـبيل الواجب المقدّس، ويستحلون مرارة العـناء والمشاق لنصرة الحقّ والمبدأ، ويؤثرون الحرمان من متع الحياة زهداً فيها ورغبةً في النعيم الأخروي.

وتلك هي سمات الرّوح وخصائصها المتمـيِّزة عن طبيعة الجسـد الّذي يؤثر الأهواء واللّذائذ المادِّية المحـبّبة له على الأشـواق الرّوحية الكريهة عليه والمضنية له.

(٣) إنّ اجتماع عناصر المادّة وتركيبها لا يوجب انبثاق الحياة فيها، فطالما اجتمعت العناصر وتركّبت ولم تظهر فيها الحياة.

قال الدكتور (رسل تشارلز آرتست) الأستاذ في جامعة فرانكفورت بألمانيا، وعضو الأكاديمية العلمية بـ (أنديانا):

«إنّ جميع الجهود الّتي بُذِلت للحصول على المادّة الحيّة من غير الحيّة، قد باءت بخذلان وفشل ذريعين. ومع ذلك فإنّ مَنْ ينكر وجود الله، لا يستطيع أن يُقيم الدّليل المباشر للعالم المتطلّع، على أنّ مجرّد بعض الذرّات والجزيئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدّي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورةِ الّتي شاهدناها في الخلايا الحيّة»[١].

وقال المفكّر الهندي (وحيدالدّين خان):

«إنّ وجود الرّوح ككائن مستقل، وبقاءها بعد فناء الجسم حقيقة يمكن إثباتها بالدليل التجريبي:

لقد كشف العلم أنّ الجسم يتركّب من خلايا يبلغ متوسّطها في جسم الإنسان (١٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) خليّة تقريباً. وهذه الخلايا تتحطّم وتفنى في كلّ آن، والغذاء يعوّض أجسامنا عن تلك الخلايا الّتي تفقدها كلّ يوم، فكأنّ الجسم بناء يتألّف من مئات الملايين من قوالب الطّوب[*]، وهو يستبدل الطّوب بطوب آخر في كلّ لحظة.

فإذا كانت الرّوح مظهراً من مظاهر الجسم فقط، وجبَ أن تطرأ عليها التغيّرات بمجرّد حدوث التغيّرات على الجسم تماماً، كما تتأثّر ماكينة بأكملها بمجرّد أن ينكسر

---

(١) كتاب الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٧٩.

(*) الطّوب: الآجُر. ويُسمِّيه العراقيّون (طابوق).

أحد تروسها، وكما تتأثّر آلة الموسيقى بتكسّر وتر واحد من أوتارها. ولكنّ هذا لا يحدث فيما يتعلّق بالرّوح.

فالرّوح إذن شيء آخر غير الجسم، ولها وجودها المستقل»[1].

وقال الأستاذ (توماس هكسلي) في كتابه (المدخل على ترتيب الحيوانات) ص ١٠:

«إنّ الحياة هي علّة الأجسام لا أنّها نتيجة لها. لأنّه في هذه الدنيئة الحيوانية (يريد جماعة الأميبا) لا يُصادف الباحث مهما توسّل بالآلات الدقيقة الّتي نملكها اليوم أيّ أثر للتركيب الجثماني فيها.

فإنّ هذه الأحياء لا شكل لها، ومجرّدة من الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة، ومع ذلك فإنّها تملك الخصائص والمميّزات الأصيلة للحياة. حتّى أنّها تستطيع أن تبني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقّدة أحياناً، وعلى غاية ما يمكن من الجمال»[2].

ونقلت وكالة الأنباء السوفيتية (تاس) سنة ١٩٥٩ ما يلي:

«أعلن (ألكسندر أوبارين) رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا بعد أن ظلّ يبحث (٣٧) عاماً في أصل الحياة، وفي البحث عمّا إذا كان من الممكن إيجاد الخليّة الأولى عن طريق تفاعل كيميائي: أنّ الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، أو أن تتوالد من التفاعل الكيميائي والتولّد الذّاتي. وأنّ العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادّة»[3].

وقد كشفت هذه الحقائق العلمية المستنبطة من التجارب الحسِّية والإختبارات

(١) الدِّين في مواجهة العلم، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) على أطلال المذهب المادِّي، للأستاذ محمّد فريد وجدي، ج ١، ص ٧٥.

(٣) اليقينيات الكونية، للدكتور محمّدسعيد رمضان البوطي، ص ١٠٥.

الواسعة، جهل المادِّيين وتخبّطهم في تعليل ظاهرة الحياة.

وفي ذلك دلالة قاطعة، أنّ الحياة لا تنشأ من إجتماع العناصر المادِّية وتركيبها، وإنّما هي من نفحات الله عزّ وجلّ الّذي خلق المادّة ونفخ فيها الحياة.

وقد يرتأي بعض المادِّيين، أنّ جرثومة الحياة هبطت إلى الأرض على نيزك من نيازك الفضاء، وليس شيء أدعى إلى السخرية والرِّثاء من هذا التخريف.

فمَنْ أوجد الحياة في مستقرّها الأوّل، وهي كسائر الممكنات لا توجد إلّا بموجِد؟

ولماذا نشأت الحياة في كوكب دون آخر، وظهرت فيه بعد أن كانت مكتومة في خفايا الغيب ملايين السّنين؟

ومَنْ سخّر النّيزك أن يتحمّل أعباء رحلتها إلى الأرض، وهو لا يملك الإدراك والشّعور؟

ولو كانت هجرة الحياة إلى الأرض مصادفةً واتّفاقاً، فلماذا ٱستمرّت هذه الصّدفة، ودامت الحياة فيها محفوفة بالعناية والتدبير وليس للمادّة وعي وتدبير؟

وهل كانت هجرتها إلى الأرض قبل حلول الأحياء فيها أو بعده؟

والفرض الأوّل محال، لأنّ الأرض ـ حسب تعليلهم ـ كانت قطعة ملتهبة من الشمس، انفصلت عنها، وتضاءلت حرارتها على مرّ الدهور، فكيف تعيش الحياة في ذلك المحيط الناري، والفرض الثاني سفه ولغو، لاستغناء الأحياء ـ بحياتهم ـ عنها.

ومن الغريب أن يستسيغ المادِّيون هذه الفروض والأوهام ولا يستسيغون الإيمان بالله تعالى، ولو أنّهم آمنوا لكان أجدى لهم، وأيسر عليهم من هذا التخبّط الفاضح.

وقد يتمشدق بعض المادِّيين بنظرية التولّد الذّاتي، وأنّ الحياة نشأت لذاتها من

المواد الغير الحيّة، كما تنشأ الديدان والجراثيم من اللّحوم المتعفِّنة والمياه الآسنة.

وقد أسقط العلم الحديث هذه النظرية وأثبت بطلانها، موضِّحاً أنّ تلك الجراثيم لم تنشأ من صميم اللّحم أو طبيعة المياه، وإنّما هي أحياء دخيلة تسلّلت من الفضاء إليهما ثمّ توالدت فيهما.

هذا وقد ٱكتشف الغرب عِلْمَين خطيرين:

علم التنويم المغناطيسي، وعلم استحضار الأرواح، كان لهما صدىً مدوِّياً في الأوساط الغربية، وتحوّلاً خطيراً في مجرى الفكر المادِّي، الأمر الّذي أدهش العلماء وبعثهم على الاعتراف بوجود الرّوح وخلودها.

فالتنويم المغناطيسي: هو فنٌّ يتعاطاه المختصّون به، ويتّخذون له إنساناً وسيطاً، يُجرون عليه أعمالاً خاصّةً توقعه في سُبات عميق، فيُخبر حينذاك عمّا يسأل عنه من شؤون وأحداث ما كان يتعرّفها في حالة يقظته وانتباهه. ممّا يثبت أنّ له روحاً متميِّزة عن جسده المادِّي.

وأمّا استحضار الأرواح: فهو فنٌّ يستحضرون به الأرواح من عالمها، فتُكَلِّمهم وتُعلمهم أنّها روح (فلان) الميّت.

فاتّضح من هٰذين العِلْمين أنّ الإنسان ليس جسماً مادِّياً فحسب، بل هو مُنْطَوٍ على أسرار روحية مدهشة، ولولاها لما صدرت منه الخوارق الرّوحية في حالة نومه المغناطيسي، ولما أمكن استحضار الأرواح ومكالمتها، وسواء كان حضورها حقيقة أو مجازاً، فهو على أيِّ تقدير يثبت شيئاً روحيّاً، خارجاً عن إطار المادّة، لذلك فقد إنهارت مزاعم المادِّيين على ضوء العلم والوجدان.

التلباثي: وهو الشعور على البُعْد، أو الاتصال الرّوحي على بُعْد شاسع بين أشخاص متجاوبين نفساً وشعوراً.

وهو من أبرز الأبحاث النفسية، وأكثرها شهرة، وأغناها عن مقتضيات الخبرة والتدريب، وأقواها دلالة على أصالة الرّوح ومغايرتها للأجساد الحيّة، وتفاعلاتها المزعومة.

ومغزى (التلباثي) أنّه قد يتذكّر الإنسان ويتمثّل في خلده ـ لسببٍ عفويّ ـ شخصاً بعيداً عنه، وسرعان ما يراهُ ماثلاً أمامهُ لحظة تذكّرِه له.

وربّما ٱنتاب الإنسان قلق واغتمام بالغين لداعٍ مجهول، ثمّ يبدو له: أنّ قريباً له أو عزيزاً عليه كان فريسة أزمة خانقة، وكرب فادح.

وقد يهتف بالإنسان هاتف خفيّ مجهول يُسمعه عبارات وألفاظاً، ثمّ يُنبّأ الإنسان بأنّها كانت شكاة واستنجاداً من حبيبٍ مريضٍ أرسلها عبرَ الفضاء، وهو في غمرة أساه.

وهذا ما يؤكّد بطلان انبثاق الرّوح من عناصر الأجساد المادِّية ويبرز استقلالها وتميّزها عن تلك العناصر، وبهذا استطاعت تحقيق تلك الصِّلات المدهشة، والتجاوب الرّوحي بين أربابها المتباعدين بُعْداً شاسعاً؟

القول الفصل:

والمادِّيون بعد هذا العرض السالف بين فرضين:

إمّا أن يعترفوا بعجز المادّة وقصورها وحرمانها من العقل، فأنّى لها أن تُنشِئ هذا الكون العظيم بهيئته الرائعة وقوانينه الثابتة ونظامه الدّقيق الحكيم؟

وإمّا أن ينعتوا المادّة بالعقل الجبّار، والقدرة الخارقة، والإدارة النافذة، والقصد السّامي، وأنّها فوق ذلك أزليّة قديمة، متحلّية بجميع صفات الكمال، ومنزّهة عن كافّة النقائص. فقد اتّفق المؤمنون والمادِّيون في ضرورة وجود خالق ومُبْدِع لهذا

الكون، واختلفوا في أسمائه. فسمّاه المؤمنون إلهاً، وسمّاه المادِّيون مادّة، وغدا النِّزاع لفظيّاً بين الفريقين.

وهكذا نُحاجِجُ الطّبيعـيين ـ الّذين عزوا صنع الكون وإبداعه إلى الطبيعة ـ بما حججنا به المادِّيين من قبل.

فَنَسألهم ما هي الطبيعة؟

أليست هي كلمة اصطلاحية أُطلِقت على العناصر والمظاهر الكونية كالهواء والماء والأحياء والجمادات، وما تتّسم به من صنوف الخصائص والآثار.

ولا يرتاب ذو لُبٍّ مِنْ أنّ من أبرز خصائص تلك العناصر الطبيعية اتِّصافها بالقصور والعجز الذاتيين، فهي لذلك مفتقرة إلى صانع وموجِد، لاستحالة حدوثها من غير مُحدِثٍ بداهةً ووجداناً.

وحيث كانت كذلك، فكيف تستطيع إنشاء هذا الكون وإبداعه، وتُقرِّر قوانينه وأنظمته!!

والطبيعيون ـ كما أسلفنا في المادِّيين ـ بين فرضين:

إمّا أن يعترفوا باتِّصاف الطبيعـة بالعقل والقدرة والإرادة وسائر مؤهّلات الخَلْق والإبداع، أو أن يعتقدوا قصورها وحرمانها من كلِّ شيء.

فإن اعترفوا بالفرض الأوّل، فقد تساوى المؤمنون والطبيعيون في اعـتقادهم بوجود الخالق والصّانع، وافترقوا في أسمائه، كما سبق في المادِّيين. وإن اعتقدوا الفرض الثاني، فكيف ألّهوا الطبيعـة القاصرة، ونسبوا إليها صنع هذا العـالم الزّاخر بآيـات الجلال والجمال، وروعة التناسق والنظام..؟

(د) فناء المادّة: كان المُعتَقَد قديماً أنّ المادّة خالدة لا تفنى ولا تنعدم، فلمّا تقدّم العلم أبطلَ ذلك الإعتقاد، وأثبت أنّ المادّة فانية، وأنّها تتلاشى بالتحليل المستمرّ.

كما قال الأستاذ (جوستاف لوبون) في كتابه (تولّد المادّة وفناؤها):

«علم الأمس كان مؤسَّساً على أبديّة المادّة، ولكنّ علم الغد سيتأسّسُ على قبولها للفناء. وسيكون غرضه الأوّل إيجاد وسائل سهلة لزيادة انحلالها، ووضعه بذلك تحت تصرّف الإنسان قوى تكاد لا يكون لها حدّ.. وعلى هذه الخاصّة أُسِّست (السبينتاريسكوب)، وهي آلة تجعل التحلّل المستمرّ للمادّة مرئياً لأعين أبعدِ الناسِ عن التصديق»[1].

وقال الدكتور (جون كليفلاند كوثران) وهو من علماء الكيمياء، ورئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولت:

«تدلّنا الكيمياء على أنّ بعض المواد في سبيل الزّوال والفناء، ولكنّ بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإنّ المادّة ليست أبديّة، ومعنى ذلك أنّها ليست أزليّة»[2].

وقال المفكّر المعاصر (وليام ديورانت) في ج ١ من مباهج الفلسفة:

«إنّ عناصر الذرّات الّتي تنحلّ، تفنى تماماً وتفقد كلّ صفة للمادّة، بما في ذلك الثّقل وهو أكثر صفاتها الرئيسية.

ذلك أنّ الميزان يعجز عن وزنها، ولا يستطيع شيء أن يعيدها إلى حالة المادّة، فقد اختفت في عظمة الأثير... والحرارة والكهرباء والضوء إلى غير ذلك، تمثِّل آخر مراحل المادّة قبل اختفائها في الأثير، والمادّة الّتي تنحلّ تخرج من مادِّيّتها بمرورها في حالات متتابعة تنتزع منها تدريجياً صفاتها المادِّية حتّى تعود في النّهاية إلى الأثير

---

(١) على أطلال المذهب المادِّي، فريد وجدي، ج ١، ص ٥١ و ٥٣.

(٢) كتاب الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٢٧.

الّذي لا يمكن وزنه»[1].

وقال العلّامة المفضال المرحوم الأستاذ (أحمد أمين):

«كان (لاووازيه) الكيميائي المعروف يقول ببقاء المادّة، أي أنّ المادّة لا تفنى ولا تُستحْدَث..

وقد فُنِّدَ قانونُ (لاووازيه) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرّة.. وقد أثبت العلم الحاضر، أنّ جميع ما في الكون من عناصر ستتلاشى، وذلك لأنّهم رأوا أنّ الألكترون الموجب يتصادم مع الألكترون السالب في بعض الأحيان، فينعدم كلا الألكترونين ويفنيان: وهذا ما يُدعى (انعدام المادّة أو موتها).

إنّ الله تعالى يقول: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيها فانٍ * ويبقى وجهُ ربّكَ ذو الجلالِ والإكرام**﴾ (الرّحمٰن / ٢٦، ٢٧)»[2].

وهكذا كان العلماء السابقون يرون استحالة تَجزِئةَ المادّة وتقسيمها، لدقّتها المتناهية، فلمّا اتّسع نطاق العلم، وتقدّمت الأبحاث الذرِّية، استطاع العلماء المحدِّثون تفجيرها وتجزئتها، وتجلّت لهم بذلك حقائق مدهشة.

تجلّى لهم أنّ كلّ ذرّة: عالَمٌ مستقل ينطوي على أجزاء ذرِّية، تُشابه المجموعة الشمسية في تأليفها ونظامها، اصطلحوا عليها: البروتون، والألكترون والنيوترون.

وهذه الأجزاء هي في منتهى الدقّة والضآلة، بحيث يُعتبر كلّ فرد منها جزءاً من عشرة ملايين جزء من المليمتر.

فالبروتون: هو نواة الذرّة ومحورها، وهو ينطوي على شحنة كهربائية موجبة.

والألكترون: هو غلاف الذرّة ومحيطها، وهو يحتوي على شحنة كهربائية سالبة.

---

(١) الإنسان روح لا جسد، للدكتور رؤوف عبيد، ج ١، ص ٦.

(٢) التكامل في الإسلام، ج ٢، ص ٣٢ ـ ٦٣، بتلخيص وتصرّف.

وكلّ من البروتون والألكترون قد يتألّف من جزيء واحد أو جزيئين أو أكثر، على حسب ذرّات المادّة، بيدَ أنّهما متعادلان في شحنتهما وعدد جزيئاتهما، فالشحنة الموجبة تساوي السالبة، وكلّ ذرّة تضمّ بروتوناً واحداً يعادله ألكترون واحد، أو تضمّ بروتونين فيعادله الكترونان، وهكذا دواليك.

وهذه الألكترونات تدور حول البروتونات (أو النّواة) دورتين في آنٍ واحد، فتارةً: تدور حول نفسها دوران الأرض حول محورها، وأخرى: تدور حول النّواة في مدارات تختلف سعةً وضيقاً كما تدور الكواكب السيّارة حول الشّمس، فتقطع في دورتها أقصى سرعة عرفها الإنسان، قد تبلغ بضعة آلاف مليون دورة في الثانية.

وأمّا النيوترون: فهو الجزء المحايد والمجرّد من كلِّ شحنة موجبة أو سالبة، وموقعه قلب الذرّة ونواتها.

لذلك فقد انسلخت الذرّة ـ بتفجيرها ـ من خصائصها العنصرية والمادِّية، واستحالت إلى طاقات هائلة جدّاً، نَتَجَتْ مِنْ تَفْجيرِ القنابل الذرِّية والنّووية.

ولهذا استطاع العلماء أن يحوِّلوا المادّة إلى طاقة، والطّاقة إلى مادّة، وهذا من أعظم الإكتشافات العلمية في العصر الحديث، فالغرام الواحد من المادّة يتحوّل إلى طاقة تعدل (٢٢) مليون مليون سعرة حرارية، ويمكن تحويل ملعقة من الزئبق إلى طاقة ضخمة تستطيع أن تُسيِّرَ قطاراً كبيراً حول الأرض سبعَ مرّاتٍ.

وقد ذكر الباحثون في الذرّة: أنّ أساليب التفجير المعروفة تُطلِق واحداً من ألف من طاقات الذرّة، وهم يأملون أن يتوصّلوا إلى استحداث أساليب أخرى تُمكنهم من إطلاق (٩٩٠) من الألف من طاقاتها الجبّارة، وفي وسعهم آنذاك أن يولِّدوا من مادّة زنتها رَطل واحد طاقة تعدل مليوناً ونصف المليون طن من الفحم، فتستطيع قنبلة واحدة زنتها عشرة أرطال أن تفني العالم بأسره.

وهكذا استطاع العلماء تطوير العناصر واستبدال بعضها من بعض، «حيث أحالوا الراديوم إلى هليوم وإلى رصاص، واليورانيوم إلى رادون وإلى بزموث، والنتروجين إلى أوكسجين وإلى كاربون، والنّحاس إلى زنك ثمّ إلى نيكل، وأحالوا الصوديوم إلى مغنيسيوم، من صغير العناصر إلى كبيرها، ومن كبير العناصر إلى صغيرها»[1].

ويحصل هذا التبادل بطرق طبيعية وأخرى صناعية.

والآن، ونحنُ في نهاية المطاف، نستطيع أن تستنتج من خصائص المادّة، وأطوارها، حقائق هامّة نُجملها في النقاط التالية:

١ ـ لقد عرفتَ أنّ المادّة فانيـة، والفاني عاجـز عن الخلق والإبداع، لأنّ ما يسبقه العـدم أو يلحقه الفـناء، منوط بعلّة خارجة عنـه، يوجد بوجـودها، ويفنى بفنائها. وهذا من أبرز سمات العجز والقصور، والخالق الحقّ هو ما كان قائماً بذاتـه مستغنياً عن غيره، لا يسبقه العدم، ولا يلحقه الفـناء، ولولا ذلك لكان ممكناً، معلولاً لغيره.

٢ ـ وقد عرفتَ كذلك أنّ المادّة مركّبة من ذرّات دقيقة، وكلّ ذرّة مؤلّفة من ثلاثة أجـزاء، تدور حول بعضها بنـظام كنظام المجموعة الشّمسـية، وواضح أنّ كلّ تركيب وحركة ونظام، يستلزم مركِّباً ومحرِّكاً ومنظِّماً. فمَنْ الّذي ركّب المادّة وسيّرها بانتظام، وهي قاصرة ذاتيّاً يستحيل عليها كلّ ذلك؟

وفي هذا دلالة صارخة على أنّ للمادّة خالقاً يُصَرِّفها بمشيئته كيف يشاء.

٣ ـ وقد عرفتَ أيضاً أنّ المادّة متغيِّرة لتطوّرها وتكيّفها من حالٍ إلى آخر:

---

(١) الدكتور أحمد زكي، في كتابه: مع الله في السّماء، بتصرّف.

من الأفراد إلى التّركيب ومن التّركيب إلى الأفراد
من المـــادّة إلى الطّاقـة ومن الطّاقـة إلى المـــادّة
ومن عنـصر إلى آخر

ومن الثابـت أنّ كلّ متغيِّر حادِث، معلول لغـيره، ولا يصلح أن يكون علّة للخلق والإبداع، لأنّ الخالق يجب أن يكون قائماً بذاته، مستغنياً عن غيره، لا يزول ولا يتغيّر، إذ الزّوال والتغيّر دليل على تغاير العلّة وانفكاكها عنه، وكونها غير ذاتية فيه، وهو محال عليه.

وحيث كانت المادّة متغيِّرة، فقد ثبت حدوثها وافتقارها إلى المُحدِث، واستحال عليها أن تكون علّة أوّلية للخلق.

٤ ـ لقد اتّضح ممّا أسلفناه آنفاً، أنّ خصائص المركّبات المادِّية ليست أصيلة ذاتية فيها، وإنّما هي عرضيّة طارئة، لإمكان تجديدها من تلك الخصائص، وسلبها منها بإحالتها إلى عناصرها البسيطة.

فحلاوة السكّر، مثلاً، صفة عرضيّة له، لإمكان زوالها بتحليله وإرجاعه إلى عناصره الأوّلية: من الكاربون والأوكسجين والهايدوجين، فتزول حينذاك حلاوته، ولو كانت ذاتيّة لاستحالَ زوالها.

٥ ـ وهكذا القـول في خواصّ العـناصر البسـيطة، فإنّها ليست ذاتيّـة فيها، لزوالها بتحويل العناصر، واسـتبدال بعضها ببعض. فالنّحاس مثلاً، سرعان ما تزول وتتلاشى خاصّيّته بإحالته إلى زنك ثمّ إلى نيـكل، ويفقد الراديوم خاصِّيَّـته بِتَحَوُّلِه وتطوُّرِه إلى هليوم وإلى رصاص، وهكذا دواليك.

ولو كانت خواصُّها ذاتيّـة، امتنع اسـتبدالها وتحـويلها من عنصر إلى آخـر. فنستنتج من ذلك أنّ خواصّ العناصر المادِّية، مركّبة كانت أو بسيطة، كلّها عرضيّة

فيها، كما سبق بيانه.

وخواصّ الحقيقة المادِّية هي عرضية كذلك، لإمكان تجريدها منها بتحويلها إلى طاقات كهربائية ضخمة.

وحيث كانت المادّة بهذه المثابة من الوهن والقصور، عاجزة عن اكتساب خصائصها، أو الإحتفاظ بها، فأنّى لها أن تخلق هذا الكون العظيم، بهيئته الرائعة، وقوانينه العتيدة ونظامه الدّقيق الرّتيب.

من أجل ذلك، فقد انهارت مزاعم المادِّيين في تأليه المادّة وعزو الخلق والإبداع إليها. وتلاشت هباءً على ضوء العلم الحديث، ونظريّاته الحسِّية.

٢ ـ شبهة الصِّدفة:

وهي الّتي يعزو أربابها حدوث الكون ووجوده إلى المصادفة والإتِّفاق. وأنّه غنيّ عن التعليل بموجد سوى ذلك.

وهذه الضّلالة وليدة الجهل الفاضح بالفرق والتناقض بين الموجود مصادفةً وبين الموجود عمداً وقصداً.

فالأوّل: متّسم بالعشوائية وعارٍ من سمات الإرادة والغاية والقصد.

والثاني: نقيضه وهو المتّصف بالإرادة الواعية، والقصد الهادف والغاية المنشودة.

من أجل ذلك اعتُبرت شبهة المصادفة خرافة يستنكرها العقل والوجدان لِاستحالة حدوثِ المصنوعات ذات الغاية والحكمة بغير إرادة واعية، وقصد هادِف، كاستحالة حدوث الفعل من غير فاعِل، والأثر بدون مؤثِّر.

ومتى تجلّىٰ القصدُ، واتّضحت الغاية في الموجود، كان لا بدّ له من قاصد مُريد، واستحالت فيه المصادفة والإتِّفاق.

أرأيتَ لو شاهدتَ جهازاً له غاياته ومنافعه، كالسيّارة، والطّائرة والسّاعة والرّاديو ونحوها، أكنتَ تتوهّم أنّه نشأ مصادفةً من غير قاصِدٍ مُريد؟ ولو ٱدّعى ذلك مُدّعٍ لحكمتَ بجنونه، لامتناع المصادفة فيه بداهةً ووجداناً.

ولئن استحالت الصدفة في الجهاز الآلي فهي في هذا الكون العظيم أشدّ استحالة وامتناعاً.

هذا إلى أنّ حدوث الكون مصادفةً، لا يحتِّم بقاءه ودوامه محتفظاً بتناسقه ونظامه.

فلماذا انتظم الكون بعد فرض وجوده مصادفةً، ولم يَعْرُهُ التبعثر والإنحلال، وتعمّه الفوضى والتسّيب...؟

كأن تشرق الشّمس من المغرب، أو تغيب من المشرق، ويبزغ القمر تارةً بدراً، وأخرى مباشرةً هلالاً. ويصير اللّيل نهاراً والنّهار ليلاً. يَلِدُ الإنسان حيواناً، والحيوان إنساناً. ويثمر الشّجر خِلافَ نوعه، فينتج النّخل رمّاناً، والقمح عنباً، ونحو ذلك ممّا يُشعر بالفوضى والتسيّب.

إذاً، فبقاء الكون واتِّساقه ملايين الدهور والأحقاب، برهان صارخ على إرادة موجده وقصده.

قال الأستاذ (أكريسي موريسون) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم في نيويورك: «نستطيع بناموس رياضي لا يتبدّل، أن نُقيم الدّليل على أنّ العقل الّذي وضع نظام الكون ونفّذه عقل مهندس حكيم، خُذ عشرة قروش، وأرقمها من واحد إلى عشرة، ثمّ ضعها في جيبك وٱخلطها ما ٱستطعت، ثمّ حاول أن تُخرِجها من جيبك دون أن تنظر بحسب ترتيب أرقامها، الأوّل أوّلاً، والثاني ثانياً، وهكذا، على أن تُعيد كلّ قرش تُخرجه إلى جيبك بعد إخراجه، ثمّ تخلطها جميعاً، وتُخرِج القرش الّذي يليه.

ونحنُ نعلم، أنّ الاحتمال الرياضي لإخراج القرش الأوّل أوّلاً، وهو واحد من

عشرة، ولإخراج الأوّل والثاني بهذا الترتيب، هو واحد من مائة، وأنّ الإحتمال الرياضي لإخراج القروش الثلاثة الأوَل على التوالي، هو واحد من ألف، وهكذا.

فالإحتمال الرياضي لإخراج القروش العشرة تباعاً، من واحد إلى عشرة، يبلغ رقماً لا يُصدّق، هو: واحد من عشرة ملايين.

وعلى هذا النّمط من التفكير، نستطيع أن نقول: إنّ الأحوال الدقيقة اللّازمة للحياة على الأرض تبلغ من الكثرة مبلغاً يجعل تواليها المحكم بالمصادفة أمراً مستحيلاً»[١].

وقال الدكتور عبدالمجيد سرحان، في مقدّمة كتاب (الله يتجلّى في عصر العلم):

«إذا كان لدينا صندوق كبير مليء بآلاف عديدة من الأحرف الأبجديّة، فإنّ احتمال وقوع حرف الألف بجوار الميم لتكوين كلمة (أم) قد يكون كبيراً، أمّا احتمال تنظيم هذه الحروف لكي تكون قصيدة مطوّلة من الشِّعر أو خطاباً من إبن إلى أبيه، فإنّه يكون ضئيلاً إن لم يكن مستحيلاً.

ولقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرّات الّتي يتكوّن منها جزيء واحد من الأحماض الأمينيّة (وهي المادّة الأوّلية الّتي تدخل في بناء البروتينات واللّحوم). فوجدوا أنّ ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السّنين وإلى مادّة لا يتّسع لها هذا الكون المترامي الأطراف.

هذا لتركيب جزيء واحد على ضآلته، فما بالكَ بأجسام الكائنات الحيّة جميعاً من نبات وحيوان، وما بالكَ بما لا يحصى من المركّبات المعقّدة الأخرى، وما بالكَ بنشأة الحياة وبملكوت السّماوات والأرض. إنّه يستحيل عقلاً أن يكون ذلك قد تمّ عن طريق المصادفة العمياء، أو الخبطة العشواء، لابدّ لكلِّ ذلك من خالق مُبدِع، عليم

---

(١) مجلّة المختار، عدد شباط لسنة ١٩٤٧م.

خبير، أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وقدّر كلّ شيء ثمّ هدى».

٣ ـ شبهة قِدَم العالم:

ومن مزاعم المادِّيين في تعليل العالم، أنّه قديم أزليّ، فلا داعي لتعليله ونسبته إلى صانع وموجِد سواه.

وقد أخطأوا وهم لا يشعرون إذ ليس في هذا العالم من الصِّفات والخصائص ما يوجب وجوده لذاته واستغناءه عن الموجِد، وذلك:

(١) إنّه بحكم تكوّنه وتركيبه من عناصر وكائنات مادِّية متّصفة بالقصور الذّاتي متّسم بالحدوث والإمكان، ومفتقر إلى ضرورة الموجِد، لذلك كان زعم قِدَمه محالاً ممتنعاً.

(٢) إنّا نجد العالم متغيِّر الأطوار والأحوال، وزاخراً بصنوف الأضداد: ضياء وظلام، حرّ وبرد، حياة وموت.

ومن بداءة الحكمة والمنطق أنّ كلّ متغيِّر حادث، فحصيلة ذلك ونتيجته الحتمية «أنّ العالم حادث» وليس بقديم.

(٣) وقد أبطل العلم الحديث هذه الشّبهة وزيّفها، بقانون الديناميكا الحرارية، حيث يقول الدكتور (أدوارد لوثركيل) أستاذ علم الأحياء، ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو: «العلوم تثبت بكلّ وضوح أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليّاً، فهناك انتقال حراري مستمرّ من الأجسام الحارّة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوّة ذاتيّة بحيث تعود الحرارة، فترتدّ من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارّة، ومعنى ذلك: أنّ الكون يتّجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذٍ لن تكون هناك عمليّات كيمياوية أو

طبيعية، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون.

ولمّا كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليّات الكيمياوية والطبيعية تسير في طريقها، فإنّنا نستطيع أن نستنتج أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليّاً، وإلّا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقّف كلّ نشاط في الوجود.

وهكذا توصّلت العلوم من دون قصد، أنّ لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله، لأنّ ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه، ولا بدّ له من مُبدِئ، أو من خالِق هو الإلٰه»[1].

وقال الدكتور (دونالد روبرت كار) الأختصاصي في تقدير الأعمال الجيولوجية:

«يُستخدَم في الوقت الحاضر عدد من الطّرق المختلفة لتقدير عمر الأرض، وهي تشير إلى أنّ الكون قد نشأ منذ نحو (خمسة بلايين سنة).

وعلى ذلك، فإنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليّاً، ولو كان كذلك لما بقيت فيه أيّ عناصر إشعاعية، ويتّفق هذا الرأي مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية»[2].

وقال الدكتور (جون كليفلاند كوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولت:

«تدلّنا الكيمياء على أنّ بعض المواد في سبيل الزّوال أو الفناء، ولكنّ بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة.

وعلى ذلك، فإنّ المادّة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً أنّها ليست أزلية، إذ أنّ

---

(١) الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٨٧.

لها بداية، وتدلّ الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أنّ بداية المادّة لم تكن بطيئة أو تدريجية، بل وُجِدت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تُحدِّد لنا الوقت الّذي نشأت فيه هذه المواد. وعلى ذلك فإنّ هذا العالم المادِّي لا بدّ أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خُلِق يخضع لقوانين وسنن كونية محدّدة.

فإذا كان هذا العالم المادِّي عاجزاً عن أن يخلق نفسه، أو يُحدِّد القوانين الّتي يخضع لها، فلا بدّ أن يكون الخلق قد تمّ بقدرة كائن غير مادِّي، وتدلّ الشواهد جميعاً على أنّ هذا الخالق لا بدّ أن يكون متّصفاً بالعقل والحكمة..

وعلى ذلك، فإنّ النتيجة المنطقية الحتمية الّتي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أنّ لهذا الكون خالقاً فحسب، بل لا بدّ أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كلِّ شيء حتّى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظِّمه ويدبِّره»[1].

من أجل ذلك، فقد بطلت هذه الشّبهة وتلاشت على ضوء العلم وقوانيه الأصيلة.

٤ ـ شبهة الحسِّيِّين:

ومن حماقة المادِّيين أنّهم ينكرون كلّ ما تعجز الحواس عن إدراكه، وتقصر العيون عن رؤياه، وبذلك جحدوا الله عزّ وجلّ، لعجزهم عن رؤيته ومشاهدته.

وقد فضحت هذه الشّبهة غباءهم وجهلهم، إذ لم يفرّقوا بين ممكن الرّؤية ومستحيلها.

وواضح أنّ طاقة الحواس وقدرتها محدودة، لا تتعدّى أمد المحسوسات المادِّية فحسب، وتعجز عمّا سواها من المفاهيم الروحية.

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٧.

وحيث كان الله عزّ وجلّ منزّهاً عن الجسم والمادّة، إذ لو كان سبحانه جسماً مادّياً لكان ممكناً معلولاً لغيره، كسائر الموجودات المادِّية. لذلك عجزت الحواسّ عن إدراكه، وأدركته العقول بآثاره وآيات خلقه.

وخفي على الحسِّيِّين، أنّ قصر الإعتقاد على المحسوسات فحسب، جناية كبرى على واقع العلم وحقائقه المرتكزة على البراهين العقلية، وإسقاطها عن الاعتبار، إذ «لم يستطع أيّ عالم من علماء الطبيعة أن يكتشف سرّاً من أسرار الكون أو قانوناً من قوانين الطبيعة عن طريق الحسّ والتجربة إلّا بالعقل، إذ كان يجمع في المرحلة الأولى الملاحظات الّتي تزوِّده بها تجاربه وملاحظاته، ثمّ يوازن في المرحلة الثانية بينها بعقله حتّى يصل إلى النتيجة.

ولا نعرف فتحاً علمياً استغنى بالمرحلة الأولى عن الثانية، ولم يمرّ بمرحلتين على هذا النّحو، حيث تكون قضايا المرحلة الأولى أموراً محسوسة، وقضايا المرحلة الثانية أموراً مستنتجة ومستدلّة يدركها العقل، ولا تقع تحت الحسّ المباشر.

ففي قانون الجاذبية مثلاً، لم يحسّ نيوتن بقوّة الجذب بين جسمين إحساساً مباشراً، وإنّما أحسّ بالحجر وهو يسقط على الأرض إذا هوى، وبالقمر وهو يدور حول الأرض، وبالكواكب وهي تدور حول الشّمس، وبدأ يفكِّر فيها معاً، واستمرّ في محاولة عامّة لتفسيرها جميعاً.

وعلى ضوء ذلك: اكتشف قانون الجاذبية، فافترض قوّة جذب بين كلّ كتلتين تتناسب وتتأثّر بحجم الكتلة ودرجة البُعد».

فلا مناص والحالة هذه من التسليم لسلطان العقل السليم وبراهينه السديدة، ومُعطياته الضخمة.

هذا إلى أنّ الحواسّ نفسها كثيراً ما تقصر عن تبيّن الحقائق الحسِّية، فضلاً

عن العقلية. فهي، مثلاً، ترى الأرض ساكنة وهي تسير (١٠٧٠٠٠) كيلو متراً في الساعة، في طوافها السنوي حول الشّمس، وهي لا تبصر قوّة الجاذبية الأرضية، رغم ثبوتها وأهمِّيّتها. ولا ترى الهواء رغم انتشاره وضغطه على الأجسام.

ولا تدرك الأشعّة تحت الحمراء والأشعّة فوق البنفسجية وأشعة إكس وأمواج اللّاسلكي والرّادار ونحوها من الموجودات اليقينية.

وهي أكثر عجزاً وقصوراً عن استجلاء الحقائق الروحية وتفهّم واقعها، كالعقل والرّوح، والحبّ والبغض، والفرح والحزن، واللّذّة والألم، ونحوها ممّا لا يُدرك إلّا بالخصائص والآثار.

والحواسّ بعد هذا كثيراً ما تخدع الإنسان وتريه الشيء على خلاف واقعه: تريه الأرض سائرة في اتجاه معاكس لسيره السريع وهي ساكنة. وتريه قطرة المطر سلكاً مائياً، وهي قطرة واحدة. وتجسِّد أعمال السّحرة والمشعوذين، وهي أوهام خادعة.

فمن الخطأ أن نعتمد على الحواس اعتماداً كلِّياً، نابذين سلطان العقل، وبراهينه الساطعة، وعلينا أن نعطي كلّاً من العقل والحواس ما يستحقّه من الثِّقة والتقدير.

وقد أحسن الدكتور (واين أولت) عضو الجمعية الجيولوجية الأميركية، حيث قال:

«الحياة لا تتّسع والظّروف لا تسمح لكي يقوم الإنسان بنفسه بإجراء كلّ تجربة لنفسه، فعليه أن يسلِّم تسليماً بما قام به رجال العلوم الّذين سبقوه من أعمال وتجارب.

فمن ذلك، مثلاً، أنّ عدد مَنْ قاموا بتحديد سرعة الضوء يُعدّ قليلاً جدّاً، ومع ذلك فإنّ كلّ الناس يُسلِّمون بسرعته المعروفة ولا يساورهم شكّ في أمرها.

وكذلك الحال فيما يتّصل بتركيب الذرّة وبالصورة الّتي رسمها لها (بور)، وهي صورة مبسّطة تعيننا على إدراك سلوك الذرّة وخواصّها.

وكذلك الحال فيما يتعلّق بتركيب الأجرام السماوية البعيدة عمّا لا نستطيع أن نخضعه لتجاربنا.

فلابدّ أن يؤمن الإنسان بكثير من المعلومات إيماناً يقوم على التسليم بصحّتها. ويستطيع الإنسان أن يمارس هذا الإيمان فيما يتّصل بوجود الله، فقد أرسل الله الرّسل وأنزل عليهم كتباً تؤكّد فكرة وجود الله تعالى»[1].

وقال الدكتور (دي نوي) وهو من كبار العلماء الأمريكيين في كتابه (مصير البشرية):

«في هذا العصر ـ عصر العلم ـ لا يستطيع أحد أن يتصوّر بحواسّه (الألكترون) وكلّ عالم يقول لك: إنّ الألكترون شيء لا يمكن تصوّره، ولا يسعكَ أن ترسم شكله وليس ثمّة رجل رآه، ومع ذلك فالألكترون الّذي لا يُرى موجود، وإنْ تعذّر علينا أن نتصوّره.

فما ظنّك بالله الّذي لا تُدركه الأبصار، والّذي ليس كمثله شيء»[2].

٥ ـ شبهة الأرزاء:

وهكذا يتفنّن المُلحدون في اختلاق المزاعم، وزخرفة الأوهام، كأنّهم يستعذبون الخرافة والتهريج.

فمن مزاعمهم: أنّ الشرور الّتي تنتاب الناس، والرزّايا الّتي تلمّ بهم، كعروض

(١) الله يتجلّى في عصر العلم، ص١٣، نُقل بتصرّف وتلخيص.

(٢) الإسلام ضرورة عالمية، لزاهر غرب الزّعبي، ص١٨.

الأمراض وحدوث الصّـواعق والزّلازل وطوارئ الحرق والغـرق، وخلق المـؤذيات من السِّـباع والحشرات، كلّ ذلك دليل على تسيّب العـالم، وخلوّه من سمات القصد والتدبير، ممّا زجّهم في مهاوي الكفر والإلحاد.

وسأوضِّح بطلان هذه الشّبهة، وفسادها بمـا أعرضه في مطاوي هذا البحث، وحسب العناوين التالية:

(أ) الأمراض: ليست الأمراض كما يزعمـون، ناشـئة عن قصور في العناية الإلهٰية، أو نقص في تدبيرها الحكيم، وإنّما هي ناشئة في الأعمّ الأغلب عن مخـالفة القوانين الإلهٰيـة، والآداب الشرعية المسـنونة لصيانة الإنسان، ووقايتـه من شرور الأمراض والأسقام.

فلا ريـب أنّ الإفـراط في الأكل، والإسراف الجنسـي، وتعاطي المخــدّرات والمنـبِّهات، ومواصلة الإجهـاد الجسـمي والفكـري، كلّ ذلك من دواعي اعتـلال الإنسان وانحراف صحّته.

هذا إلى أنّ الإنســان بحُكم واقعه وطبيعة تكوينـه، عرضـة لمختلف الطوارئ الّتي لا تنفكّ عنها جميع الممكنات، تلازمه ملازمة الظلّ لصاحبه، كالمرض والهـرم، والضّعف والمـوت، فنـفي ذلك عنـه جهلٌ بحقيـقته، وإعفائـه من ألصق خصائصـه البشرية.

بيدَ أنّ الله عزّ وجلّ لم يدع الإنسان فريســة للأمراض وهدفاً لها، فقد علّمه طرائق الوقاية والعلاج منها، وجعل لكلِّ داء دواء يستطبّ به وما برح الأطبّاء عبرَ العصور يكتشفون الأدوية الناجعة (*) والعقاقير الشافية لكثير من الأمراض.

(*) الناجعة: النافعة.

وبالرغم من فداحة الأمراض وآلامها المبرحة، فإنّها لا تخلو من حكم ومصالح، فهي محكّ واختبار للإنسان، يستجلي مبلغ إيمانه، وواقع أخلاقه وتمسّكه بالصّبر أو الجزع، وبالتفويض إلى الله تعالى، أو السّخط على قضائه وتدبيره. وعلى ضوء نتائج الإختبار، ينال الممتحَن ما يستحقّه من الأجر والمكافأة.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكاذِبِينَ﴾. (العنكبوت / ٢ ـ ٣)

والأمراض بعد هذا وذاك وسيلة تأديبية تزجر الغواة والعابثين الّذين أبطرتهم العافية وغرّتهم الصحّة، فاندفعوا في تيّار الأهواء والآثام دونما اكتراث ومبالاة بنتائجها السيّئة ومغبّتها الوخيمة، فتقرعهم آنذاك الأمراض بسوطها الموجع، لتؤدّبهم وتقوّم انحرافهم، وتعيدهم إلى الرّشد والصّواب.

قال النّبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: **«لولا ثلاثة في ابن آدم، ما طأطأ رأسه شيء: المرض والموت والفقر. وكلّهنّ فيه، وإنّه معهنّ لو ثاب»**.

وهي كذلك كفّارة للمؤمن، وطهارة له من تبعات الذنوب ودنس الآثام، ليلقى الله عزّ وجلّ نقيّاً آمِناً من سخطه وعقابه كما أعربت عن ذلك آثار أهل البيت عليهم السّلام.

قال الإمام الرّضا عليه السّلام: **«المرض للمؤمن تطهير ورحمة، وللكافر تعذيب ولعنة، وإنّ المرض لا يزال بالمؤمن حتّى لا يكون عليه ذنب»**(١).

وقال عليه السّلام: **«للمريض أربع خصال: يُرفع عنه القلم، ويأمر الله الملك يكتب له كلّ فضل كان يعمله في صحّته، ويتبع مرضه كلّ عضو في جسده فيستخرج ذنوبه**

(١) البحار، عن ثواب الأعمال.

منه. فإن ماتَ ماتَ مغفوراً له، وإن عاشَ عاشَ مغفوراً له» [١].

(ب) وأمّا الآفات الّتي تنتاب الناس وتلمّ بهم أحياناً، كالصّواعق والزّلازل، وطوارق الحرق والغرق، وانتشار الجراد، ونحوها من المكاره والأرزاء، الّتي اتّخذها الملحدون ذريعة إلى إنكار الخالق، ونفي الحكمة والتدبير في خلقه.

وتلك شبهة مخرّفة تكشف عن بلادة أربابها وغبائهم الفاضح. كيف يكون العالم غفلاً مهملاً من العناية والتدبير..؟! ونحنُ نشاهد آيات الحكمة ودلائل القصد والتدبير تُطالعنا فيه هنا وهناك، في أقطار الأرض وآفاق السّماء، وفي جميع الموجودات، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وعلامَ لم يحدث في الكون ما هو أفظع من ذلك:

«كأن تسقط السّماء على الأرض، وتهوي الأرض فتذهب سفلاً، وتتخلّف الشّمس عن الطّلوع أصلاً، وتجفّ الأنهار والعيون حتى لا يوجد ماء، وتركد الرّيح حتّى تَخُمَّ (*) الأشياء وتفسد، ويفيض ماء البحر على الأرض فيُغرقها.

وما بال هذه الآفات لا تدوم، وتمتدّ حتّى تجتاج العالم بل تحدث في الأحايين ثمّ لا تلبث أن ترتفع. أفلا ترى أنّ العالم يُصان ويُحفظ من تلك الأحداث الجليلة، الّتي لو حدث شيء منها كان فيه بواره؟

ويُلدغ بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم، ثمّ لا تدوم بل تُكشَف عنهم. فيكون وقوعها بهم موعظة، وكشفها عنهم رحمة.

ولو كان عيش الإنسان، في هذه الدّنيا، صافياً من كلِّ كدر، لخرج الإنسان من

---

(١) نفس المصدر.
(*) تَخُمُّ: تتغيّر رائحتُهُ كاللّحم واللّبن.

الأشر والعتوّ إلى ما لا يصلح في دين ولا دنيا، كما نرى كثيراً من المترفين، ومَنْ نشأ في الجِدَةِ والأمن يخرجون إليه، حتّى أن ينسى أحدهم أنّه بشر، وأنّ ضرراً يمسّه أو مكروهاً ينزل به، وأنّه يجب أن يرحم ضعيفاً، أو يواسي فقيراً، أو يرثي لِمُبْتَلٍ، أو يعطف على مكروب، فإذا عضّته المكاره، ووجد مضضها، اتّعظ وأبصر كثيراً ممّا كان جهله وغفل عنه، ورجع إلى كثير ممّا كان عليه.

والمنكرون لهذه الأمور بمنزلة الصبيان الّذين يذمّون الأدوية المرّة البشعة، ويسخطون من المنع من الأطعمة الضارّة، ويتكرّهون الأدب والعمل، ويحبّون اللّهو والبطالة، وينالون كلّ مطعم ومشرب، ولا يعرفون ما تؤدّي بهم إليه البطالة من سوء النّشوء والعادة، وما تعقبه فيهم الأطعمة اللّذيذة من الأدواء والأسقام، وما لهم في التأديب من الصّلاح، وفي الأدوية من المنفعة، وإن شابَ ذلك بعض الكراهة.

فإن قالوا: ولِمَ لم يكن الإنسان معصوماً من المساوئ، لا يحتاج إلى أن تلدغه هذه المكاره.

قيل: إذن، يكون غير محمود على حسنة يأتيها، ولا مستحقّ للثّواب عليها.

وقد يتعلّق هؤلاء بالآفات الّتي تُصيب الناس فتعمّ البَرَّ والفاجِرَ، أو يُبتلى بها البَرُّ ويسلم الفاجرُ منها. كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم، وما الحجّة فيه؟

فيُقال لهم: إنّ هذه الآفات، وإن كانت تنال الطّالح والصّالح معاً، فإنّ الله عزّ وجلّ جعل ذلك صلاحاً للصنفين، كليهما:

أمّا الصّالحون: فإنّ الّذي يصيبهم من هذا يزيدهم نعم ربّهم في قادمِ أيّامهم، فيحدوهم ذلك على الشّكر والصّبر.

وأمّا الطّالحون: فإنّ مثل هذا، إذا نالهم، كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش.

وكذلك يجعل لمَن سلم من الصِّنفين صلاحاً في ذلك:

أمّا الأبرار: فإنّهم يغتبطون بما هم عليه من البرِّ والصّلاح، ويزدادون فيه رغبة وبصيرة.

وأمّا الفجّار: فإنّهم يعرفون ما بهم من رأفة ربّهم وتَطوُّلِه عليهم بالسّلامة من غير استحقاق، فيحضّهم ذلك على الرّأفة بالناس والصّفح عمّن أساء إليهم»[1].

وجاء في كتاب (الأسفار) للعالم الشهير بالملّا صدرا، ما ملخّصه:

«بأنّه من المحال ذاتاً إيجاد كون لا شرّ فيه، فإنّ الكون بموجب وضعه وتكوينه يلزمه حتماً أن يكون فيه خير وشرّ، قوّة وضعف، حنان وعُنف، وإلّا استحال وجوده من الأساس».

ذلك: أنّ الطبيعة يستحيل أن توجد وتتكوّن إلّا من عناصر متضادّة متباينة، وهذه العناصر في حركة دائمة بين جذب ودفع، وتفاعل مستمر، ومن هذا التفاعل تتولّد الظواهر الطبيعية كالزّوابع، والعواصف، والحرّ والبرد، والمطر والصّحو وما إلى ذلك من آثار الطبيعة خيرها وشرّها.

وعلى هذا يدور الأمر بين اثنين لا ثالث لهما:

إمّا أن لا يوجد الكون.

وإمّا أن يوجد بخيره وشرّه.

وبهذا يتبيّن أنّ قول القائل: لماذا لم يخلق الله الطبيعة من غير شرّ هو أشبه بقول مَنْ قال: لماذا لم يخلق ناراً لا حرارة فيها، وثلجاً لا برودة فيه، وعقلاً لا إدراك له، إنّ هذا السؤال أشبه بالهذيان»[2].

---

(١) توحيد المفضل، بتصرّف.

(٢) التفسير الكاشف، لمحمّد جواد مغنية، ج ٢، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(ج) وهكذا يعترض الجاحدون في تشدّق فاضح على الشّرور والمظالم الّتي يقترفها الناس، من إثارة الحروب وسفك الدِّماء، وهضم الحقوق و [التعدِّي على] الكرامات، ونحوها من صور المظالم الّتي استدلّوا بها على تسيّب العالم وإغفاله من ضوابط العناية والتدبير.

وهذا اعترض ساقط غبيّ، إذ ليس العالم مهملاً كما يزعمون، وليس تلك الظّلامات ناشئة من إهماله وإغفاله، وإنّما هي من شذوذ الإنسان وعتوّه وطغيانه.

فقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين إلى الناس، مبشِّرين ومنذرين، فلم يتركوا فضيلة إلّا حرّضوا عليها، ولا رذيلة إلّا حذّروا منها، وجهدوا ما استطاعوا في تهذيب الإنسان ورقيّه وإسعاده.

وإنّما شقت البشرية وعانت تلك الشّرور والأرزاء، بطغيانها وتمرّدها على الأنبياء عليهم السلام، ودساتير السّماء الكافلة الموجِّهة، ولو أنّها استنارت بهداهم وسارت على نهجهم، لسعدت وعاشت في طمأنينة وسلام، متفادية تلك المظالم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ وَلٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْ ناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾. (الأعراف / ٩٦)

وليس من الحكمة أن يجبر المولى عباده على طاعته، ومجانبة عصيانه، فإنّهم لو قُسِروا على ذلك لانعدمت فيهم مقاييس الفضل والكمال، وتلاشت الفوارق والميزات بين الطّيِّب والخبيث، والمحسن والمسيء، ولم يستحق المحسن ثواباً، ولا المسيء عقاباً، وذلك منافٍ لصميم حكمة الله عزّ وجلّ.

وهكذا لو أُجبر الناس على الطّاعة والصّلاح، لانحطّوا عن سموّ الإنسانية إلى حضيض البهائم والدّواب، الّتي تُساس بالعصا والإرهاب، وذلك مُزرٍ بكرامة البشر.

وليس الإعتراض على نقص الإنسان وعدم خلقه كاملاً مبرءاً من الشذوذ والإجرام، إلّا كالقول بضرورة قسره على الطّاعة، وكلاهما باطلان كما عرفت.

أضف إلى ذلك، إنّ انتفاء التمايز والتفاضل بين الناس وجعلهم صورة واحدة لا تختلف ولا تتفاوت في المواهب والكفاآت، باعث على فساد المجتمع وتسيّب نظامه القائم على التمايز والتفاوت.

(د) الموت: وقد اتّخذه الجاحدون وسيلة للدّسّ والتهريج على إغفال العالم وخلوّه من التدبير، لشيوع الموت فيه، وأنّه كان الأجدر ـ على زعمهم ـ أن يظلّ الإنسان خالداً في الحياة لا يفنى ولا يموت، إذ اعتبروا الموت شرّاً مستطيراً وبلاءً مبرماً.

ليس الموت شرّاً كما يزعمون، وإنّما هو انتقال من سجن الحياة وأسرها وآلامها، إلى جنان الآخرة ونعيمها الخالد، وليس الإعتراض على موت الإنسان وارتحاله إلى عالم الخلد، إلّا كالإعتراض على الجنين بخروجه من ضيق الرّحم وظلمته إلى فضاء الدّنيا ونورها الوهّاج، إذ ليست الدّنيا في قياسها بالآخرة إلّا كقياس الرّحم إلى سعة الدّنيا وجمالها الفاتن.

على أنّ البشر لو كانوا خالدين في الحياة لضاقت عليهم الأرض برحبها وأعوزتهم المعائش والمساكن، ودفعهم ذلك إلى أبشع صور التكالب والتطاحن على زخارف الحياة، فإنّهم والموت يتخطّفهم ويخترمهم لا ينفكّون عن ذلك، فكيف بهم لو أمنوا الموت وكانوا مخلّدين..؟

ثمّ كانوا يملّون الحياة ولذائذها كما قد يملّها مَنْ طالَ عمره حتّى يتمنّى الموت والرّاحة منها.

فإن قيل: لِمَ لم تُرفع عنهم المكاره، حتّى لا يتمنّوا الموت ولا يشتاقوا إليه؟ فقد وصفنا ما كان يُخرجهم إليه من العتوّ والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدِّين والدّنيا[1].

(هـ) خلق الشّواذ: ومن مطاعن المادِّيِّين على انتفاء القصد والتدبير في العالم، خلق الشّواذ والمشوّهين فيه، الخارجين عن مألوف الخلق البشري.

وهو ادِّعاء باطل وزعم مزيّف من وجوه:

١ ـ إنّ خلق الشّواذ لا يستلزم إنكار خالقها، لمجرّد الجهل بأسباب شذوذها، فكان الأجدر بهم أن يؤمنوا بمُوجِدها، لاستحالة وجودها من غير مُوجِد، ثمّ يتحرّوا بعد ذلك دوافع شذوذها وأسبابه.

٢ ـ لقد تجلّت حكمة الله تعالى، ودلائل قصده وتدبيره في أغلب مخلوقاته ممّا أدهشَ العقول وبهرَ الألباب، ومتى ثبتت حكمة الحكيم، وصدرَ منه ما هو مجهول الغاية والقصد، فلا يقدح ذلك في حكمته ليقيننا بصوابها وسدادها.

لذلك لا يصحّ ولا ينبغي أن يكون خلق الشّواذ دليلاً على نفي حكمة الله تعالى، وباعثاً على جحوده ونكرانه، وإنّما يدلّ على قصورنا وجهلنا بأسرارها وألغازها.

٣ ـ لقد كشف العلم أنّ ذلك الشّذوذ، وتلك العاهات المشوّهة، كثيراً ما تنجم عن مرض الوالدين واعتلالهما، ممّا يُسبِّب تشويه نسلهم وشذوذه عن المألوف. وحسبك في ذلك ما تُسبِّبه الأمراض الزّهرية من صنوف العاهات والزمانات المشوّهة للنّسل.

---

(١) توحيد المفضل، بتصرّف.

٤ ـ إنّ من غرائب المادِّيين أنّهم نظروا إلى الشّواذ نظراً قاصراً غبيّاً، وطفقوا يهرفون بشذوذها وإنكار صانعها، وفاتهم أنّ العلم آخذ في التقدّم والإتِّساع، وأنّ ما نجهل حكمته قد نعرفه في الغد القريب أو البعيد. وطالما اكتشف العلم أسراراً غامضة وألغازاً خفيّة، كانت مبهمة عند السابقين. فكان الأجدر بهم أن يعترفوا بقصورهم عن تفهّم أسرار الشّواذ، ويُرجئوا ذلك إلى اتِّساع العلم وكشفه النِّقاب عنها، كما هو دَيْدَن العلماء المتواضعين، الّذين اعترفوا بهذه الحقيقة، وصرّحوا بأنّ مكاسبهم العلمية تُعتبر جزءاً ضئيلاً أزاء ما يجهلونه من أسرار الحياة وألغازها الخفيّة.

وإليك نموذجاً من شهاداتهم المُعرِبة عن تواضعهم العلمي:

قال الأستاذ (وليم جيمس)، الأستاذ بجامعة (هارفارد) في كتابه (إرادة الإعتقاد):

«إنّ علمنا ليس إلّا نقطة، ولكنّ جهلنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الّذي يمكن أن يُقال بشيء من التأكيد هو: أنّ عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه، من نوع آخر لم ندرك خواصّه المكوِّنة له إلى اليوم»(١).

وقال الدكتور (بول كليرانس أبرسولد) أستاذ الطبيعة الحيوية، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرِّية في معامل أوك ريدج:

«لقد كنتُ عند بدء دراستي للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنساني، وبقوّة الأساليب العلمية، إلى درجة جعلتني أثق كلّ الثِّقة بقدرة العلوم على حلِّ أيِّ مشكلة في هذا الكون، وإدراك معنى كلّ شيء.

وعندما تزايدَ علمي ومعرفتي بالأشياء، من الذرّة إلى الأجرام السماوية، ومن

---

(١) على أطلال المذهب المادِّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٣٥.

الميكروب الدقيق إلى الإنسان، تبيّن لي أنّ هنالك كثيراً من الأشياء لم تستطع العلوم حتّى اليوم أن تجد لها تفسيراً، وتكشف عن أسرارها النِّقاب»[1].

إلى كثيرٍ من هذه الشهادات.

(و) خلق المـؤذيات: وكذلك اعترض الجـاحـدون على خلـق المـؤذيات، كالسِّـباع الضّـارية، والحشرات المؤذيـة والهوام القاتلـة، الّتي من شـأنها الإضرار بالإنسان وإيذائه، منكرين الغاية والقصد من خلقها وإيجادها.

والحقّ أنّ الجهل بعلل الأشياء وغاياتها لا يُبطل حكمة خلقها وإيجادها، فقد تكون غاية في الصّواب ونحنُ لا نُدرِك وجه صوابها.

وطالما كشف العلماء أسراراً علميـة كانت مبهمة على الأجيال السالفة، فمن الغباء أن يعترض الملحدون على خلق المؤذيات، لجهلهم بغاياتها وفلسفتها.

على أنّ تلك المؤذيات لا تخلو من خواصّ ومنافع، أدرك البشر بعضها وأفادوا منها، وأرجئ الآخر إلى رقيّ العلم واتِّساع آفاقه.

هذا ولا يُعتبر في تلك المؤذيات أن تكون مخلوقة لخير الإنسان ومنافعه فحسب، وإنّما هي أمّة بنفسها، ومظهر رائع من مظاهر قدرة الله تعالى، وإبداعه المدهش.

بيدَ أنّ الله عزّ وجلّ، وقى الإنسان شرّها وأذاها بما منحه من المواهب والوسائل الموجبة لصيانته وحفظه.

والجدير بالذِّكر في نهاية شبهة الأرزاء أنّ أسطر كلمه لامحـة لبعض مفكِّري الغرب تُعرب عن فلسفة الأرزاء وأبعادها في حياة الإنسان:

---

(١) الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٣٨.

قال الفيلسوف الأمريكي (وليام جيمس):

«الإنسان لا يشعر بأنّه يعيش فعلاً إلّا إذا ذاق الصّراع حلوَهُ ومرَّهُ، فشقِيَ بالهزيمة أو انتشى بالنصر. وإذا كان كلّ شيء ميسّراً ممهّداً، لفقدنا كلّ إحساس بالتوثّب، ولافتقدنا بذلك ذاتيّتنا، وعدمنا إحساسنا بشخصيّتنا. ففي كلٍّ منّا ذخائر من الطاقة لا يمكن أن تستثمرها حياة هادئة رتيبة، وإنّما توقظها وتثيرها حياة متدفّقة عارمة، حياة خارقة فذّة.

هنا في معمعة هذه الحياة، نحسّ فعلاً بأنّنا نعيش، ذلك لأنّنا خُلِقنا للنضال. ومن أجل غاياتنا يشتغل حماسنا ويضطرم نشاطنا»[١].

وقال (سيلفر بيرش):

«إنّ النّفس الّتي تذوق نزعات الألم والمرض والمرارة والأسى تخرجُ نفساً أعظم، نفساً تفهم آلام الآخرين. والنّفس الّتي تعيش ناعمة في الرّفاهية تبحث عن الخرافات والضّلال، سيكون عليها في يومٍ ما أن تلمس الحقيقة..

الشرّ والألم كما تسمّونهما جزآن من التطوّر، إذا لم يوجد الألم لم يوجد التحذير بأنّ الصحّة تحتاج إلى الانتباه، وإذا لم يوجد الظّلام فلا ضياء، وإذا لم يوجد الشرّ فلا خيرات.

وكيف يمكنكم الحكم على معايير الخير إذا لم يكن هناك شرّ في عالمكم؟ وإذا لم تكن هناك أخطاء تعالجونها وظلم لتحاربوه، كيف تتمكّن الرّوح من النموّ؟

لا يمكن أن تكون الحياة نغمة واحدة. يجب أن يكون هناك ضوء وظلّ، شروق وعاصفة، فرح ودموع، حبّ وبغض، جمال وقُبح، خير وشرّ، لأنّه في

---

(١) الإنسان روح لا جسد، للدكتور رؤوف عبيد، ج ٢، ص ٦٩٣.

التضادّ يمكن أن تفهم الحياة.

في النِّضال فقط، في الجهاد فقط، بالإنتصار على المصائب فقط للرّوح الإنسانية ـ الّتي هي إلهية ـ أن تنمو وأن تسمح لمواهبها الدفينة أن تظهر، هذا هو القانون»[1].

وقال الدكتور (رؤوف عبيد) في كتابه (الإنسان روح لا جسد) ج٢، ص ٦٩٧:

«الحرمان من المال، أو من الحياة، أو من السلطة، أو حتّى من الصحّة، لا يصلح بذاته مصدراً حقيقياً لأيِّ شقاء دفين ما لم يكن مصحوباً بالحرمان من تناسق الشخصية.

فليس غريباً أنّ الإحصائيات ـ في شتّى بلاد العالم ـ تشير إلى أنّ نسبة الانتحار بين الأغنياء أكبر منها بين الفقراء والمعدومين وبين المتعلِّمين أكبر منها بين الجهلاء، وفي بيئات الحضارة ـ رغم ما توفِّره من أسباب عديدة للتّرف والرّفاهية ـ أكثر منها في بيئات البداوة، وبين الشّباب أكثر منها بين الشّيوخ، وبين أولئك الّذين نسمِّيهم بالناجحين المرموقين أكثر منها بين الفاشلين والمغمورين.

علامَ يدلّ ذلك؟ ألا يدلّ على أنّ السعادة الحقيقة لا صلةَ حقيقية بينها وبين الظّروف الخارجية؟

وهكذا يَتبيَّنُ أنّ مسؤولية الإنسان الحقيقية تقع على عاتقه أوّلاً قبل أن تقع على ظروفه العابرة، أو قبل أن تقع على عاتق السّماء كما يُقال أحياناً».

---

(١) نفس المصدر، ج ٢، ص ٦٩٩.

التّوحيـد

توحيد الله عزّ وجلّ: هو أسـاس الشرائع الإلٰهيـة، ومحور رسـالات السّماء، والأصل الأوّل الّذي ارتكزت عليه الأصول الإسلامية، ومبادِئها الخالدة.

وقد أدرك الإنسان بفطرته ضرورة وجود الله تعالى، والإيمان به، وهو كذلك يستطيع أن يُدرك بفكره الواعي ومنطقه السّليم، بداهة توحيده وضرورته، ويعتقده بقناعة ويُسر.

ومصدر هذا وذاك استقراء هذه الكائنات السماوية والأرضية وما ازدانت به من روعة الإبداع، وجمال التنسيق، ودقّة النظام، وحكمة التدبير، واتّحاد القوانـين المسيطرة عليها، وثباتها على مرّ الدّهور والأحقاب. كلّ ذلك دليل صارخ على وحدة الصانع والمنظِّم والمدبِّر.

إذ لو فرض تعـدّد الآلهـة جـدلاً، لاستبدّ كلّ إلٰهٍ بمشـيئته، واسـتقلّ بتدبير سلطانه، ممّا يُسبِّب تناقض مشيئتها وغاياتها، ويبعث على بعثرة الكون وفساده.

فاتِّساق الكون، ووحدة قوانينه، واستتباب نظامه، برهان ساطع على وحدانيّة خالقه ومنسِّقه ومنظِّمه: ﴿لَوْ كانَ فيهما آلِهَةٌ إلّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ (١).

وهكذا يستلهم الفكر الواعي في تأمّلاته في آفاق العقيدة وآمادها السحيقة، آية أخرى من آيات التوحيد، تلك هي: أنّه لو كان لله سبحانه شريك لنوّه عن نفسه،

---

(١) سورة الأنبياء / ٢٢.

وأرانا مظاهر ألوهيّته وأوفدَ إلينا رُسله وسُفراءه، وحيث أنّه لم يحدث شيء من ذلك ولم يُشعرنا به، فقد ثبتت وحدانيّة الله عزّ وجلّ، وبطل الشّرك كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وٱعلم يا بنيّ أنّه لو كان لربّك شريك، لأتتكَ رُسُله، ولرأيتَ آثار ملكه وسلطانه، ولعرفتَ أفعاله وصفاته، ولكنّه إلٰهٌ واحدٌ كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً، ولم يزل»[(١)].

وهكذا نستجلي حقيقة التوحيد من تأريخ الأنبياء عليهم السلام، وهم منار الإنسانية ومُثلها العُليا، فإنّهم قد أجمعوا وتواطأوا عبرَ العصور على الدعوة إلى إله واحد، والتنويه بوحدانيّته، ونفي الشّرك عنه: ﴿**وَما أرْسَلْنا من قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاّ نُوحي إلَيهِ أنّهُ لَا إلٰه إلاّ أنا فاعْبُدُونِ**﴾[(٢)].

وقد ٱفترض الباحثون في التوحيد فروضاً جدليّة لتقرير واقع التوحيد:

من ذلك أنّه، لو كان لله عزّ وجلّ شريك، فهو إمّا أن يكون أعظم قدرة وسلطاناً من الله، فيكون أحقّ بالألوهية وأجدر بها منه، وإن كان أقلّ منه، فهو غير لائق بها.

وإن تماثلا: فإمّا أن يتّفقا على تصميم الكون وتدبيره أو يختلفا: فإن اتّفقا على سبيل التآزر والتعاون، سقطا عن الألوهية لعجز كلّ منهما واحتياجه إلى الآخر، والله سبحانه منزّه عن العجز والإحتياج.

وإن اختلفا وتعاكست مشيئتهما، فأراد أحدهما أمراً والآخر عدمه، لزمَ اجتماع الضدّين، كحدوث النّور والظّلام، والحركة والسّكون، في آنٍ واحد، وهو محال.

ولو نفذت مشيئة أحدهما دون الآخر، كان نافذ المشيئة هو الإلٰه الحقّ، وكان الثاني عاجزاً غير لائق بالألوهية.

---

(١) نهج البلاغة، في وصيّته لابنه الحسن.

(٢) سورة الأنبياء / ٢٥.

مفاهيم التوحيد:

وللتوحيد مفاهيم قرّرها المتكلِّمون: فالله عزّ وجلّ واحدُ ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً:

فأمّا وحدة الذّات، فلها معنيان:

١ ـ نفي الشِّرك عنه، وقد مرّ بيانه.

٢ ـ نفي التركيب عنه: لأنّ المركّب مُفتقِر في تكوينه وتركيبه إلى أجزائه وإلى مركِّب لها. والله سبحانه غنيّ بذاته، منزّه عن الحاجة إلى غيره، فهو محال عليه.

وأمّا وحدة الصِّفات: فمعناها أنّ صفات الله تعالى الكمالية هي عين ذاته، غير زائدة عليها، ولا مغايرة لها تغاير الأوصاف عن موصوفاتها الممكنة، فقولنا زيد عالِم، أو ماهر، فلازمه أنّ زيداً كان جاهلاً، ثمّ اكتسب العلم أو الفنّ حتّى حاز صفة العلم أو المهارة.

أمّا صفات الله عزّ وجلّ فإنّها عين ذاته، لا تغايرها ولا تنفكّ عنها، إذ هي لا تخلو من فرضين: الحدوث، أو القِدَم.

والفرض الأوّل باطل، لاستلزامه تجرّد الموصوف وقتاً ما عنها، واحتياجه إليها لتحقّق كماله. وكونه محلّاً للحوادث وكلّها فروض ممتنعة على الله سبحانه.

والفرض الثاني باطل كذلك، لاقتضائه تعدّد الموصوف بتعدّد صفاته القديمة، فيكون القدير غير العليم، وهو غير المريد وذلك شِرك محال.

هذا إلى أنّ القول بتغاير الصِّفات وزيادتها على الذّات ـ الّذي ابتدعه الأشاعرة ـ يستلزم تجسيم الخالق، ووفرة الآلهة، حيث أنّ للذّات والصِّفات اعتبارين:

(١) أن تكون الذّات قائمة بنفسها، والصِّفات طارئة عليها.

(٢) أن يكون كلّاً من الذّات والصِّفات مستقلّ بنفسه، وقائم بذاته.

والإعتبار الأوّل: يستلزم أن يكون الخالق سبحانه وتعالى جوهراً وعَرَضاً، إذ الجوهر هو: ما قام بذاته، والعَرَض هو: ما قام بغيره، والمركّب بين الجوهر والعَرَض هو جسم بداهة ووجداناً.

والإعتبار الثاني: يقتضي تعدّد الآلهة، لتعدّد الموصوف بتعدّد صفاته ـ كما بيّنّاه ـ وهو واضح البطلان.

وبقي علينا أن نتفهّم مغزى وحدة الذّات رغم تعدّد الصِّفات؟

والحقّ: «أنّ التعدّد إنّما هو في أنواع الكمال وأقسامه، لا في ذات الكامل المطلق، الّذي هو المبدأ الأوّل لكلِّ كمال.

وبتعبير ثان: كما أنّ تعدّد المخلوقات لا يتنافى مع وحدة الخالق، كذلك تعدّد الكمالات لا يتنافى مع وحدة مبدئها ومصدرها.

إنّ صفات الله سبحانه ليست أعراضاً زائدة على الذّات، بحيث يكون هنا ذات وصفة تفتقر إليها الذّات، ولا يستطيع العمل بدونها كما هي الحال بالقياس إلى الإنسان الّذي يفتقر إلى العلم والقدرة، فكما أنّه سبحانه موجود لذاته كذلك هو قادر لذاته، عالم لذاته، حيّ لذاته»[(١)].

وأمّا وحدة الأفعال، فمغزاها تنزيه الله سبحانه عن الشِّرْك وإفرادُهُ في جميع الأفعال، في الخلق والتدبير والحكم وسائر الأشياء.

﴿أَلا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[(٢)]، **﴿أَلا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾**[(٣)]، **﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاّ لِلَّهِ﴾**[(٤)].

---

(١) فلسفات إسلامية، للمرحوم العلّامة الكبير الشيخ محمّدجواد مغنية.

(٢) الأعراف / ٥٤.

(٣) الأنعام / ٦٢.

(٤) الأنعام / ٥٧.

كمال التوحيد في الشّريعة الإسلامية:

لقد سمت مفاهيم التوحيد، واكتملت في الشريعة الإسلامية وكتابها الكريم، سموّاً رائعاً، وكمالاً مدهشاً، فاقَ الشرائع السماوية وكتبها المقدّسة.

فقد ركّز القرآن الكريم على تقرير وحدانيّة الله تعالى تركيزاً قويّاً متواصلاً، حتّى طهّر العقيدة من دنس الشِّرك وجلّى الأفكار من ضلالات الجاهلية. وعرض التوحيد عرضاً منطقياً أخّاذاً يستهوي العقول ويسيطر على الوجدان، ويلائم الفطرة السليمة. فجاءت آياته غاية في سطوع الحجّة وقوّة البرهان:

﴿لو كانَ فيهما آلِهَةٌ إلّا ٱللهُ لَفَسَدَتا﴾. (الأنبياء / ٢٢)

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللهُ مِن وَلَدٍ، وَما كانَ مَعَـهُ مِنْ إلٰهٍ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِما خَلَقَ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ، سُبْحانَ ٱللهِ عَمّا يَصِفُونَ﴾. (المؤمنون / ٩١)

ثمّ وجّه خطابه السّامي إلى عُبّادِ الأصنام ومؤلِّهي الطّواغيت البشرية، مستثيراً إباءَهم، ومستنهضاً كرامتهم، بالترفّع عن ذلِّ عبادتها ومهانة تقديسها، نظراً لخِسَّتها وعجزِها وهَوانِها:

﴿يا أيُّها ٱلنّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ، إنَّ ٱلّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ، وَإن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ ٱلطّالِبُ وَٱلمَطْلُوبُ﴾. (الحجّ / ٧٣)

﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً، لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَياةً وَلَا نُشُوراً﴾. (الفرقان / ٣)

ثمّ وجّه العقول والقلوب إلى إله واحد، ووحّد الأمم والأفراد في عقيدة واحدة، لا تفرِّقهم نعرات الشِّرك، وعبادة الآلهة المتعدِّدين:

﴿ءَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهّارُ﴾. (يوسف / ٤٠)

فحرّر بذلك كرامة الإنسان أن تخنع للأصنام والأوثان أو تسترقّها الطّواغيت المتألّهة بغياً على الناس.

وحرّر الوجدان من عبودية المادّة، وسلطانها الخادع المذلّ، وأمدّ المؤمن بطاقات ومعنويات جبّارة من الشّجاعة والإباء، فلا يضرع لجبّار عنيد، ولا تزعزعه الأزمات والشدائد، لإيمانه بسموّ رعاية الله تعالى، وحكمة تدبيره، ونفاذ مشيئته على الخلق كلّهم، وخضوعهم لإرادته وسلطانه.

وهنا ندرك بشاعة النّكسة الّتي أصابت المسيحية بعد انحرافها عن واقع رسالتها الأصلية، وطروء الدسّ والتحريف على كتابها المقدّس، فغدت تتجهّم للتوحيد وهو شعار دينها وسائر الأديان السماوية، وتؤمن بالتثليث وتدعو إليه، زاعمة أنّ الله سبحانه متجسِّد في ثلاثة أقانيم، وتلك الأقانيم متّحدة في إله واحد، (تثليث في وحدانيّة ووحدانيّة في تثليث).

وهذا القول فضلاً عن استحالته مشعر بالشِّرك الصّراح، إذ لو كان سبحانه واحداً في ثلاثة، فلماذا ٱنفصل أحدهما عن الآخرين واستوطن رحم (مريم) سلام الله عليها، ثمّ وُلِدَ إنساناً متّصفاً بسمات البشر وطبائعهم وخصائصهم.

لقد أساءت فكرة التثليث إلى المسيحية إساءةً كُبرى، وصيّرت الوجدان المسيحي في حيرةٍ وقلقٍ بالغين، فهو إمّا أن يؤمن بالتثليث فيلزمه إلغاء منطقه وعقله اللّذَين يستنكران التثليث ويرفضانه رفضاً قاطعاً، أو يتمسّك بمنطقه وعقله، فيلزمه التنكّر لعقيدته وشجب أبرز أصولها ومبادئها، أو يبقى حائراً متأرجحاً بين هذا وذاك.

وكيف ٱستساغت المسيحية تلك الفكرة المدسوسة الخاطئة، وفي الأناجيل نصوص صريحة بالتوحيد الخالص:

فقد جاء في إنجيل مرقس قول الرّسول عيسى عليه السلام:

«الربّ إلٰهنا إله واحد وليس آخر سواه» ١٢: ٣٠ ـ ٣١.

وجاء في إنجيل متّىٰ عنه عليه السلام قوله:

«إنّ أباكم واحد الّذي في السّماوات» إصحاح ٢٣ الفقرة ٨.

وجاء في إنجيل يوحنّا عنه عليه السلام:

«إنّي أصعد إلى أبي وأبيكم وإلٰهي وإلٰهكم» ٢٠: ١٨.

صفات الله تعالى

الثبوتيّة والسّلبيّة

مدخل البحث:

وقبل الدخول في هذا البحث، يجدر استهلاله بتمهيد وجيز يجلو مفاهيمه، ويوضِّح أغراضه.

لقد أوضحتُ أنّه يستحيل على العقل إدراك كنه الله تعالى وعرفان حقيقته، لعجزه عن ذلك، فهو محدود الطاقة والقدرة يستطيع إدراك المحسوسات المادِّية، ويرتدّ عاجزاً كليلاً عن غيرها.

وحيث كان الله سبحانه منزّهاً عن المادّة وخصائصها المحسوسة، استحال على العقل إدراكه وتصوّره.

وكما يقصر العقل عن إدراك كنه الله عزّ وجلّ، كذلك يقصر عن إدراك واقع صفاته، لأنّها ـ كما أسلفنا ـ عين ذاته ليست زائدة عليها، ولا مغايرة لها.

وكلّ ما تدركه العقول وتحيط به الأفهام فهو ممكن محدود غير لائق بالألوهية. والتوحيد الحقّ هو: الإيمان بالله عزّ وجلّ ووصفه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عن كافّة النقائص.

وليست الصفات الثّبوتيّة والسّلبيّة إلّا اصطلاحات أطلقها العلماء على الله جلّ جلاله، توضيحاً لكماله الذّاتيّ المطلق، بالأسلوب الّذي تهضمه العقول وتستسيغه الأفهام.

فهي ليست كصفات البشر المألوفة بينهم، والّتي يطلقها بعضهم على بعض، وإنّما الغرض من صفات الله الثّبوتيّة: نفي أضدادها، فمعنى وصفه بـ (القدرة)، أنّه ليس بعاجز ولا يعجزهُ شيء. ووصفه بـ (العلم)، أنّه ليس بجاهل ولا يخفى عليه شيء، حيث أنّ العجز والجهل صفتا نقص لا تليقان بالكامل المطلق ذاتاً.

وهكذا المراد من الصِّفات السّلبيّة، تنزيهه سبحانه عن جميع النّقائص والصِّفات، الّتي لا تليق بجلال ألوهيّته، ولا يتّضح الكمال الإلهيّ للنّاس إلّا بنفيها عنه.

وعلى ضوء هذه الفكرة الواعية المتحفِّظة، نسير في دراسة الصِّفات الثّبوتيّة والسّلبيّة، وشرح مفاهيمها شرحاً مجملاً، يلائم هذه الرِّسالة الموجزة.

الصِّفات الثّبوتيّة:

وهي صفات الكمال والجمال، اللّازمة لواجب الوجود، وعدّها علماء الكلام ثمانية: القدرة، العلم، الحياة، الإرادة، الإدراك، القِدَم والبقاء أزلاً وأبداً، الكلام، الصِّدق.

وإنّما اقتصروا على هذه الصِّفات دون غيرها من الصِّفات الكثر، لأنّ صفاته تعالى نوعان: صفات ذات، وصفات أفعال.

فصفات الذّات: هي الصِّفات الكمالية، الّتي يستوجب إثباتها: كمال واجب الوجود، ونفيها: نقصه: وهي كما مرّ بيانه، عين ذاته، كالقدرة والعلم والحياة.

وأمّا صفات الأفعال: فإنّها حادثة وليست ذاتيّة فيه، ولا هي من صفات الكمال الّتي يستلزم نفيها النقص على الله سبحانه: كالخالق والرّازق والمحيي والمميت. فقد كان موجوداً قبل اتِّصافه بالخالقيّة والرّازقيّة والإحياء والإماتة.

(١) إنّه تعالى قادر مختار:

ومعنى القادر: أنّه تعالى على كلِّ شيء قدير، لا يعجزهُ شيء في الأرض ولا في السّماء، وهذا ما يؤكِّده العقل والنّقل، وذلك:

١ ـ إنّ العجز نقص لا يليق بكمال واجب الوجود.

٢ ـ إنّه صمّم وأنشأ هذا الكون العظيم الزّاخر بروائع الصّنع والإبداع وآيات القدرة الهائلة الّتي يستحيل بدونها إيجاد هذا الكون.

٣ ـ تضافر الآيات الكريمة على اتِّصافه عزّ وجلّ بالقدرة الخارقة والإرادة النافذة:

﴿إنّ اللهَ على كُلِّ شيْءٍ قَدير﴾. (النّور / ٤٥)

﴿إنّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُن فيَكُون﴾. (يسٓ / ٨٢)

﴿وَما كانَ ٱللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ في ٱلسّمٰواتِ وَلَا في ٱلأرْضِ إنّهُ كانَ عَليماً قَدِيراً﴾. (فاطر / ٤٤)

ومعنى المختار: أنّه تعالى مختار في أفعاله غير مضطرّ إليها، وسيّان عنده فعلها أو تركها، إذ الإضطرار من سمات العجز والقصور الّتي لا تليق بكماله المطلق.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتار﴾. (القصص / ٦٨)

﴿وَيَفْعَلُ ٱللهُ ما يَشاءُ﴾. (إبراهيم / ٢٧)

(٢) إنّه تعالى عالِم:

ومعنى علمه: أنّه يعلم جميع الأشياء علماً شاملاً، لا يخفى عليه شيء، حتّى أسرار القلوب، وخواطر الأفكار، يعلمها قبل حدوثها كعلمه بها بعد حدوثها.

وبرهان علمه تعالى:

١ ـ إنّ الجهل محال ممتنع على واجب الوجود وكماله المطلق، فهو سبحانه منزّه عنه.

٢ ـ إنشاء الكائنات، وخلق الأحياء (الإنسان والحيوان والنّبات) واتّصافها جميعاً بأسمى وأروع آيات الحكمة وسموّ الغاية، وروعة التنسيق، ودقّة التنظيم، وحُسن التدبير، وذلك ما يحتّم ـ بداهةً ووجدانًا ـ علم خالقها بها، وإحاطته الشاملة الكاملة بأسرارها وخفاياها.

٣ ـ تعاضد الآيات الكريمة على ذلك:

﴿عالِمُ ٱلغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ في ٱلسّمٰواتِ وَلَا في ٱلأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ﴾. (سبأ / ٣)

﴿قُلْ إن تُخْفُوا ما في صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللهُ وَيَعْلَمُ ما في ٱلسّمٰواتِ وما في الأَرْضِ﴾. (آل عمران / ٢٩)

﴿وٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (البقرة / ٢٨٢)

والجدير بالذِّكر: أنّه لايسوغ تفسير العلم الإلهي بأنّه انعكاس صور المعلومات لديه كما تنعكس في أذهان العلماء والدّارسين، فذلك من خصائص البشر، وسماتهم القاصرة الممتنعة على الله عزّ وجلّ، حيث أنّ صفاته ـ ومنها العلم ـ هي عين ذاته، لا تغايره ولا تنفكّ عنه، كما أوضحناهُ في مستهلّ هذا البحث.

فالمراد بعلم الله تعالى: أنّه لا يخفى عليه لذاته شيء.

ويكفي الإيمان المجمل بعلمه سبحانه دون تعمّق وتفصيل في واقعه على ضوء القرآن الكريم.

(٣) إنّه تعالى قديم أزليّ، باقٍ أبديّ:

القديم الأزليّ: ما لم يسبق بعلّة، والباقي الأبديّ: ما لا يعروه العدم.

ودليل أزليّته وأبديّته: أنّ واجب الوجود، هو القائم بذاته، الغنيّ عن غيره، ولازمه أن لا يسبقه ولا يلحقه العدم. لأنّ كلّ ما يسبقه أو يلحقه العدم، ممكن الوجود، يوجدبوجود علّته، وينعدم بزوالها.

وحيث كانت علّة واجب الوجود ذاتيّة فيه، استحال حدوثها أو زوالها عنه، لاستحالة انفصال علّته الذاتيّة عنه، ولولا ذلك لم يكن واجب الوجود.

(٤) إنّه تعالى حيّ:

وقد تعاضدت البراهين المنطقية والنقلية على أنّ الله عزّ وجلّ حيّ لا يموت.

وتقرير ذلك: أنّ مَن ٱستطلع عالم السّماء بما فيه من شمس وقمر وكواكب، ومجرّات هائلة في أبعادها، وأعداد نجومها.

ومَن ٱستعرض عالم الأرض وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد. يشهد في هٰذين العالمين آيات القدرة والإبداع، وروعة التنسيق والإنسجام، وحكمة التدبير والتنظيم الّتي هيمنت عليهما وواكبتهما عبرَ ملايين السنين والأعوام.

وذلك برهان ساطع على حياة خالقها العظيم، ومدبِّرها القدير، ولولا حياته لانهارت عناصر السّماء والأرض، وتلاشت هباءً.

بيدَ أنّ حياته ـ سبحانه ـ ليست كحياة الأحياء المتمثِّلة بالحسِّ والنموّ والحركة، حيث أنّها من سمات الأجسام المادِّية المستحيلة والممتنعة على الله سبحانه.

والمراد من حياته جلّ شأنه اتِّصافه بالقدرة والعلم.

وهكذا نوّه القرآن الكريم عن حياة الخلّاق العظيم:

﴿وَتَوكَّل على الحيِّ ٱلّذي لا يَمُوتُ﴾. (الفرقان / ٥٨)

﴿وَعَنتِ ٱلوُجُوهُ لِلْحيِّ ٱلقَيّومِ﴾. (طٰه / ١١١)

﴿هُوَ ٱلحَيُّ لَا إِلٰه إلّا هُوَ فادعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾. (غافر / ٦٥)

(٥) إنّه تعالى مُريد، كارِه:

أي يريد الطّاعة من عباده، على سبيل الإختيار، دون الجبر، لعلمه بمنافعها لهم، ويكره المعاصي منهم، كذلك لاشتمالها على المساوئ والمفاسد الضارّة بهم.

وللمريد مغزىً آخر وهو:

إنّه تعالى يفعل ما يشاء باختياره وإرادته حسبما تقتضيه حكمته السامية، ومصالحه الهادفة، فهو غير مضطرّ ولا مقسور على أفعاله.

(٦) إنّه تعالى مُدْرِك:

ليس المراد بالإدراك، الاطّلاع على الأشياء بالحواسّ الخمس، فذلك من خصائص الجسم والجوارح الممتنعة على الله سبحانه.

وإنّما المراد به: أنّ الله عزّ وجلّ عالم بجميع ما تُدركه الحواسّ، من غير جارحة وحاسّة مدركة.

والإدراك نوع خاص من علم الله تعالى، العام، والمحيط بجميع الأشياء، فهو بمثابة المخصِّص لعموم علمه الشّامل.

وحيث كان مفهوم الإدراك داخلاً في مصداق علم الله، استبدلَ بعضهم صفة الإدراك بصفتي السّميع والبصير، لورودهما في القرآن الكريم.

والمراد بهما كما في المدرك: أنّه تعالى عالِم بجميع المسموعات والمبصرات، بدون جارحة سمع أو بصر، لاستحالة ذلك عليه.

(٧) إنّه تعالى مُتكلِّم:

قال تعالى: ﴿وكَلَّمَ ٱللهُ مُوسى تَكْليماً﴾.

وهكذا لا يقصد بهذه الصِّفة، تكلّمه بجارحة اللِّسان، لتنزّهه عن ذلك، وإنّما المقصود بالتكلّم: أنّه قادر على خلق الكلام فيما شاء من الأجسام، لإفهام مَنْ يريد إفهامه بغاياته ومآربه. كما خلقه في شجرة الطّور لتكليم موسى عليه السلام. وهذا من آيات قدرته الخارقة.

(٨) إنّه تعالى صادق:

لاستحالة الكذب عليه، لأنّ الكذب صفة ذميمة، والله سبحانه منزّه عن جميع الذّمائم والنّقائص.

الصّفات السّلبيّة:

هي الصِّفات الممتنعة على واجب الوجود، والّتي لا تليق بكماله الذّاتي، لأنّها صفات تخصّ الممكنات، وتستحيل على الواجب، فيجب تنزيهه عنها، وهي ثمانية:

(١) إنّه تعالى لا شريكَ له:

وقد أوضحنا شرح ذلك في أدلّة التّوحيد.

(٢) إنّه تعالى ليس بمحتاج:

وهو الغنيّ المطلق عن غيره، لأنّه قائم بذاته، غير محتاج إلى غيره، فيجب استغناؤه بذاته عن كلِّ شيء: وافتقار الأشياء كلّها إليه، ولولا ذلك لكان ممكناً محتاجاً.

(٣) إنّه تعالى ليس بجسم:

وذلك للأدلّة التالية:

١ ـ إنّ الجسم بحكم تكوينه وتأليفه من العناصر المادِّية، يعتبر عنصراً مادِّياً، وكلّ مادِّي متّسم بالقصور الذاتي، ومفتقر في إيجاده إلى واجب الوجود، وحيث كان الله سبحانه قائماً بذاته، غنيّاً عن غيره، استحال اتِّصافه بالجسمية، والسِّمات المادِّية.

٢ ـ إنّ الجسم محتاج بداهةً إلى حيِّز ومكان، والحاجة من صفات الممكنات المستحيلة على واجب الوجود، لاستغنائه المطلق عمّا سواه.

٣ ـ إنّ الجسم متّسم بالحدود والأبعاد، وكلّ محدود يعتبر ممكناً، والله سبحانه منزّه عن الحدود والأبعاد المادِّية.

وعلى ضوء هذه البراهين السّديدة، تجلّى بطلان زعم المجسّمة، وتخبّطهم في متاهات الضّلال والإنحراف.

(٤) إنّه تعالى ليس بمركّب:

لاحتياج المركّب إلى أجزائه وإلى مركّب لها، والحاجة من صفات الممكنات المستحيلة على الواجب، الغنيّ بذاته عن كلّ شيء.

(٥) إنّه تعالى ليس مَحلّاً للحوادث:

الحـوادث هي: الحالات الحادثة، والصِّفات الطّارئة على الممكنات: كاليقظة والنّوم، والحركة والسّكون، والشّباب والهرم، واللّذّة والألم، والفرح والحزن، والرِّضى والغضب.

وكلّ هذه الحالات والصِّفات ممتنعة على الله عزّ وجلّ للوجوه التالية:

١ ـ لو كان المولى سبحانه محلّاً للحوادث وقابلاً لها، لوجبَ اتصافه بصفات

الأجسام وأعراضها، ولكنّه تعالى منـزّهٌ عن تلك الصِّفات القاصرة، ومُبَرَّأٌ منها كما بيّنّاه.

٢ ـ إنّ تلك الحالات والصِّفات ـ الطارئة جدلاً وافتراضاً على المولى عزّ وجلّ ـ لا تخلو من وصفين: الكمال أو النّقص، وعلى الوصف الأوّل يلزم تجرّده منها، وافتقاره إليها، وهو باطل لِاتِّصافه بجميع صفات الكمال وخصائص واجب الوجود.

وعلى الوصف الثاني: وجب أن يكون متّسماً بالنّقص وهو باطل كذلك لتنزُّهِه عن جميع صفات النّقص والإحتياج.

٣ ـ لو كان سبحانه وتعالى محلّاً للحوادث، لوجب تغيّر صفاته الأصيلة، وتطوّرها من حالٍ إلى آخرٍ وهو باطل: إذ التطوّر والتغيّر من سمات الممكنات الممتنعة على واجب الوجود.

وتقرير ذلك:

إنّ واقع التغيّر هو: تبدّل الشيء وسماته من حالة إلى أخرى، ولا يتحقّق ذلك إلّا بأسباب وبواعث خارجة عن ذات المتغيِّر، لوثاقة ارتباط المسبِّبات بالأسباب.

وحيث كان الواجب جلّ جلاله، قائماً بذاته، مستغنياً عن غيره، وغير متأثِّرٍ بمؤثِّرٍ خارجي عنه، استحال عليه التغيّر.

أمّا الأوصاف الواردة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، فإنّها مؤوّلة بنتائجها ومعطياتها السّلبيّة أو الإيجابيّة:

فنتيجة الرِّضا عند الله تعالى إسباغ لطفه وإنعامه على المرضيّ عنه.

ونتيجة غضبه ازدراء المغضوب عليه تأديبه وعقابه.

(٦) إنّه تعالى لا يَحُلُّ ولا يتَّحِدُ بغيره:

المراد بالحلول: وجوده سبحانه في محلٍّ يضمّه، ويحلّ فيه.

والإتّحاد: هو صيرورة الشّيئين شيئاً واحداً، وهذان القولان: الإتّحاد والحلول من تخريفات بعض الفرق الضّالّة المبتدعة.

أمّا بطلان الحلول:

فلإستلزامه الجسميّة، وافتقاره إلى المحلّ، والتطّور من حالٍ إلى آخر، والله سبحانه منزّه عنها جميعاً.

وأمّا بطلان الإتّحاد:

فإنّه فضلاً عن خرافته وامتناعه بداهة، يحتّم تحديد الواجب باندماجه في غيره، والمحدود محتاج، والله تعالى منزّه عن الإحتياج.

وكيف يتّحد الخلّاق العظيم في شيءٍ من مَخلوقاتِه القاصرة، وهو الغنيّ المطلق عنها، وكلّها مفتقرة إليه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

(٧) إنّه تعالى تستحيل رؤيته بالبصر:

اختلفت آراء المسلمين في (رؤية الله سبحانه) فأحالها بعضهم في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، وأجازها آخرون كذلك.

وقد أجمع جمهور إخوانِنا السنّةِ على تحقّقها في الآخرة، وأنّ أهل الجنّة سيرونه عياناً، واختلفوا في حدوثها في الدّنيا؛ فمنهم مَنْ أثبتها، ومنهم مَنْ نفاها، ومنهم مَنْ توقّف.

وقد أجمع الإماميّة على استحالة الرّؤية وامتناعها مطلقاً، محتجّين على ذلك بالبراهين العقليّة والنّقليّة.

البراهين العقليّة [على استحالة رؤية الله]:

١ ـ إنّ المرئي بحاسّة البصر لا بدّ من اتّصافه بالجسم والصّورة والمكان والمسافة بين الرّائي والمرئي. وقد عرفتَ امتناع ذلك على الله سبحانه.

٢ ـ للنّظر أزاء المنظور فرضان:

(أ) الإحاطة الكلّية التامّة بالمنظور.

(ب) الإحاطة الجزئيّة الناقصة.

والفرض الأوّل: يحتّم جسمية المنظور، وتركيبه، ومحدوديّته، وانحصاره في مجال المرئي، وخلوّ المجالات الأخرى منه، وكلّ ذلك محال على الله سبحانه.

والفرض الثاني: كذلك يستلزم الجسميّة، والتركيب، والتبعيض، والتحيّز، وهو كالأوّل استحالةً وامتناعاً.

٣ ـ لا تتحقّق الرّؤية إلّا بامتداد الإشعاع البصري إلى المنظور، ووقوعه عليه، وذلك ما يوجب جسميّة المنظور، وتحيّزه في حيّز محدود، ونفاذ البصر إليه، وذلك ممتنع على الله تعالى.

البراهين القرآنيّة [على استحالة رؤية الله]:

وهكذا صدعت الآيات الكريمة باستحالة رؤيته:

الآية الأولى، قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأبْصارُ وهو يُدْرِكُ ٱلأبْصارَ وهُوَ ٱللّطيفُ ٱلخَبير﴾. (الأنعام/ ١٠٣)

وبعد أن عرفنا خطأ فكرة الحلول والإتّحاد، تجدر الإشارة إلى عقيدة النّصارى في الثّالوث الأقدس أي المركّب من ثلاثة أقانيم (أصول)، هي: الأب، والإبن، وروح القدس، وهي جواهر ثلاثة، وكلّ جوهر مستقلّ عن الآخر. والثلاثة مع ذلك إله واحد.

والتّثليث ليس خاصّاً بالنّصارى، جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية قولها في تحديد لفظة الثالوث: «إنّه اتّحاد ثلاثة أشخاص متميِّزة مكوّنة لإلٰه واحد في عقيدة الدِّيانة النّصرانيّة وبعض الدِّيانات الأخرى، فيُقال مثلاً: الثّالوث النّصراني والثّالوث الهندي».

قال المرحوم العلّامة الأستاذ فريد وجدي:

«نعم، كان الثّالوث موجوداً في ديانة قدماء المصريين بالنسبة لآلهتهم، وقد اندثرت تلك الدِّيانة الآن».

«والثّالوث الهندي موجود للآن لدى الملايين من النّاس في الهند والصّين، وهو أنّ البراهمة يعتقدون: أنّ الخالق تجسّد أوّلاً في برهما، ثمّ في فيشنو، ثمّ في سيفا، ويصوِّرونهم ملتصقين إشارة إلى هذا التجسّد الثّلاثي.

ويعتقد البوذيّون أنّ الإلٰه فيشنو، الّذي هو أحد أركان الثّالوث الهندي تجسّد مراراً عديدة لتخليص العالَم من الشّرور والذّنوب، وكان تجسّده في بوذا للمرّة التاسعة».

هذه العقيدة هي في حقيقة أمرها وثنيّة، وأنّها دخيلة على دين الله، فالله منزّه عن أن يشبهه شيء، أو يشبه هو شيئاً آخر.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وذاته فوق متناول العقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصارُ وهوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصارَ وهُوَ ٱللَّطيفُ ٱلخبير﴾. (الأنعام / ١٠٣)

ولا يجوز أن تتركّب ذاته المقدّسة من أجزاء، أو تتّحد بالأشياء، أو تحلّ في خلق من المخلوقات.

وعقيدة التّوحيد والتّنزيه هي عقيدة جميع الأنبياء والرّسل، حتّى السّيِّد المسيح نفسه، والّذين يزعمون غير هذا من النّصارى لا برهان لهم من العقل، ولا سند لهم من النّقل، وإنّما هي ظنون وأوهام طرأت عليهم من الدِّيانات الوثنيّة القديمة.

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر عند كلمة ثالوث: «إنّ عقيدة الثّالوث، وإن لم تكن موجودة في العهد الجديد والإنجيل، ولا في أعمال الآباء الرسوليين، ولا في تلاميذهم الأقربين... وإنّ تلاميذ المسيح الأوّلين الّذين عرفوا شخصه، وسمعوا قوله، كانوا أبعد النّاس عن اعتقاد أنّه أحد الأركان الثّلاثة المكوّنة لذات الخالق...»[1].

وقد صرّحت هذه الآية بامتناع الرّؤية عليه سبحانه: حيث إنّ الإدراك متى عُزِي ونُسِب إلى إحدى الحواسّ الخمس، البصر أو السّمع أو الذّوق، أفاد انحصار الإدراك بها، وانطلاقه منها.

وحيث نفت الآية إدراك الله تعالى بالبصر ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأبْصارُ﴾، كانت رؤياه البصريّة محالاً ممتنعاً.

الآية الثّانية: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ولا يُحِيطُونَ بهِ عِلْماً﴾.

(طه / ١١٠)

وهذه الآية تُجسِّد مغزى الآية الأولى ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأبْصارُ﴾، وتعكس مفهومها الأصيل، حيث أنّه سبحانه لو رأته الأبصار لأحاطت به علماً وهما محالان.

الآية الثّالثة: ﴿يَسْأَلُكَ أهْلُ الكِتابِ أن تُنَزِّلَ عَلَيْهِم كِتاباً مِنَ ٱلسَّماءِ فَقَدْ سَألُوا مُوسى أكْبَرَ مِن ذلِكَ فَقالُوا أرِنا ٱللهَ جَهْرَةً فأخَذَتْهُمُ ٱلصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم﴾.

(النِّساء / ١٥٣)

وهكذا أحالت هذه الآية (الرّؤية)، واعتبرت التطلّع إليها ظلماً صارخاً، وجرماً فظيعاً يستحقّ الإبادة بالصّعق والدّمار.

وهناك آيات أخرى في هذا الموضوع، لم نذكرها طلباً للإختصار.

---

(١) نقلاً عن كتاب العقائد الإسلامية، للأستاذ السيّد سابق، ص ٦١ ـ ٦٣، بتصرّف واختصار.

براهين أهل البيت عليهم السلام :

وهكذا تواترت نصوص أهل البيت عليهم السلام وأعلنت استحالة الرّؤية وامتناعها، وإليك نماذج منها:

«دخل رجل من الخوارج على الإمام محمّد الباقر عليه السلام، فقال له:

يا أبا جعفر، أيّ شيء تعبد؟

قال: **الله عزّ وجلّ.**

قال: أرأيته؟

قال: **بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأتهُ القلوب بحقائق الإيمان، لا يُعرَف بالقياس، ولا يُدرَك بالحواسّ، ولا يشبّه بالنّاس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلّا هو.**

فخرج الرّجل وهو يقول: «**الله أعلم حيث يجعل رسالته**»»[1].

وقال أبو قرّة للإمام أبي الحسن الرِّضا عليه السلام: إنّا روينا أنّ الله قسّم الرؤية والكلام بين نبيّين، فقسّم الكلام لموسى، ولمحمّد الرّؤية.

فقال الإمام عليه السلام: **فمن المبلّغ عن الله إلى الثّقلين من الإنس والجنّ في أنّه: لا تُدركه الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء؟ أليْسَ هو محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؟**

قال: بلى.

قال: **كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيُخبرهم أنّه جاء من عند الله، وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول: لا تُدركهُ الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء. ثمّ يقول: أنا رأيتُ الله بعيني، وأحطتُ به علماً، وهو على صورة البشر، أما تستحون؟!!**

---

(١) الوافي، ج ١، ص ٨٤، عن الكافي.

قال له أبو قرّة: فإنّه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ رآهُ نزلةً أخرى﴾.

فقال الإمام عليه السلام: إنّ بعد هذه الآية ما يدلّ على ما رأى صلى الله عليه وآله وسلم. حيث قال تعالى: ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رأى﴾، يقول: ما كذبَ فؤاد محمّد ما رأت عيناهُ.

ثمّ أخبر بما رأى، فقال: ﴿لَقَدْ رأى مِن آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى﴾، فآيات الله غير الله تعالى.

وقد قال الله: ﴿ولا يُحيطونَ بهِ عِلْماً﴾، فإذا رأتهُ الأبصار فقد أحاطَ به العلم، ووقعت المعرفة.

قال أبو قرّة: فتكذِّب الرّوايات؟!

قال الإمام: إذا كانت الرّوايات مخالفة للقرآن كذّبتها، وقد أجمع المسلمون على أنّه لا يُحاط به علماً، ولا تُدركهُ الأبصار، وليسَ كمثله شيء»[1].

ورغم تضافر البراهين العقلية، وتعاضد الآيات الكريمة، وتواتر النّصوص على امتناع الرّؤية، فقد أجازها الأشاعرة والمشبّهة ومَنْ شايعهم من المذاهب الأربعة، متذرِّعين بظواهر الآيات الكريمة، دون تدبّر لمدلولها الحقّ ومغزاها الأصيل.

كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ ناضِرَةٌ * إلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾. (القيامة / ٢٢ ـ ٢٣)

استدلّوا بقوله تعالى: ﴿إلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾، على رؤيته عياناً يوم القيامة وخفيَ عليهم:

١ ـ إنّ النّظر في الآية مغاير للرّؤية البصريّة، حيث أنّ مفاد الأوّل هو: مدّ الطّرف نحو الشيء سواءً تحقّقت رؤياه أو لم تتحقّق.

كما أعربت عنه الآية الكريمة: ﴿وَتَراهُمْ يَنظُرونَ إلَيْكَ وهُمْ لا يُبْصِرُون﴾.

(الأعراف / ١٩٨)

---

(١) الوافي، ج ١، ص ٨٣، عن الكافي.

فقد أثبتت الآية نظرهم إليه، كما نفت الأبصار عنهم، وذلك لتغاير الرّؤية عن النّظر، وعدم تلازمهما.

٢ ـ إنّ النّظر قد يوصَف بصفات لا توصَف به الرّؤية، فيُقال: نظرَ إليه شزراً أو نَظَرَ سخطٍ أو عطفٍ، ولا يُقال: رآه شزراً أو رآه رؤية سخط أو غضب، وذلك لتغاير مفهوم النّظر والرّؤية.

وحيث كان اللّفظان متغايران، فكيف حملوا النّظر على الرّؤية وهي محال كما عرفت.

٣ ـ إنّ المتبادر من (النّاظرة) في الآية الكريمة هو: المنتظرة المتوقِّعة لثواب الله تعالى وكرم عطائه. أي وجوه مشرقة تنتظر ثواب ربّها.

كقوله سبحانه: ﴿فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلمُرْسَلُون﴾. (النمل / ٣٥)

وعلى هذا يجب تأويل ما يوهم بالرؤية والجسميّة، وحمله على المجاز الشائع في كلام العرب لوجوب تنزيه الله سبحانه عمّا لا يليق به من التجسيم والتركيب والحركة الممتنعة عليه.

كقوله تعالى: ﴿الرّحْمٰنُ على العَرْشِ ٱسْتَوى﴾. (طه / ٥)

فالمراد بالعرش هنا هو الملك، واستواؤه عليه: استيلاؤه على الملك، لأنّ العرب تصف الإستيلاء بالإستواء.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللهِ فَوْقَ أيدِيهِم﴾. (الفتح / ١٠)

والمراد باليد في الآية: القدرة والقوّة.

وقوله تعالى: ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وٱلمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾. (الفجر / ٢٢)

أي وجاء أمر ربّك، بحذف المضاف وذكر المضاف إليه.

كقوله تعالى حاكياً: ﴿وٱسْأل ٱلقَرْيَةَ ٱلّتي كُنّا فِيها وٱلعِيرَ ٱلّتي أقْبَلْنا فِيها وإنّا لَصادِقُون﴾. (يوسف / ٨٢)

(٨) إنّه تعالى لا يَشْبَهُهُ شيءٌ من خلقه:

كما قرّره القرآن الكريم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾ (الشّورى/١١)، لضرورة مغايرة كلّ صانع لمصنوعه. فالكتابة والتّصوير والنّقش، كلّها مغايرة بداهة للكاتب والمصوِّر والنقّاش.

(٩) إنّه تعالى لا يفعل قبيحاً:

أجمع الإماميّة ومَنْ رافقهم من المعتزلة: على أنّ الله تعالى منزّه عن فعل القبيح والإخلال بالواجب، وأنّ أفعاله هي المثل الأعلى لآيات الجمال والكمال، وروائع الحكمة والسّداد.

وأجاز الأشاعرة فعل القبيح عليه (سبحانه) كالظّلم والعدوان بحجّة أنّه لا يُستقبَح منه فعل، ولا واجب عليه.

ولا ريب في فساد زعم الأشاعرة ومناقضته لقيَم الدِّين والعقل، ذلك: أنّ العقلاء يستنكرون ممارسة الأفعال الذّميمة، والأعمال المنكَرة، من ذوي الإستقامة والصّلاح، فكيف يرتضون ذلك ويجيزونه على خالق الكون، المتّصِف بجميع صفات الكمال، والمُبَرَّءِ من كافّة النّقائص والمساوئ؟!!

هذا إلى أنّ فعل القبيح وممارسته لا تخلو من إحدى الدوافع والفروض التالية:

الجهل بقُبْحه، أو العبث به، أو الحاجة إليه، أو الإضطرار إلى فعله. وكلّ هذه الفروض من الجهل، والعبث، والحاجة والإضطرار، محال ممتنع على الله سبحانه.

وهكذا أعرب القرآن الكريم عن استحالة فعل القبيح عليه سبحانه ونزّهه عنه:

﴿إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُ بالعدَلِ والإحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي ٱلقُرْبِى وَيَنْهى عَنِ ٱلفَحْشاءِ وَٱلمُنْكَرِ﴾. (النّحل/ ٩٠)

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ الفَسادَ﴾ . (البقرة / ٢٠٥)

﴿وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾ . (هود / ١١٧)

﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ . (فُصِّلت / ٤٦)

ومن البديهي : أنّ من المستحيلات الممتنعة على المولى جلّ جلاله أن ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويُحذِّر من الظّلم والفساد ، وهو يفعل ذلك ويمارسه ، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

العــدل

العـدل، ضدّ الظّلم: وهو سـيِّد الفضـائل، ورمز المـفاخر، وسبيل السّـعادة والسّلام، وقد أجمع البشر قديماً وحديثاً على تمجـيده وضرورته. كما أَوْلَتْهُ الشريعة الإسلامية عناية كُبرى واهتماماً بالغاً، وجهدت ما استطاعت في تركيزه، والتشويق إليه في القرآن والسنّة.

ولئن كان الإتِّصاف بالعدل والسّير على نهجه ضرورة ملحّة في حياة البـشر أمماً وأفراداً، فجدير بالعـدل أن يكون صفة حتميّة من صـفات خالق البشر ومبدءاً أصيلاً من مبادئ العقيدة الإسلامية.

لذلك كان محتّماً على العـباد أن يؤمنوا بعدل الله عزّ وجلّ، ونزاهته عن الظّلم والإجحاف، وأنّه سـبحانه يسوس عباده بالقسـط والإنصاف لا يعنتهم بالتكاليف الباهضة، والفرائض المحرجة، ولا يقسرهم على ممارسة الطّاعات أو المعاصي، يثيب المطيعين، وله معاقبة العُصـاة، تُمَثِّل أفعاله الحكمة والعدل والسّداد، لا يخلّ بواجب، ولا يفعل قبيحاً، ولا يُغفل حسناً.

وقد تضافرت دلائل العقل والنّقل على ضرورة عدل الله تعالى، وامتناع الظّلم عليه، وإليك طرفاً منها:

١ ـ إنّ الظّلم قبيح عقلاً، والقبيح محال على الله عزّ وجلّ.

٢ ـ إنّ اقتراف الظّلم، وممارسة أعماله، لا تخلو من البواعث التالية: إمّا الجهل

بقُبحه، أو الحاجة إليه، أو العجز عن تفاديه، أو العبث واللّهوية، وكلّها ممتنعة على الله سبحانه، كما عرفت.

٣ ـ إنّ الله تعالى قد أمرَ بالعدل ورغّب فيه، ونهى عن الظّلم وحذّر منه، ومحال على الله تعالى أن يخالف ما أمر به ونهى عنه.

﴿**إنّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ، وإيتاءِ ذي القُرْبى، ويَنْهى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْي**﴾. (النّحل / ٩١)

٤ ـ إنّه سبحانه قد نفى الظّلم عن نفسه، وتبرّأ منه، وقوله الحقّ والصِّدق.

كقوله تعالى: ﴿**وما ربّكَ بِظَلّامٍ للعَبيد**﴾. (فصّلت / ٤٦)

وقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَداً**﴾. (الكهف / ٤٩)

وقوله سبحانه: ﴿**إنَّ ٱللهَ لا يَظْلِمُ ٱلنّاسَ شَيْئاً، ولَكِنّ ٱلنّاسَ أنفُسَهُمْ يَظْلِمُون**﴾. (يونس / ٤٤)

إلى كثير من الآيات الكريمة.

وعلى ضوء القرآن وهديه، تواترت آثار أهل البيت عليهم السلام، وإليك نموذجاً منها:

«رُويَ أنّ قوماً من أصحاب أمير المؤمنين، خاضوا في التعديل والتجوير، فخرج حتّى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

أيّها النّاس: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق خلقه، أراد أن يكونوا على آداب رفيعة، وأخلاق شريفة، فعلم أنّهم لم يكونوا كذلك إلّا بِأنْ يُعرِّفهم ما لهم وما عليهم.

والتعريف لا يكون إلّا بالأمر والنّهي، والأمر والنّهي لا يجتمعان إلّا بالوعد والوعيد.

والوعد لا يكون إلّا بالترغيب، والوعيد لا يكون إلّا بالترهيب.

والترغيب لا يكون إلّا بما تشتهيه أنفسهم وتلذّه أعينهم.

والترهيب لا يكون إلّا بضدِّ ذلك.

ثمّ خلقهم في داره، وأراهم طرفاً من اللّذّات، ليستدلّوا به على ما وراءهم من اللّذّات الخالصة، الّتي لا يشوبها ألم، ألا وهي الجنّة.

وأراهم طرفاً من الآلام، ليستدلّوا به على ما وراءهم من الآلام الخالصة، الّتي لا يشوبها لذّة، ألا وهي النّار.

فمِن أجل ذلك ترون نعيم الدّنيا مخلوطاً بِمِحَنِها، وسرورَها ممزوجاً بكدورها وغمومها»[(١)].

من أجل ذلك، فقد أجمع الإماميّة على ضرورة العدل، واعتباره شرطاً أساسياً من شرائط الإيمان.

وشذّ عنهم مخالفوهم، إذ جوّزوا على الله سبحانه ما يُنافي العدل ويمتنع على جلال ربوبيّته، ممّا ستعرفه في الأبحاث التالية:

١ ـ الجبر والتفويض:

الجبر هو: الحمل والدّفع على أفعال الطّاعة أو المعصية قَسْراً وإجباراً.

والتفويض هو: دفع الخطر عن العباد، وتفويض أعمال الخير والشرّ إليهم.

وقد تأرجحت آراء المجبّرة والمفوّضة بين هٰذين المبدأين المتناقضين.

فزعم الأشاعرة: أنّ العباد مقسورون ومجبرون على أعمالهم وأفعالهم جبراً يشلّ إرادتهم، ويُهدِّد حرِّيّتهم واختيارهم.

وحسب المفوّضة: أنّ الله تعالى دفع الخطر عنهم، وفوّض إليهم ممارسة أعمال الخير أو الشرّ تفويضاً مجرّداً من حكم الله سبحانه وسلطانه.

---

(١) المحارم، ج ٣، ص ٨٧، عن احتجاج الطّبرسي.

حجج المجبّرة:

احتجّ القائلون بالجبر بدعاً ومزاعم لتصويب مذهبهم، وهي:

(أ) إنّ الله سبحانه خلق الطّاعات والمعاصي، وحتّم فعلها على البشر تحتيماً يشلّ إرادتهم عن مخالفتها والإمتناع منها، استشفوا ذلك من ظواهر الآيات الكريمة التالية:

﴿**يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشاءُ وَيَهْدِي مَن يَشاءُ**﴾. (المدّثّر / ٣١)

﴿**وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدتُّ أَن أَنصَحَ لَكُمْ إِن كانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُم**﴾. (هود / ٣٤)

﴿**وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُونَ**﴾. (الصّافّات / ٩٦)

﴿**لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾. (الأنعام / ١٠٢)

(ب) إنّ الله عالمٌ بأفعال العبد، فلو كان العبد مختاراً فيها أمكنه تركها، وتركها يستلزم تغيّر علم الله بها وٱنقلابه جهلاً، فلابدّ أن يكون العبد مُجبراً على أفعاله ومضطرّاً إليها، تفادياً من ذلك المحذور.

(ج) لو أراد العبد أمراً وأراد الله خلافه، كأن يريد العبد صنع شيء ويريد الله عدمه، وتحقّق الإرادتين يستوجب اجتماع النقيضين: وجود الشيء وعدمه في آنٍ واحد، وهو محال، فلا مناص من نفي أحَدِهما، وَنَفْيِه عن الله ممتنع محال، لاقتضائه عجزه. فتعيّن نفي إرادة العبد، وجعله مقسوراً على أفعاله ومضطرّاً إليها.

والباحث في هٰذين القولين يُدرِك بوضوح أنّ بينهما تناقضاً صريحاً، وتطرّفاً شاذّاً، أقصاهما عن سنن العقل والشّرع.

والرّأي الصّائب السّديد هو: ما ٱختاره الإماميّة استلهاماً من مبادئ أئمّتهم عليهم السلام، واستنارةً بهُداهم، حيث أنّهم عليهم السلام أوضحوا واقع هذا المفهوم الكلامي، وحكموا حكماً عادلاً فاصلاً يرتضيه العقل، ويُباركه الشّرع.

قال الصّادق عليه السلام: «**لا جَبْرَ ولا تفويض، ولَكِنْ أمْرٌ بين أمْرَين**»[1].

لقد شجب الإمام عليه السلام فكرة (الجبر والتّفويض)، ونفاهما نفياً قاطعاً، ثمّ قرّر الحكم الفصل فيهما، وصوّر واقعهما تصويراً بليغاً، فقال: «**ولَكِنْ أمْرٌ بين أمْرَين**».

وقد فسّر المعنيّون بدراسة الأخبار هذه الجملة «**أمْرٌ بين أمْرَين**» تفاسير عديدة تختلف أسلوباً وتتّفق واقعاً.

قال الشّيخ المفيد رحمه الله:

«إنّ الله تعالى أقدَرَ الخلق على أفعالهم، ومكّنهم من أعمالهم، وحدّ لهم الحدود في ذلك، ورَسَمَ لهم الرّسوم، ومنعهم من القبائح بالزّجر والتخويف والوعد والوعيد، فلم يكن بتمكينهم من الأعمال مُجْبِراً لهم عليها، ولم يُفوِّض إليهم الأعمال لمنعهم من أكثرها، وأمرهم بحسنها، ونهاهم عن قبيحها، فهذا هو الفصل بين الجبر والتّفويض»[2].

وقال الشيّخ المجلسي رحمه الله:

«إنّ لهداية الله تعالى وتوفيقاته مدخلاً في أفعال العباد، بحيث لا يصل إلى حدِّ الإلجاء والإضطرار، كما أنّ لخذلانه سبحانه مدخلاً في فعل المعاصي وترك الطّاعات، ولكن لا بحيث ينتهي إلى حدٍّ لا يقدر معه على الفعل والتّرك، وهو مثل أن يأمر السّيِّد عبده بشيءٍ يقدر عليه، ووعده على فعله شيئاً من الثّواب وعلى تركه قدراً من العقاب، وزاد في ألطافه والوعد بإكرامه والوعيد على تركه، وأكّد ذلك ببعث مَنْ يحثّه على الفعل ويُرغِّبه فيه، ويُحذِّره من التّرْك، ثمّ فعل ذلك بقدرته واختياره، فلا يقول عاقل بأنّه أجْبَرَهُ على الفعل ثمّ عذّبه عليه...»[3].

---

(١) الوافي، ج ١، ص ١٢٠، عن الكافي.

(٢) تصحيح الإعتقاد، للشّيخ المفيد، ص ١٥٥.

(٣) حقّ اليقين، للمرحوم السّيِّد عبدالله شبّر، ج ١، ص ٧١ ـ ٧٢، بتصرّف واختصار.

وبتقرير آخر أوضح: «أنّ الله أقدر الخلق على أعمالهم، ومكّنهم من أفعالهم، ثمّ أمرهم بالخير، ونهاهم عن الشرّ، ووعدهم بالثّواب على الأوّل، وتوعّدهم بالعقاب على الثاني، فإذا فعل العبدُ الخيرَ نُسِبَ إلى الله حيث أقدره عليه وأمره به، ويُنسَب أيضاً إلى العبد حيث اختاره على الشرّ.

أمّا إذا فعل الشرّ، فإنّه يُنسَب إلى العبد فقط، لأنّه وإن فعله بقدرةٍ من الله إلّا أنّ الله نهاهُ عنه، ولم يرض بصدوره منه.

وعلى هذا يكون الخير الّذي يفعلهُ العبد من الله والعبد معاً، أي يُنسَب إليهما، أمّا الشرّ فلا يُنسَب إلّا إلى العبد فقط.

ورُبّ قائل يقول: لماذا أقدر الإنسان على الشرّ مع أنّه لم يرض به؟

والجواب: أنّ الله أقدرهُ على الشرّ حذراً من الإلجاء، لأنّ المعصية إذا لم تكن مقدورة للعبد، وكان مُجبراً على تركها لم يستحقّ ثواباً ولا مدحاً: ﴿**لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾.

وممّا قدّمنا، تبيّن معنى «**لا جبر ولا تفويض وإنّما أمْرٌ بينَ أمْرَين**»»[1].

وهكذا ركّز أهل البيت عليهم السلام على تقرير الحقيقة وشرحها وغرسها في الأذهان، في نصوص عديدة، منها ما حكاهُ الإمام الرِّضا عليه السلام، فقال:

«خرجَ أبو حنيفة ذات يوم من عند الصّادق عليه السلام، فاستقبله موسى بن جعفر عليه السلام، فقال له: يا غلام ممّن المعصية؟

فقال: لا تخلو من ثلاثة:

إمّا أن تكون من الله عزّ وجلّ، وليست منه، فلا ينبغي للكريم أن يُعذِّب عبده بما لم يكتسبه.

(١) معالم الفلسفة الإسلامية، للشّيخ محمّدجواد مغنية، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

وإمّا أن تكون من الله عزّ وجلّ ومن العبد، فلا ينبغي للشّريك القويّ أن يظلم الشّريك الضّعيف.

وإمّا أن تكون من العبد، وهي منه، فإن عاقبه فبذنبه، وإن عفا عنه فَبِكَرَمِه وجُودِه»[1].

وقال الإمام الرِّضا عليه السلام وقد ذُكِرَ عنده الجبر:

«إنّ الله عزّ وجلّ لم يُطَعْ بإكْراهٍ، ولم يُعْصَ بِغَلَبَــةٍ، ولم يُهمِل العباد في ملكِه، وهو المالك لما ملّكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن ٱئتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادّاً ولا منها مانعاً، وإن ٱئتمروا بمعصيته فشاء أن يحول بيــنه وبين ذلك فعل، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الّذي أدخلهم فيه ...»[2].

وقال رجل لأبي عبدالله عليه السلام: «جُعِلْتُ فداك، أجبرَ الله العباد على المعاصي؟

قال: الله أعْدَل من أن يجبرهم على المعاصي ثمّ يُعذّبهم عليها.

فقال له: جُعِلْتُ فداك، ففوّض الله إلى العباد؟

قال: لو فوّض إليهم لم يُحَذّرْهُم بالأمر والنّهي»[3].

ومن هذه النّصوص الحكيمة، ومنطقها السّامي، وبرهانها الجليّ، يتجلّى فساد مزاعم المجبّرة ومخالفتها للقيم والمبادئ العقليّة والشرعيّة، ولذلك استنكر قادة الفكر الإسلامي تلك المزاعم وفنّدوها بالنصوص التالية:

١ ـ لو كان النّاس مُجبرين على أعمالهم وأفعالهم لتساوى المطيع منهم والعاصي في التقييم والتقدير، ولما ٱستحقّ المطيع مدحاً ولا ثواباً، ولا العاصي ذمّاً ولا عقاباً،

---

(١) البحار، ج ٣، عن عيون أخبار الرِّضا وأمالي الصّدوق، ص ٣.

(٢) نفس المصدر، عن العيون وعقائد الصّدوق، ص ٦.

(٣) الوافي، ج ١، ص ١٢٠، عن الكافي.

لاضطرارهم إلى الطّاعة أو العصيان وإرغامهم عليهما.

وبديهيّ أنّ المضطرّ والمرغَم في نشاطاته الإيجابيّة والسلبيّة لا يعتبر مطيعاً ولا عاصياً لفقدانه حرِّية الإرادة والإختيار.

٢ ـ وكيف يقنع العقل الواعي المتفتِّح بحتمية الجبر، وهو في واقعه تحدٍّ سافِر لله عزّ وجلّ، وانتهاك صارِخ لواجب لطفه وعدله، حيث يُكره العباد على اقتراف المعاصي والآثام ـ حسب زعم المجبّرة ـ ثمّ يُعاقبهم عليها؟!!

٣ ـ وكيف يرتضي الوجدان الحرّ الأبيّ تحكّم الجبر واستبداده، وهو يستلزم عبث إرسال الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم، وهدر الشّرائع الإلٰهية، والكتب السّماوية لانتفاء جَدْواها ومعطياتها الإصلاحية في البشر، لسيطرة الجبر عليهم، وفقدان اختيارهم وعجزهم عن الاهتداء بهم، والإستنارة بمُثلهم وآدابهم؟!!

٤ ـ وكيف يعتقد المؤمن (بالجبر) والإعتقاد به باعث على زعزعة العقيدة، والتحلّل الخُلقيّ، وشيوع الجرائم والمنكرات، لعزوها ونسبتها إلى المولى سبحانه، وبراءة أربابها وإعفائهم من تبعاتها وآثامها؟!!

٥ ـ والإنسان بعد هذا كلّه مجبول ومفطور على حرِّية الإرادة والإختيار، واستنكار الجبر والإكراه، ينعكس ذلك على شعوره وسلوكه.

فتراهُ لا يُعاتب ولا يُعاقب ما أحدث له المآسي والكوارث من المظاهر الطبيعية والعناصر المادِّية الّتي لا تملك الوعي والإرادة والإختيار، كالإعصار المدمِّر، والسّيل العَرِم، والنّار المحرقة، والحجر الرّاضخ ونحوها من فاقدي الشّعور.

وتراهُ يُعاتب أو يُعاقب الإنسان السّليم إذا ما تحدّاه بالإهانة والإيذاء، ثأراً لكرامته، ودفاعاً عن نفسه، لتمييزه وتفريقه ـ بحُكم الفطرة والبداهة ـ بين المختار والمجبور.

وهكذا يُميّز الحيوان بفطرته الملهمة بين المقسور والمختار، فمتى ضَرَبَ الكلبَ بعصا أو حجر، هَرَّ (*) على الضّارب محاولاً الإنتقام منه، غير مكترث بالآلة الّتي ضُرِبَ بها.

والبعير الّذي يثور على صاحبه إذا ما ضربه ضرباً مبرحاً، ولا يثور على الهراوة الّتي أوجعته. فمن الغباء والجهل تجاهل هذا الواقع البديهي.

٦ ـ هذا إلى أنّ نصوص القرآن الكريم قد أبطلت حتميّة الجبر، وفنّدت مزاعم المجبّرة، حيث نسبت الأعمال إلى أربابها، وأناطتها بإرادتهم واختيارهم:

﴿**كُلُّ ٱمرئٍ بما كَسَبَ رَهين**﴾. (الطّور / ٢١)

﴿**ولا تُجْزَونَ إلّا ما كُنْتُم تَعْمَلُون**﴾. (يس / ٣٦)

﴿**فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِن ومَنْ شاءَ فلْيَكْفُر**﴾. (الكهف / ٢٩)

﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * ومَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾.

(الزّلزلة / ٧ ـ ٨)

﴿**إنّا هَدَيْناهُ السّبِيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفُوراً**﴾. (الإنسان / ٧٦)

﴿**مَن يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ بِهِ**﴾. (النّساء / ١٢٣)

٧ ـ وهكذا صرّحت الآيات الكريمة بأنّ الله عزّ وجلّ أراد الطّاعة لعباده، ورغّبهم فيها، وحرّضهم عليها، وكرّه لهم المعاصي، وحذّرهم منها، وتوعّدهم عليها:

﴿**يا أيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا أطِيعُوا ٱللهَ وأطِيعُوا ٱلرّسولَ وأُولي الأمْرِ مِنكُم**﴾.

(النّساء / ٥٩)

﴿**مَنْ عَمِلَ صالِحاً من ذَكَرٍ أو أُنثى وهو مُؤمِنٌ فلَنُحْيِيَنّهُ حياةً طَيِّبةً ولَنجْزِيَنّهُم**

(*) هَرَّ الكلبُ: نَبَحَ وكشَّرَ عن أنيابِه.

أجْرَهُم بأحْسَنِ ما كانوا يَعْمَلُون﴾. (النّحل / ٩٧)

﴿فَمَن ٱتّبعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقىٰ * ومَنْ أعْرَضَ عن ذِكْري فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكا ونَحْشُرُهُ يومَ القِيامَةِ أعْمى﴾. (طٰه / ١٢٤ ـ ١٢٥)

﴿فأمّا مَن طَغَى * وآثرَ الحَياةَ الدُّنيا * فإنّ ٱلجَحِيمَ هيَ المأوى * وأمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهى ٱلنّفْسَ عَنِ ٱلهَوى * فإنّ الجَنّةَ هيَ المأوى﴾. (النازعات / ٣٨ ـ ٤٢)

﴿إنّ ٱللهَ لا يأمرُ بالفَحْشاءِ أتقُولونَ على ٱللهِ ما لا تَعْلَمُون﴾. (الأعراف / ٢٨)

٨ ـ لقد نوّه القرآن الكريم بحكمة أفعال الله عزّ وجلّ، ونزاهته عن العبث وخلق المساوئ والآثام:

﴿ٱلّذِي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. (السّجدة / ٧)

﴿وَما خَلَقْنا ٱلسّمٰواتِ وٱلأرْضَ وَما بَيْنَهُما إلّا بالحَقِّ﴾. (الحِجْر / ٨٥)

﴿ما تَرى في خَلْقِ الرّحمٰنِ من تَفاوُتٍ﴾. (المُلك / ٣)

ومن الواضح أنّ خلق المعاصي ذميم وقبيح، وهو مناقض لمنطوق الآية الأولى.

كما أنّ المعاصي هي من صميم الباطل المُنافي (للحقّ) في الآية الثانية.

والتفاوت في الآية الثالثة هو: الخلل والإضطراب المخالفين لحكمة خلق الله تعالى وكمال صنعه وإبداعه، وخلق المعاصي ـ حسب زعم المجبّرة ـ مناقض لحكمته تناقضاً صارخاً.

وقال الإمام الهادي عليه السلام لسائلٍ سأله عن أفعال العباد، أهي مخلوقة لله تعالى؟ فقال عليه السلام: «لو كان الله خالقاً لها لما تبرّأ منها. وقد قال سبحانه: ﴿إنّ ٱللهَ بَريءٌ مِنَ المُشْرِكين﴾، ولم يَرِد البراءة من خلق ذواتهم، وإنّما تبرّأ من شِرْكِهم وقبائِحِهم...»[1].

---

(١) البحار، ج ٢، ص ٧.

ومن هذا العرض السّالف يتجلّى سقوط مزاعم المجبّرة، وَوَهَنُ البراهين الّتي اعتمدوها في تبرير وجهة نظرهم.

أمّا الآيات الّتي توهّموا الجبر منها، فلا مناصَ من تجلية واقعها، وشرحها وتفسيرها على ضوء المبادئ الإسلامية، وقيمها الأصيلة، ومفاهيمها الخالدة.

فالآية الأولى من الآيات الّتي استدلّوا بها على دعواهم في مطلع هذا البحث:

﴿يُضِلُّ ٱللهُ مَن يَشاءُ وَيَهْدي مَن يَشاء﴾.

ويحسن بنا قبل مناقشة هذه الشّبهة أن نحدِّد معنى الضّلال في الإطار اللّغوي، وبالتالي نعرف مغزاه وموارد إطلاقه من القرآن الكريم:

فالضّلال لغةً: ضدّ الرّشاد، وضلّ ضلالاً أي: جارَ عن دينٍ أو حقٍّ أو طريقٍ، وأُطْلِقَ الضّلالُ في القرآن على معانٍ عديدة:

فقد يُطلَق على الهلاك والعذاب:

﴿إنّ ٱلمُجْرِمينَ في ضَلالٍ وسُعُر﴾ (القمر / ٤٧)، أي في هلاك وعذاب.

ويُطلق على الضّياع والبطلان:

﴿وَضَلَّ عَنكُم ما كُنْتُمْ تَزْعُمُون﴾ (الأنعام / ٩٤)، أي ضاعَ وبطل.

﴿وَٱلّذِينَ قُتِلُوا في سَبيلِ ٱللهِ فَلَن يُضِلَّ أعْمالَهُم﴾ (محمّد / ٤)، أي لم يُبْطِلْها.

ويُطلق على الغفلة والسّهو:

﴿أن تَضِلَّ إحْداهُما فتُذَكِّرَ إحْداهُما الأخْرى﴾ (البقرة /٢٨٢)، أي تغفل وتسهو.

ويُطلق على الجهل بالشيء:

﴿قالَ فَعَلْتُها إذاً وأنا من ٱلضّالِّين﴾ (الشّعراء / ٢٠)، أي الجاهلين بأنّها تبلغ القتل.

ومن هذا العرض الخاطف، نُدرِك بجلاء ووضوح: أنّ للضّلال في التعابير القرآنية إطلاقات عديدة، ومفاهيم مختلفة، وليس فيها ما يَدْعَمُ قول (المجبّرة) وحملهم الضّلال على التلبيس والتضليل، والدفّع عليها قسراً واعتسافاً، ممّا يُشعِر بالجبر.

وكلّما جاء في القرآن الكريم ممّا يوهم بنسبة الضّلال إلى المولى سبحانه عزّ وجلّ، فإنّه مؤوّل، ولا يجوز حمله على ظاهره اللّفظي، لاستلزام ذلك اتّهامه جلّ وعلا بأبشع صور الجور والعدوان.

وكيف يُتّهم الرؤوف الرّحيم بالإضلال؟!! وهو الّذي تعاهدَ البشريّة بكرم اللّطف، وحُسن الرّعاية والتوجيه، إشفاقاً عليها من الضّلال والضّياع.

﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلى ٱللهِ حُجّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

(النِّساء / ١٦٥)

﴿وَما كانَ ٱللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إذْ هَداهُم حتّى يُبيِّن لَهُم ما يَتّقُون﴾.

(التّوبة / ١١٥).

﴿أمّا ثَمُودُ فهَدَيْناهُم فاسْتَحَبُّوا العَمىٰ عَلى الهُدى﴾. (فُصِّلت / ١٧)

وهذا ما يؤكِّد أنّ المراد من الإضلال المتوهّم هو: خذلان الكفّار والغواة، وحرمانهم من توفيق الله تعالى، وتركهم سادرين في مباءة الغيّ والضّلال، جزاءً وفاقاً على مكابرتهم له، وتمرّدهم عليه، ودأبهم وإصرارهم على عصيانه ومخالفته.

وعلى ضوء هذا الواقع، نتبيّن مغزى الآية الثانية الّتي ٱستدلّوا بها على الجبر.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أرَدتُّ أنْ أنْصَحَ لَكُمْ إن كانَ اللهُ يُريدُ أن يُغْوِيَكُمْ﴾.

إذ المُراد إن كان الله يريد أن يخذلكم ويحرمكم توفيقه وثوابه بسبب كفركم وإصراركم على الغيِّ والعصيان، فلا ينفعكم نصحي وإرشادي ما دمتم مصرِّين على ما أنتم عليه.

وقد يُراد بإغواء العقاب: ﴿فَسَوْفَ يَلقَونَ غَيّاً﴾ ، أي عقاباً.

نسبة الإغواء إلى الله سبحانه كنسبة الخداع والمكر والاستهزاء إليه تعالى:

﴿يُخادِعُونَ ٱللّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ﴾ . (النِّساء/ ١٤٢)

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّهُ﴾ . (آل عمران/ ٥٥)

﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ . (البقرة/ ١٦)

والسبب في ذلك أنّ العرب تُسمِّي الشيء باسم المجازى عليه، للترابط والتلازم بين فعل الشيء والجزاء عليه، ولمّا كان المجازى مستحقّ لهذه الأسماء، سُمِّي الجزاء بأسمائها. قال الله تعالى:

﴿إنَّ ٱلّذِينَ يَأْكُلُونَ أمْوالَ اليَتامى ظُلْماً إنّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً﴾ .
(النِّساء/ ١٠)

فسمّى ما يأكلون من الطيِّبات تسمية النار، لأنّ الجزاء عليه النار[1].

وأمّا الآية الثالثة: ﴿لا إلٰهَ إلّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، التي استظهر المجبّرة منها خلق المعاصي وقسر العباد على اقترافها، باعتبارها جزءاً من عموم خلقه، فالمراد من الآية هو: خلق أعيان الأشياء وذواتها دون أعمالها الصادرة منها. وهي إلى ذلك: استنكار وردّ على المشركين القائلين بتعدّد الآلهة، والناسبين إلى كلٍّ منها صنع المخلوقات، فجاءت الآية الكريمة صادعة ومقرِّرة وحدانية الله تعالى، وأنّه هو وحده ﴿خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ولا خالق سواه.

وهكذا عنت الآية الرابعة: ﴿خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ الأصنام والتماثيل التي كان المشركون يعملونها بغية التزلّف إليها، وتقديسها وعبادتها، فأنحت الآية عليهم اللّوم

(١) تصحيح الاعتقاد للشيخ المفيد (ره)، ص ١٤٤، بتصرّف.

والتقريع، وأعلمتهم بأنّ الله عزّ وجلّ هو خالقهم وخالق تلك الأصنام بإبداع وإيجاد عناصرها وموادّها الأوّلية.

وحسبك في فساد زعم القائلين بخلق المعاصي تضافر وتكاثر الآيات الكريمة في زجر العصاة وإنذارهم على اقترافها بالعقاب والعذاب.

ولو كانت من صنع الله سبحانه لما جاز زجرهم وعقابهم، إذ يعتبر عقابهم ـ حسب هذا الفرض ـ ظلماً صارخاً، يتفاداه النّبلاء المتلحون بالعدل والإنصاف، فكيف يجوز على الخلّاق العظيم الذي وسعت رحمته كلّ شيء؟!!

وجواب الفرض الثاني من فروض المجبّرة الآنفة: أنّ الله تعالى عليم ومحيط بجميع الحوادث والأفعال، يعلمها قبل حدوثها كعلمه بها بعد حدوثها، وتُبدِّل عزم العبد من ممارسة فعل إلى آخر لا يوجب انقلاب علم الله به جهلاً، لإحاطته وشموله بالعزم الأوّل والآخر.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ علم الله تعالى بأفعال العباد لا يكون سبباً حتميّاً وعلّة قسريّة في إحداثها وإيجادها. فالعبد حرّ مختار في فعلها أو تركها.

حيث أنّ مجرّد العلم بالأفعال للأشياء لا يكون علّة تامّة وسبباً في خلقها. ولو صحّ ذلك الافتراض الواهم لاعتبر العالم ـ مثلاًـ بالأحياء الحيوانية أو النباتية أنّه هو صانعها ومنشؤها، وهذا باطل عقلاً ووجداناً.

وجواب الفرض الثالث: أنّه لا تناقض بين إرادة العبد وإرادة الله عزّ وجلّ، لأنّ الأولى لا تتعدّى دائرة العزم والتصميم، بيد أنّ تحقّقها منوط بإرادة الله تعالى، بتمكينه العبد وإقداره على إنجاز مُراده وعدمه.

ولو فرض تناقضهما، فلا ريب في ترجيح إرادة الله عزّ وجلّ لقوّة مشيئته ونفاذها، ولكن ترجيحها لا يحتم إجبار العبد وقسره على أفعاله، فهو كما أوضحنا حرّ مختار في إنجازها وتركها.

وأمّا فكرة التفويض الّتي ابتدعها المعتزلة:

ومغزاها أنّ الله تعالى فوّض العباد ما شاؤا من أعمال الخير أو الشرّ تفويضاً محضاً مجرّداً من سلطان الله وأحكامه، فإنّها لا تستأهل النِّقاش، لنزوعها وتشجيعها على التحلّل والإباحيّة وتجرئها على نسبة العجز إلى الله عزّ وجلّ، بتجرّده من سلطانه وإشراك عبيده في تدبير خلقه وهو واضح السقوط.

٢ ـ القضاء والقَدَر:

وقد نالَ هذا البحث عناية هامّة في المدرسة الكلامية، وكان موضع جدل ونقاش بين أربابها، وهو امتداد لبحث الجبر والإختيار، وارتكاز على قيمه ومعاييره.

وقد اتّفق المسلمون على أنّ أعمال العباد تجري بقضاء الله تعالى وقدره، كما شهد بذلك الحديث الشّريف: «**كلّ شيءٍ بقضاء وقَدَر**». بيدَ أنّهم اختلفوا في مغزاهما ومفهومهما، وتوضيح ذلك يستوجب النّظر في واقع الأفعال وتمييز بواعثها.

والأفعال نوعان: اضطراريّة، واختياريّة.

فالأفعال الإضطراريّة: هي الخارجة عن إرادة الإنسان واختياره، كدقّات القلب، وطرقات النّبض، وإفراز الغدد.

والأفعال الإختياريّة: هي الخاضعة لإرادة الإنسان ومشيئته، كتحريك اليد أو الرِّجل، ونحوها من الأفعال الإختياريّة، الّتي يستحقّ فاعلها المدح والثّواب عليها كأعمال الخير، أو الذّمّ والعقاب كأفعال الشرّ.

ولا ريبَ في خروج الأفعال الإضطراريّة عن مجال البحث والنِّقاش، لصفتها الإضطرارية وخروجها عن طَوْق الإنسان.

والأفعال الإختياريّة هي محور البحث والجدال.

وقد فسّر الأشـاعرة (القضاء والقَدَر) بأنّ الله سـبحانه خلق أفعال العـباد، خيرها وشرّها، وأجبرهم على ممارسـتها، محتـجّين على ذلك بآيتين كريمتـين، قوله تعالى: ﴿فَقَضاهنَّ سـبع سَمٰوات﴾، وقـوله: ﴿وَقَدَّرَ فيها أقْواتها﴾. فحملوا لفظي القضاء والقَدَر على الخلق والإتمام.

ولا ريبَ في اشتراك هٰذين اللّفظين بين المعاني المختلفة وقصر المشـترك على بعض أفراده ومصاديقه دون قرينةٍ مُخَصِّصَةٍ تَعَسُّفٌ واعتباط. فقد دلّت الإصطلاحات اللّغويّة وشواهد القرآن الكريم على أنّ للقضاء والقَدَر معانٍ أخرى سوى ذلك.

فقد ورد القضاء بمعنى الخلق والإتمام، كقوله تعالى: ﴿قَضاهُنَّ سبع سَمٰوات﴾، يعني: خلقهنّ وأتمّهنّ.

وورد بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أن لا تَعْبُدوا إلّا إيّاهُ﴾، يعني: أمر أن لا تعبدوا إلّا إيّاه.

وورد بمعنى الإخـبار، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنا إلى بني إسرائيل في الكتابِ﴾، يعني: أخبرناهم وأعلمناهم.

وهكذا ورد القَدَر في معانٍ مختلفة.

ورد بمعـنى الخَلْق، كقوله تعالى: ﴿وقَدّرْنا فيها أقْواتها﴾، يعني: خلقنا فيها أقواتها.

وورد في الكـتابة، كقوله تعالى: ﴿إلّا ٱمْـرأتهُ قدّرْناها﴾، يعني: كتبـناها في الألواح.

وورد بمعـنى حكمة وضع الشّيء في موضعه دون زيادة أو نقص فيـه، كقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فيها أقواتها﴾.

فقصر لفظي القضاء والقَدَر، والحالة هذه، على خَلْق الأفعال فحسب، مناقض لواقع اللّغة والشّرع.

هذا إلى أنّ نسبة خَلْق الأعمال إلى المولى عزّ وجلّ ـ طاعةً كانت أو معصيةً ـ تستلزم القول بالجبر، وهو محال كما عرفت.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ الله عزّ وجلّ قد نوّه في كتابه الكريم بأنّه أحْسَنَ خَلْق جميع مخلوقاته:

﴿**ٱلّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسانِ مِن طِينٍ**﴾. (السّجدة / ٧)

ومن الواضح أنّ الأعمال الذّميمة لو كانت من خلقه وإيجاده ـ كما يزعمون ـ لما حكم بحسنها، فحكمه بحسن عامّة خلقه سبحانه برهان ساطع على بطلان نسبة الأفعال الذّميمة إليه.

أضف إلى ذلك: إنّ المؤشّرات القرآنية تدلّ دلالة واضحة على أنّ أفعال العباد ـ خيراً كانت أو شرّاً، طاعةً أو معصيةً ـ ليست هي من صنع الله وفعله، ولو كانت كذلك لما بشّر المؤمنين الأخيار بالجنان والنّعيم، ولما أنذر الكفّار والفجّار بالنّار والجحيم، حيث لا يملك هٰذان الفريقان إرادةً واختياراً إزاء أعمالهم، حيث إنّها ـ كما يزعم الأشاعرة ـ مصنوعة ومفروضة عليهم من قِبَل الله سبحانه، ولما جاز للمولى عزّ شأنه أن يُعاقب المذنبين والحالة هذه على فعله وتسبيبه ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**﴾.

فنخلص من ذلك: أنّ ورود التبشير للمؤمنين، والإنذار للكافرين ـ في حشد من الآيات الكريمة ـ أصدق شاهد على انبثاق الأعمال وصدورها من العباد فحسب، وليست مخلوقة لله سبحانه.

وهكذا أكّدت النصوص القرآنية تأكيداً واضحاً جليّاً بصدور الأعمال من البشر رغبةً واختياراً وليست مصنوعة ومفروضة عليهم:

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين﴾.
﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقد تجلّى على ضوء هذا النّقاش بطلان قول الأشاعرة وفساد زعمهم: بأنّ الله تعالى خلق الطّاعات والمعاصي واقتسر العباد على فعلها، واعتبار ذلك لغواً شائناً، واتّهاماً صفيقاً يَسْتَنْكِرُهُ العقل والشّرع.

وذهب الإماميّة إلى أنّ واقع القضاء والقَدَر، ومعناهما الحقّ هو: أنّ قضاء الله عزّ وجلّ في أفعال عباده، هو: الأمر بمحاسنها والنّهي عن مساوئها.

وقَدَرُهُ فيها هو: ما شرّعه من الأمر بواجبها والنّهي عن محارمها، والثّواب على أفعال الطّاعة، والعقاب على المعصية.

وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام حقيقة القضاء والقَدَر، وصوّرهما تصويراً بليغاً دقيقاً، كما رواهُ الكليني رحمه الله في الكافي، قال:

«كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفّين، إذ أقبل شيخ فجثا بين يديه، ثمّ قال له: يا أمير المؤمنين: أخبِرْنا عن مسيرنا إلى أهل الشّام، أبقضاءٍ من الله وقَدَر؟

فقال له أمير المؤمنين: أجَل يا شيخ، ما علوتم تلعةً، ولا هبطتم بطنَ وادٍ، إلّا بقضاءٍ من الله وقَدَر.

فقال الشيخ: عند الله أحتسِب عنائي يا أمير المؤمنين؟

فقال له: مه يا شيخ، فوَالله لقد عظّم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي مُنصرَفِكُم وأنتم مُنصَرِفون، ولم تكونوا في شيءٍ من حالاتكم مُكرَهين، ولا إليه مضطرّين.

فقال الشيخ: وكيف لم نَكُنْ في شيءٍ من حالاتنا مُكرهين ولا إليه مضطرِّين، وكان بالقضاء والقَدَر مسيرنا ومُنقَلَبُنا ومُنْصَرَفُنا.

فقال له: وتظنّ أنّه كان قضاءً حتماً، وقدراً لازماً؟ إنّه لو كان كذلك لبطلَ الثّواب والعقاب، والأمر والنّهي والزّجر من الله عزّ وجلّ، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب، ولا محمدة للمحسن، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوانِ عَبَدَةِ الأوثانِ، وخُصَماءِ الرّحمٰنِ، وحزبِ الشّيطانِ، وقدريَّةِ هذهِ الأمّةِ ومجوسِها.

إنّ الله تبارك وتعالى، كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُطَعْ مُكْرَهاً، ولم يُمَلِّك مفوّضاً، ولم يخلق السّماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النّبيِّين مُبشِّرين ومُنذِرين عبثاً، ذلك ظنّ الّذين كفروا، فويلٌ للّذين كفروا من النّار.

فأنشأ الشّيخ يقول:

أنتَ الإمامُ الّذي نرجو بطاعتهِ يوم النّجاةِ من الرّحمٰنِ غُفرانا
أوضَحْتَ من أمْرِنا ما كان مُلتَبِساً جزاكَ ربُّكَ بالإحْسانِ إحْسانا[1]

وهذا هو القول الفصل، والحكم العدل، في تقرير القضاء والقَدَر وجلاء واقعهما الحقّ. وقد كشف عن بطلان قول الأشاعرة في خلق أفعال العباد وقسرهم عليها، ممّا يجب اتّهام الله عزّ جلّ بالظّلم ونسبة العبث إليه، كما أوضحناه في بحث الجبر.

نعم، قد يُراد بالقضاء، الحكم الإلزاميّ، كقوله تعالى: ﴿وقَضى رَبُّكَ أنْ لا تَعْبُدوا إلّا إيّاهُ﴾، أيْ حَكَمَ وألزَمَ، فذلك مختصّ بالأحكام والنّظم الشرعيّة، الّتي

(١) الوافي، ج ١، ص ١١٧، عن الكافي.

لا محيصَ من تنفيذها واتِّباعها، ويحمل فيما سوى هذا على المعاني السّالفة، كالإعلام والإخبار.

والجدير بالذِّكر، أنّه جاء النّهي والتحـذير عن الخوض في القضـاء والقَدَر، وذلك لأمرين:

أ ـ أنّهما مثار شبهات خطيرة تحار فيها العقول، وتضلّ فيها الأفهام، ولا يأمنها إلّا العلماء الأفذاذ.

ب ـ وقد يُراد منهما النّهي عن التعمّق والتوسّع في معرفة أسرار خلق الله عزّ وجلّ، وعلَّلَ تَشريعه، ممّا أمر به ونهى عنه، فذلك محظور على العباد، لعجزهم عن تفهّم الكثير من حكمة أفعاله وفلسفة تشريعاته.

فعليهم أن يؤمنـوا بذلك إيماناً تعبُّـديّاً، موقنين بحكمة المولى وسموّ أغراضه. كما قال تعالى: ﴿إنّا كُلَّ شيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَر﴾.

٣ ـ حكمة أفعال الله تعالى:

يعتقد الإماميّة: بأنّ أفعال الله تعالى مقرونة ومتّسمة بالغايات السّامية، والعلل الحكيمة، الهادفة إلى تحقيق مصالح العـباد، وتوفير المـنافع لهم، ودَرْء المضارّ عنهم، حيث سبحانه مُنزّه عن العبث، والأفعال العشوائية.

وخالف الأشـاعرة في ذلك، وجوّزوا خلوَّ أفعاله سبحانه من معطـيات العلل والغايات الهادفة البنّاءة، بحجّة استغنائه عنها.

واستدلّ الإماميّة على اعتقادهم بالبراهين التالية:

١ ـ إنّ الأفعال المجرّدة من الأغراض والأهداف الحكيمة تُعتبر أعمالاً عشوائيّة عابثة، لا تليق بالواعي اللّبيب، فكيف تُعزى إلى خالق الكون ومدبِّره العظيم؟!!

٢ ـ إنّ إنكار العلل والأغراض الإيجابية في الأفعال الإلهيّة يحتّم إنكار ما يتجلّى على الكون بكائناته السّماوية والأرضية من آيات الحكمة، وجلالة القصد، وسموّ الغاية، ودقّة النّظام، وعظمة التدبير، الثابتة حسّاً ووجداناً، وهي لا يجحدها إلّا المخرّفون.

٣ ـ إنّ تجريد الأفعال الإلهيّة من عللها الغائيّة السّامية، يُعتبر مخالفة صارخة لنصوص القرآن الكريم المصرِّحة بحكمة أفعاله، وشرف قصده:

﴿وَما خَلَقْنا السّمٰوات والأرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبين﴾. (الدّخان / ٣٨)

﴿أفَحَسَبْتُم أنّما خَلَقْناكُم عَبَثاً، وأنّكُمْ إلَيْنا لا تُرْجَعُون﴾. (المؤمنون / ١١٥)

﴿وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُون﴾. (الذّاريات / ٥٦)

ومن هنا يتجلّى زيف زعم الأشاعرة بجواز غيبة الحِكَم والمصالح عن أفعال الله سبحانه، بحجّة استغنائه عنها، حيث إنّ مردّ عطائها وجدواها إلى العباد، وليس إليه، فلا يجوز تجاهلها وإنكارها.

ولا يجب على الله سبحانه تبيان تلك الغايات والمنافع لعجز البشر عن تفهّم أسرارها، وإدراك واقعها، بيدَ أنّه تعالى أوضح بعضها، وكشف النِّقاب عنه، واستطاعت العقول إدراك طرف آخر منها، وما سوى ذلك ممّا يعسر استجلاؤه وفهمه، يجب الإيمان بحكمة أفعاله وغاياته، لاستحالة العبث عليه سبحانه.

٤ ـ سرّ التكليف الإلهيّ:

وحيث كان الله عزّ وجلّ حكيماً عادلاً، رحيماً بالعباد، فهو يُكلّفهم حسب طاقتهم وإمكاناتهم ولا يرهقهم بالتكاليف العَسِرَةِ الشاقّةِ، كما صرّح بذلك القرآن الكريم، حيث قال:

﴿لا يُكَلِّفُ ٱللّٰهُ نَفْساً إلّا وُسْعَها﴾ ، ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُم في ٱلدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾ ، ﴿يُريدُ ٱللّٰهُ بِكُمْ اليُسْرَ ، ولا يُريدُ بِكُمْ العُسْرَ﴾ .

وهكذا صرّحت أحاديث أهل البيت عليهم السلام في إبطال الحَرَج في الدِّين. فعن أبي عبدالله عليه السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«رُفِعَ عن أمّتي تسعةٌ : الخطأ ، والنِّسيان ، وما أُكْرِهوا عليه ، وما لا يعلمون ، وما لا يُطيقون ، وما اضطرّوا إليه ، والحَسَد ، والطِّيرة ، والتفكّر ، والوسوسة في الخَلْق مالم ينطق بشفة» (١).

قال الشيخ الصّدوق (ره): اعتقادنا في التكليف هو: أنّ الله تعالى لم يكلِّف عباده إلى دونما يطيقون كما قال عزّ وجلّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللّٰهُ نَفْساً إلّا وُسْعَها﴾ ، والوسع دون الطاقة.

وقال الصّادق عليه السلام :

«والله ما كلّف الله العباد إلّا دون ما يُطيقون ، لأنّه كلّفهم في كلِّ يوم وليلة خمس صلوات ، وكلّفهم في السّنة صيام ثلاثين يوماً ، وكلّفهم في كلِّ مائتي درهم خمسة دراهم ، وكلّفهم حجّة واحدة ، وهم يطيقون أكثر من ذلك» (٢).

وهكذا نوّهت أحاديث أهل البيت عليهم السلام عن فلسفة التكاليف الإلهيّة وجزيل عطائها للعباد.

قال الصّادق عليه السلام لَمَنْ سأله لِمَ خَلَقَ الله الخَلْق ؟

فقال : **«إنّ الله تعالى لم يخلق خلقه عبثاً ، ولم يتركهم سُدىً ، بل خلقهم لإظهار**

---

(١) البحار، ج ٣، ص ٨٤، عن توحيد الصّدوق وخصاله.

(٢) نفس المصدر، ص ٨٤.

قدرته، وليُكلِّفهم طاعتــه، فيســتوجبوا بذلك رضوانه. وما خلقهم ليجلب منهم منفعة، ولا ليدفع بهم مضرّة، بل خلقهم لينفعهم، ويوصلهم إلى نعيم الأبد»[1].

٥ ـ شُبهة خلق الكافر وتكليفه:

قد يندفع بعض المهرتقين بالتنديد والإستنكار على الله تعالى في خلق الكافر وإلزامه بالتكاليف الشرعيّة، وهو يعلم مآله إلى الكفر والعذاب، مستشعراً من ذلك إجباره على المعصية، الّذي يتنافى وصميم عدل الله تعالى وحكمته، وأنّه كان الأجدر على حدِّ زعمه عدمَ خلقه، وإعفاءَهُ من التكليف لينجوَ من العقاب محتجّاً على دعواه بما توهّمه من مفهوم الآية الكريمة والحديث الشّريف، وهما قوله تعالى: **﴿وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنّمَ كَثِـيراً مِنَ ٱلجِنِّ والإنْس﴾**، وقول النّـبيّ ﷺ: **«الشّقيّ شقيٌّ في بطنِ أُمِّه، والسّعيدُ سعيدٌ في بطنِ أُمِّه»**.

لا.. ليس في خلق الكافر منافاة لعدل الله وحكمته، وليس فيه كذلك ما يحتِّم قسره وإكراهه على الكفر والعصيان، ثمّ مكافأته بالعذاب والعقاب.

فإنّ خلق الكافر وإيجـاده خير من أن يكون عدماً محضـاً، محروماً من نعمة الوجود وخصائصه، فقد خلقه الله تعالى وأسبغَ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، جسميّة وفكريّة، وأتاح له صنوف المتع والمآرب الّتي لا يتحسّسها ولا ينالها المعدوم، وجعله في الوقت نفسه حرّاً مختاراً في اعتناق ما شاء من دواعي الإيمان أو الكفر، دونما قسر أو إكراه على هذا أو ذاك. ثمّ ضاعفَ عليه آلاءَهُ وألطافه بفرض التكاليف الشرعيّة عليه ليوجِّهه وجهة الخير والصّلاح، ويؤهِّله للسّعادة الأبديّة والنّعيم الخالد.

---

(١) البحار، ج ٣، ص٢٨٦، عن علل الشّرائع للشّيخ الصّدوق.

وليس في ذلك ما يُشْعِر بالجبر وزجّه قسراً في العذاب، بيدَ أنّ الكافر أساء الإختيار وآثرَ الكفر والعذاب على الإيمان والنّعيم.

ولو كان علم الله تعالى بمغبّة الكافر ومصيره الخاسر يجعل تكليفه مستهجناً قبيحاً، لكان العقل ـ وهو أعظم المواهب الإلهيّة ـ موجباً لخسّةِ الإنسان وشقائه، إذ به يُسألُ ويُعاقب، وبحرمانه منه يُعفى من المسؤولية والعقاب.

هذا إلى أنّ الله عزّ وجلّ، قد أوضح الغاية من إيجاد عامّة الخلق جنّاً وإنساً، حيث قال: ﴿**وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُون**﴾.

فالغاية من خلقهم هي عبادته الموجبة لتهذيبهم وتكاملهم وإسعادهم مادِّيّاً وروحيّاً، دنيوياً وأخرويّاً.

أمّا ما توهّموه من الإحتجاج بمفهوم الآية الكريمة والحديث الشّريف السّالفين، فإنّ الغرض منهما هو الإختبار والإعلام عن شمول علم الله تعالى وإحاطته بواقع الكفّار وما يؤولون إليه من الشّقاء، وسوء المصير، وأليم العذاب.

٦ ـ وجوب اللّطف الإلهي:

وهكذا يعتقد الإماميّة بوجوب اللّطف الإلهي على الله تعالى، وذلك بتوجيه عباده وجهة الخير والصّلاح، وعونهم على طاعته ومجانبة عصيانه من غير قسر ولا إكراه، كبعثة الأنبياء عليهم السلام ونصب الأولياء.

وهو من آيات كمال الله المطلق، وحكمته البالغة، ولطفه الواسع العميم، إذ يشمل عباده بألطافه المادِّية والرّوحيّة، ويوجِّههم إلى ما يُسعدهم في الدّنيا والآخرة.

وليس المُراد من وجوب اللّطف أنّه تعالى مأمور به، ومفروض عليه من قِبَل الخَلْق، وإنّما المُراد منه ضرورة اتِّصافه بهذا اللّطف، كضرورة اتِّصافه بوجوب الوجود.

٧ ـ حُسن الإختبار:

ويَحسُن من الله عزّ وجلّ أن يختبر عباده، ويمتحنهم بما يفرضه عليهم من صنوف التكاليف، ويبلوهم بألوان المحن والأزمات، وإن كان عليماً بهم ولا تخفى عليه خافية منهم.

وإنّما حُسن الإختبار لما ينطوي عليه من حِكَم ومصالح نجملها فيما يلي:

١ ـ إنّه المحكّ الّذي يجلو واقع الإيمان ويستكشف أبعاده في طويّة المؤمن وما يتّسم به من طاعةٍ أو عصيانٍ، شكرٍ أو جحودٍ، صبرٍ أو جزعٍ، رِضاً أو سخطٍ إزاءَ خالقِه ومدبِّره.

وعلى ضوء ذلك الإختبار ونتائجه الإيجابيّة أو السّلبيّة، يُثمّن الممتحن ويُمنح ما يستحقّه من مكافأة الله عزّ وجلّ وجزائه العادل.

﴿ألمٓ * أحَسِبَ ٱلنّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنّا وهُم لا يُفْتَنُونَ * ولَقَد فَتَنّا ٱلّذِينَ من قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلكاذِبِين﴾.

(العنكبوت / ١ ـ ٣)

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتّى نَعْلَمَ ٱلمجاهِدِينَ مِنكُمْ وٱلصّابِرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُم﴾.

(محمّد / ٣١)

٢ ـ والإختبار من وسائل الزّجر والتأديب الباعثة على استصلاح العصاة والمنحرفين، وتوعيتهم من سكرة الغيّ والضّلال، وتوجيههم وجهة الخير والصّلاح.

ومن لطف الله تعالى وعطفه البالغين على العباد أنْ تفاوتت أساليب اختباره يُسراً وعُسراً، بساطةً وتعقيداً حسب طاقاتهم ومستويات كفاءاتهم الفكريّة والرّوحيّة، ولولا ذلك لباء أكثر الممتَحنين بالرّسوب والإخفاق.

سُئل الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : مَنْ أشدّ النّاس بلاءً في الدّنيا ؟

فقال : «**النّبيّون ثمّ الأمثل فالأمثل ، ويبتلي المؤمن على قدر إيمانه ، وحُسن أعماله ، فمَن صحّ إيمانه ، وحَسُنَ عمله ، اشتدّ بلاؤه ، ومَنْ سَخُفَ إيمانه ، وضَعُفَ عمله ، قلّ بلاؤه**»(١).

٣ ـ والإختبار باعث على ازدياد أجر المختبَر ، ومضاعفة ثوابه ، وعلوّ درجاته في الآخرة .

وهذا الإختبار مختصّ بالأنبياء والأوصياء ومَنْ حذا حذوهم ونهج سبيلهم من الأوصياء .

٤ ـ ومن خصائص الإختبار وآثاره ، أنّه من أقوى العوامل في تكفير ذنوب الممتحَنين ، وغفران ذنوبهم ، وتطهيرهم من رجس الخطايا والآثام .

قال الباقر عليه السلام : «**إنّ الله تعالى إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وله ذنب ابتلاه بالسّقم ، فإن لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة ، فإن لم يفعل ذلك به شدّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذّنب**»(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله تعالى : «**ما من عبدٍ أُريد أن أُدْخِله الجنّة إلّا ٱبتليته في جسده ، فإنّ ذلك كان كفّارةً لذنوبه ، وإلّا شددتُ عليه عند موته حتّى يأتي ولا ذنبَ له ، ثمّ أُدخله الجنّة ...**»(٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**ما يزالُ الغمّ والهمّ بالمؤمنِ حتّى ما يدع له ذنباً**»(٤).

---

(١) الوافي ، ج ٣ ، ص ١٣٤ ، عن الكافي .

(٢) الوافي ، ج ٣ ، ص ١٧٠ ، عن الكافي .

(٣) الوافي ، ج ٣ ، ص ١٧٢ ، عن الكافي .

(٤) الوافي ، ج ٣ ، ص ١٧٢ ، عن الكافي .

وقال الصّادق عليه السلام: «**إنّ في الجنّةِ منزلة لا يبلغها عبد إلّا بالإبتلاء في جسده**»[(١)].

وقال عليه السلام: «**لو يعلم المؤمن ما لهُ من الأجر في المصائب، لتمنّى أنّه قُرِضَ بالمقاريض**»[(٢)].

وقال عليه السلام: «**إنّ المؤمن ليهوّل عليه في نومه فيغفر له ذنوبه، وإنّه ليمتهن في بدنه فيغفر له ذنوبه**»[(٣)].

٨ـ الحُسْن والقُبْح العقليّان:

اختلف المتكلّمون في تقييم الأعمال والحكم عليها بالحُسْن أو القُبْح، هل هو من وظائف العقل أو الشّرع؟

فارتأى الأشاعرة: أنّ ذلك من وظائف الشّرع، فما حُكِمَ بحُسْنه صارَ حَسَناً، وما حُكِمَ بقُبْحه صارَ قبيحاً، وأسرفوا في ادّعائهم ذلك حتّى قرّروا: بأنّ الشّرع لو حسّن القبيح وقبّح الحَسَن، صارَ القبيح حَسَناً، والحَسَن قبيحاً، وجرّدوا العقل من سلطانه وحكمه في هذا المجال.

وذهب الإماميّة ومَنْ وافقهم من المعتزلة: إلى أنّ تقييم الأفعال وإدراك حُسْنها أو قُبْحها هو من خصائص العقل ووظائفه الأصيلة، وهو الحَكَم الفَصْل فيها.

ذلك أنّ للأفعال قِيَماً ذاتيّة نابعة من جوهرها وصميم واقعها، يستجليها العقل، ويُثمّنها بفطرته، ويحكم عليها بالإيجابيّة أو السّلبيّة، وإن كان في غيبة عن حكم الشّرع فيها.

---

(١) الوافي، ج ٣، ص ١٣٥، عن الكافي.

(٢) الوافي، ج ٣، ص ١٣٥.

(٣) الوافي، ج ٣، ص ١٧٢.

فالصِّدق والعدل والإحسان والشّجاعة والإخلاص سجايا كريمة يحكم العقل بحُسْنها، كما يحكم بقُبْح أضدادها من الكذب والظّلم والإساءة والجبن والرِّياء.

وللحُسْن الذّاتي في السّجايا الكريمة، والقُبْح الذّاتي في أضدادها، أمر الشّرع بالتحلِّي بالأولى، والتجرّد من الثانية، حيث أنّه لا يأمر إلّا بما هو حَسَن نافع، ولا ينهى إلّا عمّا هو قبيح ضارّ، وليس لأمره دخل في حُسْنها أو قُبْحها.

ويرى الإماميّة: أنّ من الأفعال ما هو واضح الحُسْن أو القُبْح يُدركه العقل بالبداهة: كحُسْن الصِّدق النافع، وقُبْح الكذب الضّارّ.

ومنها: ما يستجلي العقل حُسْنه أو قُبْحه بالخبرة والإكتساب: كحُسْن الصِّدق الضّارّ، وقُبْح الكذب النافع.

ومنها: ما يقصر العقل عن إدراك حُسْنه أو قُبْحه: كركعات الصّلاة، وأنصبة الزّكاة، ونحوهما من الأمور العباديّة والتعبّديّة.

تحديد موضع الخلاف:

وقبل الشّروع في تفصيل البحث، يجدر تحديد موضوع النِّزاع فيه.

للحُسْن والقُبْح مقاييس ومصاديق ثلاثة:

الأوّل: إنّهما يُطلقان على السّجايا والأعمال الباعثة على كمال الإنسان أو نقصه. كالعلم والحلم والشّجاعة والأريحيّة، إذ التحلِّي بهذه الخِلال من مقوّمات كماله ورفعة شأنه، والإتِّصاف بأضدادها من الجهل والخُرق والجُبن.. من دواعي نقصه وخموله.

الثاني: إنّهما يُطلقان على الأفعال والأعيان الّتي تُمتِّع النّفس وتبهجها، أو تؤلمها وتقزِّزها.

فمثال الأوّل: إغاثة اللّهفان وإعانة البؤساء وإنقاذ الغريق وهداية الضّالّ.. وكالمناظر الرائعة، والأصوات الرّخيمة الجميلة، والمطاعم الشهيّة..

ومثال الثاني: قتل الأطفال، وتعذيب الأبرياء، وترويع الآمنين، وكالمشاهد المشجية لضحايا الغرق والحرق والزّلزال المثيرة للكآبة والحزن.

والظّاهر أنّ الأشاعرة يذعنون بالحُسْن والقُبْح العقليين لهٰذين المصداقين.

الثالث: إنّهما يُطلقان على الأفعال الإختيارية الّتي يستحقّ فاعلها المدح والثّواب، أو يستحقّ الذّمّ والعقاب حسب طبيعة الأفعال.

وهذا المصداق الثالث هو محلّ النِّزاع.

أمّا الأشاعرة فقد بخسوا حقّ العقل، وأنكروا صلاحيّته للحُكْم عن حُسْن الأفعال وقُبْحها مجرّداً عن الشّرع.

وأعطى الإماميّة والمعتزلة هذا الحقّ للعقل كاملاً غير منقوص.

واستدلّ الإماميّة على مذهبهم بأدلّة عديدة نجملها في النقاط التالية:

١ ـ إنّ الجاحدين والكافرين بالشّرائع والأديان يحكمون ـ رغم تحلُّلِهم من قيم الشّرع ـ بحُسْن الأفعال الحميدة، وقُبْح الأفعال الذّميمة، نظراً لقيمها الذّاتيّة، وتقديراً لشرف الأولى وجدواها، وخسّة الثانية وضررها.

٢ ـ إنّ الله تعالى فطر البشر على إدراك بعض الحقائق بضرورة العقل، كما فطرهم على إدراك بعضها الآخر بالحواسّ.

فكما يُميِّز العقلاء بأذواقهم الفطريّة بين الحلاوة والمرارة، ويُفرِّقون بمشامهم بين شذى العطر والرّائحة المنتنة، ويُدركون بأبصارهم المفارقات الكبيرة بين المناظر الرائعة والمناظر البشعة، ويتحسّسون بأسماعهم الأصوات الرّخيمة المُنعِشة والأصوات المنكرة.

كما يدرك العقـلاء تلك الحـقائق بحواسِّهم، كذلك يدركون بعقولهم وفِطَرهم حُسْن السّجايا الكريمة والأعمال الخيِّرة، وقُبح الخلال الذّميمة والأعمال المنكرة، دون تأثّر بتوجيه أو تقييم شرعي.

٣ ـ لو كان الحُسْن والقُبْح منوطاً بالشّرع، فذلك لا يغنيه عن سلطان العـقل وحكمه السّديد.

ذلك: أنّ الشّرع إذا ما أمر بفعل لا يجعله حسـناً إلّا إذا امتدح فاعله عليه، ونَهْيُ الشّرع عن عمل لا يجعله قبيحاً إلّا إذا ذمّ فاعله عليه.

فامتـداح الشّرع فاعل المأمـور به، وذمِّـه فاعل المنهيّ عنه، يؤكِّدان حُسن المأمور به، وقُبح المنهيّ عنه عقلاً ووجداناً.

ومن هنا كان الحُسْن والقُبْح منوطاً بحُكْم العقل وخاضعاً لتقييمه.[١]

(١) يُراجع كتاب أصول الفقه، للمرحوم الحجّة المفضال الشّيخ محمّدرضا المظفّر.

وقد تمّ الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه، بقلم مؤلّفه محمّد مهدي بن المغفور له الحجّة السّيّد عليّ الصّدر بن آية الله العظمى السّيّد حسن الصّدر بن هادي بن محمّدعليّ ابن صالح بن محمّد بن إبراهيم شرف الدّين بن زين العـابدين بن عليّ نور الدّين بن نور الدّين عليّ بن الحسين بن محمّد بن الحسين بن عليّ بن محمّد بن أبي الحسن تاج الدين بن محمّد بن عبدالله بن أحمد بن حمزة بن سعدالله بن حمزة بن أبي السّعادات محمّد بن أبي محمّد عبدالله نقيب نقباء الطّالبين ببغـداد ابن أبي الحرث محمّد بن أبي الحسن عليّ بن أبي طاهر عبدالله شيخ الطّالبين ببغـداد ابن أبي الحسن محمّد المحدِّث ابن أبي الطّيب طاهر بن الحسين القطعي بن موسى أبو سبحة بن ابراهيم الأصغر بن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصّادق بن محمّد الباقر بن عليّ السّجّاد زين العابدين ابن أبي عبدالله الحسين أبي الشّهداء بن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى جدِّهم سيِّد المرسلين وخاتم النّبيِّين.

إنتهى الجزء الأوّل، ويليه الجزء الثاني في النّبوّة.

مصادر ومراجع الكتاب

إسم الكتاب		إسم المؤلف
١ ـ بحار الأنوار	....	العلّامة المجلسي
٢ ـ حقّ اليقين	....	السيد عبدالله شبّر
٣ ـ الله	....	عبّاس محمود العقّاد
٤ ـ دائرة معارف القرن العشرين	....	محمّد فريد وجدي
٥ ـ على أطلال المذهب المادِّي	....	محمّد فريد وجدي
٦ ـ مع الله في السّماء	....	الدكتور أحمد زكي
٧ ـ روح الدّين الإسلامي	....	عفيف عبدالفتّاح طبارة
٨ ـ محاسن الطبيعة	....	اللّورد أفبري
٩ ـ مجلّة المختار	....	هيئة التحرير
١٠ ـ رسالة التوحيد	....	محمّد عبدة
١١ ـ مشكلة الألوهيّة	....	الدكتور محمّد غلّاب
١٢ ـ الله والعلم الحديث	....	عبدالرزّاق نوفل
١٣ ـ توحيد المفضل	....	الّذي يرويه المفضل بن عمر
١٤ ـ الله يتجلّى في عصر العلم	....	بأقلام جماعة من العلماء
١٥ ـ مبادئ العلوم العامّة	....	تأليف جماعة من الأساتذة
١٦ ـ عجائب السّماء والفلك	....	منصور حنّا جرداق
١٧ ـ العلم يدعو إلى الإيمان	....	أ. كريسي موريسون
١٨ ـ علم الحيوان	....	عبدالعزيز مهدي وبشير اللوس

ومصادر أخرى مذكورة في هامش الكتاب

أصــول العقــيدة

الجزء الثاني

في

النّبـــوّة

بقلم

السّيّد مهدي الصّـدر

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ ومُنذِرِينَ لِئلّا يَكُونَ للنّاسِ عَلى ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ .

(النِّساء / ١٦٥)

﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وٱلّذينَ آمَنُوا في ٱلحَياةِ ٱلدُّنْيا ويَوْمَ يَقُومُ ٱلأشْهادُ﴾ .

(المؤمن / ٥١)

﴿ٱلّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرّسُولَ ٱلنَّبيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلّذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ في ٱلتَّوْراةِ وَٱلإنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بالمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ ٱلمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَٱلأغْلالَ ٱلّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ فالّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلمُفْلِحُونَ﴾ . (الأعراف / ١٥٧)

المقـدّمة

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

للأحـداث والهزّات أثـر بالِغ في غربلة الأمـم، وتمحيص واقعها واكتشـاف خصائصها وسجاياها الفكرية والأخلاقية والإجتماعية، فالأحداث هي المحكّ الّذي يجلو واقع الأمم، ويعكس رُقيّها أو تخلُّفَها في مضمار الحياة.

ولقد أسفرت الأحداث والهزّات العنيفة الّتي اجتاحت الشعوب الإسلامية في النصف الأخير من هذا القرن عن مآسي رهيبة تبعث على الفزع، وتدعو إلى الأسى والأسف البالغين.

فالأمّة الإسلامية الّتي صاغها الرّسول الأعظم ﷺ وغذّاها بأروع وأكمل مفاهيم الوحي وآداب السماء لتكون ﴿**خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَت للنّاس**﴾، قد كشفت على محكّ الأحداث عن واقع سيِّئ وحالة مزرية من التخلّف والتسيّب والهوان، أغواها المستعمر الكافر فراحت تظلع في ركابه مخدوعة بدعاياته المضلّلة وأمانيه الكـاذبة، واستنامت على حدائه المخدِّر ردحاً طويلاً من الزّمن، ثمّ استفاقت بعد نأي السُّرى وجهد المسـير تستشعر لوعة التخلّف والهوان، وتعاني مضض الهـزائم والنّكسـات، كسيرة القلب مجروحة الكرامة، مسلوبة الوطن والحرِّيّة والإرادة، وهي لا تملك إزاءَ تلك المآسي إلّا الصّرخات المدوِّية، والشّكاة المرّة، تسـتنجد بالضّـمير العالمي وهو طاغوت متجبِّر، وتستنصر العدل الدولي وهو ميِّت صريع الأطماع والمحـاباة لا يأبه بها، ولا يعيرها اهتماماً، رغم ظلامتها الصارخة وحقّها المهدور.

وعلى وخز هذه الكارثة وضغطها الملحّ، بدأ الواعون من المسلمين يتحسّسون أبعاد نكستهم وفشلهم الذريع، وتحفّزوا لإثبات وجودهم وتعزيز كيانهم، واسترداد أمجادهم الإسلامية، وعلموا أنّهم لن ينالوا هذه الأمنية السامية، ويحقِّقوا هذا الهدف الخطير إلّا بتجديد الولاء للإسلام، واستلهام مُثله العُليا ومبادئه الخالدة، واستغلال كنوزه الفكرية، وتراثه الروحي الضّخم.

ومن خصائص الإسلام ومزاياه، أنّه كلّما استطلعه الباحث المستنير، واستجلى حقائقه ومفاهيمه، امتلأ إعجاباً به، وتعشّقاً له، ووثوقاً بقدرته على حلِّ مشاكل الحياة، وعلاج أدواء البشرية وإنقاذها ممّا تعيشه من ضروب المحن والأهوال، وتحقيق أحلامها وأشواقها المتطلِّعة إلى الطمأنينة والسلام.

ومن دواعي الأسف والأسى، أن نجد شبابنا الطليعي الناهض جاهلاً بواقع الإسلام، ومفاهيمه القيّمة، وعطائه الفيّاض، ما صيّرهُ رخو العقيدة، قلق الإيمان، سريع الإستجابة لعوامل الخداع والتضليل، وهذا هو سرّ إفلاسه وحرمانه من كنوز الإسلام، وقيادته الفكرية الرائدة، ومن ثمّ اخفاقه وتخلّفه في ميادين الحياة، رغم أمجاده الحضارية الشامخة، وعبقريّاته الكفوءة الّلامعة.

وهذا ما حداني إلى تأليف كتاب «أصول العقيدة»، عسى أن يُيَسِّر للقرّاء الكرام زاد الثّقافة والمعارف الدينية، ويجلو طرفاً من فضائل الإسلام ومزاياه، وقد صدرَ الجزء الأوّل منه، واستُقبِل بحفاوة وتقدير بالِغَين، ما شجّعني على إصدار أجزائه الثلاثة التالية.

وهذا هو الجزء الثاني في النّبوّة، وهو يضمّ أبرز وأهم أبحاث الأنبياء، وضرورة بعثتهم، وشرائط صفاتهم، وطبائع رسالاتهم، وفلسفة معاجزهم، واستلهامهم وحي السّماء.

ويعرض صوراً رائعة زاهية من مبادئ الإسلام، وحقائقه الخالدة، ويُفنِّد الشُّبه الّتي أثارها حوله أعداؤه والحاقدون عليه.

وقد تحرّيتُ فيما كتبتُ الأسلوب الواضح المركّز الّذي يبهج القارئ، ولا يعنِّـته بالغموض والإبهام، راجياً من الله تعالى أن ينفع به المسلمين، ويُثيبَني عليه بالقبول والرّضوان، إنّه أرحم الرّاحمين.

العراق ـ الكاظمية

مهدي السّيّد علي الصّـدر

بعثة الأنبـياء عليهم السلام

تعريف النّبيّ:

النّبيّ لغة: من الإنباء، وهو الإخبار عن الله عزّ وجلّ.

وٱصطلاحاً: هو الإنسان المُخبِر عن الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر.

وظائف الأنبـياء:

الأنبـياء عليهم السلام هم الصّفوة المخـتارَة من البشر، والنّخبة المنتجَـبة من الخلق، اصطفاهم الله، وابتعثهم سفراء إلى عباده، وتراجمة وحيه وروّاد مُثُله العُليا، فتعاقبوا وتعاضدوا عبرَ العصـور على تبليغ رسـالة السّماء ونشر مفاهيمها الخيِّرة المعطاء في ربوع الأرض، فهدوا الناس إلى معرفة الله عزّ وجلّ، وانتهاج طاعته، وتنكّب معاصيه، وأناروا لهم سبل الحقّ والعدل والرّشاد، ونهدوا بهم نحو السعادة والسلام، وأفاؤوا عليهم بألوان العطاء الرّوحي والمادِّي.

وواضح أنّه ليس من وظائف الأنبياء وأهدافهم تعليم الناس العلوم والفنون، حيث أنّهما من القضايا المكتسبة بالدّرس والتعلّم، ولا تتوقّف على تعليم الأنبياء عليهم السلام وتدريبهم، وما لاحَ في أحاديثهم من الإشـارات العلمية كان يستهدف إثارة الوعي الديني وتركيز العقيدة في نفوس المؤمنين عن طريق عرض الآيات الكونية الصارخة بوحدانيّة خالقها العظيم وقدرته الجبّارة وتدبيره الحكيم.

ومن الواضح أنّ الإنسـان لا يستغني في جميع أطوار حياتـه ومختلف مراحل عمره عن مرشد وموجِّه يسدِّده ويوجِّهه وجهة الخير والصّلاح، ولو أغفل من ذلك لشذّ وضلّ ضلالاً مبيناً، واستهدفته الأزمات والأخطار.

فهو في المجالات العلميـة محتاج إلى الأسـاتذة والمربِّين للتلمذة عليهم، وتلقِّي المعارف منهم، لقصوره عن اكتساب المفاهيم العلمية وهضمها بنفسه من دونهم.

وهو كذلك في الحقول الصناعيـة والفنِّية مفتقرٌ إلى الخـبراء والفنِّيين للإنتفاع بخبرتهم وتجاربهم، وتعلّم الصناعة منهم.

وهكذا هو في النواحي الإجتماعية كالبيع والشِّراء والزّواج والشّركات والحروب والمعاهـدات ونحوها من القضـايا الإجتماعية والدولية، فإنّه لا مناصَ من اسـتهداء العارفين بأصولها ونظمها والاسترشاد بآرائهم وتوجيههم، ولو استبدّ الإنسان بأهوائه وآرائه فيها لزاغَ عن الحقّ وانحرف عن العدل، وطغت عيه نوازع الأثرةِ والأنانية، واستخفّ بحقوق الناس مؤثراً مصـالحه الذاتية على مصـالحهم، ممّا يوجب تسـيّب المجتمع وشيوع المظالم فيه.

والإنسـان بعد هذا أشدّ حاجة وافتـقاراً إلى اسـتلهام مفاهيم العـقائد الحقّ وأساليب العبادات المفروضة، ولو أُهمل من غير توجيه في شأنها لغوى وارتكس في مهاوي الكفر والإلحاد.

فهذا يعبد الأصنام والأوثان، وذلك يؤلِّه الشّمس أو القمر، وآخر يُقدِّس النّار أو الحيوان، ويغدو الإنسان من جراء ذلك في ضياع فكري هائل وتسيّب روحي مُذل. فلا منقذ للبشرية ولا محيص لها من قيادة روحيـة موجّهة، وريادة سماوية هـادفة توجِّهها شطر الهداية والصّلاح، وتنير لها سبل السعادة والسلام.

من أجل ذلك، أرسل الله عزّ وجلّ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام سفراء إلى الخلق وهداة إلى العباد، لتجلية الحقائق التالية:

(أ) هداية النّاس إلى معرفة الله تعالى وتوحيده وتبيان صفات كماله وجلاله وتنزّهه عن خصائص الممكنات الّتي لا تليق بعظمة ألوهيّته.

(ب) إيضاح حقائق المعاد، وأسرار ما وراء الموت، ممّا يعجز العقل المجرّد عن إدراكه وتفهّم واقعه: كحياة البرزخ ومشاهد القيامة، وأساليب الحساب وصور النعيم والعذاب.

(ج) رسم أساليب عبادة الله تعالى، وتقرير شرائطها لتكون وسيلة لتزكية النفس، وتهذيب الوجدان، ومعراجاً إلى طاعة الله وشرف رضوانه.

(د) تشريع دساتير الحلال والحرام، وقوانين المعاملات في مختلف حقول الحياة المادّية والروحية، الفرديّة والإجتماعية.

(هـ) سنّ مبادئ الأخلاق وآداب السّيرة والسّلوك، لإستشعار مفاهيمها الخيّرة، وترسّم مثلها العُليا.

وقد جاهدَ الأنبياء عليهم السلام في تبليغ رسالاتهم، ونشر شرائعهم ومبادئهم بالترغيب تارةً والترهيب أخرى، مبشّرين مَنْ آمنَ بهم وسارَ على هداهم برضوان الله تعالى وجزيل ألطافه ونعمائه، ومنذرين مَنْ جحدهم وخالفهم بسخط الله وأليم عقابه.

وقد اختار الله عزّ وجلّ الأنبياء والمرسلين من جنس البشر ولم يخترهم من الملائكة، لأنّ البشر أكثر إلفة، وأسرع استجابة لجنسه من الملائكة، ولقدرة الملك على الأعمال الخارقة الّتي يتذرّع بها الأنبياء عليهم السلام إلى إثبات نبوّاتهم، ممّا يوجب التباسها بمعاجزهم وعسر التعرّف آنذاك على نبوّة الملك وصدق دعواه.

وهكذا تمتنع الاستعاضة عن بعثة الأنبياء عليهم السلام، بمخاطبة الله تعالى للبشر، وإعلامهم مفاهيم السّماء بإحداث الخطاب في بعض مخلوقاته كالأشجار مثلاً،

لاختلاج الشكوك والإحتمالات فيه بصدوره عن الجنّ أو الشّياطين.

كذلك لا يُستغنى عن الأنبياء عليهم السلام بإلهام الله تعالى للبشر، ونفثه في روعهم مفاهيم الوحي والتشريع كما يلهم النّحل أو النّمل، إذ أنّ ذلك بخس للإنسان، وإسقاط لخصائصه ومميّزاته العقلية والفكرية التوّاقة المتطلّعة إلى معرفة الحقائق عن طريق البحث والبرهان، كما يُجرِّده الغرض من واقعه الإنساني، فيغدو ملاكاً من ملائكة السّماء، أو مخلوقاً قاصراً متخلِّفاً كالحيوان المُلهم.

هذا ولو كان النّبيّ مَلَكاً، فكيف يتعامل معه البشر، وما هو موقفهم منه؟ أيرونه ويخاطبونه وهو على صورته الأصيلة، أو متّسماً بسمات البشر وصورهم.

والفرض الأوّل: محال، إذ لو شاهدوه لصُعِقوا من هول مرآه، وأمتلأت نفوسهم فزعاً ورعباً منه، لضخامته الهائلة، وخلقته المدهشة، الغريبة على إلف البشر.

﴿**جاعِلِ ٱلمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولي أجْنِحَةٍ مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ يَزِيدُ في ٱلخَلْقِ ما يَشاءُ**﴾. (فاطر / ١)

والفرض الثاني: يزجّ البشر في متاهات الحيرة والإرتياب في أستجلاء واقعه، والتعرّف عليه، أهو إنسان أم ملاك؟!!

﴿**وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِم ما يَلْبِسُون**﴾. (الأنعام / ٩)

وقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلى الخلق مبشِّرين ومنذرين عبرَ العصور السالفة، وابتعث كلّ فرد منهم بدستور يُلائم وعي أمّته ومستواها العقلي والفكري، متدرِّجاً بدساتيره وشرائعه نحو التكامل حتىّ أكملها وختمها بالإسلام الخالد المواكِب لأطوار الحياة، والملائم لجميع العصور والأجيال.

❋ ❋ ❋

وهكذا يتطلّع العقل النيِّر باحثاً ومبرهناً إلى وجوب بعثة الأنبياء عليهم السلام، وضرورة إرسالهم بأساليبه المنطقية الّتي تملأ النّفس وتقنع الوجدان:

فالإنسان مدنيّ بالطّبع لا يستغني عن أفراد جنسه، والتآزر معهم في تحقيق مآرب العيش وأهداف الحياة، وبذلك تألّفت عناصر المجتمعات البشرية وتجاوبت في مشاعرها ونشاطاتها الإجتماعية، وأصبح الفرد مؤثِّراً في مجتمعه، ومتأثِّراً به فكرياً وأخلاقياً واجتماعياً..

وحيث كان أفراد المجتمع متفاوتين تفاوتاً كبيراً في خصائصهم ومواهبهم الجسمية والفكرية، فيهم القويّ والضّعيف، والطّيِّب والخبيث، والذّكيّ والبليد، ممّا أثار فيهم التنافس والتحاسد، وحفّزهم على التنافر والتنازع، ما يبعث على بلبلة المجتمع وشيوع المظالم فيه.

وهذا ما يجعل المجتمع الإنساني بحاجة ملحّة إلى نظام هادف بنّاء، ورائد سماويّ حكيم ينظِّم حياته ويرعى شؤونه، ويحمي حقوقه ومصالحه، ويشيع فيه السّلام والعدل والرّخاء.

وقد تدارك الله عزّ وجلّ البشر بلطفه، وأنقذهم من مآسي التسيّب والطّغيان بأن اختار منهم رسلاً وأنبياء، وحلّاهم بأرفع وأكمل الخصائص والمآثر، ليكونوا قادة الفكر ودعاة الإصلاح وروّاد الفضائل، وجعلهم من البشر بمنزلة العقل من الإنسان والنّور من البصر، والشّمس من الكواكب. يستهدون بهم في متاهات الحياة، ومسالكها المليئة بالأشواك والأخطار.

* * *

وهكذا تتسلسل البراهين المنطقية على افتقار الإنسانية واضطرارها إلى توجيه الأنبياء عليهم السلام ورسالات السّماء:

فقد فضّل الله الإنسـان، وميّزه على جمـيع الكائنـات (بالعقل)، فهو أشرف المواهب الإلهية، وأسماها قدراً، وأبلغها أثراً في حياة الإنسان، وهو المستشار المخلص والرّائد الأمين، والحكيم الموجِّه إلى الخير والهدى، والرّادع عن الشرّ والضّلال.

ولكنّ العقل رغم حكمته ونفاذ سلطانه، عرضة للإغواء والضّلال، والإنخداع بالغرائز العارمة، والأهواء المضلِّلة، والشّهوات المسعورة الّتي تُضعف طاقته، وتقلِّص من سيطرته الهادية، وتلبِّس عليه الحقّ بالباطل، ويغدو آنذاك واهناً هزيلاً صريع الشّهوات والأهواء.

من أجل ذلك كان الصِّراع عنيفاً ضارياً بين العقل والأهواء، ينتصر العقل فيه تارة، وينذحر أخرى حسب طاقته وجَلَده.

فإذا انتصر العقل كان مناراً ساطعاً بالنّور والهدى، وينبوعاً دافقاً فيّاضاً بالخير والجمال، وإذا انتصرت الأهواء كانت داعية شقاء ومصدر تخلّف وإخفاق.

لهذا كان الإنسـان بحاجة ماسّـة إلى مدد روحي، وتسـديد سماويّ يساند العقل ويعاضده على انتصـاره في معركة الأهواء، وأنّى للإنسان أن ينال ذلك المدد وتلك النّصرة إلّا عن طريق السّماء ورسـالاتها وسـفرائها الحكماء الأمناء المعصـومين من الشّطط والإنحراف، وهو المدد الّذي لا يجدي ولا يغني عنه مدد سواه؟!

* * *

والبشريّة بعد هذا كلّه لا محيص لها عن دسـتور كافل شـامل ينظِّم حياتها ويحمي حقوقها، ويحرس مصالحها، فإن تجرّدت منه عاشت حياة الغاب والوحوش، فلولا أنْ كانَ للأسرة نظام يُنظِّم شؤونها ويُقرِّر حقوقها وواجباتها لتسيّبت وانهارت.

ولولا أن يكون للمدرسة دستور ينظِّم أعمالها، ويخطِّط مناهجها الدراسـية، ويحدِّد واجبات المعلِّمين والطلّاب فيها، لتبعثرت وعجزت عن أداء رسالتها العلمية.

ولولا أن يكون للمصنع نظام يُقرِّر واجب العمّال، وتوزيع الأعمال عليهم حسب اختصاصهم وكفاءتهم، ويضمن حقوق العامل وصاحب العمل، لتعطّلت المصانع وتوقّفت عن الإنتاج.

ولولا أن يكون للمزرعة قانون ينظِّم شؤونها الزراعية، ويحدِّد مواعيد الزّرع والسّقي والحصاد لأجدبت المزارع، وشاع القحط فيها.

ولولا أن يكون للأمّة دستور ينظِّم حياتها ويحمي حقوقها ومصالحها ويصون أرواحها وأعراضها وأموالها، لسادها الظّلم والإضطهاد.

من أجل ذلك، كانت البشرية بأمسّ الحاجة إلى دستور كافل عادل، وإلى قادة حكماء ربّانيّين، ينيرون لها مناهج الحقّ والعدل، ويحقّقون لها أماني السعادة والسلام.

وهذا ما تكفّل به الأنبياء عليهم السلام وحقّقته الشرائع السماوية.

بين النّبوّة والعقل

قد يزعم بعض المتشـدِّقين المنحرفين: أنّ العقـل قادر على هداية الإنسـان، وتلقينه مفاهيم الخير والصّلاح، فهو مغنٍ عن الأنبياء وشرائعهم !!

وهذا زعم مخرّف رغم جلالة العقل، وآثاره البليغـة في دنيا الإنسـان، فليس في مقدور العقل أن يمدّ الإنسان بالتوجيه والإرشاد في مختلف حقول الحياة ومجالاتها المادِّية والرّوحية، الدينية والدنيوية، إذ هو كما عرفناه عاجز عن استكشاف أسرار الغيب، وألغاز الحياة (الميتافيزيقية)، كما هو عرضة لألوان الخداع والتضليل، وصنوف الزّيغ والإنحراف.

فكم رجال عقلاء اشتهروا بالحكمة والحنكة، ورجاحة العقل والمنطق، خالفوا العقل، وتمرّدوا على سلطانه، وانحرفوا عن هداه، وطفقوا يمارسون أبشع صور الجرائم والآثام من سـفك الدماء، واسـتلاب الأموال، وهدر الحقوق والكرامات، إشـباعاً لغرائزهم العارمة وأهوائهم المسعورة.

والعقـول تتـفاوت وتتناقض في تقـيم الحـقائق والحكم على الأشـياء، فقد يستحسن بعضها ما يستقبحه الآخر،أو يستقبح ما يستحسنه غيره، حسبك في ذلك ما شاعَ في هذا العصر من صنوف النّظم والمبادئ: كالديمقراطية والدكتاتورية والرأسمالية والشـيوعية، فإنّها تمثِّل تناقض العقـول واختلاف مقاييسها في الحُسْن والقُبْح والخير والشرّ.

وطالما ضلّت العقول وانخدعت بالتقاليد الخرافية والأعراف المقيتة:

ففي الهنـد مثلاً، قبائل تعمد على حَرقِ موتاها بالنّار وذرّهم بالهواء، معتبرة ذلك من مظاهر توقير الميِّت وتكريمه.

وفيها قبائل تستحسن دفن المرأة الحيّة مع جثمان زوجها في قبر واحد.

وهناك قوم آخرون ارتكست عقولهم إلى الدّرَك الأسفل من الغباء والإختلال، فغدوا يقدِّسون الأبقار ويعبدونها ويتبرّكون بأبوالها.

والعقل بعد هذا وذاك محدود القدرة والمكنة، فهو عاجز عن استقراء تجارب البشر وأحداث الحياة وأطوارها عبرَ العصور الحاضرة والغابرة والآتية، ليخطِّط على ضوئها دستوراً كاملاً شاملاً يسعد البشرية، ويحقِّق لها السكينة والرّخاء.

وليس في وسع العقل ومقدوره أن يستطلع حقائق الآخرة وما يحدث فيها من مفاهيم الحساب والثّواب والعقاب، وصور السّعادة والشّقاء، لوهنه وعجزه عن ذلك.

والعقل أشـبه ما يكون بالبصر في طاقته وأبعاد مرآه، فكما يسـتطيع البصر إدراك المرئيات المحدودة بأمد معيّن، ويرتدّ عاجزاً كليلاً عمّا تجاوزه ونأى عنه. كذلك العقل يسـتطيع استجلاء الحـقائق الداخلة في إطار قدرته وآماد وسعه، ويقصر عمّا وراء ذلك.

وكما يُستكشف المرأى الشاسع البعيد بالنـواظير المقرِّبة ويرى واضحاً جليّاً، كذلك العقل يستجلي ويستكشف ما قصر عن وعيـه وإدراكه بالإستهداء بالأنبـياء عليهم‌السلام والإستعانة بهم على ذلك، وهذا برهان صارخ على افتـقار العقول إلى هدي الأنبياء عليهم‌السلام وعجزها عن الإستقلال بهداية البشر.

بين النّبوّة والعلم

وتشدّقت فئة أخرى بأنّ العلم قادر على توجيه الإنسان وتنظيم حياته وتأهيله بمؤهّلات السعادة والسلام، فهو مغنٍ عن الأنبياء وشرائعهم!

للعلم قيمته وأهميته في حياة الناس، فهو رائد الحضارة، وباعث نهضة الأمم، ورمز أمجادها، بيدَ أنّ المفتونين بالعلم يغالون في تقييمه، ويسرفون في تقديره جاهلين أو متجاهلين نقاط الضّعف فيه وعجزه عمّا وسموه به من تلك الكفاءات والإمكانات، وقاسوا عهود الجهل والظّلام الّتي عاشتها البشرية قروناً وأحقاباً بعهد الحضارة الراهنة وازدهار العلوم فيها.

أرأيتَ كيف يكون حال الأمم ومصيرها في عصور الظّلام وسيطرة الجهل والتخلّف عليها؟! ألا تحيا آنذاك حياة الغاب والوحوش، لو لم تتداركها العناية الإلهٰية بتوجيه الرّسل وشرائع السماء.

هذا إلى أنّ العلم رغم ازدهاره واتِّساع آفاقه، وجلالة معطياته في هذا العصر، لم يبلغ طور النّضج والكمال ليستطيع وضع قانون شامل كافل للإنسان، فهو عاجز عن ٱستطلاع أسرار الغيب وحقائق الحياة الأخروية، وعاجز عن استكشاف القسط الأوفر من ألغاز الكون وأسراره المعمّاة، وهو أشدّ عجزاً عن دفع الموت والفناء وكسب الحياة المديدة.

وأغلب الآراء العلمية ظنِّية تقريبية لم تبلغ حدّ اليقين، ما يوجب تعديلها أو شجبها وإسقاطها، فما كان ثابتاً بالأمس أصبح اليوم مشكوكاً به أو واضح الخطأ

والإشتباه، وفي التاريخ العلمي شواهد جمّة على ذلك، يطول عرضها وشرحها في هذا البحث.

من أجل ذلك، فقد اعترف أقطاب العلم وقادة الفكر بعجزهم عن ٱستجلاء الكثير من أسرار الكون وألغاز الحياة.

قال الأستاذ (وليم جيمس)، الأستاذ بجامعة هارفارد، في كتابه (إرادة الإعتقاد):

«إنّ علمنا ليس إلّا نقطة، ولكنّ جهلنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الّذي يمكن أن يُقال بشيءٍ من التأكيد هو: أنّ عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم نُدرِك خواصّه المكوِّنة له»(١).

وقال العلّامة الألماني (ماكس نوردو) في كتابه (الأكاذيب المتّفق عليها في مدنيّتِنا الحاضرة):

«الإنسانية دائبة وراء البحث عن العلم والسعادة، ولكنّها لم تكن في عهد من عهودها أبعد عن الإرتياح إِلَيْهِما والغبطة بِهما ممّا هي عليه في العصر الحاضر، نعم إنّ العلم والمدنيّة ينتشران في مكان، وكلّ يوم يظهر اكتشاف عجيب يجعل الأرض أكثر ملائمة للسكنى، وشدائد الحياة أخفّ وطأة على النّفس، ولكنّا نرى الإنسانية رغماً عن توافر شروط السعادة والهناء، تزداد كدراً وٱضطراب بال»(٢).

وقال الدكتور (إلكسيس كاريل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، ص ٤٤:

«إنّ الجماعات والأمم الّتي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نموّ وتقدّم، هي

(١) على أطلال المذهب المادِّي، لفريد وجدي، ج ١، ص ١٣٠.

(٢) لماذا أؤمن بالقرآن ومحمّد صَلَّىٰ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لهلال علي هلال، ص ٣٩٣.

على وجه الدقّة الجماعات والأمم الآخذة في الضّعف، والّتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنّها لا تُدرِك ذلك، إذ ليس هناك ما يحميها من الظّروف العدائية الّتي شيّدها العلم حولها».

وجاء في خطابٍ ألقاه (تشرشل) رئيس وزراء بريطانيا في أبريل سنة ١٩٤٦ إبّان الحرب العالمية الثانية:

«لا يبعد أن يُكرِّر التاريخ نفسه، وأن تعود العصور المظلمة مرّة أخرى على أجنحة العلم الحديث، وقد يركب العلم رأسه فيُحطِّم ما ٱبتكره من معجزات، ويُحطِّم العالم معه، كونوا على حذرٍ فإنّ ذلك قد يكون قريباً جدّاً»[١].

وقال الدكتور (بول كليرانس أبرسولد) أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير قسم النظائر والطاقة الذرِّية في معامل (أوك ديدج):

«لقد كنتُ عند بدء دراستي للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنساني، وبقوّة الأساليب العلمية، إلى درجة جعلتني أثق كلّ الثِّقة بقدرة العلوم على حلِّ أيّ مشكلة في هذا الكون، وأُدرك معنى كلّ شيء.

وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء، من الذرّة إلى الأجرام السماوية، ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان، تبيّن لي أنّ هناك كثيراً من الأشياء لم تستطع العلوم حتّى اليوم أن تجد لها تفسيراً وتكشف عن أسرارها النّقاب»[٢].

هذا إلى أنّ آراء العلماء والحكماء وإن ٱتّسمت بسمات العلم والمنطق، بَيْدَ أنّها لا تملأ النّفس ولا تسيطر على المشاعر سيطرة الشرائع الإلهية ودساتيرها المقدّسة

---

(١) مجلّة الهلال.

(٢) الله يتجلّى في عصر العلم، وحيدالدّين خان، ص ٣٨.

ولا يثق الناس بتلك الآراء ويخضعون لها خضوعهم للأديان السماوية. وهذا ما يُحبِّب سلطان النّبوّة ويؤثره على سلطان العلم. وأصدق شاهد على ذلك، الحكاية التالية:

«كان للرئيس ابن سينا خادم متعلِّم مُعجَب بعلومه وفلسفته، وكان يعجب منه كيف يدين بملّة محمّد ﷺ ويتبعه وهو في زعمه أعلم منه، فكان يكاشفه فيعرض عنه ويوبِّخه، فاتّفق أن كانا في مدينة اصفهان في ليلةٍ شديدة البرد كثيرة الثّلج، فأيقظ الرئيس خادمه في وقت السّحر، وطلب منه ماءً ليتوضّأ به، فاعتذر بشدّة البرد وبقاء اللّيل، ثمّ أيقظه في وقت أذان الصّبح، وطلب منه الماء، فاعتذر بشدّة البرد، حتّى إذا قال المؤذِّن أشهد أنّ محمّداً رسول الله، قال الرئيس لخادمه إسمع ماذا يقول المؤذِّن. قال إنّه يقول: أشهد أنّ محمّداً رسول الله. قال الرئيس: الآن قد آنَ لي أن أبيِّن لك ضلالك القديم، إنّك خادمي ولا عملَ لكَ غير خدمتي، وإنّك أشدّ النّاس إعجاباً بي وإجلالاً وتعظيماً لي، حتّى إنّك تُفضِّلني على رسول الله، وإنّك على هذا كلِّه تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك في داخل الدّار معتذراً بشدّة البرد، إنّ هذا المؤذِّن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر ويصعد هذه المنارة وهي أشدّ مكان في البلد برداً، حتّى إذا لاحَ الفجر أشاد في أذانه بذكر محمّد العربيّ بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته، إيماناً وإذعاناً وتعبّداً.

فتأمّل هذا في نفسك، يظهر لكَ الفرق بين سلطان النّبوّة على النّاس وسلطان العلم والفلسفة»[(١)].

وبالرغم من فتوحات العلم واكتشافاته المدهشة الّتي يسّرت وسائل العيش وذلّلت مصاعب الحـياة، ومكّنت الإنسان من أن يحلِّق في أعالي الجوّ، ويغوص في أعماق البحر، ويرتاد الأقطار النائية بسرعة هائلة، ويسمو بتطلّعاته إلى استكشاف

(١) عن كتاب الوحي المحمّدي، لمنشئ المنار بتصرّف بسيط، ص ٤٧.

القمر والكواكب ممّا لم تحلم به البشرية، ولم تُحقّقه الحضارات من قبل. بالرّغم من كلِّ ذلك فإنّ المتحضِّرين بدأوا يرتدّون إلى عهود الجاهلية الأولى، ويعانون النّكسات الفظيعة في الدِّين والأخلاق والتقاليد على نقيض ٱرتقائهم العلمي، فتراهم سادرين في مستنقع الشّهوات والآثام، حتّى آثروا الإباحية والشّذوذ الجنسيّ، وعيش العري في أرقى ممالك الحضارة والعلم.

وطفقت الدول الحضارية الكُبرى تُجنِّد طاقاتها ومواهبها العلمية لابتكار الأسلحة المبيدة للنّوع البشريّ، والتسابق على استعباد الأمم الضعيفة وابتزاز خيراتها.

وهذا ما يؤكِّد قصور العلم وعجزه عن تهذيب الإنسان وتنظيم حياته وتحقيق إسعاده، وٱضطراره إلى وحي السماء وتوجيه الأنبياء عليهم السلام.

بين القانون الإلهي والقانون الوَضْعي

وزعم قوم آخرون: أنّ القانون الوَضْعي يسدّ مسدّ القانون الإلهي ويغني عنه! ويستطيع الباحث أن يعرف خطأ هذا الرأي وفساده بالمقارنة والتحكيم بين خصائص هٰذين القانونين ليُدرك المفارقات الجسيمة بينهما، ويعرف جلالة القانون الإلهي وتفوّقه على الوضعي:

(١) فالقانون الإلهي صادر عن الله عزّ وجلّ، خالق الإنسان والعليم الخبير بواقعه وأسراره النفسية والجسمية، ومنافعه ومضارّه، وبواعث سعادته أو شقائه في مختلف نواحيه المادِّية والروحية والدنيوية والأخروية.

وهذا ما يعجز عنه البشر بأسرهم لجهلهم بتلك الأسرار والخفايا الّتي تكتنف حياة الإنسان.

(٢) والقانون الوَضْعي يصطبغ ويتأثّر تأثّراً بالغاً بمزاج واضعه، وظروفه الخاصّة، ونوازعه الشخصية أو الطبقية أو الحزبية وإيثارها على المصالح الأخرى، وحسبكَ أن تستعرض النّظم الوَضْعية السائدة اليوم لتلمس ما تتّصف به من ألوان الإثرة والصراع والتناقض:

فالنظام الشيوعي يناقض النظام الرأسمالي، ويحاربه ويحاول مسخه وإسقاطه، وموقف الثاني من الأوّل كذلك، والنظام الديمقراطي يُخالف ويناهض النظام الدكتاتوري، ونظرة الثاني من الأوّل كذلك، والغالب المسيطر من واضعي تلك النظم

هو الّذي يصوغها وفقَ أهوائه ومصالحه على حساب الآخرين، لذلك ٱنقسم العالم إلى كتل وأحزاب متناحرة تناحراً بشعاً يُنذِر البشرية بالدّمار والفناء.

أمّا القوانين الإلٰهية فإنّها صنع الله عزّ وجلّ، الّذي لا يُحابي ولا يُمالئ طبقة على طبقة، ولا فئة على أخرى، وإنّما هو خالق العباد وإلٰههم جميعاً، وكلّهم سواسية لديه لا يتمايزون إلّا بالعمل الصالح.

(٣) والقانون الإلٰهي هو القانون الوحيد الّذي يتجاوب ويتناغم وما أودع الله تعالى في هذا الكون من ضروب النّظم والدّساتير الكفيلة باتّساقه وانتظامه الثابتين.

والإنسان بوصفه جزءاً من أجزاء هذا الكون، وعنصراً أصيلاً من عناصره الكريمة بل هو أكرمها جوهراً، وأجلّها خطراً وشأناً، فإنّه لا مناصَ له من مواكبة نظام الكون نظام الله تعالى الشامل النافذ، والسّير في فلكه التشريعي، ليستشعر بذلك الطمأنينة والرّخاء، ويعيش وإيّاها في تجاوب وتناسق وٱنسجام.

وإن شذّ الإنسان عن نظام الكون وتمرّد عليه، وٱنفرد بنظام وضعيّ قاصر غدا نشازاً في النظام الكوني وٱصطدم بنواميسه العتيدة، وعاش حائراً قلقاً شقيّاً رغم فتوحاته العلمية، ووفرة التيسيرات الحضارية، وعوامل التسلية والترفيه، لقد أحرز الإنسان ٱنتصارات علمية باهرة في عالم الأرض وعالم الفضاء، ولكنّه وا أسفاه لشذوذه عن دستور الله، لم يستطع أن يحرز سكينة النّفس، وسلام الضّمير، ورغد الحياة.

(٤) والإنسان مهما ٱتّسعت آفاقه العقلية والعلمية، فإنّه لا يخرج عن إطاره الإنساني المحدود، ولا يخترق نطاقه الفكري المقدّر له، فهو قاصر عن سنّ قانون هادف كامل ينظّم جوانب حياته الروحية والمادّية، ويحقّق له سعادة الدِّين والدّنيا.

من أجل ذلك، ٱضطرّ مشرِّعو القوانين الوضعية إلى تشذيبها وتطويرها أو

إلغائها بين آونة وأخرى، تلافياً لنقصها وقصورها، وهذا ما يؤكّد احتياج الإنسان وٱضطراره إلى قانون سماوي منزّه من تلك المساوئ والنقائص.

(٥) إنّ من أبرز خصائص الدساتير الإلهٰية أنّ لها سلطاناً نافذاً على المؤمنين، وهيمنة على قلوبهم ومشاعرهم، فتراهم يقدّسونها تقديساً بالغاً، ويطيعونها إطاعة عمياء، وإن كانوا في معزلٍ عن الناس، لعلمهم بأنّها من وحي الله وتشريعه، وأنّ طاعتها مدعاة إلى رضوانه ونعمائه، وعصيانها باعث على سخطه وعقابه.

وهذه الخاصيّة لا تملكها النّظم الوضعيّة، إذ هي لا تسيطر على الضّمائر والمشاعر إلّا في ظلال سلطتها التنفيذية، وازاء ضغطها الملحّ الرّهيب.

ومن مقرّرات الشريعة الإسلامية وأصولها الثابتة، أنّ الله عزّ وجلّ هو وحده الجدير بسنِّ الشّرائع والأحكام، وليس لأحدٍ ذلك سواه، وهو من خصائص الألوهية، ومستلزمات عبودية البشر له، وكيف يؤمنون به ويعبدونه؟! وهم متمرِّدون على أحكامه، ويؤثرون تشريع عبادة القاصرين على تشريعه المثاليّ الكامل. إنّ هذا لهو الضّلال المبين، لذلك اعتبر الإسلام الزّاهد في شرعه، والحاكم بغير ما أَنْزَلَ الله فيه: كافراً وظالماً وفاسقاً، تبعاً لطوية الحاكم، وأبعاد إيمانه:

﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُم بما أنزَلَ ٱللّهُ فأولٰئِكَ همُ الكافِرُون﴾. (المائدة / ٤٤)

﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُم بما أنزَلَ ٱللّهُ فأولٰئِكَ همُ الظّالمون﴾. (المائدة / ٤٥)

﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُم بما أنزَلَ ٱللّهُ فأولٰئِكَ همُ الفاسِقُون﴾. (المائدة / ٤٧)

* * *

تشدّق زائف:

ورُبّ متشدِّق يعترض بأنّه إذا كانت شرائع الأنبياء ودساتيرهم من ضرورات البشر وحاجاتهم الملّحة، لتوقّف صلاحهم وسعادتهم عليها، فلماذا لم تستطع هذه

الشرائع تهذيب الإنسان وتقويمه بمُثُلها وآدابها؟! وعَلامَ نجد أغلب أفراده متّسمين بطابع النّقص والتقصير، ومنغمسين في حمأة الجرائم والآثام!

وإذا كان العقل والعلم والقوانين الوضعيّة لا تسدّ مسدّ الأنبياء وشرائع السماء، فكيف استطاعت أمم عديدة ودول كُبرى أن تشيِّد كيانها وحضارتها على مبادئ الإلحاد والكفر بجميع الشرائع والأديان؟!

أمّا الاعتراض الأوّل، فإنّه واضح البطلان والسقوط:

وليس في مقدور العاقل المنصِف أن يجحد فضل الشرائع على البشر، وينكر آثارها الطيِّبة في شعورهم وسلوكهم، فقد أدّت رسالتها الإصلاحية على أكمل وجه، وأوضحت مفاهيمها القيِّمة الموجِّهة، وأنارت للنّاس الفضائل والمكرمات، ومهّدت لهم سبل السعادة والسلام، وليست هي كما يتصوّرها هؤلاء المخمورون جهداً ضائعاً، وعملاً عابثاً.

بَيْدَ أنّ الإنسان كثيراً ما ينحرف عن الحقّ، ويزيغ عن العدل، متأثِّراً بغرائزه الجامحة وأهوائه الخادعة المضلِّلة، فيتصامم آنذاك عن نداء العقل والشّرع ويستخفّ بقيمهما معاً، وما كان ينبغي للتشريع الإلهي أن يسوس الناس بالقسوة والتنكيل ويقسرهم على الإستقامة والصّلاح، فتلك سياسة البهائم الّتي لا تليق بشرف الإنسان وعزّته وكرامته، وتتلاشى في أعصارها الفضائل والمزايا الإنسانية، فلا يتميّز ولا يفضل آنذاك المطيع على العاصي، ولا المحسن على المسيء، ولا يستحقّ المطيع والمحسن أجراً ولا ثناءً لاقتسارهما على الطاعة والإحسان.

وما تلك الحدود والديّات المقرّرة في الشّرع الإسلامي إلّا تأديباً للمجرمين وحسماً لدوافع الإجرام العابثة بأمن النّاس وحرماتهم المقدّسة.

هذا إلى أنّ أغلب انحرافات البشر عن هدى الأنبياء وشرائعهم إنّما حدثت بعد

وفاة الأنبياء وتصرّم عهودهم الزاهرة، وتناسي آدابهم ومبادئهم، فلم يكن إرسال الأنبياء عبثاً، ولم تذهب جهودهم سدىً، ولولا أنوار هدايتهم لأطبقت دياجير الجهل والكفر والشقاء على البشرية، وعاشت حياة الغاب وشريعة الذئاب، وأصدق شاهد على ذلك حياة الأمم الّتي لم يبلغها صوت الأنبياء أو لم تهتد برسالاتهم، فقد ضلّت ضلالاً مبيناً واستبدلت بالشرائع الإلٰهية أعرافاً سخيفة وتقاليد جائرة خرقاء، وطفق بعضها يؤلّه الأصنام والأوثان ويعبدها من دون الله سبحانه، وبعضها الآخر يُقدّس البقر ويستميت في حمايته والذّود عنه، وآخرون يعبدون النّار ونحو ذلك من صور التسيّب والهوان الفكري والتقليدي. فالأنبياء عليهم السلام من البشر بمنزلة العقل أو العين من الإنسان. وكم تمرّد الإنسان على سلطان العقل، وخالف منطقه السّامي وتوجيهه الحكيم مقترفاً أبشع صور الذمائم العقلية، وكم خالف البصير هداية العين ودلالتها وارتكس في مهاوي الأخطار بدوافع الجهالة أو الطّيش، ورغم تلك المخالفات الشاذّة، فإنّها لا تنقص من قيم العقل والبصر وأقدارهما الرفيعة، كذلك الأنبياء عليهم السلام فإنّه لا ينقص من أقدارهم ولا يطفّف من جهودهم الإصلاحيةِ انحراف المنحرفين عنهم وتمرّدهم عليهم.

وهكذا يسقط الاعتراض الثاني بأنّ دولاً حضارية كُبرى قامت على دعائم الحاديّة كافرة، وهي رغم ذلك ذات حضارة زاهرة وسلطان واسع مهيب.

ليست الحضارة كما يتصوّرها هؤلاء الأغرار مقصورة على الزخارف المادِّية ومظاهرها الخلّابة، والسلطان المنيع فحسب، إنّما الحضارة الحقّة هي الّتي تغرس في الإنسان مفاهيم الإنسانية المهذّبة، ومُثُلها العُليا، وتحقِّق له أماني الطمأنينة والإستقرار وتجنِّبه المخاوف والآلام، وقد أخفقت الحضارات بأسرها واختلاف مبادئها في إنجاز ذلك، وأصبحت نقمة على البشر، ولعنة في تاريخه، فإنّها رغم انتصاراتها في مجالات الحياة المادِّية، واكتشافاتها العلمية المدهشة، لم تستطع أن تُهذِّب البشرية، وتحقِّق لها

سكينة النفس وسلام الضّمير ورغد الحـياة، وأصبحت نقيـض ذلك مثـاراً للحيرة والقلق والخوف، ومصدراً للجرائم والفساد.

فقد أثارت ـ في أقلّ من ربع قرن ـ حربين عالمـيّتين راح ضحاياها عشرات الملايين من البشر قتلى وجرحى ومشـوّهين ومعتـوهين، وهي اليـوم تُنذِر بإعصار نووي كاسـح ماحق يُهدِّد البشرية بالفـناء، ما صيّرها تعيش حالة مليئـة بالفـزع والرّعب.

وجثـت بعـد هذا على الأديان والأخـلاق، فأشـاعت الإلحـاد، ونـشرت الإباحية، ودعت إلى تقديس المادّة وعبادتها، والتفاني في سبيلها واستنكار ما عداها من القيم الروحية والمثل الأخلاقية، ما دفع الأمم دولاً وشعوباً على التكالب والتناحر في سبيل الأطماع المادِّية وجشعها المقيت، وغدا الناس من جراء ذلك يعانون الأزمات الخانقة والمشاكل المتلاحقة الّتي تنوء بها عقولهم وأعصابهم، فيخرّون تحت ضغوطها المرهقة صرعى بالجنون أو السكتة القلبية أو الإنتحار.

وممّا يبعث على الدهشة والإستغراب، أنّه كلّما توفّرت التيسيرات الحـضارية وكثر الرّخاء المادِّي، ازداد البشر قلقاً وشقاءً، وولوعاً بالجرائم والمفاسد، وتلك نتيجة حتميّة لانحرافهم عن دسـتور السماء وتوجيهـات الأنبياء عليهم السلام، كما صرّحت بذلك شهادات أعلام الحضارة المادِّية المارّة في الأبحاث السالفة.

ناهيكَ بشهادة الأستاذ الشهير (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية نيويورك سابقاً، حيث قال:

«إنّ الإحتشام، والإحترام، والسّخاء، وعظمة الأخـلاق، والقـيم والمشـاعر السّامية، وكلّ ما يمكن اعتـباره نفحات إلهيـة، لا يمكن الحصـول عليها من طـريق الإلحـاد.

لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدِّين.

سوف يتحوّل النظام إلى فوضى.

سوف ينعدم التوازن، وضبط النّفس، والتمسّك.

سوف يتفشّى الشرّ في كلِّ مكان.

إنّها لحاجة ملحّة أن نقوِّي من صلتنا وعلاقتنا بالله»[١].

---

(١) الإسلام يتحدّى، للأستاذ وحيدالدّين خان، ص ١٨٨.

صفات الأنبياء عليهم السلام

الأنبياء عليهم السلام هم صفوة الخلق، ونخبة العباد، ٱصطفاهم الله عزّ وجلّ وٱبتعثهم سفراء إلى البشر، وقادة لهم، وحججاً عليهم، لذلك وجب أن يكونوا المُثُلَ العُليا في جميع نواحي الكمال، والّنمط الأرفع من الإنسانية، والقدوة المُثلى لهم، وأن يتحلّوا بأرفع وأكمل الخصائص الجسمية والنفسية.

فيجب أن يكونوا سالمين مبرّئين من العيوب والنقائص البدنية الموجبة لنفرة الناس منهم وتباعدهم عنهم، كما يجب أن يتّصفوا بالفضائل النفسية والخلقية والتجرّد من رذائلها: فيلزم أن يتّسموا بالحكمة، وحُسْن الخلق، والكرم، والشجاعة، والصّبر، وأن يتنزّهوا عن الغلظة والحسد والجبن والبخل، وخسّة الآباء، وعهر الأمّهات ونحوها من المذام.

ومن هنا وجبت عصمة الأنبياء ونزاهتهم عن جميع الذنوب والآثام كبيرها وصغيرها، لتكون خِلالهم مثاراً لإعجاب الناس، ومدعاة إلى الثِّقة بهم، والركون إليهم، والخضوع لهم.

وصفوة القول:

إنّ الأنبياء لهم صفتان: جسمية وروحية.

فهم في الصفة الأولى كسائر البشر لا يفرقون عنهم، ولا يتميّزون عليهم كما وصفهم الشيخ المفيد، فقال:

«إنّ رسل الله من البشر وأنبياءَهُ والأئمة من خلفائه محدثون مصنوعون تلحقهم الآلام، وتحدث لهم اللّذّات، وتنمو أجسامهم بالأغذية، وتنقص على مرور الزّمان، ويحلّ بهم الموت، ويجوز عليهم الفـناء، وعلى هذا القول إجماع أهل التوحيد، وقد خالفنا فيه المنتمون إلى التفويض وطبقات الغلاة»[١].

والصفة الثانية: هي الصفة الروحية الّتي تميّز بها الأنبياء وفاقوا بها جميع الناس وبلغوا قمّة الكمال النفسي والخلقي، فكانوا أفذاذاً في طاعة الله تعالى، ومجانبة عصيانه والتولّه بعبادته والتفاني في سـبيله، كما كانوا في المستوى الأرفع من رجاحة العقل وسموّ الوعي، ونفاذ البصيرة، وقوّة الإدراك ما أهّلهم لاستلهام أسرار الوحي، واكتناه حقائق الكون والحياة، واستشفاف طوايا النفوس والقدرة على سياستها سياسة إلٰهية حكيمة عادلة تضمن لهم سعادة الدِّين والدّنيا.

(١) أوائل المقالات، للشّيخ المفيد، ص ٨٤.

عصمة الأنبياء عليهم السلام

العصمة:

وهي حصانة روحية، ومناعة نفسية تعصم ذويها من جميع الذنوب والآثام رغم قدرتهم عليها.

وحيث كان الأنبياء عليهم السلام ـ كما أسلفنا ـ سفراء الله عزّ وجلّ وقادة الفكر وروّاد البشرية، وجب اتصافهم بالعصمة والنّزاهة من جميع الرذائل والنقائص، ليكونوا مُثُلاً عُليا للكمال الإنساني، وأنماطاً فريدة في الفضائل والأمجاد، ومن ثمّ ليحرزوا ثقة النّاس وإكبارهم والقدرة على هدايتهم وتوجيههم.

فالعصمة ضرورة حتمية من ضرورات الأنبياء، يرتكز عليها نجاح دعوتهم وانتشار رسالاتهم، لذلك أوجبها العقل والشّرع، وقرّرتها البراهين التالية:

(١) إنّه يستحيل على الله عزّ وجلّ أن يوفد رسولاً إلى الناس هادياً وموجِّهاً إلى الخير والصّلاح، وهو مدنّس بالآثام ومنحرف عن طاعته!! فذلك ما يأباه العقل والوجدان ويستنكرانه أشدّ الاستنكار.

(٢) إذا لم يتحلّ النّبيّ بالعصمة، وجازت عليه المعصية، تلاشت قيمه الروحية وضعفت ثقة الناس به، وترفّعوا عن تصديقه وطاعته، فيكون إرساله عبثاً، وهو محال على المولى عزّ وجلّ.

(٣) لو جازت المعاصي والآثام على النّبيّ، وجاز اقترافها له، فهل يجب والحالة هذه اتِّباعه في معاصيه أو لا يجب؟

فالفرض الأوّل باطل بداهةً ووجداناً، لاستلزامه تسويغ المعاصي وإباحتها بترخيص من الله سبحانه، حيث أوجب اتِّباع الأنبياء وفرض الاقتداء بهم.

والفرض الثاني باطل كذلك، لإيجابه مخالفة الأنبياء عليهم السلام وعصيانهم والحرمان من هديهم وتوجيههم، وانتفاء غايات بعثتهم، وأهداف رسالاتهم.

(٤) النّبيّ هو قائد الأمّة ومثلها الأعلى وقدوتها المثالية، ولو جازت عليه المعاصي لأصبح قدوة سيِّئة، ورائد سوء لأمّته يسوِّل لها الخطايا والآثام ويُجَرِّئُها على مخالفة الله وعصيانه، ويغدو مُضلّاً في الوقت الّذي ابتعثه الله هادياً ومبشِّراً ونذيراً. وهو محال عليه.

(٥) إذا لم يتحلّ النّبيّ بالعصمة، ولم يكن تاريخه مشرقاً فوّاحاً بالطِّيبة والمثالية وجمال السِّيرة، أنكره الناس وجابهوه بالنّقد والإزدراء، واستخفّوا بتوجيهه، فتضيع رسالته ويبوء بالخيبة والإخفاق.

﴿أتأمُرونَ ٱلنّاسَ بالبِرِّ وتَنْسُونَ أنفُسَكُم﴾، ﴿لِمَ تَقُولونَ ما لا تَفْعَلُون كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللهِ أن تقُولوا ما لا تَفْعَلُون﴾.

من أجل ذلك، فقد أجمع الإمامية على عصمة الأنبياء، وتنزيههم عن كافّة الآثام والمساوئ كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها، قبل إعلان النّبوّة وبعدها، تفادياً من المحاذير السالفة.

أمّا الآيات والأخبار الموهمة بصدور العصيان منهم، ونفي العصمة عنهم، فإنّها مُؤَوَّلَةٌ ومحمولة على ترك الأولى، والأجدر بهم فإنّهم لمّا كانوا في قمّة الإيمان واليقين،

وفي الأفق الأعلى من البصيرة والعلم، تجدهم والهين بطاعة الله تعالى، مولعين بعبادته وتمجيده، متطلّعين بعقولهم وقلوبهم إلى رضوانه وزُلفاه، فإذا ما انشغلوا بالأعمال المباحة كالأكل والشّرب والنّوم، ونحو ذلك ممّا يصرفهم عن أشواقهم وتطلّعاتهم الروحية، ويعيقهم عن التلذّذ بعبادة الله ومناجاته، حسبوا ذلك سيّئة وذنباً يستوجبان النّدم والإستغفار، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين**».

نعم أجاز الشّيخ الصّدوق وأستاذه محمّد بن الحسن بن الوليد (السّهو) على النّبيّ بحجّة أنّ سهوه مخالف لسهو النّاس:

فسهو النّبيّ عندهما منبعث عن إرادة الله عزّ وجلّ، فإنّه يُسهيه إظهاراً لضعفه البشريّ، كي لا يؤَلِّهَهُ النّاس ويعبدوه من دون الله.

وسهو النّاس من الشّيطان، وليس له سلطان على الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

وهذا الرأي مخالف لإجماع الإمامية ودلائل النّقل والعقل، فهو:

(١) ينافي الآيات القرآنية الدالّة على نزاهة النّبيّ من السّهو والنِّسيان:

﴿**سَنُقْرِئكَ فلا تَنْسى**﴾، ﴿**وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوى إن هُوَ إلّا وَحْيٌ يُوحى**﴾، ﴿**وما آتاكُم الرّسولُ فخِذُوهُ، وما نَهاكُم عَنهُ فانْتَهُوا**﴾.

(٢) ويخالف الأخبار الصِّحاح المعتبرة عند جمهرة الإمامية والناطقة بنفي السّهو عنهم.

(٣) يناقض حكم العقل بنزاهتهم عن ذلك، إذ لو جاز السّهو على النّبيّ لالتبس على النّاس أمره، ولم يُميّزوا بين الصّادر منه عمداً أو سهواً، ممّا يوجب ضعف الثِّقة به وعبث إرساله، وهو محال كما عرفت.

والقول بعصمة الأنبياء عليهم السلام هو من عقائد الإمامية ومبادئهم الأصيلة،

وخالفهم في ذلك غيرهم، مجوّزين عليهم ضروب الأخطاء والنقائص، الّتي لا تليق بكرامتهم، وجلالة أشخاصهم وأهداف رسالاتهم.

«فجوّز أصحاب الحديث والحشوية[1] على الأنبياء الكبائر قبل النّبوّة. ومنهم مَنْ جوّزها في حال النّبوّة سوى الكذب فيما يتعلّق بأداء الشريعة، ومنهم مَنْ جوّزها كذلك في حال النّبوّة بشرط الإستسرار دون الإعلان، ومنهم مَنْ جوّزها على الأحوال كلّها.

ومنعت المعتزلة من وقوع الكبائر والصغائر المستخفّة من الأنبياء عليهم السلام قبل النّبوّة وفي حالها، وجوّزت في الحالين وقوع ما لا يستخفّ من الصغائر.

ثمّ اختلفوا، فمنهم مَنْ جوّز على النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الإقدام على المعصية الصغيرة على سبيل العمد، ومنهم مَنْ منع من ذلك، وقال: إنّهم لا يقدمون على الذنوب الّتي يعلمونها ذنوباً، بل على سبيل التأويل»[2].

وما هذه الأراجيف النكراء حول عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم إلّا تحدٍّ صارخٌ وتَجَنٍّ مُخَرِّفٌ على حصانتهم الروحية وقدسيّتهم المترفّعة عن الآثام، اختلقها المرجفون جهلاً منهم بواقع الأنبياء وضرورة عصمتهم ونزاهتهم بداهةً ووجداناً كما فرضته براهين العصمة السالفة، وتوهّماً بظواهر الآيات الكريمة الموهمة بتجويز الخطايا عليهم.

ولو أنّهم تفهّموا مغزاها الأصيل، وتحرّوا تفسيرها الحقّ، لما تجرّأوا عليهم

---

(١) الحشوية: هم الّذين يرون وجوب الجمود على التقليد واتّباع الظّواهر، وهي فرقة ضالّة مبتدعة.

(٢) تنزيه الأنبياء، للسيّد المرتضى رحمه الله، ص ٣.

بتلك التجنِّيات والإفتراءات وهم منها براء، كما ٱفترى القائلون بالتجسيم على الله عزّ وجلّ بإضفاء سمات البشرية عليه ونسبة الأعضاء كالوجه واليدين ونحوهما من المفاهيم المجازية الواردة في القرآن الكريم رغم استحالة ذلك وامتناعه عليه.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾.

لذلك ٱنبرى بعض أعلامنا إلى الدفاع عن عصمة الأنبياء عليهم السلام وتنزيههم ممّا ٱتُّهموا به من ضروب الأقاويل والإختلاقات، واستعراض ذلك يتطلّب بحثاً مسهباً لا تسعه هذه الرسالة.

بيدَ أنِّي على سبيل المثال أعرض فيما يلي نموذجاً خاطفاً من شبهات الحاقدين والقاصرين حول عِصمة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، مشيراً إلى زيفها وضلالها.

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ٱلّذي أنْقَضَ ظَهْرَك﴾. (الإنشراح / ٢)

استنتج المناقشون في عصمة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من ظاهر الآية الكريمة جواز المعصية عليه ووقوعها منه، جهلاً منهم بواقع الوِزر ومفادِه الصحيح المقصود.

ومن الثابت في اللّغة أنّ (الوِزرَ) هو الثِّقلُ المُرهِقُ، ومن هنا حسن تشبيه الذّنب بالوزر لما يستشعره المؤمن الحقّ باقترافه من فداحة الهمّ وثقل القلق والخوف من عقاب الله عزّ وجلّ.

وبهذا المقياس استعير (الوِزرُ) لِكُلِّ ما يُعَنِّتُ الإنسان ويرهقُه من ضروبِ الهمومِ والمخاوف.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ قبل البعثة ـ يعيش حياةً مريرة مليئة بالأسى والكرب من جاهلية قومه وتخبّطهم في ظلام الكفر ومتاهات الضّلال، وانهيار قيمهم

الدينية والأخلاقية والإجتماعية، ما حبّب إليه اعتزالها والتهرّب من محيطها إلى غار حراء، حيث الفضاء الرّحب، والسكينة الشاملة، ومسارح الفكر المتطلّع الوثّاب، واستعراض الآيات الكونية، واستلهام مفاهيمها الرائعة.

ولمّا ابتعثه الله عزّ وجلّ رحمةً للعالمين، وأنقذ النّاس به من الظّلمات إلى النّور، ومن شقاء الجاهلية إلى سعادة الإسلام، استشعر ﷺ آنذاك راحة الضّمير وبهجة النّفس، وتسرّت عنه تلك الهموم الفادحة الّتي كانت تساوره من ضلال قومه ونعراتها الجاهلية، فجاءت سورة الإنشراح مهنّئة ومباركة مركزه الرسالي الرفيع وجهاده الجبّار، ومسرية عنه همومه وأحزانه، ومضت تُعدِّد نِعَم الله تعالى عليه: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ بنور الوحي وشرف النّبوّة، ﴿**وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ**﴾ وثقلةَ همّك الباهض المرهق في سبيل أمّتك، ﴿**وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ يهتف به المسلمون في المآذن، ويُردِّده المصلّون في الفرائض كلّ يوم خمس مرّات.

وراحت السورة بعد هذا تُعزِّز معنويات النّبيّ ﷺ وتروِّضه على مواجهة الأزمات، والتمرّس على الخطوب: ﴿**فإنّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا**﴾ ﴿**إنّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا**﴾.

كلّ ذلك برهان صادق أنّ المُراد بـ(الوزر) في الآية ثقل الهمّ وفداحته لقرينة ذكر اليُسْر مرّتين بعد العُسْر، والوعد بالفرج بعد الشدّة، دون ما توهّمه القاصرون بالذّنب والعصيان.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تأخّر**﴾.
(الفتح / ٢)

وهكذا تصوّر المجادلون في العصمة مقارفة النّبيّ ﷺ للمعاصي والآثام توهّماً بظاهر الآية الكريمة، ولو أنّهم تعمّقوا في سياقها ومفادها الأصيل، لعلموا أنّ المعنيَّ بها بذنبه في الآية ذنبه ﷺ عند مشركي قريش وكفّار العرب الّذين يعتبرونه

أعظم النّاس ذنباً وأفظعهم جناية وجُرماً، فهو الّذي سفّه عقولهم، وحطّم أصنامهم، وقمع طغيانهم، ونسف ما كانوا يعتزّون به من ضروب الأعراف والتقاليد الجاهلية، مستبدلاً بها نظم الإسلام ومبادئه الخالدة.

هذا هو واقع الذّنب في الآية الكريمة، يجلوه سياقها ويُبرزه منطقها البلاغي، فلا يُعقل أن يكون الفتح المبين علّة لغفران ذنوبه صلّى الله عليه وآله وسلّم الّتي يستحقّ على افتراضها جدلاً لَوْمَ المولىٰ عزّ وجلّ وتوبيخه، حيث لا مساس ولا مناسبة بين الفتح والغفران، فلو لم يتحقّق الفتح آنذاك أكان من العدل أن يَحْرُمَ سيِّد الرّسل وخاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم من غفران الله تعالى وآلائه وألطافه رغم جهاده الجبّار، وتضحياته الجسيمة في سبيل الإسلام.

وهذا ما يؤكّد انصراف الذّنب وتبادره إزاءَ أعدائـه والحاقدين عليـه، الّذين بهرتْهم أخلاقه الكريمـة، واْستهواهم عفوه الشـامل وصفحه الكريم ورأفته البالغـة وحنانه الجمّ، ما طهّر قلوبهم من دوافع الحقد والغضب عليه، وحفّزهم على الإيمان برسالته والاستماتة في حمايتها ونشرها في الآفاق.

وقد أوضح ذلك الإمام الرِّضـا عليه السلام في جواب المأمون حين سأله عن الآية الكريمـة: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللّٰهُ ما تَقَدّمَ من ذَنْبِـكَ وما تأخّر**﴾ (الفتح/ ٢)، فقال عليه السلام: «لم يكن أحد عند مشركي أهل مكّة أعظم ذنباً من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستّين صنماً، فلمّا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص، كَبُرَ ذلك عليهم وعَظُم وقالوا: ﴿**أجَعَلَ الآلهـةَ إلهاً واحِـداً إنّ هٰذا لَشَيْءٌ عُجاب * وٱنْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُم أن امْشُوا وٱصْبِرُوا على آلِهَتـِكمُ إنّ هذا لَشَيءٍ يُرادُ * ما سَـمِعْنا بهذا في المِلّةِ الآخِرَةِ، إن هٰذا إلاّ ٱخْتِلاق**﴾ (ص/ ٥ ـ ٧).

فلمّا فتح الله عزّ وجلّ على نبيِّه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم مكّة، قال له: يا محمّد! إنّا فتحنا

لكَ فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبكَ وما تأخّر عند مشركي أهل مكّة بدعائك إلى توحيد الله عزّ وجلّ فيما تقدّم وما تأخّر، لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكّة، ومَنْ بقيَ منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا النّاس إليه، فصارَ ذنبه في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم. فقال المأمون: لله درّكَ يا أبا الحسن...»[1].

وربّما قيل إنّ نزول سورة الفتح كان قبل فتح مكّة وبعد صلح الحديبيّة، فكيف يحمل على الأوّل؟!

وجواب ذلك: إنّ من المفسِّرين مَنْ فسّر الفتح بفتح خيبر لوقوعه بعد الصّلح، وفسّره آخرون بفتح مكّة، معلِّلين نزول السورة قبله: بأنّها مبشِّرة للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على فتحها وانتصاره على أهلها على غرار الآية الكريمة:

﴿لَتدخلنّ المَسْجِدَ الحَرَامِ إن شاءَ اللهُ آمِنِينَ، مُحلِّقِينَ رُؤوسَكُمْ ومُقصِّرينَ لا تَخافُون، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ من دونِ ذلكَ فتحاً قَريباً﴾. (الفتح/ ٢٧)

والمُراد بالفتح القريب، هو فتح خيبر.

الآية الثالثة: قال تعالى: **﴿وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى﴾**. (الضّحى/ ٧)

فسّر الحاقدون على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم (الضّلال) في الآية الكريمة بضلال العقيدة والنّزوع إلى عبادة الأصنام جهلاً أو تجاهلاً بمدلول الضّلال، وجواز إطلاقه على معانٍ مختلفة تتمايز حسب المراد منها:

فهو يُطلق على التّيه والضّياع، فيُقال مثلاً: ضلّ الطّريق إذا تاهَ وضيّع الجادّة، وهذا هو أظهر المصاديق المدرجة في الآية الكريمة، حيث أورد الرّواة أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «ضلّ في صِباه في بعض شِعاب مكّة، فردّه أبو جهل إلى عبدالمطّلب».

---

(١) البحار، ج ٦، ص ٢٨٦، عن عيون أخبار الرِّضا.

وقيل: أضلّته حليمة عند باب مكّة حين فطمته، فجاءت به لتردّه إلى عبدالمطّلب.

وقيل: في طريق الشّام حين خرج به أبو طالب»[١].

ويُطلق الضّلال على الحيرة والتحيّر، فيُقال: ضلَّ عن الرُّشد إذ احتار في أمره ولم يُحسِن التصرّف فيه. ومن هذا الإطلاق وعلى ضوئه نتبيّن مغزىً وجيهاً آخر للآية، وذلك أنّ النّبيّ ﷺ كان قبل البعثة يستشعر الحيرة والقلق المُضنِيَينِ من جاهلية قومه وضلال عقائدهم وتصوّراتهم، وانحراف سلوكهم وتقاليدهم، ما جعله متطلِّعاً بقلبه الكبير، وروحه الواعية المستلهمة إلى هداية السماء وريادتها المنقذة من ضياع الجاهلية وشقائها المرير. فأنجده الله تعالى وهداه بنور النّبوّة ومفاهيم الوحي وشرعة الإسلام الكافلة الخالدة.

ويُطلق الضّلال على مفاهيم أخرى ذكرها المفسّرون[٢]، وكلّها بعيدة عن زعم المناقش، وناقضة دعواه، فكيف اقتسر الآية على تفسيره الخاطئ وفهمه المخرّف.

والمفهوم من سياق الآية ولحن خطابها أنّها نزلت مُذكِّرة للنّبيّ ﷺ ومُعدِّدة نِعَم الله تعالى وآلائه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً فآوى﴾ بأن أتاحَ لك مَنْ آواك ورعاك، وأكرم وأجمل رعاية وإيواء، ﴿وَوَجَدَكَ ضالاًّ﴾ قبل النّبوّة في شِعاب مكّة أو في طريق الشّام، ﴿فَهَدى﴾ فهداكَ إلى جدِّكَ عبدالمطّلب وعمّك أبي طالب. أو بنور النّبوّة ومفاهيم السّماء، ﴿وَوَجَدَكَ عائِلاً﴾ مُعْوِزاً، ﴿فَأَغْنى﴾ فأغناك ويسّر لك موارد الرِّزق ومآرب الحياة.

---

(١) الكشّاف، للزّمخشري، ج ٤، ص ٧٦٨.

(٢) راجع مجمع البيان، للطّبرسي، ج ١٠، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦.

فليس المُراد من الضّلال ما توهّمه المكابر من ظاهر الآية وسوّل له اتّهام الرّسول ﷺ، وإنّما المُراد منه ما قرّرناه على ضوء أعلامِ المفسِّرين وشرّاح القرآنِ الكريم.

الآية الرّابعة: قال تعالى: ﴿**عَفا ٱللّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم حَتّى يَتَبَيّنَ لَكَ ٱلّذينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكاذِبِين**﴾. (براءة / ٤٣)

وهكذا توهّم القوم من ظاهرة العفو في الآية، جواز الذّنب على النّبيّ ﷺ وصدوره منه، للتلازم الموهوم فيها بين العفو والذّنب، واعتبروا الإستفهام في الآية: ﴿**لِمَ أَذِنْتَ لَهُم**﴾ عتاباً وٱستنكاراً للنّبيّ ﷺ.

والمتأمِّل في سياق الآية يُدرِك بوضوح أنّ قوله تعالى: ﴿**عَفا اللهُ عَنْكَ**﴾ لا يستلزم سابقة ذنب منه ﷺ، وإنّما يُفصح عن احتفاء الله تعالى بالنّبيّ ﷺ وتكريمه له، وتوقيره إيّاه على غرار أساليب البُلغاء في مخاطبة العظماء والمحبّبين إليهم، كقولهم: رضى اللهُ عنكَ هل أنجزتَ حاجتي، أو غفرَ اللهُ لكَ ما صنعتَ فيما رجوتهُ منك، أو أطالَ اللهُ عمركَ على رعايتكَ بي وإحسانك إليّ، قاصدين من ذلك ملاطفة المخاطَب وٱستدرار عطفه، قال عليّ بن الجهم وهو يخاطب المتوكِّل:

عفا اللهُ عنكَ ألا حرمة   تجود بفضلكَ عن أبعد

وأمّا الاستفهام في الآية ﴿**لِمَ أَذِنْتَ لَهُم**﴾ فهو وإن بدا في الظاهر خطاباً للنّبيّ ﷺ، بيدَ أنّ سياق الآية وما تلاها يُشعر بجلاء أنّ المعنيّ بالتقريع والإستنكار فيه هم الّذين استأذنوا الرسول ﷺ في التخلّف عن الجهاد وتقاعسوا عن واجبه المقدّس، فهو يستهدف تقريع هؤلاء خاصّة دون النّبيّ ﷺ، نظير قوله تعالى:

﴿**يا عيسى بن مريمَ أأنتَ قُلْتَ للنّاسِ ٱتّخِذُوني وأُمِّي إلهَيْنِ من دونِ الله**﴾. (المائدة / ١١٦)

فالله سبحانه عالِم بنزاهة عيسى وعصمته عن ذلك، بيدَ أنّه خاطبه مستفهماً عن ذلك إظهاراً لسخطه ووعيده لِمَن اعتقدوا فيه ذلك الإعتقاد الخاطئ.

ولو افترضنا أنّ العتاب في الآية السالفة كان موجّهاً إلى خاتم الأنبياء ﷺ، فإنّه لم يكن على فعل محرّم أو ترك واجب ممّا يستلزم انتفاء عصمته وتسويغ المعصية عليه، وإنّما هو على إذنه وترخيصه للمستأذنين بالقعود عن الجهاد، حملاً لهم على ظاهر أعذارهم، وهذا لا يُعتبر ذنباً قادحاً في العصمة، غاية ما يُقال فيه أنّه من قبيل ترك الأولى الّذي لا يخدش عصمة الأنبياء وقدسيّتهم.

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿**ولا تَجْعَلْ مَعَ ٱللهِ إلهاً آخَرَ فتُلْقى في جَهَنّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً**﴾. (الإسراء / ٣٩)

استهدفت هذه الآية ونظائرها في القرآن الكريم توجيه النّاس إلى توحيد الله تعالى وترهيبهم من الشِّرك فيه، وتوجيه خطابها إلى النّبيّ ﷺ هو من قبيل: «**إيّاكِ أعْني وٱسْمعي يا جارَة**».

وبديهيّ أنّ النّبيّ ﷺ لم يكن معنيّاً بالخطاب ولا مقصوداً به لاستحالة الشِّرك عليه عقلاً ووجداناً، إذ هو رائد التوحيد، ورافع رايته الخفّاقة، ومجسِّد واقعه الحقّ، حسبك في ذلك سياق الآية الكريمة:

﴿**لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً، وقَضى رَبُّكَ أن لا تَعْبُدُوا إلّا إيّاهُ وبالوالِدَيْنِ إحْساناً، إمّا يَبْلُغَنّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدَهما أو كِلاهُما فلا تَقُل لَهُما أُفٍّ ولاَ تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قولاً كَريماً**﴾.

ومحال على بلاغة القرآن ومنطقه الحكيم أن يخصّ النّبيّ ﷺ بتوجيه هذه الآيات، ويأمره بالإحسان إلى والديه وهو لم يُدرك حياتهما ولم ينعم بدفء حنانهما عليه.

وكيف يُحذِّر النّـبيّ ﷺ من الشِّرك ويَنهىٰ عنه وهو الّذي أتحف البشرية بأروع آيات التوحيـد وأقواها حجّـةً وبرهـاناً، وأشـدّها نسـفاً وتدميراً للشِّرْك والمشركين.

ألم يصدع عن الله تعالى بقوله الكريم:

﴿يا أيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْـتَمِعُوا لهُ إنّ ٱلّذينَ تَدْعـونَ من دونِ ٱللهِ لن يَخْلُقُوا ذُباباً ولو ٱجْتَمَعُوا لهُ، وإن يَسْلُبْهُم الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنهُ، ضَعُفَ الطّالِبُ والمَطْلُوبِ﴾. (الحجّ / ٧٣)

ألم يصدع ﷺ بأبلغ آيات التوحيد وأخلدها منطقاً وبرهاناً:

﴿لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلّا ٱللهَ لَفَسَدَتا﴾. (الأنبياء / ٢٢)

﴿ما ٱتَّخَذَ ٱللهُ من وَلَدٍ وما كانَ مَعَـهُ من إلٰهٍ إذاً لَذَهَـبَ كُلُّ إلٰهٍ بما خَلَقَ ولَعَلا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ ٱللهِ عَمّا يَصِفُون﴾. (المؤمنون / ٩١)

فحمل الآية السـالفة على ظاهرها يُعتـبر هرفاً وتخريفاً، يستبشعها الضّمير والوجدان.

الآية السّادسـة: قال تعالى: ﴿أفَرَأيْتُـم اللّاتَ والعُزّى * ومَناةَ الثّـالثـةَ الأخرى﴾. (النّجم / ١٩ ـ ٢٠)

وهكذا طعن أعداء الرسول ﷺ في عصمته، وتقوّلوا عليه افتراءً وبُهتاناً أنّه مدح آلهـة قريش وصبا إلى أصـنامهم، حيـث قرأ ﷺ بعـد قوله تـعالى: ﴿أفَرَأيْتُم اللّاتَ والعُزّى * ومَناةَ الثّالثةَ الأخرى﴾ تلك الغرانيق العُلى وإنّ شفاعتهنّ لتُرتجى، وزعموا أنّ قريشاً لّما سـمعت ذلك المدح ابتهجت ابتهاجاً بالغاً، وسـجدت لإطراء آلهتها عندما سجد الرسول والمسلمون في نهاية السورة.

وهذا ٱفتراء حاقد مدجّل على حَصانةِ الرسول ﷺ وقدسيّته نظير افترائهم عليه بالشِّرك وعبادة الأصنام في الآية السالفة.

وركّزوا هذا الدّسَّ المزعوم على قصّةٍ خرافيّةٍ واهيةِ السّند مختلّة المضمون، لم تؤثر عن أحد الصّحابة أو التابعين غير ابن عبّاس.

ومن المؤكّد عند أعلام الدراية والحديث أنّه لم يكن مولوداً وقت افتراض القصّة، أو كان طفلاً لا يتجاوز عمره السنتين أو الثلاث، والدليل على اختلاق هذه الأسطورة ما جاء في سياق الآية المعنيّة وتلو ذكرها، قال تعالى:

﴿إن هيَ إلّا أسْماءٌ سَمّيتُموها أنتُم وآباؤُكُم ما أنزَلَ ٱللهُ بها من سُلْطانٍ، إن يتّبِعونَ الظّنّ وما تهوى الأنفُسُ ولقد جاءهُم من ربِّهم الهُدى﴾. (النّجم / ٢٣)

وهذه الآية تنفي نفياً قاطعاً سجودَ المشركين بسجود المسلمين، لعلم الأوّلين بلغة القرآن ومحتوى الآية المُعرِب عن تحقير آلهتهم والسخرية منها.

هذا إلى أنّ التعصّب أضلّ هؤلاء المهرِّجين وأعماهم عن رعاية الآيات المتضافرة الناطقة بعصمة الرسول ﷺ ونزاهته ممّا ٱتّهموه وتجنّوا به عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأقاويل لأخَذْنا مِنْهُ باليَمِينِ ثُمّ لَقَطَعْنا مِنْهُ ٱلوَتِين﴾ (الحاقّة / ٤٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ما يكونُ لي أن أُبدِّلَهُ من تِلْقاءِ نَفسي إنْ أتّبِعُ إلّا ما يُوحى إليَّ﴾ (يونس / ١٥).

وقوله تعالى: ﴿ما يَنْطِقُ عَنِ ٱلهَوى * إن هُوَ إلّا وَحْيٌ يُوحى﴾ (النّجم / ٣).

وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ (الأعلى / ٦).

وقوله تعالى: ﴿إنّا نَحْنُ نَزّلْنا ٱلذِّكْرَ وإنّا لهُ لَحافِظُونَ﴾ (الحجر / ٩).

وحسبنا هذه الآيات الكريمة برهاناً على تفنيد أسطورة الغرانيق وزيفها واختلاقها.

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿وإذ تَقُولُ لِلّذِي أنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِ وأنْعَمْتَ عليهِ أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتّقِ ٱلله وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما ٱللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشى ٱلنّاس وٱللهُ أحقُّ أن تَخْشاهُ فلمّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطْراً زوّجْناكها لِكَي لا يكونَ على المُؤْمِنينَ حَرَجٌ في أزْواجِ أدْعِيائِهِم إذا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطْراً﴾. (الأحزاب/ ٣٧)

وتشدّقت حول هذه الآية المباركة حناجر لاغية مرجفة حول عصمةِ الرّسولِ ﷺ وسُمُوِّ قدسيّته، زاعمة أنّه ﷺ جاء ذات يوم إلى دار غلامه المعتق زيد بن حارثة، ورمقَ زوجته الحسناء زينب بنت جحش، فهواها وأُغْرِمَ بها، ممّا حفّز زيداً على طلاقها محاباة للنّبيّ ﷺ وإيثاراً له على تزوّجها بعد انفكاكها منه، وكان ﷺ ـ حسب زعمهم ـ يُخفي إعجابه بها ورغبته فيها مخافة نقد النّاس.

وهذا ٱدّعاء زائف ممتنع على الرسول ﷺ لوجوه:

١ ـ إنّ التطلّع إلى أعراض النّاس عامّة والمحصنات من النِّساء خاصّة، أمر يستبشعه الضّمير الحرّ، والوجدان الغيور، ويستنكرهما الشّرع والعُرْف، ويأباهما على النّبلاء الأخيار فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام، فكيف لفّقوا ذلك على سيِّد الرسل والمثل الأعلى في جميع الفضائل والمكرمات؟!

٢ ـ لقد كانت زينب ابنة جحش من قريبات النّبيّ ﷺ وبنات عمّته، وبحكم هذه القرابة فإنّها لم تكن مجهولة عنده أو خافية عليه لينظرها نظرة إعجاب وهيام، وهو الّذي ٱرتأى تزويجها من زيد، وجدّ في إقناعها عليه رغم ٱمتناعها عنه لتخلّفه عنها حسباً ونسباً.

فلو كان صلى الله عليه وآله وسلم مولعاً بها راغباً في تزوّجها ـ كما يزعمون ـ فلِمَ لم يُبادر إلى تحقيق مأربه، ويستأثر بزواجها على غيره ؟!! وهو أحقّ وأولى بها ممّن عداه.

٣ ـ إنّ زيداً لم يُطلِّق زينب محاباة للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتزلّفاً إليه، وإنّما اتّخذ هذا الإجراء الحاسم تخلّصاً من زوجته المشاكسة، وتهرّباً من حياته الزوجية المضطرمة بصنوف النّكد والتنغيص، ما دفعهُ على شكايتها لدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لاستصلاحها وملافاة تطاولها عليه، فأوصاهُ صلى الله عليه وآله وسلم برعايتها والحفاظ عليها: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَك﴾.

ولمّا أعياه الأمر، وأيس من تقويمها واستمالتها إليه، عمد على طلاقها وفكاكها من عصمته.

٤ ـ وبعد تصرّم عدّتها، تزوّجها النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مستهدفاً بذلك أمرين خطيرين:

١ ـ تلطيف مشاعرها المُلتاعة، وجبر قلبها الكسير على ترغيبه الملحّ لها في التزوّج بزيد وإقناعها بعد امتناعها من ذلك.

٢ ـ تشريع نكاح أزواج الأبناء الأدعياء بعد طلاقهنّ، إبطالاً للأعراف الجاهلية القاضية بتحريم ذلك، كما تُقرِّره الآية الكريمة:

﴿فلمّا قَضى زَيْدٌ منها وَطْراً زوّجْناكها لِكَي لا يكون على المُؤْمِنينَ حَرَجٌ في أزْواجِ أدْعِيائِهِم إذا قَضُوا مِنْهِنّ وَطْراً﴾.

٥ ـ وتوضيحاً لمفاد الآية الكريمة ومغزاها الأصيل، أعرض فيما يلي نبذة خاطفة ممّا ورد في تفسيرها عن أهل البيت عليهم السلام:

﴿وإذ تَقُولُ﴾ يا رسول الله، ﴿لِلّذِي أنْعَمَ اللهُ عَلَيْه﴾ بالإسلام وسائر النِّعم العظام، ﴿وأنْعَمْتَ عَلَيْه﴾ بالعتق والبرّ، ﴿أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَك واتّقِ الله﴾ في

شكواك منها أو بحسن معاشرتك لها عند إمساكك إيّاها، ولا تجور عليها زيادة على التأنيب المشروع، ﴿وتُخْفي ما في نَفْسِك﴾ يا رسول الله، ما الله مُبديه، فقد أعلمك بأنّ زينب تكون من أزواجك ولا بدّ من تحقّق ذلك، ﴿وتَخْشى ٱلنّاسَ﴾ على لومك ونقدك على تزوّجك امرأة ابنك الدّعي، ولا ينبغي لك أن تخشاهم، فإنّهم لا يضرّونك بجهلهم، ولا يحطّون من شرف منزلتك بأغاليطهم، ﴿وٱللهُ أحَقُّ أنْ تَخْشاه﴾ فإنّه مالك للنّفع والضّرّ.

﴿فلمّا قضَى زَيْدٌ منها وَطراً زوّجْناكَها﴾ إبطالاً لأضاليل الجاهلية وأعرافهم الفاسدة في معاملتهم الأدعياء معاملة الأبناء الحقيقيين، وتثبيتاً للنّاس على شريعة الحقّ اقتداءً بك، ﴿لِكَي لا يكونَ على المُؤْمِنينَ حَرَجٌ في أزْواجِ أدْعِيائِهِم إذا قَضَوا منهنّ وَطَراً﴾ وفارقوهنّ عن رغبة واختيار في طلاقهنّ.[1]

الآية الثامنة: قال تعالى: ﴿إنّا أنْزَلْنا إلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ لتحكُم بينَ النّاسِ بِما أراكَ ٱللهُ ولا تكُن للخائِنينَ خَصِيماً * وٱسْتَغْفِرْ ٱللهَ إنّ ٱللهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً﴾.

(النِّساء/ ١٠٥ ـ ١٠٦)

تذرّع الطاعنون في عصمة النّبيّ ﷺ لأمره بالإستغفار في الآية الكريمة، توهّماً بظاهرة التلازم بين الإستغفار وسبق المعصية منه.

وتزييفاً لهذه الحجّة الواهية الهزيلة، يحسن بنا أن نلمّ إلمامة قصيرة في تفسير هذه الآية وبواعث نزولها.

لقد ذهب بعض المفسّرين: أنّها نزلت في طعمة الأنصاري لمّا سرق درعاً لجارٍ

---

(١) نُقل بتصرّف بسيط عن الهدى إلى دين المصطفى، للعلّامة الكبير الحجّة البلاغي رحمه الله.

له، ثمّ اتّهم بسرقتها رجلاً يهـودياً، وقد أثار هذا الحـادث خصاماً عنيفاً بين قومي الرّجلين، فاستعدى قوم الأنصارى على اليهودي عند الرسول ﷺ طالبين تجريمه بالسرقة، فنزلت آنذاك الآيـة: ﴿**ولا تكُن للخائِنـينَ خَصِياً**﴾ أي لا تكـن مخـاصماً للبريء عن الجاني.

وأمّا الاسـتغفار في الآية، فلا تلازم بينه وبين الذّنب لتضافر الأدلّة والبراهين العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ونستطيع أن نستجلي واقع الإستغفار من الوجهين التاليين:

(١) إنّ النّبيّ ﷺ نزع إلى مناصرة الأنصاري وتصديقه حملاً على ظاهر إسلامه، وشهادة قومه ببراءته ما حفّزه على إدانة اليهودي والحكم عليه، بَيْدَ أنّ الله تعالى أطلعه على اختلاق الشهود وشهادتهم المزوّرة، ما جعل النّبيّ ﷺ يتحسّس أبعاد حكمه ونتائجه الخطيرة.

وحيث كان ﷺ المَثَل الأعلى للحكمة والعصمة من جميع الزلّات والأخطاء، اعتبر ذلك تقصـيراً يجدر الإسـتغفار منه، كما اعتـبرت «**حسـناتُ الأبْرار سيِّئاتُ المقرّبين**».

وهذا ما يشهد به سياق الآيات التالية للآية المعنيّة ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمّت طائِفَةٌ أن يُضِلُّوكَ وما يُضِلُّونَ إلاّ أنفُسَهُمْ وما يَضُرُّونَكَ من شَيء**﴾ (النِّساء/ ١١٣).

ومفاد الآية: لولا أن حباكَ الله فضل النّبوّة ورحمة العصمة، لهمّت طائفة أن يُلقوك في مزالق الخطأ والإشتباه، بيدَ أنّهم لا يضرّونك لرعاية الله لك وتسديده إيّاك بالعصمة والحصانة الروحية.

(٢) وقد يُعلِّل الاستغفار ويعني به استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم لأولئك الّذين مالؤا طعمة وشهدوا زوراً ببراءته، وخانوا بذلك أمانة الحقّ والعدل، لقرينة ما جاء في سياق الآية اللّاحقة: ﴿إنّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كانَ خوّاناً أثيماً﴾ (النِّساء/ ١٠٧).

الآية التاسعة: قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلّى * أن جاءهُ الأعْمى * وَما يُدْرِيكَ لَعَلّهُ يَزّكّى﴾. (عبس/ ١ ـ ٣)

وهكذا زعم المتجنّون على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ هذه الآية الكريمة جاءت موبِّخة له على تجهّمه وعبوسه في وجه (ابن أمّ مكتوم)، ذلك الأعمى البائس لمّا جاءه ملتمساً منه التوجيه والرّشاد.

وهذا ٱدِّعاء زائف يستنكره ويُفنِّده كلّ مَنْ درسَ حياة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وعرفَ أخلاقه المثالية، ورأفته البالغة بالمؤمنين وعواطفه السامية عليهم.

ومَن ٱستنطق الآية وٱستجلى مفادها، وجدها مفيدة للنّبأ والأخبار المجرّدَين من كلِّ تشخيص أو تصريح بالمُخْبَر عنه، وقد صرّح العارفون بدراية الحديث: أنّ الرّواية الواردة بنزول الآية في النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هي من الرّوايات المقطوعة السند، والمتضاربة في النّقل، ما يجعلها في عِداد الأساطير المُخْتَلَقةِ، وهي معارضة برواية أوثق منها تنفي نزولها فيه صلى الله عليه وآله وسلم وتعزوها إلى غيره.[١]

وفي الآية قرينتان حالية ومقالية، تنفيان اختصاصها بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

والقرينة الأولى: أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن معروفاً أو متّسماً بالتجهّم والعبوس أزاء أعدائه الكافرين فضلاً عن أوليائه المسترشدين به والمقتبسين من إشعاعه وإلهامه.

---

(١) الهدى إلى دين المصطفى، للحجّة البلاغي رحمه الله، ص ١٥١.

والقرينة الثانية: الآية النازلة تلوَ الآيـة المعنـيّة وخلال سـياقها ﴿أمّا مَنِ ٱسْتَغْنى * فَأنْتَ لَهُ تَصَدّى * وما عَلَيْكَ ألاّ يَزّكّى﴾ (عبس/ ٥ ـ ٧).

ومن المُسـتبعَد جدّاً أن يُخاطَب النّـبيّ ﷺ بمحتوى هذه الآية وأسـلوبها التقريعيّ على ٱحتفائه بالأثرياء وإعراضه عن البؤساء، وهو الّذي تركّزت فيه أسمى وأرقّ العواطف النبيلة والحـنان المثاليّ الجمّ بالفقـراء والمعوَزين وتلطيف مشاعرهم ومواساتهم في الزّهد والحرمان.

وكيف تعنـيه الآية ﴿وَما عَلَيْكَ ألاّ يَزّكّى﴾ وهو المجاهد الأعظـم المتفاني في هداية الناس وتوجيههم وجهة الخير والصّلاح، ثمّ لا يُبالي ولا يكترث بتزكية إنسان ودعوته إلى الإسلام.

والقرآن نفسـه يُفنِّد ذلك الزّعم الواهم في نسـبة العبوس إليه بتمجيد أخلاقه وإطراء مداراته للناس، قال تعالى: ﴿وإنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم﴾ (القلم/ ٤).

وقال تعالى: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضّوا مِنْ حَوْلِك﴾. (آل عمران/ ١٥٩)

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِـتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيم﴾. (التّوبة/ ١٢٨)

أليست هذه الآيات الكريمة برهاناً ساطعاً على ترفّع النّبيّ ﷺ ونزاهته من نسبة العبوس إليه وعصمته من منافيات الخلق الرفيع والخصائص النّبوية الرّائدة؟!!

الآية العاشرة: قال تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ ٱلّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ وَٱلعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْـكَ مِنْ حِسـابِهِم مِن شَيءٍ وما مِنْ حِسـابِكَ عَلَيْهِم مِن شَيءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظّالِمِينَ﴾. (الأنعام/ ٥٢)

توسّل المكابرون بهذه الآية المباركة على ٱتّهام الرسول ﷺ بتوقير الوجهاء والأثرياء وإيثارهم بالحفاوة والتقريب، وٱزدراء البؤساء وطردهم عنه، ومن ثمّ غمزوا في عصمته ﷺ.

وهذا ٱفتراء مخرّف نظير ٱفترائهم عليه بالعبوس في الآية السالفة!! ولا ريبَ أنّه ﷺ أرفع أخلاقاً، وأسمى منالاً من الدّسِّ الرّخيص، وكيف يُوسَم بهذه الأنانية المقيتة وهو رمز العدل، وداعية المساواة ونصير المستضعفين؟!

والمتأمِّل في هذه الآية لا يستشفّ منها تجريم النّبيّ ﷺ بالطّرد المزعوم، وحدوثه منه، والنّهي الوارد فيها عنه لا يُشعِر بإدانته به وسبق وقوعه منه، حيث أنّ خطاب القرآن وإن بدا موجّهاً إليه، بيدَ أنّه لا يعنيه بالذّات، ولا يخصّ شخصه الكريم، وإنّما هو عام لكافّة المسلمين على غرار «إيّاكِ أعْني وٱسْمَعي يا جارَة».

ولو ٱفترضنا أنّه ﷺ آثرَ الأغنياء بالحفاوة والتقريب، فذلك لا يعني ٱحتقاره للبؤساء، أو ٱستنكافه عن مجالستهم، وإنّما كان الغرض منه ٱستمالة الأثرياء وتشويقهم إلى الإسلام، وأيّ غضاضة عليه فيما يحقّق مصلحة إسلامية، وكسباً جديداً للإسلام.

على أنّ الحفّاظ والمفسّرين نفوا عنه ﷺ قصّة الطّرد: فقد «روى الثعلبي بإسناده عن عبدالله بن مسعود، قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وخباب وبلال وعمّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أفنحنُ نكون تبعاً لهم، أهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم، ٱطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم ٱتّبعناك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾»(١). وحاشاه ﷺ أن يخالف أمر المولى أو يناقض وحيه المطاع وهو المؤتمن عليه.

---

(١) مجمع البيان، للطّبرسي رحمه الله، م ع، ص ٣٠٥.

الآية الحادية عشرة: قال تعالى: ﴿فإن كُنْتَ في شَكٍّ مِمّا أنْزَلْنا إلَيْكَ فَاسْألِ ٱلّذينَ يَقْرَؤُون الكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَد جاءَكَ ٱلحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلمُمْتَرِين * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلّذِينَ كَذّبُوا بآياتِ ٱللهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلخاسِرِين﴾. (يونس/ ٩٤ ـ ٩٥)

تذرّع أعداء الإسلام بهذه الآية على ٱتّهام النّبيّ ﷺ بالشّكِّ في القرآن الكريم وٱتّخاذ ذلك وسيلة للتهريج والتنديد بعصمته!!

وهذا تصوّر مخمور موغل في الخرافة والهذيان، فكيف يجوز عليه ﷺ ذلك الإرجاف وهو سفير الله إلى البشر، وأمينه على الوحي، وحجّته على سائر العباد؟!!

ولو جاز ذلك على الأنبياء وهم قادة الفكر، ومنارات الهداية، لانهارت شرائع السماء وتلاشت قِيَم المرسلين، وغَدا إرسالهم عبثاً.

وكيف يُحرِّض القرآن خاتم الأنبياء عليهم السلام على ٱستعلام أهل الكتاب عن صحّة ما جاء في الذِّكر الحكيم دفعاً لخوالج الشّكّ الموهوم فيه، وهم كافرون برسالته وكتابه، والمسلمون منهم لا يعتدّ بشهادتهم عن كتبهم وأسفارهم لشَوْبها بالدّسِّ والتحريف.

وتصدير الآية بأداة الشّرط وجزائها لا يُعْرِب عن ٱختلاج الشّكّ في ذهن الرسول ﷺ أو وقوعُ تساؤلِهِ من أهل الكتاب، وكلّما أفادته الآية تعليق ٱفتراض الشّكّ على مُساءَلةِ الكتابيين مجرّداً من جميع الدلائل المشعرة بتحقّق أحدهما منه ﷺ.

ومخاطبة النّبيّ ﷺ بالآية تمثيلاً لأسلوب «إيّاكِ أعْني وٱسْمَعي يا جارَة» نظير مخاطبة القرآن لعيسى عليه السلام: ﴿أأنْتَ قُلْتَ لِلْناسِ ٱتّخِذُوني وأُمِّي إلٰهين﴾ فالخطاب في الظاهر للسّيّد المسيح والمُراد به أمّته.

الآية الثانية عشرة: قال تعالى: ﴿**وإنْ كادُوا لَيُفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلّذي أوْحَيْنا إلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وإذاً لاتّخَذُوكَ خَلِيلاً**﴾. (الإسراء / ٧٣)

ٱتّخذَ المهرّجون هذه الآية وسيلة للغمز في عصمة النّبيّ ﷺ وٱتّهامه بالتلاعب بالقرآن الكريم وٱفترائه على الله سبحانه!!

وهذا نظير تهجّمهم عليه في قصّة الغرانيق الّتي عرّفناكَ أسطورتها الخرافية، كأنّهم يستعذبون إشاعة التُّهم والأراجيف حوله ولو كانت هراءً فاضحاً، ولو تأمّلوا سياق هذه الآية لأدركوا في أعقابها النصّ الصّارخ بعصمة الرسول ﷺ وحصانته الروحية، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا أنْ**(*) **ثَبّتْناكَ لَقَد كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً**﴾.

ومن الواضح أنّ أداة (لولا) تفيد أنّ وجود الشيء مانع من وقوع شيء آخر نحو: لولا عليٌّ لَهَلكَ عُمَرُ، أي وجود عليّ مانع من حدوث الهلاك لعُمر، وهكذا الآية: ﴿**لَوْلا أنْ ثَبّتْناكَ...**﴾، معناهُ: لولا أن ثبّتنا قلبك بالعصمة والتسديد الإلهيَّينِ لأوشكتَ أن تسكن إليهم بعض السكون، ولكن عصمناك عن ذلك.

وقد جاء في أسباب نزول الآية: ﴿**وإن كادُوا لَيُفْتِنُونَك**﴾ أنّ قريشاً قالت للنّبيّ ﷺ: كُفَّ عن شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، وٱطرد هؤلاء العبيد والسقّاط الّذين رائحتهم رائحة الضّأن، حتّى نجالسكَ ونسمع منك، فطمع في إسلامهم، فنزلت الآية[1].

وقد عرضنا في موضوع الآية السادسة الآيات المتضافرة الناطقة بعصمة الرسول ﷺ ونزاهته من هذا الإفتراء الفاضح.

(*) إضافة يقتضيها السّياق، لا توجد في الأصل.

(١) مجمع البيان، للطّبرسي رحمه الله، ج ٥٢، ص ٤٣١.

بين الأنبياء والزّعماء

ونُدرِك من خصائص الأنبـياء السالفة، ومزاياهم الرفيعة الفذّة، خطأ أولئك المهرطقين وتَجَنِّيهم على الأنبـياء عليهم السلام، بمقارنتهم بالزّعماء السياسيين رغم المفارقات الجسيمة، والبَوْن الشاسع بين الفريقين، وربّما دفعهم هوس الحبّ والغلوّ إلى تفضيلهم على سادة الأنبياء وعظمائهم.

وهذا من سمات التحلّل والإرتداد الّتي عكستها الحضـارة المـادِّية الراهنة فيما عكسته من صور شوهاء.

كيف يجترئ هؤلاء المهرطقون على مقارنة الأنبـياء وهم صفوة الخلق ومنار البشرية، بالزّعماء الّذين يتّسم أغلبهم بالنقائص والمزريات؟

فكم زعيم سياسي لامِع لو حلّلتَ شخصيّته لوجدته ساقط الخلق، أو مصاباً بجنون العظمة، أو العقد النفسية، أو متّصفاً بالغدر والفتك، لا يتورّع عن أبشع الجرائم والمظالم، بيدَ أنّ مهابة الزعامة تستر نقائصه ومساوئه.

أمّا الأنبـياء عليهم السلام فإنّهم المَثَل الأعلى في جميع نواحي الكمال، يتميّزون عن البشر تَمَيُّزَ اللآلئ من الحصى، ويتألّقون بينهم تألّق البدر بين الكواكب، عقول واعية جبّارة لا تَعشو ولا تضلّ وقلوب طاهرة مفعمة باللّطف والحنان، وأخلاق رفيعة تشعّ بأبهى وأروع السّجايا والخِلال، وسـيرتهم عاطرة فوّاحة بالعظمات والأمجاد، فأين يقع الزّعماء من عظمة الأنبياء؟!

دلائل النّبّوة

لقد كان من عناية الله بالبشر ولطفه السّامي عليهم أن تعاهدهم بالهداية والتوجيه والتثقيف والتكميل، فأرسل إليهم الأنبياء عليهم السلام، مُبشِّرين ومنذرين، يهدونهم إلى الرّشد، وينيرون لهم سبل السعادة والسلام.

وتوالى الأنبياء عليهم السلام وتعاضدوا على تبليغ رسالات الله عزّ وجلّ، ونشر شرائعه عبرَ العصور، فاستجاب لهم وآمن بهم أُولو الفطرة السليمة، والعقول النيِّرة، والضّمائر الحرّة، وهؤلاء فئة قليلة نادرة في البشر كندرة الجوهر من الحصى.

أمّا غالب البشر، وجماهيرهم الساحقة، فإنّهم نقيض أولئك المؤمنين يتّسمون بالجمود وغباء الوعي والتقليد الأعمى للآباء والأجداد، فيقفون من الأنبياء موقف التحدِّي والمكابرة والترفّع عن تصديقهم والإيمان بهم.

فما يصنع الأنبياء عليهم السلام إزاء أولئك الجهلة المتنمِّرين؟! وكيف تستطيع الشّرائع السماوية أن تهدي تلك القطعان البشرية الجامحة النّفورة؟!

من أجل ذلك، قضت حكمة الله تعالى أن تؤيِّد الأنبياء عليهم السلام وتُثْبِت صدقهم، وتدعم رسالاتهم بآيات ودلائل تَبهرُ المكابرين وتضطرّهم إلى الإيمان بهم والإذعان لهم، وتلك هي المعجزات الّتي يجريها الله عزّ وجلّ بقدرته الخارقة على أيديهم.

والمُراد بالمعجزات هي: الأفعال الخارقة الّتي يعجز البشر عنها عادة، المقرونة بدعوة النّبوّة: فإن لم تقترن بذلك سُمِّيت كرامة أو إرهاصاً، وهو ما يشعر بحدوث أمر غريب خطير.

فَمَن إدّعى النّبـوّة، وأظهر المعـجزة مقرونة بدعـواه، وجبَ تصـديقه والإيمان بشريعته، إذ المُعجز من صنع الله تعالى وحادث بقدرته ومشيئته، وحاشاه سبحانه أن يصدِّق الكاذب ويغري الناس بالجهل والضّلال، وذلك محال ممتنع على الله تعالى.

وتُعرَف دعـوة النّبـوّة، ومعـجزة مدّعيها برؤيتها عـياناً في عصره ومحضره، ويعرفها المتأخِّرون عن زمانه أو الغائبـون عن محلِّـه (بالتواتر)، وهو اخبار جماعـة يبعد اجتماعهم على الكذب والإفتراء.

بين المعجزة والسحر:

وليست المعجزات من قبيل الشعوذة والسحر، كما توهّمها الكافرون ومناهضو الأنبـياء عليهم السلام، إذ هما من الفنـون الّتي يسـتطيع الإنسان تعلّمها وتلقِّيها ومضاهات أربابها في أعمالهم السحرية.

أمّا المعاجز، فإنّها من صنع الله تعالى، وحادثـة بقدرته الخارقـة ونواميسـه المجهولة، الّتي يستحيل على جميع الخلق محاكاتها وإدراك أسرارها.

بين المعاجز والمختَرَعات العلمية:

وهكذا تتميّز المعجزات عن الإختراعات العلمية تميّزاً واضحاً ملموساً.

فالمختَرَعات العلميـة: ابتدعها وأنشأها المختَرِعون[١] على ضوء القوانين العلمية والسّنن الطبيعية المعروفة لدى العلماء والّتي يتسنّى للعارفين بها صنعها ومحاكاتها، كما هو مشهود في الأمم المتحضِّرة.

أمّا المعجزات، فإنّها تحدث بقدرة الله تعالى، وتجري بأسـباب مجهولة تخالف القواعد العلمية والسنن الطبيعية المعروفة، لذلك استحال على البشر فعلها ومحاكاتها.

---

(١) في الأصل: اكتشفها المخترعون.

وإليك أمثلة على ذلك:

اخترع العلماء قماشاً واقياً من النار، عصيّاً على الإحتراق، يستطيع المتدرِّع به أن يخوض غمار النار آمناً من لهبها وحريقها، وهذا أمر غير مُستبعَد ولا مُستغرَب، لانبثاقه عن مبادئ علمية معروفة.

أمّا نجاة إبراهيم الخليل من النار بعد إلقائه فيها، وجعلها عليه برداً وسلاماً، فإنّها معجزة خارقة لجميع السنن العلمية والطبيعية القاضية باحتراق الأجسام في النار.

وكذلك ٱستطاع الإنسان أن يغور في الغوّاصات إلى أعماق البحار، ويمكث في أغوار لججها أياماً عديدة، متذرِّعاً إلى ذلك بالوسائل العلمية الحديثة.

أمّا بقاء ذي النّون عليه السلام في بطن الحوت وأغوار البحر محروماً من نسيم الهواء وعرضة للهضم والتلاشي في جوفها، كما تتلاشى فيه الأغذية والمواد، فهو سرّ إعجازيّ يعجز الإنسان عن إدراك كنهه.

وهكذا ٱستطاعت حضارة القرن العشرين أن ترتاد الفضاء الخارجي، وتحلِّق إلى سطح القمر، مستخدمة في ذلك طاقاتها العلمية ووسائلها الفنِّية، وليس هذا بالأمر المعجز، فقد تنافست فيه الكتلتان الغربية والشرقية، وتساجلتا في غزو الفضاء وٱرتياد القمر.

أمّا المعجزة الخارقة، فهي الّتي حقّقها الرسول الأعظم محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم بعروجه إلى قمم السماء مجرّداً من جميع الأجهزة والوسائل العلمية، إلّا الوسائل الإلهٰية المعجزة الّتي بلّغته ذلك المستوى الأرفع الّذي يقصر الإنسان عن إدراكه والتطلّع إليه.

بين المعجزة والكرامة:

وهكذا تتميّز المعجزة عن كرامة الأولياء بأمرين:

(١) اقتران المعـجزة بدعوى النّبوّة، وخلوّ الكرامة وتجرّدها من ذلك.

(٢) اشـتهار المعـجزة وظهـورها على ملأ النـاس، وخفاء الكرامـة، ونزوع صاحبها إلى التستّر والكتمان، إلّا في الحالات النادرة.

فلسفة المعجزات

وهناك أقوام قصرت مداركهم عن وعي المعجزات، وتفهّم دوافعها وأهدافها، وراحوا يتشدّقون بصلف بالغ في تكذيبها وٱعتبارها من الأساطير المختلَقة رغم إجماع الأديان عليها، وٱحتجاج جميع الأنبياء عليهم السلام بها، ورغم ثبوتها بالنّقل المتواتر.

علامَ ينكر هؤلاء المعجزات وهي ذريعة الأنبياء عليهم السلام، والحجّة الكُبرى في إثبات نبوّتهم، وصدق رسالاتهم؟! ولولاها لم يستجب لهم أحد، فكيف آمنَ بهم ملايين البشر وٱعتنقوا أديانهم، وٱتّبعوا المُستبعَد وإبطاله.

فكم جحد الناس وأنكروا بالأمس ما آمنوا به اليوم وأذعنوا له، كتفجير الذرّة، وصعود القمر، وٱستماع الأصوات من أقاصي الأرض، ومشاهدة الصّور المذاعة من مكانٍ بعيدٍ، وتسيير الطائرات والصواريخ باللّاسلكي، ونحو ذلك من معاجز العلم ومبتكرات البشر، فلا يجوز إنكار الحقائق الثابتة بالإستعبادات العقلية، ومخالفة السنن المألوفة.

ومن الثابت أنّ المعجزات ليست من صنع الأنبياء عليهم السلام، وليس في مقدورهم إحداثها، وإنّما هي من صنع الله تعالى، يُجريها على أيديهم تصديقاً لهم، وتأييداً لرسالاتهم.

وحيث كانت المعجزات كذلك، أيقنّا بها لانبثاقها عن قدرة الله عزّ وجلّ، وإرادته النافذة الّتي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، وإن لم نُدرِك أسرارها وسننها.

هذا إلى أنّ المـعاجز ضرورة حتمـيّة لا محيصَ عنها في عالم الأنبـياء عليهم السلام ورسالات السماء، ذلك: أنّ من واجب اللّطف الإلهي هداية البشر، وتوجيههم وجهة الخير والصّلاح، وهذا ما يحتّم بعثة الأنبياء والمرسلين إليهم لتبليغهم شرائع الله تعالى ومبادئه وآدابه الباعثة على إسعادهم وتكاملهم.

وحيث كانت النّبوّة وظيفة إلهية مرموقة، لها قيمتها الكُبرى وسلطانها الروحي النافذ، ممّا يحفّز المشعوذين على ٱدِّعائها زيفاً وباطلاً، ويستلزم ذلك التباس الصادق بالكاذب، والمُحِقّ بالمُبْطِل من مدّعيها، ومن ثمّ يتعذّر تشخيص صاحبها الشرعي.

من أجل ذلك، كان لا بدّ للنّـبيّ لإثبات نبـوّته، وصدق مدّعاه من آية يعجز البشر بأسرهم عن تزويرها ومحاكاتها، ولا يتسنّى ذلك إلّا بالمعجزات الخارقة الّتي يُجريها الله على يديه ولا يقوى عليها أحد سواه.

ومتى أظهر النّبيّ المعجزة، علمنا صحّة نبوّته وصدق دعواه، حيث يستحيل على الله سـبحانه إظهارها على أيدي المتنبّـئين والكذّابين، وإغـراء الناس بالجهـل والضّلال.

وأصدق شاهد على ذلك، التقاليد السياسية، والأعراف الدبلوماسية السائدة في الممالك العالمية، فإنّها درجت على تزويد سفرائها وممثّليها بوثائق ومستندات تُثْبِت سفارتهم، وتؤيِّد أقوالهم وتصرّفاتهم السياسية.

ولولا ذلك لادّعى السـفارة كثير من الدّجّـالين والمشـعوذين، والتبسَ على الدول الصـادق من السـفراء بالكاذب، والصحيح بالزائـف، وٱختلّ بذلك التمـــثيل الدبلوماسي بين الدول.

أنواع المعجزات

وقد شاء الله عزّ وجلّ وقضت حكمته أن يؤيِّد أنبياءه ورسله بآيات ومعاجز تختلف صورها ومظاهرها باختلاف الأمم والعصور، فأيّد كلّ نبيّ بمعجزة تُلائم عصره الخاصّ واتّجاه أمّته، ونزعاتها العلمية والفنّية لتكون أقوى حجّة وأشدّ إفحاماً لمكابريه ومعانديه.

فعصر موسى عليه السلام كان مشهوراً بالسحر، وكانت أمّته مولعةً به وبارعةً فيه براعة فائقة تثير الدهشة والإستغراب، وكان من أبرز ألاعيبهم السحرية الحبال المسحورة الّتي كانت تتراءى وهم يلقونها على الأرض كالحيّات والثّعابين في صورها وحركاتها.

فأيّد الله تعالى موسى عليه السلام بمعجزة العصا، الّتي تحدّى بها خصومه ومكذّبيه، وكان يُلقيها في حومة السحر والساحرين، فتنقلب ثعباناً وتنِّيناً رهيباً يلتقف ويلتهم جميع وسائل السحر ومكائد السحرة، ما أفزعهم وأعجزهم عن مناهضته، فأذعنوا له وآمنوا به.

﴿وجاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَون، قالوا: إنّ لَنا لأجْراً إن كُنّا نَحْنُ الغالِبِين * قال: نَعَم وإنّكُم لَمِنَ ٱلمُقرّبين * قالُوا يا مُوسىٰ إمّا أنْ تُلْقِيَ وإمّا أنْ نَكُونُ نَحْنُ المُلْقِينَ * قالَ ألقُوا فلمّا ألْقَوا سَحَرُوا أعْيُنَ ٱلنّاسِ وٱسْتَرْهَبُوهُم وجاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وأوْحَيْنا إلى مُوسىٰ أنْ ألْقِ عَصاكَ فإذا هِيَ تَلْقَفُ ما يأفِكُونَ * فَوَقَعَ ٱلحَقُّ وبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

* فَغُلِبُـوا هُنالِكَ وٱنْقَلَبُوا صاغِرِينَ * وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِين * قالُوا آمَنّا بِرَبِّ ٱلعالَمِينَ * رَبِّ مُوسى وهارُونَ﴾ . (الأعراف / ١١٣ ـ ١٢٢)

وكان عصر عيسى عليه السلام مشهوراً بازدهار الطّبّ، وبراعة الأطبّاء المحنّكين، فسانده الله تعالى بآياتٍ تُلائم عصره وأمّته، فكان عليه السلام يُبْرِئُ الأكمه والأبرص ويُحيْي الموتى بإذن الله.

﴿أنِّي قَدْ جِئْتُكُم بآيةٍ مِن رَبِّكُم أنِّي أخْلُقُ لَكُم مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيئةِ ٱلطَّيْرِ فأنفخُ فيه فيكُونُ طَيْراً بإذنِ ٱللهِ وأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ وأُحْيِي ٱلمَوْتى بإذْنِ ٱللهِ﴾ .

(آل عمران / ٤٨)

وكان عصر نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مشتهراً بالفصاحة والبلاغة، وكان العرب عُشّاق البيان وفرسانه المجلّين فيه، وقد بلغ ولعهم وهيامهم بجمال البلاغة أنّهم كانوا يعقدون المحافل للمساجلات الشعرية والتنافس على السّبق فيها.

وبتعبير آخر: «إنّ لكلِّ شعب هواية يصرف إليها مواهبه الخلّاقة طبقاً لعبقريّته ومزاجه. فالفراعنه كان لهم اهتمام بفنون العمارة والرياضيات، يدلّنا عليه ما بقي من آثارهم العظيمة كتصميم الهرم الأكبر، وما يتضمّن من نظريات هندسية غريبة، وخصائص رياضية وميكانيكية عجيبة.

كما كان اليونان مُغرمين بصور الجمال على ما أبدعه فنّ (فيدياس) وبآيات المنطق والحكمة على ما جادت به عبقريّة (سقراط).

أمّا العرب في الجاهلية: فقد كانت هوايتهم في لغتهم، فلم يقتصروا على ٱستخدامها في ضرورات الحياة اليومية شأن الشعوب الأخرى، وإنّما كان العربيّ يتفنّن في ٱستخدام لغته، فينحت منها صوراً بيانيّة لا تقلّ جمالاً عمّا كان ينحته (فيدياس) في المرمر، وما كانت ترسمه ريشة (ليونار دافنشي) في لوحاته المعلّقة في

متاحف العالم الكُبرى.

هذه صورة الظروف النفسية الّتي نزلَ فيها القرآن، فكان لإعجازه أن ينفذ إلى الأرواح بما ركّب في الفطرة العربيّة من ذوق بيان»[(١)].

من أجل ذلك، ساند الله عزّ وجلّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه بمعجزة توافق عصره، ونزعات قومه، وأيّدهُ بـ (المُعجزة الخالدة) القرآن الكريم، الّذي أدهش العرب ببلاغته الفذّة وأسلوبه الفريد وحكمته البالغة، ما أعجزهم عن محاكاته واللّحوق بشأوه، وقسرهم على الإعتراف بإعجازه وتساميه عن طاقات البشر وقدراتهم البلاغية.

وهناك علل وأسباب اقتضت أن يكون القرآن الكريم معجزة خالدة لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم نستجلبها من النقاط التالية:

١ ـ كانت المعاجز قبل بعثته مرتكزة على الخوارق الحسِّية والآيات المادِّية المنظورة: كعصاة موسى عليه السلام ويده البيضاء، وإحياء عيسى عليه السلام للموتى، وإنشائه من الطِّين طائراً خفّاقاً بإذن الله، فلمّا انبثق فجر الإسلام تسامى بالعقول والمشاعر عن تلك الخوارق المادِّية، ووجّهها نحو المعاجز العقلية والمفاهيم المعنوية السامية لتواكب مسيرة الإسلام الخالد، وأطوار البشرية الصاعدة، ومن ثمّ لتكون أكثر إقناعاً، وأقوى أثراً وسلطاناً على النفوس الواعية والعقول النيِّرة، حيث لم تستطع المعاجز المادِّية الحسِّية ـ رغم حججها الصارخة ـ أن تُقنِع المكابرين وتردعهم من تكذيب أنبيائهم واتّهامهم بالشّعوذة والسحر:

﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِم باباً من السّماءِ فَظَلُّوا فيهِ يعرجون * لَقالُوا إنّما سُكِّرت أبْصارُنا بل نَحْنُ قومٌ مَسْحُورُونَ﴾. (الحجر / ١٤ ـ ١٥)

---

(١) الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي، ص٦٣، بتصرّف بسيط.

ويؤكِّد القرآن هذا المعنى ويغرسه في الأذهان:

﴿وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِم لَئِن جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها، قُلْ إِنَّما الآياتُ عندَ ٱللهِ وما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَت لا يُؤْمِنُون﴾. (الأنعام/ ١٠٩)

لذلك كان القرآن الكريم بما ٱنطوى عليه من المبادئ الخالدة وجلالة المفاهيم العقلية، وروعة النّظم والآداب، هو المعجزة الكُبرى لسيِّد الرّسل صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ كانت المـعاجز في العصور الغابرة موقوتة بحياة الرسـول الّتي جاء بها، وظرفه الخاصّ، ومقصورة على الأمّة الّتي أُرسِلَ إليها، لذلك خفّت آثارها وتلاشت وقائعها بعد حدوثها أو وفاة النّـبيّ المؤيّد بها، لصدورها في وقتٍ محـدود، وشريعة مؤقّتة، نسختها الشريعة الّتي تلتها وأعقبتها، فلا نجد اليـوم للمعجزات السالفة أثراً ظاهراً محسوساً، فأين عصاة موسى، وطائر عيسى، وناقة صالح وغيرها من المعاجز الكُثُر.

وحيث كان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء، وكانت شريعته خالدة خلود الدّهر، أيّدهُ الله تعالى بالقرآن الكريم، ليكون المعجزة الخالدة الّتي تُساير العصور والأجيال، وتواكب أطوار البشر عبرَ الحياة.

٣ ـ كانت معاجز الأنبياء الأوّلين عليهم السلام مخالفة لجوهر أديانهم وواقع شرائعهم: فعصاة موسى عليه السلام مغايرة لتوراته، وطبّ عيسى عليه السلام لايعكس إنجيله، وهما متباينان تباين المادّة عن الرّوح.

وقد شاء الله تعالى أن يجعل معجزة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من صميم شريعته وينبوع رسالته، لا يختلفان ولا ينفصلان، فجعل القرآن الكريم دستور الإسلام ومعجزته في وقت واحد.

وليست المعجزات هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دعوى الأنبياء وتصديق رسالاتهم، فهناك دليلان آخران من دلائل النّبوّة:

١ ـ نصُّ النّبيّ السابق المُسَلَّمِ النّبوّة على النّبيّ اللّاحق نصّاً صريحاً مُشخّصاً لا يقبل الشّكّ والإلتباس، وهذا برهان ناطق على نبوّة المنصوص عليه، وصدق دعواه لعصمة الأنبياء في التبليغ ونطقهم عن وحي الله تعالى وإرادته.

٢ ـ مثاليّة الرسول، وٱشتهاره بالصِّدق والأمانة، وتحلِّيه بصفات الفضل والكمال، ونزاهته عن الرّذائل والنّقائص، كلّ ذلك من بواعث تصديقه، وإثبات رسالته.

ومتى ٱدّعى أحد الأنبياء السالفين النّبوّة، وأيّدته إحدى البراهين السالفة الثلاث:

المعجزة، النصّ، جلالة المُدّعِي وسموّ مثاليّته، كان محتّماً على أمّته الإيمان به، وٱتِّباع شريعته ومنهاجه، وٱمتثال أوامره ونواهيه لتحقيق سفارته عن الله تعالى وصدق رسالته.

عدد الأنبياء عليهم السلام:

من الثّابت أنّ عدد الأنبياء والمرسلين (مائة وأربعة وعشرون ألف نبيّ)، وأنّ سادتهم وأماثلهم أولو العزم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد صلوات الله عليهم أجمعين، وكلّ نبيّ منهم جاء بشريعة ناسخة لشريعة مَنْ سبقه، حتّى ختم الله تعالى الأنبياء بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وختم الشرائع بالإسلام، فلا نبيّ بعده ولا شريعة بعد شريعته، وحلال محمّد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

﴿ما كانَ مُحَمّدٌ أبا أحَدٍ مِنْ رِجالِكُم وَلكِن رَسُولَ ٱللهِ وخاتَمَ ٱلنّبيِّين﴾ .

(الأحزاب / ٤٠)

وقد عُلِّلت تسمية هؤلاء الخمسة بـ (أولي العزم) بثلاث تعاليل:

١ ـ أنّهم أصحاب الشرائع الكُبرى الّتي تنسخ اللّاحقة منها سابقتها.

٢ ـ أنّهم بُعِثُوا إلى كافّة البشر، وعامّة أهل الأرض.

٣ ـ أنّهم كانوا متحلِّين بأضخم طاقات الصّبر والجَلَد على تحمّل الأزمات والكوارث.

الفرق بين الرّسول والنّبيّ:

الأنبياء عليهم السلام وإن ٱشتركوا في شرف النّبوّة، وجلالة الحظوة والزّلفى من الله عزّ وجلّ، بيدَ أنّهم يتفاوتون قدراً وسموّاً بتفاوت كفاءاتهم ومؤهّلاتهم، ومن هنا نشأ الفرق بين الرّسول والنّبيّ.

فالرّسول يستطيع رؤية «جبرائيل عليه السلام»، وسماع حديثه ومكالمته شفاهاً، والنّبيّ دون ذلك يسمع صوته، ولا يرى شخصه، في حالات اليقظة، ولكنّه يراهُ في المنام، وعن طريق النّوم وٱستماع صوت المَلَك يستلهم الوحي الإلهي.

وقد تزدوج النّبوّة والرّسالة في بعض الأنبياء، ويغدو آنذاك حائزاً على شرفهما معاً. وكثيراً ما تنفرد إحداهما عن الأخرى، لذلك كان كلّ رسول نبيّاً وليس كلّ نبيّ رسولاً.

الوَحْي

الوحي لغـةً هو: الإعلام في خفاء، ثمّ أُطلِقَ على ما يُقصَد به إفهام المخاطَب سرّاً وكتماناً. وإذا أضيف الوحي إلى الله تعالى، كان مختـصّاً فيما يوحيـه إلى الأنبـياء والمرسـلين عليهم السلام من الشرائع والآداب الّتي ابتعـثهم بها، لهداية الناس وإسعادهم، ويتلقّى الأنبياء الوحي وهم واثقون وموقنون بأنّهم من الله عزّ وجلّ.

وقد يُطلق الوحي على الإلهام:

﴿وَأَوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسى أن أرْضِعِـيهِ فإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيـهِ في ٱلْيَمِّ ولا تخافي ولا تَحْزَني إنّا رادُّوهُ إلَيكَ وجاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِين﴾. (القصص / ٧)

﴿وأوْحى رَبُّكَ إلى ٱلنَّحْـلِ أنِ ٱتّخِذِي مِنَ ٱلجِـبالِ بُيُوتاً ومِنَ ٱلشَّـجَرِ ومِمّـا يَعْرِشُون﴾. (النّحل / ٦٨)

أنواع الوحي:

للوحي صور وأنواع لخّصتها الآية الكريمة:

﴿وما كانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ ٱللهُ إلّا وَحْياً أو مِن وَراءِ حِجابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فيُوحِيَ بإذْنِهِ ما يَشاءُ﴾. (الشّورى / ٥١)

قرّرت هذه الآية: أنّ أنواع الوحي ثلاثة:

النّوع الأوّل: الإلهام:

وذلك بأن يُلْهِم الله عزّ وجلّ الأنبياء عليهم السلام ويلقي في روعهم، أو يريهم في منامهم ما يشاء الله إعلامهم والإيحاء إليهم، فيستلهمون ذلك بطاقاتهم الروحية الجبّارة وخصائصهم النّبويّة الّتي فطرهم الله عليها. وسيّان ذلك عليهم في حالات اليقظة أو النّوم، حيث أنّ منامات الأنبياء صادقة لا تكذب، ولا تنتابهم أضغاث الأحلام الّتي تنتاب الناس.

من ذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام بأنّه يذبح ابنه اسماعيل عليه السلام، ما جعله يعتقد ويوقن بأنّها وحي إلهيّ لا محيصَ عن تنفيذهِ وامتثاله، ولمّا عزمَ إبراهيم على إمضائه وتطبيقه، تداركهُ الله بعطفه وحنانه البالغين، وأنقذ حبيبه ووليده بالفداء، كما أنبأ القرآن الكريم عنه:

﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أرى في ٱلمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فانْظُرْ ماذا تَرى * قال يا أَبَتِ ٱفْعَلْ ما تُؤْمَرْ سَتَجِدُني إن شَاءَ ٱللّهُ مِنَ الصّابِرِينَ * فَلَمّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وناديْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إنّا كَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ * إنّ هٰذا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ * وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

(الصّافّات / ١٠١ ـ ١٠٧)

وكان نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لا يرى رؤيا إلّا تحقّقت وجاءت كفلق الصّبح.

النوع الثاني: المكالمة من وراء حجاب:

وذلك بأن يُكلّم الله تعالى الأنبياء عليهم السلام ويوحي إليهم عن طريق خلق الأصوات والكلام في بعض الكائنات المادّية: كما كلّم موسى عليه السلام في جبل (الطّور) أو (وادي طُوى)، وكما كّلم نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم في المعراج.

﴿وَهَلْ أتاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إذ رَأى ناراً فقالَ لِأهْلِـهِ امْكِثُوا إنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْها بِقَبَسٍ أو أجِدَ عَلى ٱلنّارِ هُدىً * فَلَمّا أتاها نُودِيَ يا مُوسَى * إنِّي أنا رَبُّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إنّكَ بِالوادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوىً * وَأنا ٱخْتَرْتُكَ فاسْتَمِعْ لِما يُوحَى﴾.

(طٰه / ٩ ـ ١٣)

وجاء في عروج النّبيّ ﷺ وإسرائه إلى السماء:

﴿ثُمّ دَنا فَتَدَلّى * فَكَانَ قابَ قَوْسَـيْنِ أوْ أدْنى * فأوْحَى إلى عَبْدِهِ ما أوْحَى * ما كَذَبَ ٱلفُؤادُ ما رَأى * أفَتُمارونَهُ عَلَى ما يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهى * عِندَها جَنَّةُ ٱلمأْوَى﴾. (النّجم / ٨ ـ ١٥)

النوع الثالث: الإيحاء بواسطة الملك:

وذلك بأن يوفد الله تعالى مَلَكاً إلى الأنبياء يُبلغهم مفاهيم وحيه وشرائعه، وهو المعنيّ بالآية الكريمة: ﴿أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحي بإذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ (الشّورى/ ٥١).

ومن هذا النـوع وعن هذا الطـريق، أنزل الله القرآن الكريم على نبيّـنا محمّد ﷺ.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلمُنْذِرِينَ﴾.

(الشّعراء / ١٩٢ ـ ١٩٥)

وقد ٱستلهم ﷺ الوحي وتلـقّاه من الله تعـالى بجمـيع صوره وأنواعـه السالفة.

توضيح الوحي:

قد يتطلّع البعض إلى استجلاء الوحي، وتفهم واقعه لدقّته على الأفهام، لذلك أجد من المستحسن توضيحه وتقريبه إلى الأذهان:

ليس الوحي ممّا يعسر فهمه، وتقصر العقول عن إدراكه، ففي استطاعة كلّ واعٍ لبيبٍ أن يستجلي واقعه، ويُدرِك إمكانه بقناعة ويُسر إذا ما درسه على ضوء العلم والمنطق ومعاييرهما الأصيلة الثابتة.

وحسب الباحث أن يستقرِئَ عناصر الأحياء النباتية والحيوانية، ليرى مبلغ عناية الله بها ورعايته لها، وتوجيهه إيّاها توجيهاً هادفاً بنّاءً.

انظر عالم النّبات، تجد كلّ شجرة فيه صغيرة كانت أو كبيرة مُسيّرة وموجّهة بنظام وتدبير حكيمين: فجذورهما تقوم بوظائف مهمّةٍ مدهشةٍ رغم طراوتها، وحرمانها من الوعي والشعور: فهي تتغلغل في حنايا الأرض لتحلّل تربتها وتستخلص منها العناصر الغذائية للشجر، وتنبذ ما سوى ذلك، تعمل ذلك تلقائياً وبدون آلة وأداة، وذلك ما يقصر عنه أمهر المحلّلين والكيمياويين.

وهكذا يقوم ساق الشجرة بدور الوساطة والتموين بين الجذور وعناصر الشجر وفروعه المتشعّبة، ناقلاً إليها المياه والأملاح من الأرض، وموزّعاً عليها المواد الغذائية المصنوعة في أوراق الشجر.

وكذلك ورق الشجر، فإنّه رغم بساطته يُمثّل معملاً كيمياوياً بوظائفه الدقيقة وأعماله الباهرة، كالتركيب الضوئي والتنفّس والنّتح ونحو ذلك ممّا هو مفصّل في علم النّبات.

أليسَ ذلك برهاناً على رعاية الله للنّبات، وحكمة توجيهه له، وتدبيره إيّاه؟!

دَع النّبات وتطلّع إلى عالم الحيوان لتُشاهد مظاهر الفطنة والإلهام فيه، تلك الّتي مكّنته من ممارسة نشاطاته الفردية والجماعية، ومزاولة أعماله المدهشة، رغم حرمانه من العقل والإدراك: كحفظ نوعه، ووسائل تكاثره وأساليب حياته ونحو ذلك ممّا مدوّن في علم الحيوان.

ولئن كان النّبات والحيوان رغم خسّتهما مشمولين برعاية الله تعالى وحكمة توجيهه وهداه، فكيف يُترَك الإنسان هملاً وغُفلاً محروماً من رعايته السامية، وحُسْن توجيهه وتسديده، وهو أشرف الكائنات: وأرفعها قدراً، وأجلّها مواهبَ وخِلالاً.

وما كان ينبغي للإنسان ولا يليق بشرف كرامته أن يتلقّى التوجيه والإلهام الإلهيين تلقّي النّبات أو الحيوان، فذلك مسخ لإنسانيته، وهدر لقيمه ومؤهّلاته.

من أجل ذلك قضى واجبُ اللّطف الإلهي أن يصطفي من البشر رُسلاً وأنبياء كاملين خَلقاً وخُلقاً، وأمدّهم بأرفع الخصائص والمواهب الّتي تؤهّلهم لتمثيل وحيه وتبليغ رسالته، وجعلهم قادة الإنسانية وروّادها المخلصين الأمناء، فجاهدوا في الله حقّ جهاده، وناضلوا في هداية الناس وتهذيبهم وتكميلهم.

أمّا قدرة الأنبياء عليهم السلام على ٱستلهام وحي الله تعالى، واستيعاب مفاهيمه السامية، فتلك قضية ميسورة الفهم والإدراك.

فمِنَ البديهي أنّ العقول تتفاوت تفاوتاً كبيراً في طاقاتها وسعة آفاقها وأبعاد نفوذها، فمنها الواهن الهزيل، ومنها الرّاجح الحصيف.

والعقول الراجحة تتمايز وتتسامى في آفاق الحنكة والحكمة حتّى يُحلِّق بعضها في أجواء علويّة شاهقة، تقصر العقول عن بلوغها وإدراك شأوها، فتعي آنذاك وتُدرك بجلاء ويُسْر ما يعجز غيرها عن وعيه وإدراكه، وأصدق مثال على ذلك العلماء النوابغ، والمخترعون الأفذاذ، والشعراء النابهون، فإنّهم ٱستطاعوا بطاقاتهم العقلية، وعبقرياتهم السامية أن يكتشفوا الأسرار العلمية الغامضة، ويبتكروا المختَرعات الجليلة المعقّدة، ويتصيّدوا المعاني الأدبية المبتكَرة الّتي لا يُدرِكها غيرهم من البشر.

ومن هنا نستطيع أن نعرف سرّ تفوّق الأنبياء على البشر في مواهبهم الفكرية والعقلية، وقدرتهم على ٱستلهام وحي الله وتلقّي مفاهيمه السامية، فقد أعدّهم الله

إعداداً خاصّاً، ومنحهم أعظم الطاقات والمواهب العقلية والنفسية، وحلّاهم بقلوبٍ واعيةٍ ونفوسٍ زكيّة، ومشاعر وهّاجة مشعّة، لتكون مهبطاً للوحي والإلهام، وينبوعاً فيّاضاً بالنّور والخير والجمال.

أرأيتَ كيف تلتقط أجهزة الراديو صنوف الإذاعات اللّاسلكية المبثوثة عبرَ الفضاء، وتحيلها أصواتاً واضحةً جليّةً لا يلتبس بعضها ببعض.

أرأيتَ كيف تتفاوت طاقات تلك الأجهزة وقدراتها على ٱلتقاط الإذاعات حسب قوّتها، وقصد المصمِّمين لها: فبعضها قادر على ٱلتقاط الإذاعات المحلِّية وعاجز عمّا وراءَها، وبعضها قادر على ٱلتقاطها من الأقطار المجاورة فحسب، وبعضها قادر على ٱلتقاطها أنّى كانت وحيثما وُجِدَت من أقاصي الأرض وآفاقها النائية.

وبديهيّ أنّ هذا الكون زاخر جيّاش بصنوف الحِكَم والمفاهيم والأسرار الّتي لا تدركها إلّا العقول الواعية المرهفة، وهي متفاوتة في قوّة الوعي والإدراك تفاوت أجهزة الراديو وأبعاد طاقته.

وقد أعدّ الله عزّ وجلّ الأنبياء عليهم السلام ـ حين أنشأهم ـ إعداداً خاصّاً ومنحهم عقولاً جبّارة، ووعياً خارقاً، وإحساساً مُرهفاً يؤهِّلهم لاستلهام الوحي ومفاهيم الشرائع وأسرار ما وراء الحياة، ليحيلوها إلى الناس صوراً رائعة زاهية في إطار المبادئ والنّظم والآداب السماوية الرفيعة.

نبوّة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم
ومعجزته الخالدة

نبوّة نبيّنا الأعظم محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم :

لقد عرفت من دلائل النّبـوّة السالفة أنّ من ٱدّعى النّبـوّة في العصور الغابرة وأظهر المعجز مقروناً بدعواه، وجب تصديقه وٱتّباعه، إذ المعجز من صنع الله تعالى، وحاشاه سبحانه أن يجريه على يد الكاذب، ويوقع الناس بالجهل والضّلال.

وبذلك تثبت نبوّة الأنبياء والمرسلين عبرَ القرون السالفة والأجيال المتعاقبة.

وبهذا البرهان نفسـه، والحجّة الواضحة، ثبتت نبـوّة نبيّـنا الأعظم محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث أنّه ٱدّعى النّبوّة وأظهر المعجز مقترناً بدعواه، وهذا أمر ثابت لا ريب فيه.

وقد أيّده الله تعالى وصدّقه بصنوف الخوارق وأنواع المعاجز المادِّية والروحيّة حتّى سجّل التاريخ له ألف معجزة أو تزيد، بيدَ أنّه صلى الله عليه وآله وسلم فاقَ الأنبياء عليهم السلام كلّهم بمعـجزة فريدة خالدة لانظـير لها في دنيا المعـجزات، وهي (القرآن الكـريم) الّذي لا ينضب معينه ولا يخبو ضوؤه الوهّاج عبرَ الحياة.

وقد جاء القرآن الكريم معـجزاً بفصـاحته النادرة، وبلاغته الفذّة، وأسـلوبه المثالي الفريد.

وجاء معجزاً بمبادئه الخالدة ومثله العُليا، وتشريعاته الحكيمة الملائمة لأطوار الحياة الصاعدة، ومواكبة البشرية في كلّ عصر وجيل.

وجاء معجزاً بما حواه من أسرار العلوم، وحقائق الكون والحياة الّتي ٱكتشف العلم الحديث طرفاً منها بعد ٱزدهاره واتِّساع آفاقه.

وجاء معجزاً بما قصّه من أنباء الغيب وسِيَر الماضين وأحداث المستقبل، وما كشفه من أسرار المنافقين، ومكائدهم الهدّامة.

وجاء معجزاً بتناسقه وتناغمه فكراً وأسلوباً، لفظاً ومحتوىً، فلا ترى فيه أثراً للتناقض والإختلاق.

وجاء معجزاً بظهوره على لسان نبيٍّ أمِّيّ لم يألف القراءة والكتابة، ولم يتلقّ العلم والعرفان من أحد مِنَ الناس، وإنّما عاش في محيط جاهليّ متخلِّف، وأمّة سادرة في الجهل والضّلال.

ولا يستطيع الباحث أن يتبيّن جوانب إعجاز القرآن وصوره الزاهية المشرقة إلّا بدراستها بشيء من الشّرح والتفصيل يجلوان مفاهيمها ويبرزان سماتها، وإليك طرفاً من ذلك:

١ ـ الإعجاز البلاغي:

البلاغة صناعة دقيقة، وفنّ جميل رفيع، لا يتذوّقه إلّا المولعون بجماله وإمتاعه، ولا يدرك أسراره إلّا العارفون بخصائصه ومزاياه.

وقد كان العرب في العصر الجاهليّ أعلام الفصاحة وفرسان البلاغة وعشّاق البيان، وقد ٱزدهرت في ربوعهم صناعة الشعر وفنّ اللّسن، فكانوا يعقدون المحافل السنوية الحاشدة للمباراة الشعرية والتنافس على السبق فيها.

ولمّا تحدّاهم رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، بهرتهم بلاغته المعجزة، وأدهشهم أسلوبه الفريد، وراعهم بيانه الساحر الأخّاذ، ورأوا فيه أسلوباً يتميّز عن أساليب العرب، ويسمو عليها جميعاً، ما أعجزهم عن مساجلته ومجاراته.

وكلّما ٱستثار النّبيّ ﷺ همّهم بمحاكاة القرآن أو بسورة واحدة منه، عجزوا عن ذلك رغم اشتهارهم وسبقهم في ميادين البلاغة والبيان، وكان مصيرهم الفشل والإخفاق: وهذا برهان على إعجاز القرآن، وتساميه عن طاقات العرب وقدراتهم البلاغية.

ولئن عجز العرب البلغاءُ المَقاوِلُ عن مساجلة القرآن ومضاهاته، كان غيرهم أشدّ عجزاً وأكثر قصوراً عن ذلك:

﴿قُل لَئِن ٱجْتَمَعَت الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أن يأتُوا بِمِثْلِ هٰذا القُرْآنِ لا يأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كانَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. (الإسراء / ٨٨)

وللإعجاز البلاغي صور خلّابة:

فمن صورها (الإيجاز) وهو التعبير عن المعاني الواسعة بألفاظ وجيزة، وأسلوب رصين جذّاب كما تصوّره الآيات الكريمة التالية:

﴿وَلَكُم في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألْباب﴾. (البقرة / ١٧٩)

﴿وأوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسى أن أرْضِعِيهِ فإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فألقِيهِ في ٱليَمِّ ولا تَخافي ولا تَحْزَني إنّا رادُّوهُ إلَيْكِ وجاعِلُوهُ مِنَ ٱلمُرْسَلِين﴾. (القصص / ٧)

وقد حوت هذه الآية الكريمة رغم وجازتها وقلّة ألفاظها: أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين.

﴿وَقِيلَ يا أرْضُ ٱبْلَعِي ماءَكِ، ويا سَماءُ أقْلِعِي، وغِيضَ ٱلماءُ وقُضِيَ ٱلأمْرُ وٱسْتَوَت عَلَى ٱلجُودِيّ وقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظّالِمين﴾. (هود / ٤٤)

وقد بهرت قريشاً هذه الآيات الكريمة وراعتهم بلاغتها، فعمدت إلى القصائد السّبع الّتي علّقتها على الكعبة المعظّمة اعتزازاً ببلاغتها وأدبها الرّفيع، فأنزلوها عنها حياءً وخجلاً من القرآن.

وٱستمع الوليد بن المغيرة إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو عليه آيات من القرآن الكريم، فقال مبهوراً بروعة القرآن وبلاغته الخارقة:

«والله إنّ لقوله الّذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطَلاوة، وإنّ أعلاهُ لُمثمر، وإنّ أسفله لُمغدق، وإنّه ليعلو وما يُعلى، وإنّه ليُحطِّم ما تحته».

ويقصّ علينا هشام من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قصّة أولئك الزنادقة الّذين حاولوا معارضة القرآن ومساجلته فآبوا بعد طول الوقت وجهد المعاناة بالخيبة والإخفاق، فقال:

«اجتمع في بيت الله الحرام أربعة من مشاهير الدهريّة وأعاظم الأدباء وكبار الزنادقة، وهم: عبدالكريم بن أبي العوجاء، وأبو شاكر ميمون بن ديصان، وعبدالله ابن المقفّع، وعبدالملك البصريّ، فخاضوا في الحجّ ونبيّ الإسلام، وما يجدونه من الضّغط على أنفسهم من قوّة أهل الدِّين. ثمّ ٱستقرّت آراؤهم على معارضة القرآن الّذي هو أساس الدِّين ومحوره، ليسقط ٱعتباره من معارضتهم إيّاه ومباراتهم له، فتعهّد كلّ واحد منهم أن ينقض ربعاً من القرآن إلى السنة الآتية، فإذا انتقض كلّه وهو الأصل انتقض كلّما يُبنى عليه أو يتفرّع منه.. فتفرّقوا على أن يجتمعوا في القابِل.. ولّما اجتمعوا في الحجّ القابِل، وتساءلوا عمّا فعلوا؟

اعتذر ابن أبي العوجاء قائلاً: إنّه أدهشته آية: ﴿**قُلْ لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاّ ٱللهِ لَفَسَدَتا**﴾، فأشغلته بلاغتها وحجّتها البالغة..

واعتذر الثاني قائلاً: إنّه أدهشته آية: ﴿**ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنّ ٱلّذينَ**

تَدْعُونَ من دُونِ ٱللهِ لَن يَخْلِقُوا ذُباباً وَلو ٱجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يَسْلِبْهُم الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطّالِبُ وٱلمَطْلُوب﴾، فأشغلته عن عمله..

وقال ثالثهم: أدهشتني آية نوح: ﴿وَقِيلَ يا أرْضُ ٱبْلَعي ماءَكِ، ويا سَماءُ أقْلِعِي، وغِيضَ ٱلماءُ وقُضِيَ ٱلأمْرُ وٱسْتَوَت عَلَى ٱلجُودِيّ وقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظّالِمين﴾، فأشغلتني عن الفكرة في غيرها.

وقال رابعهم: أدهشتني آية يوسف: ﴿فَلَمّا ٱسْتَيْأسُوا مِنْهُ خَلصُوا نجيّا﴾، فأشغلتني بلاغتها الموجزة عن التفكير في غيرها.

قال هشام: وإذا بأبي عبدالله الصادق عليه السلام يمرّ عليهم ويُومي إليهم قائلاً:

﴿قُل لَئِنِ ٱجْتَمَعَت ٱلإنسُ وٱلجِنُّ على أن يأتُوا بِمِثْلِ هٰذا ٱلقُرْآنِ لا يأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كانَ بَعْضَهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.(١) (الإسراء / ٨٧)

قال الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) ص ٣٨ ـ ٣٩:

«إنّ نظم القرآن على تصرّف وجوهه وٱختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد... ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرّف البديع والمعاني اللّطيفة والفوائد الغزيرة والحِكَم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطّول وعلى هذا القدر. وإنّما تُنسَب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة... وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة».

---

(١) المعجزة الخالدة، للسّيّد هبة الدّين الشّهرستاني.

وقال الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن)، ص ٢٦٩:

«من ذلك يخلص لنا أنّ القرآن الكريم إنّما ينفرد بأسلوبه، لأنّه ليس وضعاً إنسانياً البتّة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو مَنْ جاء بعدهم إلى هذا العهد».

ويحسن بي وأنا أتحدّث عن الإعجاز البلاغي أن أشير إشارة لامحة إلى الخصائص الباهرة، والروائع المشرقة الّتي إزدان بها أسلوب القرآن الكريم، وتميّز بها عن أساليب جميع البلغاء، المجلِّين في ميادين اللّسن والبلاغة، وهي:

أ ـ روعة التصوير:

وهي: من أبرز خصائصه ومزاياه «فطريقة التصوير هي: أجمل طرائق التعبير، وأفضلها في الفنّ والدِّين، فالتصوير يُعبِّر عن المعنى الذهني، والحالة النفسيّة، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور بصورة تمثيلية، فيها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجدِّدة، فإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة.

وإذا القصص والحوادث والمناظر شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أُضيف إليها الحِوار فقد ٱستوت لها كلّ عناصر التخييل.

فيما يكاد يبدأ العرض حتّى يحيل المستمعين نظّارة، وحتّى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث، فينسى المستمع أنّ هذا كلام يُتلى، أو مَثَل يُضرَب، ويتخيّل أنّه: منظر يُعرَض، وحادث يقع.

فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الإنفعال بشتّى الوجدانات المنبعثة من الموقف، وهذه كلمات تتحرّك بها الألسنة فتنمّ عن الأحاسيس المُضمرة.

فوظيفـة الفنّ الأولى هي: إثارة الإنفعالات الوجدانيـة وإشاعة اللّذّة الفـنِّية بهذه الإثارة، وتغذية الخـيال بالصّور وكلّ تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفنّ الجميل»[١].

ب ـ حلاوة الجرس وعذوبة النّغم في أسلوب القرآن:

وتلك الحلاوة هي: من أبرز خصائصه، وأروع مزاياه، لا تباريه فيها الكتب السماوية، ولا تلحق شأوه صور النّـثر الفنِّي في أرقى عصـور البلاغة، وأشهر عمالقة الفكر والأدب.

فلا يستمتع قارِئُها أو سامعها بما يستمتع به قارئ القرآن وسامعه من مشاعر النّشوة والغبطة الّتي تملأ النّفس وتهزّ المشاعر.

ولا تستثير روافد الخوف والرّجاء، والرّهبة والرّغبة في النّفوس استثارة القرآن الكريم بنغماته العذبة، وحلاوة إيقاعه، وقوّة سلطانه.

وهذه الظاهرة القرآنية هي: «إشعاع للنّظم الخاص في كلِّ موضع، وتابع لقصر الفواصل وطولها. كما هو تابع لانسجام الحروف في الكلمة المفردة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة».

ويمكن تعليل تلك الظاهرة بأنّها: من أسرار إعجاز القرآن ومعطيات مفاهيمه السامية، وجاذبيّته الروحيّة المدهشة، أو هو مزيج من خصائصه الفكرية والبلاغية !!

وفيما يلي عرض خاطف لطرف من الآيات الكريمـة، تجسِّـد تلك الظاهـرة، وتُصوِّرها تصويراً معبِّراً.

---

(١) مشاهدة القيامة في القرآن، بتصرّف.

﴿إنّ ٱلّذينَ قالُوا رَبُّنا ٱللهُ ثُمّ ٱسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلمَلائِكَةُ ألّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأبْشِرُوا بِالجَنَّةِ ٱلّتي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أوْلِياؤُكُمْ في ٱلحَياةِ ٱلدُّنْيا وَفي ٱلآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهي أنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعا إلى ٱللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إنَّني مِنَ ٱلمُسْلِمِينَ﴾.

(فصِّلت / ٣٠)

﴿ٱلّذينَ آمَنُوا بِآياتِنا وكانُوا مُسْلِمِين * ٱدْخُلُوا ٱلجَنّةَ أنتُمْ وأزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطافُ عَلَيْهِم بِصِحافٍ مِن ذَهَبٍ وأكْوابٍ وفِيها ما تَشْتَهِيهِ ٱلأنفُسُ وتَلَذُّ ٱلأعْيُنُ وأنتُمْ فيها خالِدُونَ﴾. (الزّخرف / ٦٩ ـ ٧١)

﴿إنّ ٱلأبْرارَ لَفي نَعيمٍ * عَلى ٱلأرائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ في وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتامُهُ مِسْكٌ وفي ذٰلِكَ فَلْيَتَنافَسِ ٱلمُتَنافِسُون * وَمِزاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِها ٱلمُقَرَّبُونَ﴾. (المطفِّفين / ٢٢ ـ ٢٦)

﴿إذْ يَتَلَقّى ٱلمُتَلَقِّيانِ عَنِ ٱليَمِينِ وعَنِ ٱلشِّمالِ قَعِيدٌ * ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجاءَتْ سَكْرَةُ ٱلمَوْتِ بالحَقِّ ذٰلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * ونُفِخَ في ٱلصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلوَعِيدِ * وجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هٰذا فَكَشَفْنا عَنكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱليَوْمَ حَدِيدٌ * وَقالَ قَرِينُهُ هٰذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ * ألقِيا في جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّارٍ عَنِيدٍ * مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيب﴾. (ق / ١٨ ـ ٢٦)

﴿لَيْسَ ٱلبِرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلمَشْرِقِ وٱلمَغْرِبِ وَلكِنَّ ٱلبِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وٱليَوْمِ ٱلآخِرِ وٱلمَلائِكَةِ وَٱلكِتابِ وٱلنَّبِيِّينَ وآتى ٱلمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوي ٱلقُرْبى وَٱليَتامى وٱلمَساكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وٱلسَّائِلِينَ وفي ٱلرِّقابِ وَأقامَ ٱلصَّلاةَ وآتى ٱلزَّكاةَ وٱلمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا وٱلصَّابِرِينَ في ٱلبأساءِ وٱلضَّرّاءِ وحِينَ ٱلبَأْسِ أولٰئكَ ٱلّذِينَ صَدَقُوا وَأولٰئكَ هُمُ ٱلمُتَّقُون﴾. (البقرة / ١٧٧)

ج ـ صيانة القرآن الكريم من التحريف:

لقد صان الله تعالى القرآن وحفظه من عوادي الدّسّ والتحريف الّتي ٱنتابت الكتب السماوية السالفة، فكدّرت صفاءها، وأوهنت قِيَمها، ممّا يشهده القارئ في الأبحاث التالية:

أمّا القرآن الكريم: فقد أحاطته العناية الإلهٰية وصانته من تلك الطوارئ، فَظَلَّ مُحتفظاً بطابعه السماويّ الأصيل، مبرّءاً من ضروب العبث والدّسّ، نقيّاً وضّاءً كعهده غداة زفّته السماء إلى الأرض، وأطلّ به الوحي الإلهٰي.

ومن الثابت أنّ الأمين جبرئيل عليه السلام كان يُبلِّغ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عن الله عزّ وجلّ ـ الآية أو الآيات القرآنية، أو السورة الكاملة، وبعد استلهامه صلى الله عليه وآله وسلم مفاهيم القرآن وآياته الكريمة، كان يُبلِّغها أصحابه، ويستحفظهم إيّاها، فيحفظونها حفظاً مُتقناً.

كما كان يأمر كتّاب الوحي بتسجيلها وكتابتها، بعد أن يُطلِع الفريقين: الحفّاظ والكتّاب على ترتيب الآيات وتحديد مواطنها من السّور.

فما فارقَ صلى الله عليه وآله وسلم الحياة الدّنيا، وٱرتحل إلى فردوسه الأعلى حتّى كان القرآن بأسره محفوظاً ومسجّلاً عند الكُثُر من صحابته.

وبعد وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أدركَ ذَوُوْ الحِجى والرأي ضرورة جمع القرآن وتدوينه، حرصاً على صيانته، واختلاف القرّاء فيه.

وكان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في طليعة المبادرين إلى تحقيق هذا الواجب المقدّس، فقد روى الأثبات عنه أنّه قال:

«لمّا قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقسمتُ أنْ لا أضع ردائي على ظهري حتّى أجمع ما بين اللّوحين، فما وضعتُ ردائي حتّى جمعتُ القرآن».

ومن هنا قال الصّحابيّ الجليل ابن مسعود:

«إنّ عليّاً جمعه وقرأ به، فإذا قرأ فاتّبعوا قراءته»[1].

وروى البخاري والترمذي:

«أنّ أبا بكر وعمر أمرا زيد بن ثابت بعد مقتل أهل اليمامة بجمع القرآن، فجمعهُ من الرِّقاع والعُسُب(*) واللّخاف أي الخزف، ومن صدور الرِّجال، فكانت الصّحف عند أبي بكر، حتّى تُوفِّي، ثمّ عند عمر حتّى تُوفِّي، ثمّ عند حفصة بنت عمر.

فلمّا كان زمان عثمان، قدمَ حذيفةُ على عثمانَ، وكان يغازي أهل الشام، فقال:

أدرِك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسلَ عثمان إلى حفصة أنْ أرسلي إلينا بالصّحف ننسخها بالمصاحف ثمّ نردّها إليكِ.

فأرسلت بها إليه، فأمرَ زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرّحمان بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصحف، وقال عثمان: للرّهط القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنّه نزل بلسانهم، ففعلوا، حتّى إذا نسخوا الصّحف في المصاحف، ردّ عثمان الصّحف إلى حفصة، وأرسلَ إلى كلِّ أفقٍ بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كلِّ صحيفة أو مصحف أنْ يُحْرَق»[2].

«وما زال المسلمون من الملوك والأمراء وغيرهم يتنافسون في تحسين كتابته بأنواع الخطّ، ويتبارون في تجويد قراءته، يتلقّاه خلفهم عن سالفهم، إلى العصر الأخير الّذي ظهرت فيه المطابع، فطُبِعَ ألوف الألوف من المصاحف في مصر والآستانة والهند وبلاد فارس وأوروبا مع الإتقان والضّبط التامّين.

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٤١٤.

(*) في الأصل: العُسُف.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١٤.

وهذا تحقيق لوعد الله تعالى: ﴿إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا ٱلذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظُون﴾ (الحجر: ٩).

د ـ سلامة القرآن الكريم من الإختلاف والتناقض:

من الثابت في تاريخ الباحثين والمؤلِّفين ـ عبرَ العصور القديمة والحديثة ـ أنّ معظم النابهين من قادة الفكر، وأعلام العلم، الّذين نمّقوا الأسفار الرائعة وألّفوا الكتب القيّمة، قد تجلّى لهم أو لناقديهم ما شابها ومسّها من الخطأ والتناقض، نظراً لِضَعفِ الإنسان، وانتفاء الكمال عنه.

من أجل ذلك ٱضطُرَّ أربابُها إلى تصحيح مفاهيمها الخاطئة، وتدارك ما لابسها من الشّطط والإختلاف.

وٱنطلاقاً من هذا الواقع، نُدرِك بجلاء ووضوح عظمة القرآن الكريم، وعصمته ونزاهته من جميع النقائص والمآخذ أسلوباً ومحتوى، لانبثاقه من فيض حكمة الله تعالى، ومشارق وحيه المقدّس، وكماله المطلق.

﴿أفَلا يَتَدَبّرونَ ٱلقُرْآنَ ولو كانَ مِن عندِ غَيرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فيه ٱختِلافاً كثيراً﴾.
(النِّساء / ٨١)

أي ولو كان من عندك لا من عند الله الّذي أرسله به، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وذلك لأسباب عديدة:

١ ـ لا يستطيع أي مخلوق تصوير الحقائق كما صوّرها القرآن الكريم بلا اختلاف ولا تفاوت في شيء منها.

٢ ـ أنّه حكى عن الماضي الّذي لم يشاهده سيّد الرّسل محمّد ﷺ، ولم يقف على تاريخه وعن الآتي، فوقع ما أنبأ به، وعن الحاضر، فأخبر عن خبايا الأنفس، ومكنونات الضمائر.

٣ ـ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد، وقواعد الشرائع، وسياسة الشعوب، مع عدم الإختلاف والتفاوت في شيء من ذلك.

٤ ـ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله في سنن الإجتماع، ونواميس العمران، وطبائع الملل، مع إيراد الشواهد، وضرب الأمثال، وتكرار القصّة الواحدة بالعبارات البليغة، تنويعاً للعبرة، وتلويناً للموعظة، واتفاق كلّ ذلك وتواطئه على الصِّدق وبراءته من الإختلاف والتناقض.

٥ ـ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول، وألوان العِبَر في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السماوات، فقد تكلّم على الخلق والتكوين، ووصف جميع الكائنات: كالكواكب ونظامها والرِّياح والبحار والحيوان والنّبات وما فيها من الحِكَم والآيات، وكان في كلّ ذلك يؤيِّد بعضه بعضاً، لا تفاوت فيه، ولا اختلاف بين معانيه.

٦ ـ أنّه أخبر عن عالَم الغيب والدّار الآخرة وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل، مع الالتئام بين الآيات الكثيرة، وهو: غاية الغايات في ذلك عند مَنْ أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

وقد جرت العادة بأنّ مَنْ يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة لا يتذكّر جميع ما سبق له في السِّنين الطِّوال ولا يستحضره حتّى يجعل الآخر موافقاً للأوّل، مع أنّ بعض الآيات كان ينزل في أيام المحن والكروب، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام.

إلى أنّ كرّ الغداة ومرّ العشي لا يزيده إلّا جدّة، ولا يزيد أحكامه إلّا ثباتاً ورسوخاً.

وكلّما اتّسعت دائرة المعارف، ونمت أحوال العمران، إزداد إيمان الناس به، إذ تتوثّق روابط الصِّلة بين الدِّين والعلم، وتتظاهر أحكامه مع نواميس الإجتماع

وشؤون الكون.[1]

وقد أثار بعضُ المتحذلقين من أعداء الإسلام والمناهضين له شُبهات واعتراضات حول القرآن الكريم تلبيساً وإغواءً للمغفّلين والسُّذَّج من المسلمين.

وهي شبهات غبيّة تُعرِب عن جهلهم بحقائق القرآن وبلاغته المعجزة، وعن تخبّطهم وخلطهم في تفسيره حسب أهوائهم المحمومة، وتجنّياتهم الصّارخة.

حسبك أنّهم انتزعوا تلك الشّبهات وجرّدوها، ممّا فنّدها وزيّفها الباحثون المسلمون في كتب التفسير، وأسفار الجدل والمناظرة:

كإظهار الحقّ للشيّخ رحمة الهندي، والهدى إلى دين المصطفى للحجّة البلاغي، وأدلّة اليقين في الرّدّ على مطاعن المبشّرين للأستاذ عبدالرّحمن الحيرزي...

فكان الناقدون كما قال الشاعر:

وعين الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنّ عين السّخط تُبدي المساويا

هـ ـ حكمة نزول القرآن مجزّءاً:

نزل القرآن الكريم مجزّءاً خلال ثلاث وعشرين سنة، كانت تنزل الآية الواحدة، أو الآيات المعدودات منه، حسب الأسباب والدّواعي المقتضية لنزولها.

والنازل منها في مكّة يُسمّى مكّيّاً، والنازل في المدينة يُسمّى مدنيّاً.

ولا ريبَ: أنّ نزول القرآن مجزّءاً ومفرّقاً حكماً بالغة وأهدافاً سامية تُجملها النقاط التالية:

١ ـ إنّ العرب كانوا أمّيّين، يندر فيهم القارئ والكاتب، فلو نزل القرآن كلّه

(١) تفسير الشيخ المراغي، ج ٥، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، بتصرّف واختصار.

مرّة واحدة، لعجزوا عن حفظه وفهمه وكتابته. ولكان معرّضاً للتغيير والضّياع، وقلّة الإستفادة منه.

٢ ـ إنّ العرب كانت تشيع قبل الإسلام عادات مرذولة كشرب الخمر، ولعب الميسر، ووأد البنات، وأكل الرِّبا، وقطع الطّريق... فحرّم الله عليهم تلك الرّذائل..

وكذلك فرض عليهم فروضاً جديدة، كالصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ وغيرها، ولكنّه تدرّج بهم في التحريم والتكليف، فلم يُحرِّم عليهم المحرّمات كلّها دفعةً واحدةً، ولم يفرض الفروض كلّها في وقتٍ واحد، بل تدرّج في الحالتين، رحمةً بهم وشفقةً عليهم، وترغيباً لهم في الدِّين، وهذا التدرّج يقتضي أن ينزل القرآن مفرّقاً.

٣ ـ إنّ النّبيّ ﷺ وأصحابه كانوا يحتاجون إلى كشف الشُّبه في بعض المسائل الدينية، فينزل الوحي كاشفاً لشُبههم مرشداً إلى الصّواب.

٤ ـ إنّ في نزوله مفرّقاً إيناساً للنّبيّ ﷺ وتثبيتاً لقلبه، بتتابع الوحي وكثرة اتِّصاله بالخالق جلّ شأنه، وفي هذا قال الله تعالى:

﴿وقالَ الّذينَ كَفَرُوا لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلقُرْآنَ جُمْلَةً واحِدَةً كذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ ورتّلْناهُ تَرْتيلاً﴾[1] (الفرقان/ ٣٢)

و ـ حكمة التكرار في القرآن الكريم:

١ ـ فحوى التكرار:

وهو: تكرار بعض الآيات القرآنية، ذات المحتوى الواحد، وصياغتها في كلِّ عَرْضٍ بعبارات متمايزة، وأسلوب بلاغي رفيع.

---

(١) المرشد في الدِّين الإسلامي، لجماعة من الأساتذة المصريين، ج ٢، ص ٢.

كقصص الأنبياء عليهم السلام الّتي كرّر القرآن الكريم ـ عِبْرَ سوره ـ مشاهدها وأحداثها، وردّدها بأساليبه الفذّة: تفصيلاً وإجمالاً، إطناباً وإيجازاً، حسب مقتضيات المواقف والحالات.

وكمشاهد الحوار العاصف، والتلاوم العنيف، بين المغويين الضّالِّين، وبين الغواة المضلِّلِين الّذين زجّوهم في غمرة الضّلال والعذاب.

٢ ـ ضرورة التكرار:

للقرآن الكريم: مبادِئُهُ الخالدة، ومثله العُليا، ذات الآثار الإيجابية في تهذيب البشر، وتكاملهم ديناً وأخلاقاً، شعوراً وسلوكاً.

وللقرآن كذلك: طريقته الهادفة، وأسلوبه المتميِّز في عرض تلك المبادئ والمُثُل، فتارةً يعرضها مرّةً أو مرّتين، وأخرى يستعيد عرضها مرّات جمّة، تبعاً لقيمها ومعطياتها الإصلاحية، وقدرة المخاطَبين بها على هضمها وٱستيعابها.

من أجل ذلك كان التكرار ضرورة ملحّة في توعية الأمّة الجاهلية، وعلاج أدوائها المستعصية، وانتشالها من متاهات التسيّب والضّياع الديني والإجتماعي والأخلاقي... الّتي عاشتها قروناً وأجيالاً.

وتلك مهمّة شاقّة عسيرة، لا تتسنّى إلّا بعلاج تلك الأدواء الجاهلية علاجاً جذريّاً، وٱجتثاث دوافعها من الأعماق، وٱستبدالها بالمفاهيم القرآنية، ومُثُله الرائدة، وغرسها وتركيزها في الوعي الجاهلي، بأسلوب شيِّق جذّاب يستهوي العقول والقلوب، وتعاهد ذلك الغرس المبارك بعوامل ٱلنموّ والإزدهار.

وهذا ما فعله القرآن الكريم بأسلوبه الحكيم، وتكراره المتواصل، وبلاغته الآسرة.

فليس القرآن كسائر الكتب العلمية والفنّية، الّتي يكتفي مؤلّفوها بعرض مفاهيمها وموضوعاتها مرّة واحدة، وإنّما هو كتاب سماويّ فذّ خلّاق، يتولّى صياغة الإنسان، وتسديده ديناً وضميراً، شعوراً وسلوكاً، علماً وأخلاقاً...

٣ ـ حكمة التكرار:

ولهذه الحكمة صور ومصاديق نجملها في الوجوه التالية:

١ ـ إنّه من مظاهر التفوّق والإبداع في البيان، ومن آيات البلاغة الفائقة.

فالتعبير عن المفهوم القرآني الواحد، أو المفاهيم العديدة المتشابهة وتكرارها ـ في كلّ مرّة ـ تصويراً فنّياً بديعاً، وصياغتها في أطر بلاغية رائعة، هو من أبرز خصائص القرآن وبلاغته المعجزة.

حسبك أنّ أشهر الأدباء والبلغاء، لو كرّر في سياق خُطبه أو كُتبه ما كرّره القرآن الكريم، لجاء تكرار أولئك الأدباء مستهجناً قبيحاً يثير السأم والملل.

أمّا القرآن: فإنّه رغم تكرار آياته، ورغم تلاوته وٱستماعه ليلاً ونهاراً، لا يزال غضّاً يانعاً، يملأ النفس بهجة وإمتاعاً، ويبهر العقول جمالاً وجلالاً.

٢ ـ **الدعاية الإسلامية**: ويُعتبر التكرار وسيلة فاعلة للدعاية الإسلامية، والإعلام الديني، لانطوائه على بواعث التشويق والإغراء إلى القِيَم والمُثُل الإسلامية، وتبيان خصائصها الجليلة ومعطياتها الجمّة، وقدرتها على حلّ مشاكل الإنسانية، وإشاعة السعادة والسلام في ربوعها الفسيحة.

وهذا ما ٱستهدفه القرآن عبرَ آياته المكرّرة، ومفاهيمه السامية.

وقد ٱنتهجت الدول المتحضّرة هذا الأسلوب، وتذرّعت به في دعاياتها ووسائل إعلامها، في كافّة الحقول السياسية والإجتماعية والإقتصادية... وكرّرت في

خُطبها ونشراتها أغراضها المُعلنة بالألفاظ البرّاقة، والعبارات الرنّانة، والأساليب الشيّقة الجذّابة، تحقّياً لأمانيها المنشودة.

وهكذا درجت مدارس الأحداث والفتيان على تلقينهم المفاهيم الوطنية، عِبْرَ الأناشيد الحماسية، المُفعمة بحبِّ الوطن وتعزيزه، ومناصرته، وتكرار هذه المفاهيم تكراراً متواصلاً، لإذكاء الوعي الوطني، وتعميقه في نفوسهم.

٣ ـ أصول الدِّين: وهكذا يشهد الباحث المتتبّع: أنّ أكثر المفاهيم عرضاً وتكراراً هي أصول الدِّين ومفاهيم العقيدة، وقد ٱستكثر القرآن ترديدها وتكرارها لأمرين:

١ ـ خطر موضوعها، وجلالة قِيَمها في عالم الشرائع والأديان السماوية.

٢ ـ أنّ المخاطَبين ـ في فجر الإسلام ـ كانوا مختلفي الملل والنِّحل، فيهم الجاحد لله عزّ وجلّ، وفيهم المُشرِك، وفيهم عبّاد الأصنام والأوثان.

فكان عليه أن يوجِّه تلك الفئات المسيخة عقلاً ووجداناً وينقذها من واقعها السيِّئ، ووضعها المزري، الملتاث بألوان السّخف والخرافات الجاهلية، ممّا يتطلّب المزيد من الحكمة، وقوّة العارضة، وبلاغة التعبير، وعرض البراهين الدامغة وتكرارها المتواصل، لانتشالها من غمرات الجحود والشِّرْك، ونقلها إلى معارج العقيدة والإيمان.

أرأيتَ كيف يحاول البصير وصف الأشياء الحسِّية لفاقد البصر، وتذرّعه بألوان الأساليب التمثيلية والبلاغية المعبِّرة.

وهذا ما ٱستهدفه القرآن الكريم بتكرار مفاهيمه الرائدة، وترديدها ترديداً متواصلاً ليجلو حقائق العقيدة، ومبادئ الإسلام لذوي البصائر الكليلة، والوعي المتحجِّر، حتّى استنارت بتوجيهه وهداه، وتعمّقت في نفوسها مُثُل العقيدة والإسلام.

ففي حقل الإيمان بالله عزّ وجلّ:

حشد القرآن طرفاً ضخماً من آياته الكريمة المؤطّرة بشتّى الأطر والأساليب البلاغية، والدالّة على وجود الله تعالى، مبرهناً بعجائب صنعه على وجوده، وبدقّة إبداعها على قدرته، وبغاياتها السامية على حكمته، وبنظامها الرّتيب، ووحدة قوانينها على وحدانيّته.

وفي حقل توحيد الله تعالى:

كرّر القرآن واقع التوحيد، وركّز مفهومه، بشتّى الوسائل البلاغية والمنطقية، وأثبته بالبراهين العقلية تارةً، وبضرب الأمثال المؤكِّدة عليه أخرى، وبتفنيد شُبه المشركين ومزاعمهم تارات مكرِّراً ذلك عوداً وبدءً، حتّى ٱستطاع أن يُطهِّر عقول المشركين وقلوبهم، من ضلالات الشِّرْك، وخرافاته المقيتة البشعة.

وفي حقل النّبوّة:

عمد القرآن الكريم إلى عرض آياته الوافرة في هذا الموضوع، مكرِّراً فيها ضرورة إرسالهم، وغايات بعثتهم.

وراحَ بعد هذا يقصّ على الملأ الجاهليّ أنباء المُكذِّبين للأنبياء ومجابهتهم بألوان التحدِّي والإزدراء: كالكذب، والسِّحر، والجنون... وتفصيل ما حاقَ بالمكابرين من ضروب الكوارث العاجلة، والعقاب والعذاب الآجلين، وتكرار قصصهم تكراراً ملحّاً، لاستلهام عِبَرها الخطيرة، وحِكَمها البالغة، ولاستدراجهم إلى حظيرة الإسلام، والإيمان بنبوّة سيِّد الرّسل، وخاتم الأنبياء محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وفي حقل المعاد:

استكثر القرآن ذكره، وترديد واقعه، في أغلب سوره، ومعظم آياته، وأطنب في وصف مشاهده، ومباهج نعيمه، وأهوال عذابه، وٱستدلّ على حتميّة وقوعه

بالبراهين العقليـة، وفنّد مزاعم مُنكريه، وأبطل شُبههم، ما جعل المـعاد واقعاً ثابتاً وحقيقةً مسلّمة.

استدلّ عليه بقانون المكافآت، وإثابة المطيع، وعقوبة العاصي، ولولاه لما تمايز المؤمن عن الكافر، والمحسن عن المسيء.

وبرهنَ على إمكانه بآيات قدرة الله تعالى في إبداع خلق الإنسان، وأنّ القادر على إنشائه هو قادر على بعثه.

وأكّده بعرض صور حيّة من النّشور والبعث، تمثّلت على مسرح الدّنيا، وعاد الموتى إدراجهم إلى الحياة.

ونحو هذه البراهين الّتي يطول عرضها وذكر شواهدها القرآنية في هذا البحث الوجيز، والّتي ٱستطلعنا من خلالها حكمة التكرار وآثاره البليغة في تركيز المفاهيم القرآنية في النفوس والمشاعر.

وقد دار النّقاش بين العلماء في وجه إعجاز القرآن الكريم، أهو لبلاغته الخارقة؟ أم أنّ الله تعالى صرف العقول عن معارضته؟ فاختار جلّهم الوجه الأوّل، وٱرتأى آخرون منهم السيّد المرتضى الوجه الثاني فيما عُزي إليه.

قال سماحة آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الخوئي:

«وهذا القول في غاية الضّعف:

أوّلاً: لأنّ الصرفة إن كان معناها أنّ الله قادر على أنْ يُقدِّر بشراً على أن يأتي بمثل القرآن، ولكنّه تعالى صرف هذه القدرة من جميع البشر، ولم يؤتها لأحدٍ منهم فهو معنى صحيح، ولكنّه لا يختصّ بالقرآن، بل هو جار في جميع المعجزات.

وإن كان معناها أنّ الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن ولكنّ الله صرفهم عن معارضته فهو واضح البطلان، لأنّ كثيراً من الناس تصدّوا لمعارضة القرآن، فلم

يستطيعوا ذلك، وٱعترفوا بالعجز.

ثانياً: لو كان إعجاز القرآن بالصرفة لوجد في كلام العرب السابقين مثله قبل أن يتحدّى النّبيّ البشر، ويُطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، ولو وُجد ذلك لنُقِل وتواتر، لتكثّر الدّواعي إلى نقله، وإذ لم يُوجد ولم يُنقل كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازاً إلٰهياً، خارجاً عن طاقة البشر»[1].

والحقّ إنّ لإعجاز القرآن صوراً عديدة وجوانب مختلفة نستجليها من الأبحاث التالية:

٢ ـ الإعجاز العلمي:

ليس القرآن كتاباً علمياً بالمعنى الشائع المعروف ككتب الطبّ والهندسة والفلك والحيوان والنّبات، وإنّما هو كتاب سماويّ حافِل بأسمى وأكمل مفاهيم العقيدة والشريعة والأخلاق والآداب.

بيدَ أنّ من أبرز خصائصه ودلائل إعجازه: إشاراته اللّامحة إلى الحقائق الكونية والقضايا العلمية الّتي كانت مجهولة في عصره وخافية على الحضارات السابقة عليه أو المعاصرة له، وظلّت أسراراً مُبهمة حتّى ٱكتشفها العلم الحديث من وقت قريب.

وغدت إشارات القرآن ونظريّاته العلمية برهاناً ساطعاً على إعجازه وٱنبثاقه من وحي الله عزّ وجلّ، فليس في وسع النّبيّ ﷺ أن يُدرِك تلك الحقائق العلمية وهو الأمِّيّ الّذي زاملَ أعراب الجاهلية، وعاشَ في محيط متخلِّف، نائياً عن العواصم الحضارية وبيئاتها العلمية الشهيرة لو لم يستلهم وحي السماء ويستقي من فيضها الغامر:

---

(١) البيان في تفسير القرآن، للسيّد الخوئي.

١ ـ قال تعالى: ﴿وٱلشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ ٱلعَزِيزِ ٱلعَلِيم * وٱلقَمَرَ قَدّرْناهُ مَنازِلَ حتّى عادَ كالعُرْجُونِ ٱلقَديم * لا ٱلشّمْسُ يَنْبَغي لها أن تُدْرِكَ ٱلقَمَرَ ولا ٱللّيلُ سابِقُ ٱلنّهارِ وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾. (يس / ٣٨ ـ ٤٠)

كان اعتقاد علماء الفلك ـ منذ أمد قريب ـ أنّ الشمس ثابتة لا تريم عن مركزها السماوي. وجاء القرآن قبل أربعة عشر قرناً مُعلِناً ومُصرِّحاً بحركتها وجريها في آفاقها العلويّة: ﴿وٱلشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾، ثمّ اكتشف العلماء المحدثون بمراصدهم العتيدة النفّاذة أنّ الشمس متحرِّكة، وأنّها تجري بأسرتها الفلكية ماخرة عباب الفضاء بسرعة (٧٢) ألف كيلومتر في الساعة متّجهة نحو نجمة النّسر الواقع، فبطلت النظرية الأولى وثبت قول القرآن الكريم.

قال العالِم الفلكيّ (سيمون):

«إنّ أعظم الحقائق الّتي ٱكتشفها العقل البشريّ في كافّة العصور هي: حقيقة أنّ الشمس، والكواكب السيّارة، وأقمارها تجري في الفضاء نحو برج النّسر، بسرعة غير معهودة لنا على الأرض، يكفي لتصويرها أنّنا لو سرنا بسرعة مليون ميل يومياً، فلن تصل مجموعتنا الشمسية إلى هذا البرج إلّا بعد مليون ونصف مليون سنة من وقتنا الحاضر!!»[١].

٢ ـ ﴿وَهُوَ ٱلّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بها في ظُلُماتِ ٱلبَرِّ وٱلبَحْرِ قد فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾. (الأنعام / ٩٧)

كان المُعتقَد في النّجوم أنّها تهدي الناس في مسالك البرّ والبحر بإشعاعها الخافت ونورها الطّفيف الضّئيل، وأنّ نفعها مقصور على ذلك فحسب.

---

(١) الإسلام والعلم الحديث، للأستاذ عبدالرزّاق نوفل.

ثمّ ٱكتشف علم الفلك الحديث بمراصده الضّخمة وأساليبه العلمية أنّ للنجوم غاية أسمى وأجلّ من تلك الغاية، وهي ثبوت مواقعها من السماء، وٱستقرارها منذ آماد سحيقة في القِدَم، وعدم تبدّلها وتغيّر مظهرها إلّا بمئات الألوف من السنين، ولم يتغيّر منها إلّا الكواكب السيّارة. لذلك جعلها الله عزّ وجلّ دلائل وأعلاماً يستهدي بها السائرون في ظلمات البرِّ والبحر.

وقد أوضح القـرآن الكريم ذلك قبل (١٤) قرناً، وصرّح به في ظرف لم يَدُرْ بِخَلَدِ العلماء هذا الواقع العلميّ.

قال تعالى: ﴿ٱللهُ ٱلّذي رَفَعَ السّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونها﴾. (الرّعد / ٢)

من مظاهر السماء وآياتها المدهشة، تعلّق أجرامها الضّخمة العتيدة من الشمس والقمر والكواكب والنّجوم في آفاقها العلويّة وتماسكها عن السقوط والإنهيار دون ما سندٍ ملحوظ ودعامة مرئية يمسكها عن ذلك.

وقد لمّح القرآن الكريم عن هذا السرّ العلمي، وأشار إلى قانون الجاذبية الّذي يجتذب تلك الأجرام ويمنعها عن التبعثر ﴿رَفَعَ ٱلسّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونها﴾، وظلّ هذا السرّ خافياً مجهولاً لدى البشرية حتّى اكتشفته النهضة العلمية الحديثة.

٣ ـ ﴿ومِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْن﴾.

كشفت هذه الآية الكريمة سرّاً علمياً كان مجهولاً إلى أمدٍ قريب، فأوضحت أنّ جميع ما في الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد مؤلّف من زوجين ذكر وأنثى.

إنّ سنّة التزاوج لا تخصّ الأحياء بل تشـمل حتّى الجمادات منها، وجاء هذا المعنى في آية أخرى:

﴿سُـبْحانَ ٱلّذي خَلَقَ ٱلأزْواجَ كُلّها ممّا تُنْبِتُ ٱلأرْضُ ومِن أنفُسِـهِم ومِمّا لا يَعْلَمُون﴾. (يس / ٣٦)

قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذي مَرَجَ ٱلبَحْـرَين، هذا عَذِبٌ فُراتٌ، وهذا ملحٌ أجاج وجعل بينهما بَرْزَخاً وحِجْراً محجوراً**﴾. (الفرقان/ ٥٣)

من عجائب البحر وظواهره المدهشة، جريان نهر من الماء العـذب في غـمار مياهه المالحة المرّة، دون أن يختلط أحدهما بالآخر، وتلك الظاهرة مشهودة ومعروفة للبشر من قديم الزّمن، بيدَ أنّهم كانوا يجهلون تفسيرها العلميّ، ولم يهتدوا إليه إلّا من وقت قريب.

وقد لمّح القـرآن الكريم عنه قبل أربعـة عشر قرناً: ﴿**وَجَعَـلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً**﴾.

والبرزخ هو: الحاجز العلمي الّذي يحجر بين المائين المتلاقيين عن الإندماج والإختلاط.

ذلك: أنّ جزيئات السـوائل وذرّاتها تختلف وتتغاير في تجاذبها وتحـيّزها إلى نوعها بعـضها عن بعض، وبذلك تتـجاذب ذرّات كلٍّ منهـا مسـتقلّةً عن السـوائل الأخرى.

وهذا هو سرّ ٱحتفاظ الماء العذب باستقلاله، وعدم ٱختلاطه بماء البحر.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنا ٱلرِّياحَ لَواقِح**﴾. (الحجر/ ٢٢)

أوضحت هذه الآية الكريـمة حقيقة علميـة كانت مجهولة للناس، وهي: أنّ الرِّياح تلقِّح الأشجار والنّباتات بما تحمله في طيّاتها من ذرّات اللِّـقاح، وتنقله من بعضها إلى بعض، وبذلك تتلقّح الأشجار الّتي لا يمكن تلقيحها عن طريق الرِّياح.

ولمّا ٱكتشف علماء أوروبا هذه الحقيـقة، حسبوها من مكتشـفاتهم الخاصّة، فأعلمهم المستشرق (أجنيري)، وكان أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد:

«أنّ أصحاب الإبل قد عرفوا أنّ الرِّيح تلقِّح الأشجار والثّمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرناً».

٥ ـ وقال تعالى: ﴿**إقرأ باسْمِ رَبِّكَ ٱلّذي خَلَق * خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق**﴾. (العلق/ ١ ـ ٢)

شبّه القرآن الكريم الحيـوان المنويّ الذي يُخلَق منه الإنسان بدودة (العَلَق)، وكان هذا من آيات إعجازه، حيث لم يكـن في مقـدور البشر رؤيـة ذلك الحيـوان ووصفه، لدقّته البالغة، وعجز العين المجـرّدة عن رؤياه، وظلّ واقعه سرّاً خفيّاً حين نزول القرآن وبعده قروناً عديدة، حتّى إذا تقدّم علم الأجنّة واكتُشف المكرسكوب، سلّط أضواءه على هذا الحيوان، فإذا هو كدودة العَلَق صورة وشكلاً.

٦– وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ (المؤمنون/ ١٢-١٤)

وهنا يعرض القرآن الكريم أطوار الجنين ومراحله المتعاقبة حتّى يغدو إنساناً كاملاً وسيّاً، ويشرحها شرحاً علمياً دقيقاً قبل أن يكتشـفها علم الأجنّـة بطرائقـه الحديثة بآماد سحيقة.

ومن المدهش أن تكون حقائق الجنـين وأطواره التي أسـفر عنها العلم الحديث مطابقة لما صوّره القرآن الكريم من حالات الجنـين ومراحله حتّى ليعسر اسـتبدال ألفاظ القرآن بغيرها من الألفاظ والمصطلحات، وهذا من دلائل إعجازه.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلقِيامَةِ * ولا أُقْسِمُ بالنّفْسِ ٱللّوّامَةِ * أيَحْسَبُ الإنسانُ أن لَن نَجْمَعَ عِظامَهُ * بَلَى قادِرِينَ على أن نُسَوِّيَ بَنانَه**﴾. (القيامة/ ١ ـ ٤)

والمُراد بهذه الآية الكريمة: أيظنّ الإنسان الجاحد للبعث والحشر يوم المعاد (أن لن تُجمع عظامه) البالية، بلى نحن قادرون على جمعها وإعادتها إلى هيئتها الأولى للحشر والمكافأة، ثمّ برهن الله عزّ وجلّ على إمكان ذلك ويُسره على قدرته الخلّاقة بصياغة بنان الإنسان وهي (رؤوس أصابع اليد) صياغة مدهشة في خطوطها الثابتة مدى الحياة، والمتميِّزة بين أفراد البشر تمييزاً دقيقاً لا يتشابه بين الملايين منهم. وهذه من آيات إعجاز القرآن وأسراره الخفيّة الّتي ظلّت مكتومة في خفايا الغيب حتّى ٱكتشفت في القرن الماضي وبعد نزوله بثلاثة عشر قرن تقريباً.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿حتّى إذا أتوا عَلَى وادِ النّمْلِ قالَت نَمْلَةٌ يا أيُّها النّمْلُ ٱدخُلوا مساكِنَكُم لا يَحْطِمَنّكُم سُليمانُ وجُنُودُهُ وهُم لا يَشْعُرُون﴾. (النّمل/ ١٨)

كشفت هذه الآية واقعاً كان مجهولاً للبشر قروناً مديدة، وهو: أنّ للنّمل لغة يتفاهم ويتخاطب بها بين أفراده، وقد أيّد العلم الحديث ذلك مقرِّراً: أنّ لكلِّ نوع من الحيوان لغة خاصّة يُعبِّر بها عن أغراضه ومقاصده.

فالنّمل مثلاً يخرج للرّعي أسراباً، وحين تعثر إحداهنّ على طعام تُسِرُّ به إلى لداتها وأخدانها، فيُسْرِعنَ إلى جلبه وٱختزانه.

قال أحد الباحثين في الحيوان:

«رأيتُ أحدى نمالي مكسورة الرِّجل وأخواتها يُطْعِمْنها ويعتنين بها، وظللتُ أشهدُ منهنّ هذا المعروف مدّة ثلاثة أشهر بطولها»(١).

ولولا أن يكون للنمل لغة يتفاهم بها بين أفراده، لما ٱستطاع الإسهام بأعماله الاشتراكية ونشاطه الإجتماعي.

---

(١) محاسن الطبيعة، اللورد أفبري.

وهكذا الدجاجة، فإنّها تُخاطب صغارها بأصواتٍ خاصّة، فيُسْرِعنَ إليها ويلتقطنَ الطّعم معها، ثمّ تصوِّت أصواتاً أخرى فيركضنَ مُسرعاتٍ إلى أوكارهنّ، إلى كثير من الشواهد الّتي يطول عرضها في هذا المجال.

٣ ـ الإعجاز الغيبي:

وذلك بما جاء في القرآن الكريم من أنباء الغيب وأسراره الخفيّة الّتي يعجز البشر عن ٱستطلاعها والإحاطة بها، وله صور ثلاث:

١ ـ إخباره عن حياة الأمم الغابرة، والأنبياء السالفين لاستلهام العِبَر والعِظات من قصصهم الحكيمة الهادفة، كقصّة أصحاب الكهف، وذي القرنين، ويوسف، وموسى، والخضر ونحوها ممّا لا يعلمها العرب عامّة والنّبيّ خاصّة، لأمّيّته وبُعده عن مسارح تلك القصص ومصادرها، فجاءت برهاناً على إعجاز القرآن وصدوره عن الوحي الإلهي: كما شهدت آياته الكريمة:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هٰذا ٱلْقُرْآن وإن كُنتَ من قَبْلِهِ لَمِنَ الغافِلِين﴾. (يوسف/ ٣)

﴿تِلْكَ من أنباءِ ٱلْغَيْبِ نُوحيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمها أنتَ ولا قومكَ من قبل هٰذا﴾. (هود/ ٤٩)

ولم يكن الغرض من عرض تلك القصص ٱطّلاع البشر على أحداثها ومحتوياتها التاريخية فحسب، وإنّما كان القصد منها ٱستنباط العِبَر والعِظات من سِيَر الماضين، وعوامل سعادتهم أو شقائهم، وكيف سَعِدَ المؤمنون منهم وفازوا فوزاً عظيماً، وكيف شَقِيَ الكافرون وخسروا خسراناً مبيناً.

٢ ـ إخبار القرآن الكريم عن أحداث المستقبل ووقائعه الغيبية الآتية، وقد وقع جميع ما أنبأ به وأخبر عنه بعد أمد قريب أو بعيد، وإليك قبساً من آياته الغيبية:

١ ـ ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتُوا بِمِثْلِ هٰذا ٱلقُرْآنِ لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. (الإسراء/ ٨٨)

وقد تحقّق هذا النّبأ الغيبيّ، ولم تستطع البشرية ولن نستطيع معارضة القرآن الكريم ومحاكاته منذ نزوله حتّى يوم القيامة.

٢ ـ ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنا ٱلذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظُون﴾. (الحجر/ ٩)

وهكذا يتحقّق نبأ هذه الآية الكريمة، وحفظ الله تعالى القرآن الكريم من طوارئ التحريف والتبديل وعوادي الحرق الّتي أصابت الكتب السماوية الأخرى ومحتها من الوجود، وهو الكتاب الوحيد الّذي صانهُ الله وحفظهُ من جميع تلك الأسواء والمكائد.

٣ ـ ﴿فاصْدَع بِما تُؤْمَر وأعْرِض عَن ٱلْمُشْرِكين * إنّا كَفَيْناكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِين * ٱلّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللهِ إلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُون﴾. (الحجر/ ٩٤ ـ ٩٦)

نزلت هذه الآية الكريمة إبّان مولد الإسلام، وفي ظرفٍ كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يعاني أقسى ضروب العنت والإضطهاد من قريش، فأخبرت بهلاك نفر كانوا شديدي العداء والإستهزاء بالنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وبشّرته بقمعهم والإنتصار عليهم، وقد تحقّق ذلك حيث انتقم الله تعالى منهم، وأهلكهم في ساعة واحدة.

٤ ـ ﴿لَتَدْخُلُنّ ٱلمَسْجِدَ ٱلحَرامَ إن شاءَ ٱللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ ومُقصِّرِينَ لا تَخافُون﴾. (الفتح/ ٢٧)

هذه الآية كسابقتها بشّرت النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأصحابه بدخول مكّة بعد أن كانوا مصدودين عنها خائفين من شرور كفّارها، وقد تحقّقت هذه البشارة ودخل النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والمسلمون مكّة، كما وصفتهم الآية الكريمة: ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ ومُقَصِّرِينَ لا تَخافُون﴾.

٥ ـ ﴿غُلِبَتِ ٱلرّومُ * في أدْنى الأرْضِ وهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون * في بِضْعِ سِنِين * لِلّهِ ٱلأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرُحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللّه﴾.

(الرّوم/ ٢ ـ ٤)

وقد وقع ما أنبأت به هذه الآية الكريمة بعد بضع سنين وانتصروا على الفرس وغلبوهم ودخلوا مملكتهم.

صور من الإعجاز الغيبي:

وهو كشف القرآن الكريم عن أسرار القلوب، وخوالج الأفكار الّتي لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ، كإخباره عن نوايا المنافقين وما كانوا يبيّتونه من ضروب الكيد والتخريب للإسلام والمسلمين، ممّا أوجب ٱفتضاحهم وٱضطرارهم إلى ٱستماحة العفو والصّفح من النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿يا أيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا لا تَخُونوا ٱللّهَ وَٱلرّسُولَ وتَخونوا أماناتِكُم وأنتُم تَعْلَمُون﴾. (الأنفال / ٢٧)

قال الطبرسي رحمه الله:

«نزلت هذه الآية في أبي لُبابة الأنصاري، وذلك: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حاصرَ يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله الصّلح على ما صالحَ عليه اخوانهم من بني النّظير، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلّا أن ينزلوا على حُكْم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، فبعثه رسول الله، فأتاهم فقالوا ما ترى يا أبا لبابة؟ أننزل على حُكْم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنّه الذّبح فلا تفعلوا، فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره بذلك. فقال أبو لبابة: فوَالله ما زالت قدماي من مكانهما حتّى عرفتُ أنّي قد خنتُ الله ورسوله، فنزلت الآية فيه.

فلمّا نزلت شدّ نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتّى أموت أو يتوب الله عليَّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتّى خرّ مغشيّاً عليه، ثمّ تاب الله عليه... وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ باللهِ ما قالُوا ولَقَد قالُوا كَلِمَةَ ٱلكُفْرِ وكَفَرُوا بَعْدَ إسْلامِهِم وَهَمُّوا بما لَمْ يَنالُوا﴾. (التّوبة / ٧٤)

قال الطّبرسي رحمه الله:

«نزلت هذه الآية في أهل العقبة، فإنّهم إئتمروا في أن يغتالوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عقبة عند مرجعهم من تبوك، فأطلعه الله تعالى على ذلك»[2].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ في ٱلصّدَقاتِ فإن أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وإن لَمْ يُعْطَوا مِنْها إذا هُمْ يَسْخَطُون * وَلو أنّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ ٱللهُ ورَسولُهُ وقالُوا حَسْبُنا ٱللهُ سَيُؤْتِينا ٱللهُ مِن فَضْلِهِ ورَسُولِهِ﴾. (التّوبة / ٥٨ ـ ٥٩)

قال الطّبرسي رحمه الله:

«بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم قسماً يوم حنين، إذ جاءه حرقوص بن زهير أصل الخوارج، فقال: ٱعدِل يا رسول الله. فقال: ويلك! ومَنْ يعدِل إذا لم أعدِل، فقال عمر: يا رسول الله! إإذَنْ لي فأضرب عنقه، فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: دَعْهُ فإنّ له أصحاباً يمرقون من الدِّين كما يمرق السّهم من الرّمية. وفي حديث آخر: فإذا خرجوا فاقتلوهم، فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ في ٱلصّدَقاتِ﴾»[3].

---

(١) مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٦، نُقل باختصار.

(٢) مجمع البيان، ج ٥، ص ٥١، نُقل باختصار.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٠، نُقل باختصار.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة المنبئةِ عن أسرار الغيب وخفاياه المستورة الّتي لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ، والناطقة بإعجاز القرآن وأنبثاقه عن الوحي الإلٰهي.

روائع المعاجز المحمّديّة

ليس القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة لسيِّد الرّسل محمّد ﷺ، فقد أيّده الله بصنوف الخوارق والمعاجز المادِّية والرّوحية حتّى بلغت ألف معجزة أو تزيد.

وقد سجّلها الرّواة وتناقلوها جيلاً بعد جيل، بطرق وأسانيد توجب اليقين بصحّة أكثرها، وهي كسائر المعجزات المثبّتة لنبوّة الأنبياء السالفين في عصورهم والعصور المتعاقبة بعدهم.

فَمَن تخلّف عن عصر خاتم النّبيّين ولم يوقن بمعاجزه وآيات نبوّته رغم تواترها فهو حريّ أن لا يؤمن بسائر الأنبياء عليهم السلام ولا يصدِّق بمعاجزهم جميعاً، إذ لا سبيل إلى معرفتها والإطِّلاع عليها إلّا عن طريق الرّواة.

وإليك طرفاً خاطفاً لأبرز وأشهر المعاجز المحمّدية:

وقبل البدء في عرضها أذكِّر القارئ الكريم بما أوضحته في فلسفة المعجزات، وضرورتها في عالم النّبوّة والأنبياء، وعلى ضوء ذلك يستجلي المعاجز التالية، ويعتقدها بقناعة ويُسر:

١ ـ تسليم الجمادات على النّبيّ ﷺ:

فعن عليّ عليه السلام، قال:

«كنّا مع رسول الله بمكّة، فخرج في بعض نواحيها، فما ٱستقبله شجر ولا جبل إلّا قال له: السلام عليك يا رسول الله».

٢ ـ مجيء الشّجرة إليه:

قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة القاصعة:

«وكنتُ معه (مع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم) لّما أتاه الملأ من قريش، فقالوا له: يا محمّد! إنّك قد ادّعيتَ عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا أحد من أهل بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أجبتنا إليه وأريتناه، علمنا أنّك نبيّ ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنّك ساحر كذّاب.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لهم: وما تسألون؟

قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتّى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله على كلِّ شيءٍ قدير، فإن فعل الله ذلك لكم أتؤمنون وتشهدون بالحق؟

قالوا: نعم.

ثمّ قال: فإنّي سأريكم ما تطلبون وإنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلى خير، وإنّ فيكم مَنْ يُطرح في القليب، ومَنْ يحزب الأحزاب، ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم:

يا أيّتها الشجرة! إن كنتِ تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أنّي رسول الله، فانقلعي بعروقكِ حتّى تقفي بين يَدَيَّ بإذن الله.

فوَالّذي بعثه بالحقِّ لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دويّ شديد، وقصف كقصف أجنحة الطّير، حتّى وقفت بين يَدَي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرفرفةً وألقت بغصنها الأعلى على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وببعض أغصانها على منكبيّ وكنتُ عن يمينه صلى الله عليه وآله وسلم.

فلمّا نظر القوم إلى ذلك قالوا علوّاً واستكباراً: فَمُرْها فليأتِكَ نصفها، فأمرها بذلك، فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دويّاً، فكادت تلتفّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالوا كفراً وعتوّاً: فَمُرْ هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمرهُ صلى الله عليه وآله وسلم فرجع.

فقلتُ أنا: لا إله إلّا الله، إنّي أوّل مؤمن بك يا رسول الله، وأوّل مَنْ أقرّ بأنّ الشجرة فعلت بأمر الله تعالى، تصديقاً لنبوّتك، وإجلالاً لكلمتك.

فقال القوم كلّهم: بل ساحر كذّاب، عجيب السّحر خفيف فيه، وهل يصدّقك في أمرك إلّا مثل هذا، يعنوني».

٣ ـ إطعام الجمع الغفير من الزّاد القليل:

«رُوِيَ أنّ أصحابه يوم الأحزاب صاروا بعرض العطب لنفاد الأزواد، فهيّأ رجل قوت رجل أو رجلين لا أكثر من ذلك، فدعا النّبيّ ﷺ، فانقلبت القوم وهي ألوف معه، فدخل فقال: غطّوا إناءكم، فغطّوه، ثمّ دعا وبرك عليه، فأكلوا جميعاً، وشبعوا والطّعام بهيأته».

«ورُوِيَ أنّ أصحابه شكوا إليه في غزوة تبوك نفاد أزوادهم، فدعا بفضلة زادٍ لهم، فلم يوجد إلّا بضعةَ عشرة تمرة، فطُرِحت بين يديه، فمسّها بيده، ودعا ربّه، ثمّ صاحَ في الناسِ، فأقبلوا وقال: كلوا باسم الله، فأكل القوم وهم ألوف، فصاروا كأشبع ما كانوا، وملأوا مزاودهم وأوعيتهم، والتمرات بحالها كهيأتها يرونها عياناً لا شبهة فيها».

«وعن جابر، قال: علمتُ في غزوة الخندق أنّ رسول الله ﷺ مقوٍ ـ أي جائع ـ لمّا رأيتُ على بطنه الحجر، فقلت: يا رسول الله! هل لك في الغذاء؟ قال: ما عندك يا جابر؟ فقلت: عناق وصاع من شعير، فقال: تقدّم وأصلح ما عندك، قال جابر: فجئتُ إلى أهلي فأمرتها فطحنت الشعير وذبحت العنز وسلختها، وأمرتها أن تخبز وتطبخ وتشوي.

فلمّا فرغت من ذلك، جئتُ إلى رسول الله ﷺ، فقلت: بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله! قد فرغنا، فأحْضَرْ مع مَنْ أحببت.

فقام ﷺ إلى شفير الخندق، ثمّ قال: يا معشر المهاجرين والأنصار! أجيبوا جابراً، وكان في الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم، ثمّ لم يمرّ بأحدٍ من المهاجرين والأنصار إلّا قال: أجيبوا جابراً.

قال جابر: فتقدّمتُ وقلتُ لأهلي: قد والله أتاكِ رسول الله بما لا قبلَ لكِ به، فقالت: أعلمته أنت ما عندنا؟ قال: نعم، قالت: هو أعلم بما أتى.

قال جابر: فدخل رسول الله ﷺ فنظر في القدر، ثمّ قال: أغرفي وأبقي، ثمّ نظر إلى التنّور، ثمّ قال: أخرجي وأبقي، ثمّ دعا بصحيفة، فثرد فيها وغرف، فقال: يا جابر! أدخِل عليَّ عشرةً عشرةً، فأدخلتُ عشرةً، فأكلوا حتّى نهلوا، وما يُرى في القصعة إلّا آثار أصابعهم، ثمّ قال: يا جابر! عليَّ بالذّراع، فأتيتهُ بالذِّراع، فأكلوه، ثمّ قال: أدخِل عشرة، فدخلوا حتّى أكلوا ونهلوا، وما يُرى في القصعة إلّا آثار أصابعهم، ثمّ قال: يا جابر! عليَّ بالذِّراع، فأتيته، فأكلوا وخرجوا، ثمّ قال: أدخل عليَّ عشرةً، فأدخلتهم، فأكلوا حتّى نهلوا، وما يُرى في القصعة إلّا آثار أصابعم، ثمّ قال: يا جابر! عليَّ بالذِّراع، فأتيتـه، فأكلوا وخرجوا، ثمّ قال: أدخِل عشرة، فأدخلتهم، فأكلوا حتّى نهلوا، وما يُرى في القصعة إلّا آثار أصابعهم، ثمّ قال: يا جابر! عليَّ بالذِّراع، فأتيته فقلت: يا رسول الله! كم للشّاة من الذِّراع؟! قال: ذراعان، فقلت: والّذي بعثك بالحقِّ لقد أتيتك بثلاثة، فقال: أما لو سكتّ يا جابر لأكل الناس كلّهم من الذِّراع، قال جابر: فأقبلتُ أدخِل عشرة عشرة، فيأكلون حتّى أكلوا كلّهم، وبقِيَ والله من ذلك الطّعام ما عشنا به أيّاماً».

٤ ـ شفاء المرضى على يديه:

«أصيب رجل من أصحابه بإحدى عينيه في بعض مغازيه، فسالت حتّى وقعت على خدِّه، فأتاه مُستغيثاً به، فأخذها بيده فردّها مكانها، فكانت أحسن عينـيه،

وأصَحَّهُما وأحَدَّهُما نظراً».

وكان عليّ أرمد العين يوم خيبر، فتفلَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عينيه، ودعا له، وقال: اللّهمّ أذهِب عنه الحرّ والبرد، فما وجد حرّاً ولا برداً، وكان يخرج في الشتاء في قميص واحد».

٥ ـ إخباره بالمغيّبات:

منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم للزبير لّما لقيه وعليّاً في سقيفة بني ساعدة، فقال: أتحبّه يا زبير؟ قال: وما يمنعني؟ قال: وكيف بكَ إذا قاتلته وأنتَ ظالِم؟!

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمّار بن ياسر: تقتُلُكَ الفئة الباغية.

ومنها: إخباره بشهادة عليّ عليه السلام، وبقتل الحسين بن عليّ، وبمصارع أهل بيته عليهم السلام.

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم لسلمان رحمه الله: سيوضع على رأسك تاج كسرى، فوُضع التاج على رأسه عند فتح فارس.

ومنها: إخباره بقتال الخوارج وكفرهم.

ومنها: إخباره عن صاحبة الجمل، ونباح كلاب الحوأب عليها.

هذه نماذج من عرض واسع مفصّل للمعاجز المحمّدية، آثرتُ الإقتصار عليها خشية الإطالة والإطناب، وهي قطرة من بحر خضم.[(١)]

---

(١) نُقلت هذه المعاجز عن المجلّد ٦ من بحار الأنوار للمجلسي رحمه الله.

بشارة التّوراة والإنجيل
ببعثة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم

عرفنا من الأبحاث السالفة: أنّ من آيات نبوّة الأنبياء ودلائل رسالاتهم، نصّ السابق منهم على اللّاحق بهم، لعصمة الأنبياء عن الكذب، ونطقهم عن الله عزّ وجلّ، وصدوعهم بأمره.

ومتى تعاضد النصّ والمعجز، وتوافرا لنبيٍّ من الأنبياء، كانا برهانين مزدوجين على نبوّته، وحجّتين بالغتين على صدق رسالته.

وهذا ما توفّر لسيّد الرّسل وخاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث أجرى الله تعالى على يديه المعاجز وعلى رأسها القرآن الكريم، وبشّر ببعثته النّبيّان العظيمان موسى وعيسى عليهما السلام في التّوراة والإنجيل كما نطقت بذلك آيات القرآن المجيد:

﴿الّذين يتّبعونَ ٱلرّسولَ ٱلنّبيّ ٱلأمِّيّ ٱلّذي يَجِدونهُ مكتُوباً عِنْدَهُم في ٱلتّوراةِ والإنجيل، يأمُرُهُم بالمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُم عن المُنْكَرِ ويُحِلُّ لهُم ٱلطّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِم ٱلخَبائِثَ ويَضَعُ عَنْهُم إصْرَهُم والأغلالَ ٱلتي كانَت عَلَيْهِم، فالّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلّذي أُنزِلَ مَعَهُ أولئِكَ هُمُ ٱلمُفْلِحُون﴾. (الأعراف / ١٥٧)

﴿وإذْ قالَ عيسى بنُ مَرْيَمَ يا بني إسرائيل إنّي رسولُ اللهِ إليكُم مُصدِّقاً لما بينَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتّوراةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدي ٱسْمُهُ أحمَد﴾. (الصّفّ / ٦)

لقد أعلنت هاتان الآيتان بصراحة ووضوح بشائر التوراة والإنجيل ببعثة محمّد ﷺ ، ممّا حفّز أهل الكتاب على التطلّع والترقّب البالغين لبعثتـه المباركة وعهده الزاهر الميمون، فأسلمت طائفة منهم في حياة النّبيّ ﷺ وغِبَّ وفاتِه، بعد تفرُّسِهم فيه وتأكّدهم من صفاته وخصائصـه الّتي صوّرتها أسـفارهم، ونوّهت عن ظهوره وبشّرت برسالته، ولولا ذلك لما أسلم مَنْ أسلم من أهل الكتاب المتحلِّين بنور الوعي وحرِّية الفكر والضمير، وكان لهم أن ينبذوا الإسلام ويتفادوا ٱعتناقه والدخول فيه.

لذلك كان مُحتّماً على كلّ مؤمن بنبـوّة موسى وعيسى عليهما السلام أن يؤمن بمحمّـد ﷺ ، لبشارتها ببعثته ونصّها عليه وإنْ لم يَرَ معجزة منه، أمّا مَنْ يبتغي الإسلام من غير الكتابيين وينشد البرهان على نبوّته ﷺ ، فحسبه المعجزة الخالدة (القرآن الكريم) وغيره من المعاجز المتواترة الكُثُر الدالّة على صدق نبوّته وصحّة دعواه.

أين تلك البشارات الآن:

مَن ٱستقرأ التـوراة والإنجيل المتداولين اليـوم، لا يجد فيهما ظلّاً لتلك البشائر ولا يحسّ لها أثراً، فقد طمستها الأيدي الخائنـة والضمائر الكافرة، وغدت خبراً بعد عيان، وخانت بذلك أمانة العقـيدة وأمانة التاريخ وأمانة الحقّ والعـدل. وليس هذا التحريف إدِّعاءً مجرّداً من الشـواهد والدلائل المثبّتة له، فقد شهد به المُنصِفـون من كتّاب الغرب، وٱعترف به المؤرِّخون الأحرار منهم، وإليك قبساً من تلك الشهادات:

«ومن المعلوم من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم: أنّ التوراة الّتي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في التابوت (صندوق العهد) وأخذ الميثاق على بني إسرائيل بحفظها كما هو منصوص في آخر سـفر (تثنية الإشـتراع)، قد فُقِدَتْ من الوجود عندما أغـار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس.

والتوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه عزرا الكاهن بأمر أرتحشتسا

ملك فارس الّذي أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم، وأذن له أن يكتب لهم كتاباً من شريعة الربّ وشريعة الملك، ولذلك تكثر فيها الألفاظ البابلية كثرة فاحشة، وقد بيّنّا تحقيق ذلك في تفسير أوّل سورة آل عمران، وبعض آيات من سورة النِّساء والمائدة.

كما بيّنّا أنّ إنجيل المسيح عليه السلام لم يدوّن في عصره، ولم يُنقل عنه وعن الحواريين كما نقل القرآن تواتراً بالحفظ والكتابة، ولا كنقل الحديث بالأسانيد المتّصلة، وإنّما ظهرت هذه الأناجيل الّتي هي قصص مختصرة له واشتهرت بعد ثلاثة قرون، كما ظهر عشرات غيرها، فاعتمد أربعة منها رؤساء الكنيسة الّتي أسّسها قسطنطين ملك الرّوم، الّذي تنصّر تنصّراً سياسياً وأدخل النصرانية في دور جديد ممزوج بالوثنية، ورفضوا الباقي، كما بيّنّاه مفصّلاً في الآيات الّتي أشرنا إليها آنفاً في الكلام على التوراة»(١).

تحريف العهد القديم «التوراة»:

وعن الدكتور (همفري)، ينقل (وارد كاتلك):

«إنّ تدخّل الأوهام في العهد العتيق بيّنٌ لحدٍّ يتّضح للقارئ بأدنى تأمّل، وأنّهم قضوا على البشارات المسيحية في العهد العتيق»(٢).

وقال (كريزاستم):

«لقد ٱنمحق الكثير من كتب الأنبياء، حيث حرّفتها اليهود على غفلة وعلى

---

(١) تفسير المنار، ج ١، ص ٢٠٩.

(٢) البشارات والمقارنات، للأستاذ المفضال الشيخ محمّد الصادقي، عن كتاب همفري، ط ١٨٤١، ص ١٧ ـ ١٨.

عمد، فمزّقوا البعض منها وحرّفوا ما تبقّى»[1].

وجاء في دائرة المعارف الكبرى الفرنسية، قال (الموسيو موريس فورن):

«لو سألنا متى جُمع كلّ كتاب من كتب التوراة، وفي أيّ ظرف من الظروف، أو حال من الأحوال؟ وأيّ قلم كتبها؟ لا نجد أحداً يُجيبنا عن تلكم الأسئلة وما شابهها إلّا بأجوبة متباينة جدّاً... والملخّص أنّ المذاهب العلمية الجديدة ترفض أغلب أقوال علماء النّقل الّتي هي أساس اعتقاد النصارى واليهود، وتقوّض بنيان ادّعاء السابقين، وتبرئ الأنبياء من تلكم الكتابات»[2].

وجاء في دائرة المعارف الفرنسية أيضاً في بيان بيبل، قال الدكتور (كني كات): إنّ نسخ العهد العتيق هي موجودة كُتبت ما بين ألف وألف وأربعمائة ميلادية، واستدلّ منها وقال:

«إنّ جميع النّسخ الّتي كُتِبت في المائة السابعة أو الثامنة، هذه النّسخ ألغيت بأمر محفل الشورى لليهود، لاختلافها عن النّسخ الّتي كانت مُعتمَدة عندهم»[3].

وهكذا ارتأى مؤلِّفو (دائرة المعارف البريطانية) وتوصّلوا بتحقيقهم إلى أنّ أسفار اليهود قد دوِّنت وجُمعت بعد عصر موسى عليه‌السلام بقرون وآماد طويلة، واستدلّوا على تحريفها، بما لمسوا فيها من تناقض واختلاف، ومَنْ شاء الإطّلاع على هذا فليراجع مادّة (بابيل) من الطّبعة الأخيرة منها.

---

(١) نفس المصدر، ص ٩١، عن أنيس الأعلام، ج ١، ص ٢٧٤.

(٢) من كتاب البشارات والمقارنات، للشيخ محمّدصادق الطّهراني، ص ١٠٣.

(٣) نفس المصدر، ص ١٠٤.

ومن المستحسن أن أنقل هنا ما ذكرهُ الدكتور الفاضل أحمد نسيم سوسه[1] في الجزء الأوّل من كتابه: (طريقي إلى الاسلام)، ج ١، ص ٨٢:

«إنّ هذه التوراة الّتي يُقدِّسها اليهود والنصارى على السواء ويرفعون منطوياتها إلى الوحي الإلٰهي والمبعث الربّاني يبعد أن تكون التوراة الأصلية الّتي ألقاها الله على موسى وأنبياؤه، ذلك لأنّ التوراة كما يثبت لنا التاريخ دُوِّنت من قِبَل أشخاص عديدين قد ألبستهم الطّوارئ ثوب النّبوّة وفي أزمان مختلفة، وفي لغات عديدة، فبين التناقل والترجمة وحوادث أخرى، يتعذّر أن يكون هذا المصحف أثراً صحيحاً خالياً من التحوير والتلفيق...

وتدلّنا الحوادث التاريخية أنّ (أنطوخيوس) الإمبراطور لمّا فتح أورشليم قبل الميلاد بنحو ١٦٩ سنة، أحرق جميع الكتب اليهودية المقدّسة من أيٍّ مكان، وأمرَ أن يُقتَل كلّ مَنْ يؤدّي فرائض الشريعة، أو مَنْ يوجَد عنده نسخة من كتبها، وكان التحقيق على هذا مستمرّاً لمدّة ثلاث سنين، حيث كان يقتل خلال هذه المدّة كلّ مَنْ وُجد عنده نسخة من الكتب المقدّسة، أو أدّى رسم الشريعة اليهودية.

ولا يخفى أنّ هذه الحوادث قد أدّت بلا شك إلى ضياع نسخة التوراة الّتي كتبها عزرا، ذلك عدا الفتوحات الرّومانية الّتي أعقبت هذه الحادثة وانتهت بتهديم أورشليم والإستيلاء عليها، والّتي كان لها بعض التأثير في تقرير مصير المصاحف اليهودية المقدّسة».

وقد جاء في العدد ٣٦ من الإصحاح ٢٣ من كتاب أرميا ما يشهد بالصّراحة على تحريف التوراة، ونصّه:

---

(١) كان الدكتور سوسه يهودياً، ثمّ اهتدى إلى الاسلام.

«أمّا وحي الرّبّ فلا تذكروه بعد، لأنّ كلمة إنسان تكون وحيه، إذ قد حرّفتم كلام الإله الحيّ ربّ الجنود إلهنا».

ثمّ جاء أيضاً في العدد ٨ من الإصحاح ٨ من نفس الكتاب ما نصّه:

«كيف تقولون نحن الحكماء، وشريعة الرّبّ معنا حقاً إنّه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب».

تحريف العهد الجديد «الإنجيل»:

وهكذا نجد مظاهر الدّسّ والتحريف جليّة واضحة في العهد الجديد، كما وجدناها في العهد القديم، وكما شهد بذلك المنصفون العارفون من كتّاب الغرب:

قال المفسِّر الشهير (هارسلي) في ج ٣، ص ٢٨٢ من تفسيره في مقدّمته على كتاب يوشع:

«لا شكّ في تحريف الكتاب المقدّس في متنه وأصله، يدلّنا على ذلك اختلاف النّسخ، حيث الإختلاف آية الإختلاق، فقد أُدخلت كلمات وقحة في المتون المطبوعة ممّا لا يناسب ساحة الوحي، ولا يزيد التحريف في كتاب يوشع عن سائر الأجزاء من الكتاب المقدّس»[(١)].

وصرّح (جيبون) المؤرِّخ الإنكليزي في ج ٥ من كتابه:

«إنّ الأحبار والرّهبان حوّروا وبدّلوا بعد ظهور الإسلام نصوصاً كثيرة في

---

(١) البشارات والمقارنات، للشيخ محمّدصادق الطّهراني، ص ٨٩، عن ج ١ من كتاب أنيس الأعلام، وهو لقسّيس مسيحي كبير اعتنق الإسلام وألّف هذا الكتاب القيّم ردّاً على المسيحية، وكتبه باللّغة الفارسية.

التوراة والإنجيل كما ذُكِرَ في القرآن»[1].

ويُحدِّثنا الكاتب المسيحي الّذي أسلم، عبدالأحد داود في كتابه (الإنجيل والصّليب) ص ١٤:

«إنّ هذه السبعة والعشرين سفراً أو رسالة الموضوعة من قِبَلِ ثمانية كتّاب لم تدخل في عِداد الكتب المقدّسة باعتبار مجموعة هيئتها بصورة رسمية إلّا في القرن الرابع بإقرار مجمع (نيقية) العام وحكمه (٣٢٥م)، لذلك لم تكن إحدى هذه الرسائل مقبولة ومصدّقة لدى الكنيسة وجميع العالم العيسوي قبل التاريخ المذكور، ثمّ جاء من الجماعات العيسوية في الأقسام المختلفة من كرة الأرض ما يزيد على ألفي مبعوث روحاني ومعهم عشرات الأناجيل ومئات الرسائل إلى نيقية لأجل التدقيق، وهناك تمّ انتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلاً، وتمّ انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تُعدّ ولا تُحصى وصُودِقَ عليها، وكانت الهيئة الّتي ٱختارت العهد الجديد هي تلك الهيئة الّتي قالت بألوهيّة المسيح. وكان ٱختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلّها»[2].

وقال (لاردنر) المفسِّر الإنجيلي في ج ٢ في تفسيره:

«أعلن (سلوس) في القرن الثاني كما ينقل عنه الأكهارن الألماني: إنّ المسيحيين بدّلوا ثلاثاً أو أربع مرّات بل أكثر من هذا تبديلاً بحيث محا الشريعة العيسوية وقضى عليها»[3].

---

(١) لماذا أؤمن بالقرآن ومحمّد، لهلال علي هلال، ص ١٩٦، نقلاً عن كتاب الثقافة الإسلامية، للأستاذ محمّد لطفي جمعة، ص ٥٠٨.

(٢) عن مقارنة الأديان، للدكتور أحمد شلبي، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) البشارات والمقارنات، ج ١، ص ٤٨.

وبعد أن عرفنا ولمسنا آثار الدّسّ والتحريف في كتابي العهدين القديم والجديد، وكيف أسقط واضعو العهد القديم البشائر ببعثة السيِّد المسيح عليه السلام، وهو من بني إسرائيل، فلا نستغرب إسقاط البشائر ببعثة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم النّبيّ العربيّ.

وبالرغم من حرص أهل الكتاب على إخفاء تلك البشائر وإنكارها، فقد ظهر الحقّ، وتجلّى الواقع، باكتشاف إنجيل برنابا الّذي نجا من التحريف بعد أن كان مخفيّاً في غياهب مكتبات الغرب قروناً مديدة، وقد ٱكتشفه الراهب (فرامرينو) في مكتبة البابا (سكتس) الخامس، وكان ذلك سبباً لاهتدائه إلى الاسلام.

وقد تجلّت في هذا الإنجيل البشارات والنصوص على نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم واضحة مشرقة لا غموضَ فيها ولا إبهام.

«إعلم يا برنابا أنّ الذّنب وإن كان صغيراً يجزي الله عليه لأنّ الله غير راضٍ عن الذّنب، ولما ٱكتسب أمِّي وتلاميذي لأجل الدّنيا سخط الله لأجل هذا الأمر، وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه الحقيقة غير اللّائقة ليحصل لهم النّجاة من عذاب جهنّم ولا يكون لهم أذيّة هناك، وإنِّي وإن كنتُ بريئاً لكن بعض الناس لمّا قالوا في حقِّي أنّه الله وابن الله، كره الله هذا القول وٱقتضت مشيئته أن لا تضحك الشّياطين يوم القيامة منِّي ولا يستهزئون بي، فأراد بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضّحك والإستهزاء في الدّنيا بسبب موت يهوذا، ويظنّ كلّ شخص أنِّي صُلِبْتُ، لكن هذه الإهانة والإستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمّد رسول الله.

فإذا جاء في الدّنيا يُنبِّه كلّ مؤمن على هذا الغلط وترتفع هذه الشّبهة من قلوب الناس.

وجاء في الفصل الثاني والسبعين من هذا الإنجيل أنّ المسيح عليه السلام أخبر الحواريين أنّه سينصرف عن هذا العالم، ثمّ قال:

٧ ـ فبكى حينئذ الرّسل قائلـين: يا معلّم! لماذا تتركنا، لأنّ الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا.

٨ ـ أجاب يسوع: لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا.

٩ ـ لأنّي لستُ أنا الّذي خلقكم، بل الله الّذي خلقكم يحميكم.

١٠ ـ أما من خصوصي، فإنّي قد أتيتُ لأهيِّئ الطّريق لرسول الله الّذي سيأتي بخلاص العالم.

١١ ـ ولكن ٱحذروا أن تُغشـوا لأنّه سيأتي أنبـياء كذبة كثـيرون يأخذون كلامي وينجّسون إنجيلي.

١٢ ـ حينئذٍ قال أندراوس: يا معلّم! إذكر لنا علامة لِنَعْرِفَه.

١٣ ـ أجاب يسوع: أنّه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدّة سـنين حينما يبطل إنجيلي، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً.

١٤ ـ في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الّذي تستقرّ على رأسـه غمامة بيضاء، يعرفه أحد مختاري الله وهو سيُظهره للعالم.

١٥ ـ وسيأتي بقوّة عظيمة على الفجّار ويبيد عبادة الأصنام من العالم.

١٦ ـ وإنّي أسرّ بذلك، لأنّه بواسطته سيعلن ويمجّد الله ويظهر صدقي.

١٧ ـ وسينتقم من الّذين سيقولون إنّي أكبر من إنسان.

١٨ـ الحقّ أقول لكم: إنّ القمر سيعطيه رقاداً في صباه، ومتى كبر هو أخذه كَفَيِّه.

١٩ ـ فليحذر العالَم أن ينبذه لأنّه سيفتك بعبدة الأصنام.

٢٠ ـ فإنّ موسى عبدالله قتل أكثر من ذلك كثيراً، ولم يبقَ يسوع على المدن الّتي أحرقوها وقتلوا الأطفال.

٢١ ـ لأنّ القرحة المزمنة يستعمل لها الكيّ.

٢٢ ـ وسيجيء بحقٍّ أجلى من سائر الأنبياء وسيوبِّخ مَنْ لا يحسن السلوك في العالم.

٢٣ ـ سيحيي طرباً أبراج آبائنا بعضها بعضاً.

٢٤ ـ متى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض واعترف بأنِّي بشر كسائر البشر، فالحقّ أقول لكم: إنّ نبيّ الله حينئذ يأتي.

وجاء في الفصل السادس والتسعين من محاورة بين المسيح ورئيس كهنة اليهود: أنّ الكاهن سأله عن نفسه، فأجاب بذكر اسمه واسم أمّه، وبأنّه بشر ميِّت، ثمّ قال الإنجيل ما نصّه:

٣ ـ أجاب الكاهن: إنّه مكتوب في كتاب موسى إنّ إلهنا سيرسل لنا مسياً الّذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم برحمة الله.

٤ ـ لذلك أرجوك أن تقول لنا الحقّ هل أنتَ مسياً الله الّذي تنتظره؟

٥ ـ أجاب يسوع: «حقّاً أنّ الله وعد هكذا، ولكنِّي لستُ هو، لأنّه خُلِقَ قبلي وسيأتي بعدي».

٦ ـ أجاب الكاهن: «إنّنا نعتقد من كلامك وآياتك على كلِّ حال أنّك نبيّ وقدّوس الله.

٧ ـ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلّها وإسرائيل أن تفيدنا حُبّا في الله بأيّةِ كيفيّة سيأتي مسياً؟».

٨ ـ أجاب يسوع: «لعمر الله الّذي تقف بحضرته نفسي إنِّي لستُ مسياً الّذي تنتظره كلّ قبائل الأرض، كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً: بنسلك أبارك كلّ قبائل العرب.

٩ ـ ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرّة أخرى لهذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الإعتقاد بأنّي الله وابن الله.

١٠ ـ فيتنجّس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتّى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً.

١١ ـ حينئذٍ يرحم الله العالم، ويرسل رسوله الّذي خلق كلّ الأشياء لأجله.

١٢ ـ الّذي سيأتي من الجنوب بقوّة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام.

١٣ ـ وسينتزع من الشّيطان سلطته على البشر.

١٤ ـ وسيأتي برحمة الله لخلاص الّذين يؤمنون به.

١٥ ـ وسيكون مَنْ يؤمن بكلامه مباركاً».

ثمّ قال في الفصل ٩٧ ما نصّه:

١ ـ «ومع أنّي لستُ مستحقّاً أن أحلّ سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه».

٢ ـ «فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالي والملك قائلين: لاتزعج نفسك يا يسوع قدّوس الله! لأنّ هذه الفتنة لاتحدث في زمننا مرّة أخرى، لأنّنا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الرّوماني المقدّس بإصدار أمر ملكي أن لا أحد يدعوك فيما بعد الله أو ابن الله».

٣ ـ فقال حينئذٍ يسوع: «إنّ كلامكم لا يعزّيني لأنّه يأتي ظلام حيث ترجون النور.

ولكن تعزّيني هي في مجيء الرسول الّذي سيبيد كلّ رأي كاذب فيَّ، وسيمتدّ دينه ويعمّ العالم بأسره، لأنّه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم.

٥ ـ وإنّ ما يعزّيني هو أن لا نهاية لدينه، لأنّ الله سيحفظه صحيحاً».

٦ ـ أجاب الكاهن: «أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول من الله ؟».

٧ ـ أجاب يسوع: «لا يأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله.

٨ ـ ولكن يأتي عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو ما يحزنني.

٩ ـ لأنّ الشّيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيتستّرون بدعوى إنجيلي».

١٠ ـ أجاب هيدروس: «كيف أنّ مجيء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل؟».

١١ ـ أجاب يسوع: «من العدل أنّ مَنْ لا يؤمن بالحقِّ لخلاصه يؤمن بالكذب للعنته».

١٢ ـ لذلك أقول لكم: «إنّ العالم كان يمتهن الأنبياء الصادقين دائماً، وأَحَبَّ الكاذبين كما يشاهد في أيام ميشع وأرميا، لأنّ الشبيه يحبّ شبيهه».

١٣ ـ فقال الكاهن: حينئذٍ ماذا يسمّى مسيا؟ وما هي العلاقة الّتي تعلن مجيئه؟

١٤ ـ أجاب يسوع: «إنّ اسم مسيا عجيب، لأنّ الله نفسه سمّاه لمّا خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي».

١٥ ـ قال الله: «إصبر يا محمّد! لأجلك أريد أن أخلق الجنّة والعالم وجمّاً غفيراً من الخلائق الّتي أهبها لك، حتّى أنّ مَنْ يُباركك يكون مباركاً، ومَنْ يلعنك يكون ملعوناً.

١٦ ـ ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة، حتّى أنّ السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن أبداً.

١٧ ـ إنّ ٱسمه المبارك محمّداً».

١٨ ـ حنيئذٍ رفع الجمهور أصواتهم قائلين: يا الله! أرسل لنا رسولك، يا محمّد!

تعالَ سريعاً لخلاص العالم»[1].

ولا ريب في دلالة هذه النصوص على نبّوة محمّد ﷺ، لورودها في هذا الإنجيل، الّذي ألّفه أحد العلماء المعاصرين للسيِّد المسيح عليه السلام، وأصدره الغربيّون المجرّدون من كلِّ عطف ومحاباة للإسلام والمسلمين.

ورغم الجهود المكثّفة الّتي مارسها أرباب الديانتين اليهودية والمسيحية في التعتيم والتضبيب حول بشائر التوراة والإنجيل ببعثة سيِّد الرّسل وخاتم الأنبياء محمدّ ﷺ، وتنويههما عن شريعته الخالدة، ففي وسع الباحث الموضوعي أن يستشفّ تلك البشائر، ويستجلي واقعها الحقّ من خلال القرائن والشواهد المعربة عنها.

«فقد جاء في الفصل العشرين من السفر الخامس من التوراة:

أقبل الله من سيناء، وتجلىّ من ساعير، وظهر من جبال فاران، مع الربوات الأطهار عن يمينه.

فسيناء مهبط الوحي على موسى، وساعير مهبط الوحي على عيسى، وفاران جبال مكّة مهبط الوحي على محمّد صلّى الله عليه (وآله) وسلّم.

وفيها في الفصل الحادي عشر من هذا السفر:

يا موسى! إنِّي سأقيم لبني إسرائيل نبـيّاً من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمرهم به، والّذي لا يقبل قول ذلك النّبيّ الّذي يتكلّم بإسمي، أنا أنتقم منه ومن سبطه.

وكذلك جاء في الإنجيل ما هو بشارة به:

ففي إنجيل يوحنّا في الفصل الخامس عشر:

---

(١) تفسير المنار، ج ٩، ص ٢٧٦ ـ ٢٨٠.

قال يسوع المسيح: إنّ الفارقِليط روح الحقّ الّذي يرسله أبي، يعلِّمكم كلّ شيء.

وفيه أيضاً: قال المسيح: مَنْ يحفظ كلمتي يحبّني، وأبي يحبّه، وعنده يتّخذ المنزلة، كلّمتكم بهذا لأنِّي لستُ عندكم بمقيم، والفارقليط روح القدس الّذي يُرسله أبي هو يعلِّمكم كلّ شيء، وهو يذكِّركم كلّ ما قلت لكم، استودعكم سلامي...

وفيه أيضاً: إنّ خيراً لكم أن أنطلق لأبي، لأنِّي إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يوبِّخ العالَم على خطيئته، وإنّ لي كلاماً كثيراً أريد قوله، ولكنّكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحقّ ذاك الّذي يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنّه ليس ينطق من عنده، بل يتكلّم بما يسمع، ويخبركم بكلِّ ما يأتي، ويعرِّفكم جميع ما للأب.

«والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد، فسّره بعضهم بالحمّاد، وبعضهم بالحامد، ففي مدلوله إشارة إلى اسمه صلى الله عليه وآله وسلم أحمد كما لا يخفى على مَنْ كشف الله غشاوة التعصّب عن عينيه»(١).

---

(١) تفسير الشيخ المفضال المراغي، ج ٢٨، ص ٨٤ ـ ٨٥.

مثاليّة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم
واكتمال فضائله

عرّفتنا الأبحاث السالفة أنّ من آيات نبوّة النّبيّ ودلائل صدقه: رجاحة عقله وسموّ أخلاقه، واشتهاره بالصّدق والأمانة والمثالية وتنزّهه عن الكذب والخيانة والخِلال الذميمة.

وتلك الخصائص الكريمة تشهد بصدق دعواه، وإثبات نبوّته، وإن لم تدعمها معجزة خارقة، أو نصّ نبيّ سابق عليه.

وقد جمع الله عزّ وجلّ في محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ما تفرّق في الأنبياء عليهم السلام من صنوف الآيات والفضائل الناطقة بنبوّته وصدق رسالته.

فهو صاحب المعجزة الخالدة القرآن الكريم، والمعاجز الكثيرة الأخرى.

وهو الّذي نوّه عنه النّبيّان العظيمان موسى وعيسى عليهما السلام، وبشّرا ببعثته ونبوّته.

وهو الحائز على أسمى وأكمل الخصائص والعظمات الشاهدة على مثاليّته وأمانته وصدق دعواه.

وقد لقّبه قومه بـ(الصّادق الأمين)، واشتهر بهذا اللّقب بين خصومه ومؤيّديه.

فهذا أبو جهل وهو العدوّ اللّدود لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يصفه وقد سُئل عنه أصادق أم كاذب؟ فقال: «إنّ محمّداً لصادق، وما كذب محمّد قطّ».

وهذه قريش تعمل في تجديد بناء الكعبة المعظّمة، ويحتدم النِّزاع بينها فيمَن يضع الحجر الأسود في موضعه الخاص، ويفوز بشرف بنائه، ثمّ تراضت على تحكيم أوّل داخل عليهم لحسم النِّزاع. وإذا بالنّبيّ ﷺ يدخل عليهم، فقالوا وهم مغتبطون بقدومه: «هذا محمّد، هذا الأمين قد رضينا به».

ولبث هذا الصادق الأمين ردحاً طويلاً من الزّمن، لم يدّع النّبوّة، ولم يَفُهْ بآيةٍ قرآنية، ولم ينطق بتشريع سماويّ، حتّى إذا بلغ أربعين سنة من عمره فاجأه الوحي، وتوالت عليه بشائر النّبوّة، وابتعثه الله رحمة للعالمين، فهبّ ﷺ يدعو الناس إلى الله، ويُبلِّغهم رسالته، وها هو يقف خطيباً في قريش قائلاً: «أرأيتم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدِّقوني؟ قالوا: بلى. قال: فإنِّي نذير لكم بين يَدَي عذابٍ شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك، ألهذا دعوتنا، فنزلت سورة تبّت».

وتستقبل قريش دعوة النّبيّ ﷺ بسخريةٍ لاذعةٍ وهزءٍ بالِغ، وتقف معه موقف المكابر العنيد، مجنِّدة كلّ طاقاتها لمناهضته وإحباط دعوته، ولمّا أعياهم صموده وتصميمه على نشر الإسلام، تقدّمت إلى أبي طالب شاكية متبرِّمة من دعوة محمّد ﷺ، وتفانيه في سبيلها:

يا أبا طالب! إنّ ابن أخيك قد سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فإن كان الّذي يحمله على ذلك العُدم، جمعنا له مالاً حتّى يكون أغنى رجل في قريش ونملِّكه علينا، فأخبر أبو طالب رسول الله ﷺ، فقال:

«لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري ما أردته، ولكن يعطوني كلمة يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم، ويكونون ملوكاً في الجنّة».

«فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم، وعشر كلمات، فقال لهم رسول الله ﷺ:

تشهدون أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله. فقالوا: ندع ثلاثمائة وستّين إلهاً ونعبدُ إلهاً واحداً، فأنزل الله سبحانه: ﴿**بَل عَجبُوا أن جاءهُم مُنْذِرٌ مِنْهُم، فقالَ الكافِرونَ هٰذا ساحِرٌ كَذّاب**﴾.

وبعد أن أعيت قريش وأخفقت في صدِّ تيّار الإسلام، وإطفاء نوره الوضّاء، تألّبت على قَتْلِ النّبيّ ﷺ غيلةً وهو نائم، فحماهُ الله من كيدهم وشرِّهم بأخيه عليّ، وأنقذه بالارتحال إلى المدينة، حيث نامَ على فراشه ليلة الهجرة، وكان ذلك حدثاً فاصلاً في تاريخ الإسلام، وأصبحت المدينة منطلقاً رحباً للمسلمين، ومناراً ساطعاً تستهدي الأمم بنوره الوهّاج.

فهل كان بإستطاعة محمّد ﷺ النّبيّ الأمّيّ الّذي لم يقرأ كتاباً ولم يتلقّ علماً ولم ينظم شعراً أو يرتجل خطبة، ولم يعرف شيئاً من حياة الأمم وشرائعها ودساتيرها، أن يأتي بالشريعة الإسلامية الخالدة، والحافلة بأرفع وأجلّ مفاهيم الشرائع الإلٰهية ؟!! كلّا ثمّ كلّا.

لقد كان محمّد ﷺ معجزة المعاجز، وآية الآيات: كان معجزة في شخصيّته الفذّة، في سيرته المثالية، في أخلاقه الكريمة العالية، في أمجاده الشامخة الّتي ينوء القلم بتعدادها، وتضيق بها صحائف الكتاب، وكلّها حجج وآيات على نبوّته وتفوّقه على جميع الأنبياء عليهم السلام.

تفوّق نبيّنا محمّد ﷺ على جميع الأنبياء عليهم السلام:

يتفاوت البشر في قيمهم وأقدارهم تفاوتاً كبيراً كتفاوت المعادن في جوهرها وخصائصها النفيسة أو الخسيسة: فمنهم ذو المحتد الدنيء والإنسانية التافهة، والخصائص الهزيلة. ومنهم المتحلّي بشرف المحتد، ورفعة الإنسانية، وكرم السّجايا والطّباع وجلالة الخصائص والصّفات.

وهذا النمط الثاني يتفاوت كذلك في مدارج الشّرف ومراقي الفضل، حتّى يتبوّأ بعضهم قمّـة الشّرف، وأوج الكمال والفضل، فيشعّ آنذاك بمواهبـه ومميّزاته إشـعاع الأحجار الكريمة بين الحصى.

ولو ٱستعرضنا حياة البشر، وٱستجلينا خصائصهم ومزاياهم، وجدنا أنّ سادة الخلق، وعظماءهم هم الأنبـياء عليهم السلام، وذلك بما تحلّوا به، وطُبِعوا عليه من صنوف العظمات والأمجاد الّتي ميّزتهم عن سائر الناس وشرّفتهم عليهم جميعاً.

وهكذا يتفاضل الأنبياء عليهم السلام أنفسهم، ويتفاوتون في أقدارهم تفاوتاً كبيراً، نظراً لِمَراتِبِهم الّتي رتّبهم الله فيها، وأبعاد كفاءاتهم وجهادهم في سبيل الله تعالى.

فالنّـبيّ المرسل إلى عامّـة الخلق أجلّ قدراً وأسمى منزلة من النّـبيّ المبعوث إلى أمّة صغيرة وشعب محدود. وصاحب الشريعة المستقلّة أفضل وأرفع ممّن يدين بشريعته من الأنبياء.

وهكذا يتسامى الأنبياء عليهم السلام في معارج الكمال ومدارج العظمة، حتّى يُحلِّق نفر منهم إلى سويّ عُلويّ، تنحسر دونه الأبصار ولا يلحق شأوه الأنبياء، وهم أولو العزم، أرباب الشرائع العامّة والمبعوثون إلى كافّة الخلق والمبرزون على سائر الرّسل.

ولو درسنا حياة أولي العزم، وٱستطلعنا كفاءاتهم وأبعاد جهادهم في سبيل الله تعالى، لأدركنا بقناعـة ويُسر أنّ أرفعهم شأناً وأسماهم قدراً، هو خاتمهم محمّـد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ذلك: أنّ معيار التفاضل والتمايز يرتكز على القِيَم التالية:

(١) العلم، (٢) الجهاد في سبيل العقيدة والإيمان، (٣) عظمة الآثار والمخلّفات.

وبهذا المعيار وعلى ضوء هذه القِيَم، نستجلي المقارنة والمفاضلة بين أولي العزم عليهم السلام، ولكلّ منهم شرفه السامي، وفضله الجمّ، وجهاده المُقدّر المشكور.

١ ـ العلم:

من الثابت أنّ الأنبـياء عليهم السلام يتوارثون العلوم الإلٰهيـة جيلاً بعد جيل، وأنّ اللّاحق بهم يرث السـابق ويزيد عليـه بما منحـه الله من مفاهيـم الشرائع المتجدِّدة والمتطوِّرة حسب حياة البشر وظروفهم الفكرية والزمانية، وآية ذلك: تعدّد الشرائع وٱختصـاص كلّ نبيّ من أولي العـزم بشريعة خاصّة تلائم أمّتـه وعصره، وتنسخ الشرائع السالفة.

وهكذا توارثَ الأنبـياء عبرَ العصـور، وتعاظم رصيدهم العلميّ حتّى ٱنتهى المطاف إلى سيِّد الرّسل وخاتم الأنبـياء محمّـد صلى الله عليه وآله وسلم، فتناهت إليه ذخائر الأنبياء وتراثهم العلميّ، وفاقهم بما أمدّه الله تعالى به وخصّه دونهم من كنوز الوحي، وأسرار السماء، ما أكمل به دينـه، وأتمّ به شريعته، وصيّره أوفرهم علماً، وأرجحهم ديـناً، وأطلعهم على أسرار الكـون وألغاز الحـياة المادِّية والروحية، وبهذه الخصيصة فاقَ الأنبياء، ورجحهم جميعاً.

٢ ـ الجهاد في سبيل العقيدة والإيمان:

ولو ٱستعرضنا جهاد أولي العزم وتضحياتهم في سبيل العقيدة والدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وجدناهم قاموا بأدوار بطـولية خارقة ونضال دائب مستبسـل، وتحلّوا بأروع سمات الصّبر والصّمود على معاناة الشدائد والأهوال في تركيز العقيدة، وإعلاء راية الإيمان، ولكنّهم رغم تلك الجهود الجبّارة، والصمود النادر الفذّ، لم يستطيعوا أن يُحقِّقوا الفتوحات العقيدية الّتي حقّقها الرسول الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذا شيخ المرسلين (نوح) قد لبث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً، دائباً مجدّاً على هدايتهم ودعوتهم إلى الإيمان، فلم يحفل به ويستجب له إلّا نفرٌ قليلٌ وقليلٌ جدّاً، حتّى أعياه عنادهم وتمرّدهم عليه، وطفقَ يشكوهم إلى الله تعالى بأسى ولوعة بالِغَين:

﴿قالَ رَبِّ إنِّي دَعَـوْتُ قَـوْمي لَيْلاً ونَهاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعـائي إلّا فِـراراً * وإنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُم جَعَلُوا أصـابِعَهُمْ في آذانِهِمْ واْسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وأصَرُّوا واْسْتَكْبَرُوا اْسْـتِكْباراً * ثمّ إنِّي دَعَـوْتُهُمْ جِهاراً * ثمّ إنِّي أعْلَنـتُ لَهُم وَأسْرَرْتُ لَهُمْ إسْراراً * فقُلْتُ اْسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُـمْ إنّهُ كانَ غَـفّاراً * يُرْسِلِ اْلسّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بأموالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُم جَنّاتٍ ويَجْعَلْ لَكُم أنْهاراً﴾. (نوح / ٥ ـ ١٢)

وهكذا ظلّ عليه السلام يُصـابرهم قرناً بعد قرن حتّى ضـاقَ صدره الرّحـب ونفذ صبره الجبّار، فدعا عليهم آنذاك بالهلاك والفناء:

﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلى اْلأَرْضِ مِنَ اْلكافِرِينَ دَيّاراً * إنّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ولا يَلِدُوا إلّا فاجِراً كَفّاراً﴾. (نوح / ٢٦ ـ ٢٧)

فاسـتجاب الله دعاءه وأهلهكم بالطّوفان، ولم يؤمن منهم إلّا ركّاب سـفينته وهم نفر قليل.

وهذا إبراهيم الخليل عليه السلام، عاشَ عصراً حالكاً بالكفر والضّلال، وواكبَ أمّة رعناء بليدة الوعي، منحطّة الإدراك، مولعةً بعبادة الأصنام والأوثان، وزادها جهلاً وهواناً أن اْسـتعبدها طاغوت متجـبّر يتألّه عليهم بسـلطانه الكافر المذل، فجاهد إبراهيم عليه السلام في دعـوتهم إلى الإيمان، وإنقاذهم من مهانة الكفـر، فلم يُجدِهم ذلك. وكلّما بالغَ في نصحهم وهدايتهم، ازدادوا لجاجاً وعناداً، وأصرّوا على الغيّ والضّلال، حتّى ضاقَ بهم ذَرْعاً، وأخذ يلتمس لهـدايتهم أسلوباً تجريبياً ساطع الحـجّـة قويّ البرهان، يتفهّمه أغبى الناس وأشدّهم تحجّراً وجموداً.

واْستغفل قومه ذات يوم، وطرق أصنامهم حاملاً معه طعاماً وفاساً، واْنبرى إلى صنمٍ قائلاً له: كُل وتكلّم، ولمّا لم يُجِبهُ الصّنم انهال عليه بالضّرب والتحطيم، حتّى دمّرها جميعاً إلّا كبيرها الّذي أغفله لاستنباط العبرة واْستنتاج البرهان على عجزه وهوانه.

ولّما رأى قومه الأصنام خاسئة محطّمة، ذهلوا وٱرتاعوا وطفقوا يتساءلون في حنق بالغ ووعيد رهيب: ﴿**مَنْ فَعَلَ هذا بآلِهَتِنا، إنّهُ لَمِنَ ٱلظّالمين**﴾ ؟! فيقول بعضهم: ﴿**سَمعنا فتىً يذكرهُم**﴾ بالتسفيه والتنديد ﴿**يُقالُ لَهُ إبراهيم**﴾، وجاءوا به إلى ملكهم نمرود، فخاطبه بلهجة الحانق المتجبّر: ﴿**مَنْ فَعَلَ هذا بآلِهَتِنا يا إبراهِيم**﴾، وهنا يستغلّ ابراهيم عليه السلام هذه الفرصة السانحة الّتي أعدّها ومهّد لها ليُلقي عليهم آخر حجّة من حججه الصارخة المتواصلة، ويُفهمهم بأسلوب تمثيليّ حسّيّ خَطَلَ آرائهم وفساد دينهم وعقيدتهم، فقال: ﴿**فَعَلَهُ كَبيرُهُم هذا فاسألوهُم إن كانُوا يَنطِقُون**﴾.

فأجابه القوم وهم في غمرة من الحيرة والعجز والذّهول: ﴿**لَقَد عَلِمْتَ ما هؤلاءِ يَنْطِقُون**﴾، وهنا إنثال عليهم ابراهيم بالتقريع والتأنيب والتهكّم الساخر قائلاً لهم: ﴿**أفَتَعْبِدونَ مِن دونِ ٱللهِ ما لا يَنْفَعُكُم شَيْئاً ولا يَضُرُّكُم * أفٍّ لَكُم ولما تَعْبدونَ من دُونِ ٱللهِ أفلا تَعْقِلُون**﴾ (الأنبياء / ٦٦ ـ ٦٧).

ولّما عجزوا عن مناهضة ابراهيم عليه السلام ودحض حجّته، صمّموا على قتله بأقسى وأبشع وسائل التنكيل والقتل، فألقوه في جحيم مستعر باللّهب والضّرام.

وجاءوا به على ملأٍ من الناس وهو رابط الجأش، مرفوع الرّأس، غير هيّاب ولا وَجِل من تلك النار الهائلة والعذاب المُفْزِع الرّهيب!! وأُلقيَ فيها، فأنقذه الله بلطفه وقدرته من هلاكها المحتوم أن جعلها برداً وسلاماً عليه.

ثمّ أجمعوا على إقصائه وتشريده خارج بلدهم وسلطانهم، ولم يستطع ابراهيم عليه السلام رغم جهوده الجبّارة من تركيز العقيدة، ونشر الإيمان على نطاق واسع من الأرض.

وجاء عهد موسى عليه السلام، وكان عهداً مليئاً بجور الفراعنة وتنكيلهم ببني إسرائيل وتعذيبهم بألوان القسوة والإمتهان.

ولمّا دخل موسى عليه السلام على فرعون، وأعلمه أنّهُ رسول الله تعالى إليه ودعاه إلى الإيمان به، وطالبه بإطلاق سراح بني إسرائيل والكفِّ عن ٱضطهادهم، فجابهه فرعـون بالتكذيب وٱتّهمه بالسِّـحر تارةً والجنـون أخرى، رغم ٱحتجاجه البليـغ ومعاجزه الباهرة الدالّة على نبـوّته وصدق دعـواه، وأخذ يسـتفزّ السّحرة، ويشحذ عزائمهم لمناهضة موسى عليه السلام وإحباط دعوته.

ويقف السـحرة لمناجزة موسى عليه السلام ودحض آياته على جمهور حاشِـد من الناس، أسـفرَ الموقف عن ٱندحارهم وٱنتصار موسى عليهم، ومن ثمّ إيمانهم به كما حكاه القرآن الكريم:

﴿ قالُوا يا مُوسى إمّا أن تُلْقِيَ وإمّا أن نَكُونَ أوّلَ مَنْ ألْقى * قالَ بَلْ ألْقُوا فإذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أنّها تَسْعى * فأوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إنّكَ أنتَ ٱلأعْلى * وَألْقِ ما في يَمِينِـكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إنّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ ٱلسّـاحِرُ حَيْثُ أتَى * فأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى ﴾. (طه / ٦٥ ـ ٧٠)

وبالرغم من سـطوع حجّة موسى عليه السلام وإيمان السـحرة به، فقد أصرّ فرعون على عتوِّه وطغيانه، وطفقَ من جديد يضطهد بني إسرائيل ويسـومهم سوء العذاب حتّى أراه الله تعالى آياته رهيبة زاجرة من الطّوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ٱضطرّ ازاء ضغطها المُلحّ أن يُطلق بني إسرائيل ويكفّ عن أذاهم.

وهنا يستغلّ موسى هذه الفرصة فيخرج بقومه عازماً على عبور البحر تهرّباً من جور فرعـون وٱضطهاده المرير، وعاد فرعون إلى مطاردتهم بعد الكفِّ عنهم، وٱنتهى المطاف بانتصار بني إسرائيل وعبورهم البحر، وغرق فرعون وجنوده فيه.

وما إن خرج موسى عليه السلام من البحر ظافراً منتصراً، حتّى أحسّ بوادر التمرّد

والإرتداد في قومـه، وغدا يعاني ضروب العنـت والإرهاق منهم بعد معـاناة جور الفراعنة وٱضطهادهم.

رأى قومه أناساً مشركين يعبدون الأصنام، فراقهم ذلك وأخذوا يطالبونه بأن يتّخذ لهم صنماً للعبادة قائلين: ﴿**إجْعَلْ لَنا إلهاً كما لَهُم آلِهَة**﴾.

ويخرج موسى لمناجاة الله تعالى مُخلِّفاً قومه في رعاية أخيه هارون. ولمّا رجع إليهم دُهِشَ وٱرتاعَ أنْ وجدهم ٱتّخذوا من حليّهم عجلاً يعبدونه من دون الله: ﴿**وٱتّخذَ قوم موسى من بَعْـدِهِ من حليِّهم عِجْلاً جَسَداً لهُ خُوار، ألم يَروا أنّه لا يُكلِّمهم ولا يَهْدِيهم سَبيلاً، ٱتّخذوهُ وكانوا ظالِمين**﴾ (الأعراف / ١٤٨).

وراح موسى يستغفر لقومه من هذه الهناة الكافرة الشنعاء، طالباً من الله تعالى الصّفح والغفران، وٱختار سبعين رجلاً من عيونهم وأماثلهم، وما أن وقف للمناجاة حتّى ٱنبروا إليه قائلين له: ﴿**لَن نؤُمِنَ لَكَ حتّى نَرى ٱللهَ جَهْرَةً**﴾، وحدث ما حكاه القرآن الكريم: ﴿**فأخَذَتْهُم ٱلصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم**﴾.

وهكذا يعرض التاريخ علينا صوراً من ضلالات بني إسرائيل وانحرافاتهـم في حياة موسى وهارون عليهما السلام وبعد وفاتهما، فإذا هي سلسلة من الجرائم الفظيعة: من قتل الأنبياء وتحريف التوراة، والتهالك على المال، وأسرفوا في ذلك حتّى أنكر بعضهم المعاد الأخروي والثّواب والعقاب فيه، وطفقوا بعد هذا يتشدّقون بصلف بالغ أنّهم أبناء الله وأحِبّاؤه، وأنّ شعبهم هو الشعب المختار والمفضّل على سائر الشعوب، ونحو ذلك ممّا يُشعِر بقلق إيمانهم، وٱضطراب العقيدة في نفوسهم.

ثمّ جاء عيسى عليه السلام وكانت شريعته امتداداً لشريعة موسى عليه السلام، وطفقَ يدعو الناس إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته، محتجّاً على نبـوّته وصدق دعواه بمعاجزه الخارقة الشهيرة: كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله.

وكان اليهود أشدّ الناس عداءً له وإلباً عليه، حتّى أجمعوا على قتله والتخلّص منه، وٱنتدبوا لتنفيذ هذه المؤامرة الإجرامية رجلاً منهم، ولمّا دخل عليه محاولاً قتله، حماهُ الله تعالى من شرِّه، وأنقذه برفعه إلى السماء، وألقى شبه عيسى على ذلك اليهودي المجرم، فقتله اليهود اشتباهاً بعيسى عليه السلام، كما حكاه القرآن الكريم: ﴿**وما قَتَلُوهُ وما صَلَبُوهُ ولكِن شُبِّهَ لَهُم**﴾.

وطفقت أمّتـه بعد غيبـته تُحرِّف الكَلِم عن مواضعه، وتهرف بمزاعم يبرأ منها السيِّد المسيح عليه السلام كقولهم بالتثليث، واختلافهم عليه بأنّه ابن الله سبحانه، وغالوا فيه حتّى حسبوه هو الله.

وهكذا تصرّم عهد عيسى ولم يستطع كإخوانه السابقين من أولي العزم عليهم السلام من تركيز العقيدة، ورفع راية التوحيد عالية خفّاقة في أرجاء واسعة من الأرض.

دَع هذا قليلاً، وتعال نستطلع ما حقّقه الرسول الأعظم محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم من صنوف الفتوحات والإنجازات في تركيز العقيدة وإعلان واقع التوحيد على أوسع نطاق عرفه تاريخ الأديان:

ولا يَسَع الباحث أن يُثمِّن المكاسب والمعطيات الخالدة الّتي أحرزها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في دنيا الجهاد والإصلاح، حتّى يتبيّن مبلغ تسيّب الأمّة العربية ـ في جاهليّتها ـ وتخلّفها في سائر نواحي الحياة الفكرية والدينية والأخلاقية والإجتماعية والسياسية...

ليعرف أبعاد نضـاله الدائب المرير في تحريرها من نوازع الجاهليـة وأعرافها المقيتة، ونقلها إلى قمم الكمال والإشعاع الروحي والمادِّي.

«فقد ٱتّسمت الأمّة العربيـة ـ إبّان البعـثة ـ بانحطاط دينيّ شـديد، ووثنيّـة سخيفة، وأدواء خُلقية واجتماعية جعلت منها أمّة منحطّة الأخلاق، فاسدة المجتمع،

حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية.

انغمست في الشِّرْك وعبادة الأصنام والأوثان بأبشع أشكالها، فكان لكلِّ قبيلة أو مدينة أو بيت صنم خاص، يتبرّكون به في غدوهم ورواحهم، ويطوفون حوله كطوافهم بالبيت.

وهكذا فشت وتأصّلت فيهم الأدواء الخُلقية والإجتماعية، فكان شرب الخمر شائعاً فيهم، وكان القمار من مفاخر حياتهم، حتّى كان الرجل منهم يقامر على أهله وماله، فيقعد حزيناً سليباً على فقد ماله.

وكان تعاطي الرِّبا فاشياً فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حدّ الغلوّ والقسوة.

وكان من العادات أن يتّخذ الرّجل خليلات، ويتّخذ النِّساء أخلّاء بدون عقد.

وكانت المرأة في المجتمع الجاهليّ عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها، وتُبتزّ أموالها، وتُحرَم من إرثها، وتُعضل بعد الطّلاق أو وفاة الزّوج من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابّة.

وقد بلغت كراهة البنات إلى حدِّ الوأد، وكانوا يئدوهنّ بقسوة نادرة، وكان بعضهم يُلقي الأنثى من شاهق.

وكان الحرب والغزو ممّا طُبعوا عليه، حتّى صارت الحرب مسلاة لهم، ما صيّر الحياة كلّها ترات وثارات فشت في القبائل، وأوصى بها الآباء الأبناء...»[1].

ومن هنا انبرى الرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بعزم راسخ وإرادة صلبة وجهاد

---

(١) اقتبسنا هذه الجُمل بتصرّف واختصار من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسيِّد النّدوي.

مستبسل، يعالج أدواء الأمّة العربية خاصّة، والأمم العالمية عامّة، وينقلها ممّا كانت تعيشه من مآسي الجهل والكفر والضّياع إلى معارج العلم والإيمان، والمُثُل الإسلامية الخالدة، الّتي ما برحت تشعّ بأسمى وأكمل مفاهيم النور والجمال والعطاء، كما تعكسه الفقرات التالية بتركيز وإيجاز هادفين.

فهو الّذي صحّح وأكمل مفاهيم العقائد والشرائع الّتي عرضتها الأديان السالفة عرضاً ناقصاً أو خاطئاً كما صوّرتها أسفارهم اليوم.

فقد برهنَ على وجود الله وتوحيده، واتّصافه بجميع صفات الكمال، وتنزّهه عن سائر النقائص، وعن المشابهة لكافّة المخلوقات بأسلوبٍ علمي مشرق يملأ النفس ويهزّ المشاعر، وقد فاقَ ببلاغته وسطوع حججه وقوّة إقناعه أساليب تلك الأديان وطرقها الإستدلالية، كما عرضتهُ آيات القرآن الكريم.

ونعى على الكافرين والملحدين مستنكراً كفرهم وإلحادهم وهم يبصرون آيات خلق الله تعالى، ودلائل ألوهيّته واضحة مشرقة، ووصفهم بأخسّ الخِلال:

﴿وَلَقَد ذَرَأْنا لِجَهَنّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلجِنِّ وٱلإنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ولَهُم أعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ولَهُم آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أولئكَ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أولئكَ هُمُ ٱلغافِلُونَ﴾. (الأعراف / ١٧٩)

وثنى بالنّعي والإستنكار على المشركين وعبّاد الأصنام، وقرعهم بأسلوب ساخر متهكّم:

﴿وٱتّخَذُوا مِن دونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وهُم يُخْلَقُون ولا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِم ضَرّاً ولا نَفْعاً ولا يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً﴾. (الفرقان / ٣)

﴿يا أيُّها ٱلنّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ، إنّ ٱلّذينَ تَدْعُونَ مِن دونِ ٱللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ، وإن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ

ٱلطّالِبُ وٱلمَطْلُوبُ﴾. (الحجّ / ٧٣)

وثلّث بالإستنكار على المفترين على الله سبحانه باتّخاذ الولد ونسبته إليه وقرّعهم بأسلوب قاصف مزجر:

﴿وَقالُوا ٱتّخَذَ ٱلرّحْمٰنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدّاً * تَكادُ ٱلسّمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ ٱلأرْضُ وَتَخِرُّ ٱلجِبالُ هَدّاً * أن دَعَوا لِلْرَحْمٰنِ وَلَداً * وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أن يَتَّخِذَ وَلَداً * إن كُلُّ مَن في ٱلسّمٰواتِ وٱلأرْضِ إلّا آتِي ٱلرَّحْمٰنِ عَبْداً * لَقَدْ أحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾. (مريم / ٨٨ ـ ٩٤)

وهكذا أوضح القرآن الكريم أنّ صفات الله تعالى هي عين ذاته، لا تغايره ولاتنفكّ عنه، فصحّح بذلك أخطاء الأديان الأخرى الّتي غايرت بين الذّات والصِّفات ما أوقعها في مهاوي الشِّرْك:

﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللهَ أوِ ٱدْعُوا ٱلرّحْمٰنَ أيّاً ما تَدْعُوا فَلَهُ ٱلأسْماءُ ٱلحُسْنى﴾.

(الإسراء / ١١٠)

ومنذ أن أعلن القرآن واقع التوحيد، وقرّره بأسلوب علميّ منطقيّ مبرّأ من ألغاز التثليث ومناقضاته السافرة، حطّم الشِّرْك والمشركين وأذلّها إذلالاً، وأخذت الأمم تؤوِّل ما في أديانها من مفاهيم الشِّرْك والوثنية إلى مشابهة التوحيد الإسلامي:

﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلّا ٱللهُ لَفَسَدَتا﴾. (الأنبياء/ ٢٢)

﴿ما ٱتَّخَذَ ٱللهُ مِن وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إلٰهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحانَ ٱللهِ عَمّا يَصِفُونَ﴾. (المؤمنون/ ٩١)

ومضى القرآن يُصحِّح الأخطاء الّتي ٱختلقها الدّسّ والتحريف في الأديان الأخرى، فأوضح واقع الأنبياء خشية أن يُغالى في أقدارهم، وَيَسِموهم بالتأليه كما غالت النصارى في عيسى عليه السلام:

﴿قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إليَّ أنّما إلهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ فَمَن كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أحَداً﴾. (الكهف/ ١١٠)

﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إن نَحْنُ إلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ ٱللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أن نأتِيكُم بِسُلْطانٍ إلّا بِإذْنِ ٱللهِ وَعَلى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلمُؤْمِنُونَ﴾.

(إبراهيم/ ١١)

وهكذا فصّل القرآن عالم المعاد، وشرح حقائقه ومفاهيمه، وصوّرها تصويراً فنّياً رائعاً لا نظيرَ له في الكتب السماوية الأخرى، حيث عرضتها التوراة عرضاً غامضاً، ولمّح عنها الإنجيل تلميحاً خاطفاً ولم يذكر القيامة إلّا في فقرتين فحسب:

﴿يا أيُّها ٱلنَّاسُ إن كُنتُمْ في رَيْبٍ مِنَ ٱلبَعْثِ فَإنّا خَلَقْناكُم مِن تُرابٍ ثُمّ مِن نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ في ٱلأرْحامِ ما نَشاءُ إلىٰ أجَلٍ مُسَمّىً ثُمّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَن يُتَوَفّىٰ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلىٰ أرْذَلِ ٱلعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً، وَتَرَى ٱلأرْضَ هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عَلَيْها ٱلماءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذٰلِكَ بِأنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلحَقُّ وَأنَّهُ يُحْيِي ٱلمَوْتىٰ وَأنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيها وَأنَّ ٱللهَ يَبْعَثُ مَن في ٱلقُبُورِ﴾. (الحجّ/ ٥ ـ ٧)

﴿وَضَرَبَ لَنا مِثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَن يُحْيِي ٱلعِظَامَ وَهِيَ رَميمٌ * قُلْ يُحْيِيها ٱلّذي أنْشأها أوّلَ مَرَّةٍ وهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم﴾. (يٓس/ ٧٨ ـ ٧٩)

﴿وَكُلَّ إنْسانٍ ألْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً * إقْرأ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ ٱليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾. (الإسراء/ ١٣ ـ ١٤)

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * ومَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾.

(الزّلزلة/ ٧ ـ ٨)

إلى كثير من مفاهيم المعاد ومشاهده الّتي يطول عرضها في هذا المجال.

وإن تعجب فعجب لصمود النّبيّ وجلده على مناوءة قريش وأذاها المرير، وصدّه عن تبليغ رسالة الإسلام، فقد ظلّ صابراً محتسِباً على تلك المعاناة حتّى دمّر الكفر وحطّم الأصنام رغم شيوعها وانتشارها في جزيرة العرب، وقد كان في الكعبة المعظّمة ثلاثمائة وستون صنماً يُعبَد من دون الله عزّ وجلّ، فأذلّها ومحقها، وتوارت هاربة من الوجود، وطفقت السماء تمجِّد جهاد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وبطولتَه وانتصاراتِه في تأسيس دولة الإيمان في الأرض وإعلاء راية التوحيد خفّاقة على أوسع نطاق عرفته البشرية عبرَ الحياة:

﴿وَقُلْ جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إنّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾. (الإسراء/ ٨١)

وغدا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك المثل الأعلى للأنبياء عليهم السلام والمجلّى عليهم جميعاً.

٣ ـ عظمة الآثار:

لو تحرّينا آثار الأنبياء عليهم السلام، واستطلعنا مخلّفاتهم الفكرية والروحية، لوجدنا أكثرها قد عفاهُ القِدَم وأبلاهُ كرّ العصور، ولم يبقَ منها إلّا ملامح باهتة، وصدىً خافتاً في آفاق التاريخ.

والموجود منها اليوم هو قبس من نور السماء، وصبابة من صبابات الوحي تلاعبت بها الأهواء، وشابتها بالدسّ والتحريف، فلم تعد مشرقةً رائقةً كما سطعت من فجرها المشعّ، وانبثقت من معينها الأصيل.

ولا يجد الباحث في تراث الأنبياء عليهم السلام ومخالفاتهم أعظم وأخلد من آثار سيِّد المرسلين وخاتم النّبيِّين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، تلك الآثار الخالدة الفريدة الّتي ما برحت تشعّ مفاهيم النور والخير والجمال، وتتضوّع بِأريجِ الحبّ والسلام، وتعمل على تصعيد البشرية وإسعادها ديناً ودنيا.

فهو صاحب المعجزة الخالدة (القرآن الكريم) الّتي فاقت معاجز الأنبياء عليهم السلام، بِخلودِها وعطائها وظِلالها الوارفة النديّة، لقد تلاشت تلك المعاجز وطواها الزّمن، ولم يخلد منها إلّا معجزة محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم.

هي معجزة خالدة، وكتاب سماويّ خالد بمبادئه السامية ومُثُله العُليا، وتشريعاته الهادفة المواكبة لأطوار الحياة، وظروف البشر الزمانية والمكانية.

وهو الكتاب السماويّ الوحيد الّذي ظلّ غضّاً يانعاً كعهده يوم زفّته السماء إلى الأرض وهبط به الملاك الأعظم مبرّءاً من الإختلاف والتناقض، ومنزّهاً من الدّسّ والتحريف، فقد سجّله المسلمون إبّان نزوله بضبط وإتقان بالِغَين، وحفظه بعضهم عن ظهر غيب، وتناقلته الأجيال بكلِّ أمانة وإخلاص، ولم تُعن أمّة بكتابها كما عُني المسلمون بكتابهم المجيد.

وهو الّذي حفظ تاريخ الأنبياء من الدّثور، وشرحَ سيرهم، وفصّل معاجزهم، وأبان فضلهم على البشر، ونزّههم عمّا اتّهمتهم به الكتب السماوية المتداولة اليوم من صنوف الإفتراءات الّتي لا تليق بكرامتهم ورفعة أقدارهم[1]، ولولاه لاندرست أخبارهم وانطمس تاريخهم.

ومن آثار نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «الشريعة الإسلامية»، الّتي هي أكمل الشرائع، وأوفرها عطاءً، وأكثرها تكفّلاً بتنظيم حياة الناس وإصلاحهم. فقد جمعت محاسن الشرائع ومزاياها الغرّ، وفاقتها بمفاهيمها وأهدافها السامية الّتي لا مثيل لها في دنيا الشرائع والأديان.

---

(١) انظر ج١ من كتاب الهدى إلى دين المصطفى، للمغفور له حجّة الإسلام البلاغي، ص ٤٩ ـ ١٢٢، وكتاب أدلّة اليقين في الرّدِّ على مطاعن المبشِّرين، للأستاذ عبدالرّحمٰن الحيزري، ص ٤٣١ ـ ٤٥٦، لتجد بشاعة تلك التّهم على الأنبياء عليهم السلام.

فهي الّتي ٱستطاعت أن تُنشِئ من أعراب الجاهلية خلال ربع قرن: ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت للنّاس**﴾، عقيدة وشريعة وآداباً.

وهي الّتي جمعت بين محاسن المادّة ومحاسن الرّوح، وألفت بينهما تأليفاً رائعاً يستهوي العقول والقلوب، ويلائم الفِطَرَ السوية.

وهي الجديرة وحدها بالخلود، ومسايرة الأجيال والعصور مدى الدّهر.

هذه لمحة خاطفة عن الشريعة الإسلامية، وسأعرض في الأبحاث التالية طرفاً آخر من خصائصها ومزاياها الجليلة الفريدة.

ومن آثار نبيّنا محمّد ﷺ: «الحضارة الإسلامية».

تلك الحضارة الزاهرة الّتي فجّر ينبوعها، وأوقد منارها رسول الله ﷺ، وكانت أعظم وأيمن حضارة عرفها البشر:

ازدهرت بالإيمان والعلم، وتسامت بالأخلاق والآداب، وزخرت بالقِيَم الإنسانية الرفيعة، وأفاءت على المسلمين بوارف العزّة والمنعة والكرامة، وطغى مدّها الحضاري حتّى شمل الشّرق والغرب، وانتهلت الإنسانية بأسرها من معينها العذب، وٱستمدّت من مفاهيمها الحضارية، ألوان الخير والعطاء الفكري والمادِّي.

وما حضارة الغرب إلّا قبس من حضارة الإسلام، ونبع من فيضه الغامر، ولكنّ حضارة الغرب اليوم أجدبت من قِيَم الدِّين والأخلاق، وأعلنت إفلاسها منهما إفلاساً ذريعاً فاضحاً، وغدت هائمة بحبِّ المادّة وتقديسها وعبادتها، ما أوردها موارد الشّقاء والهوان.

قال الأستاذ المستشرق المهتدي (محمّد أسد) في كتابه: «الإسلام على مفترق الطّرق):

«إنّ الرّجل العادي في أوروبا ديمقراطيّاً أو فاشيّاً، رأسمالياً أو اشتراكياً، عاملاً أو مفكّراً، إنّما يعرف ديناً واحداً هو: عبادة الرُّقيّ المادّي، أمّا كنائس هذا الدِّين فهي المصانع الضّخمة ودور السّينما ودور الرّقص والمختبرات الكيمياوية، وأمّا كهنتها فهم رؤساء المصارف والمهندسون وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة، والنتيجة اللّازمة لذلك ظهور طوائف مدجّجة بالسلاح والإستعدادات الحربية مستعدّة لإبادة بعضها بعضاً، إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها».

«إنّ الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدّة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موقع لله في الحقيقة، ولا تشعر بحاجة إليه»[١].

وليست الحضارة الغربية الراهنة وليدة الشريعتين اليهودية والمسيحية، وإنّما هي سليلة الحضارتين اليونانية والرومانية، ووريثة خصائصهما ونزعاتهما التحلّلية.

هذه نظرات عاجلة في آثار نبيّنا الأعظم محمّد ﷺ، وآيات تفوّقه على جميع الأنبياء، اقتصرتُ عليها خشية الإطناب المملّ.

---

(١) كتاب ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين، للأستاذ النّدوي، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

ختم النّبـوّات

شاءت حكمة الله عزّ وجل أن تتدرّج في هداية البشر وتوجيههم نحو الخـير والرّشـاد، فبعـث الأنبـياء والمرسـلين مبشِّرين ومنـذرين، وأنزل معهـم الشرائـع والأديان حسب حاجات البشرية وأطوارها ومستوياتها الفكرية، متدرِّجاً بها من طور بدائي ساذج إلى أطوار متسامية متكاملة، حتّى بلغت في نهاية أشواط الشرائع وآخر مطافها قمة السموّ وغاية الكمال.

وعلى هذا درجت الشرائع، وسايرت ركب البشرية في مراحل الحياة، قاطعة بهم طوراً بعد طور، رعاية لمصالحهم وأبعاد وعيهم وهضمهم مفاهيم الوحي وشرائع السماء.

فالجنس البشريّ بدأ كما يبدأ الطفـل أقرب إلى البدائيـة والبسـاطة، ثمّ نما الجنس البشري ونمت أفكاره، فوصـل إلى ما يمكن أن نسـمِّيه مرحلة صبا البشرية، ثمّ نما مرّة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تُعدّ مرحلة شـباب البشرية، وكانت الرسالات تناسـب كلّ طور من هذه الأطوار... تلك حقيقة واضحة تمام الوضـوح لكلِّ مَنْ يُعنى بدراسة الأديان أو علاقاتها بالجنس البشري ...

وينبغي أن يكون واضحاً أنّ الجنس البشري لم يتطوّر دفعةً واحدةً في وقتٍ واحد، وإنّما سـاعدت عوامل خاصّة على تطـوّر جزء من الجنس البشري، وبقيت أجزاء أخرى في تخلّفها وتأخّرها، وهكذا دواليك.

وبذلك وصل جزء من البشرية إلى مرحلة الشباب، وكان جزء آخر في نفس الوقت لا يزال في مرحلة الصِّبا، في حين كان هناك جزء ثالث لا يزال في مرحلة الطفولة يعيش عيشة بدائية...

وفي هذا المجال يمكن أن نقسم الرسالات إلى ثلاثة أقسام تقريباً:

فالقسم الأوّل: يُمثِّل طفولة الجنس البشري، وذلك تقريباً يشمل الفترة الّتي عبرتها البشرية من آدم إلى نوح ثمّ إلى إبراهيم.

والقسم الثاني: يُمثِّل صبا الجنس البشري، حيث كان أنبياء بني إسرائيل، وبخاصّة موسى وعيسى عليهما السلام.

والقسم الثالث: يُمثِّل شباب الجنس البشري، حيث رسالة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك ملامح لكلِّ قسم من هذه الأقسام.

ففي القسم الأوّل كانت الدعوة بسيطة ومحدودة بعبادة الله تعالى، دون تنظيمات وتفاصيل إلّا ما يكون من مرض اجتماعي تفشّى، فتنهى عنه الدعوة وتحاربه، وليس للدعوة في ذلك الحين كتب واضحة، وإنّما هي بضع نصائح، وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامّة، وليست هنا تواريخ ولا تقريبية لأديان هذه المرحلة...

ويقف القسم الثاني «صبا الجنس البشري» بين بين، ففيه من القسم الأوّل بعض ملامحه، ولكن له ملامح أكثر تعقيداً وشمولاً، ومظاهر تبدو فيما يلي:

دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات، وأصبح للدعوة كتاب هو التوراة والإنجيل، وقد مَسَّهُما التحريف والضّياع كما سبق القول عنهما، وقد وُجدت في هذه المرحلة تواريخ ولكنّها غير دقيقة تماماً، ولم يستطع بنو إسرائيل في أكثر عصور هذه المرحلة أن يفهموا التوحيد فهماً واضحاً.

أمّا القسم الثالث «شباب الجنس البشري»، فله ملامح واضحة:

١ ـ اتّضحت وحدانيّـة الله، وحُطِّمت الأصنام، وفُتح بالإسـلام عهد جديد لا يقبل الشِّرْك في أيّة صورة من الصّور. فالتوحيد في الإسلام «فكرة تامّة» لا تسمح لعارض من عوارض الشِّرْك والمشابهة، ولا تجعل لله مثيلاً في الحسِّ ولا في الضمير:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾. (الشّورى/ ١١)

٢ ـ أصبحت الدعوة عامّة لكلِّ البشر، وأصبح محمّد رسولاً للعالمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمِين﴾. (الأنبياء/ ١٠٧)

٣ ـ خُتمت الرسالات بدعوة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقد مرّت القرون تلوَ القرون، ولم يأتِ مَن يدّعي الرِّسالة منذ طلع على العالم محمّد بن عبدالله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقد كانت الرسالات يتلو بعضها بعضاً، ثمّ طلع محمّد بقوله إنّه خاتم الأنبياء والرّسل. وصدقه الواقع أربعة عشر قرناً.

٤ ـ دعوة محمّد لها كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وقد مرّت القرون، ولكنّ القرآن بقيَ من غير تحريف:

﴿إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا ٱلذِّكْرَ وإِنّا لَهُ لَحافِظُون﴾. (الحجر/ ٩)

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * في لَوْحٍ مَحْفُوظ﴾. (البروج/ ٢١ ـ ٢٢)

﴿ذلِكَ ٱلكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتّقِين﴾. (البقرة/ ٢)

٥ ـ حياة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وحياة دعوته كلّها وضوح وضوء ونور تواريخ محدودة وأحداث ثابتة، وتطوّر مستقيم.

٦ ـ ديانة شـاملة لأمور الدِّين وأمـور الدّنيا، أبرزت مـعالم الخـير والشّرّ، وراحت إلى أمـور الدّنيا تتحدّى تفكـير العـالم بنظم رائعة في السياسـة والإقتصاد

والميراث والسلم والحرب وكلّ حاجات الإنسان، لقد تطوّر العالم وأصبح جديراً أن يتلقّى أسمى الرسالات فجاءته أسمى الرسالات.(١)

ومن هنا نُدرِك سرّ خلود الشريعة الإسلامية، وصلاحيّتها لجميع العصور والأجيال، وتفوّقها على سائر الشرائع، إذ هي حصيلة أطوار تصاعدية متكاملة منذ مولد البشرية حتّى انبثاق فجر الإسلام.

وقد لخّص الله فيها محاسن الشرائع كلّها، وفضّلها عليها جميعاً بما ضمّنها من صنوف المبادئ والنّظم والآداب، ما جعلها كفيلة بتنظيم حياة البشر وإسعادهم ديناً ودنيا، وغدت بذلك صفوة الشرائع وخاتمة الأديان.

ونُدرِك إلى ذلك سرّ ختم الأنبياء بمحمّد ﷺ وإقفال أبواب الوحي عن الأرض، فهو النّبيّ الأعظم الّذي جمع الله فيه فضائل الأنبياء وأمجادهم جميعاً، وفضّله عليهم بما منحه من صنوف الخصائص والمواهب ما أهّله أن يكون سيِّد المرسلين وخاتم النّبيِّين والمبعوث رحمة للعالمين.

فلا نبيّ بعد محمّد ﷺ، ولا شريعة بعد شريعته السمحاء:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُم وَلٰكِنْ رَسُولَ ٱللهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّين وَكانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً﴾. (الأحزاب / ٤٠)

هذا إلى أنّ الله عزّ وجلّ لا يُرسِل نبيّاً إلى الناس إلّا لإحدى الأسباب التالية:

١ ــ أن يكون الرسول السابق قد اندثرت شريعته، وانطمست تعاليمه، وأصابت كتابه السماويّ أعراض الدّسّ والتحريف، وتلاشت سيرته ومُثله في خضمّ

(١) نُقِلَ بتصرّف وتلخيص عن مقارنة الأديان، للدكتور أحمد شلبي، القسم الثالث، ص ١٨ ــ ٢٥.

التاريخ، وغدا الناس من جراء ذلك عاجزين عن ٱستجلاء شريعته، وٱستلهام تعاليمه، والإقتداء بسيرته وهداه.

٢ ـ أن تكون شريعة الرسول السابق ناقصة وموسومة بالفراغ التشريعي، فهي تتطلّب رسولاً يكمّلها، ويملأ فراغها.

٣ ـ أن تكون بعثة النّبيّ السابق إلى أمّةٍ خاصّة، وشعب معيّن محدود لا تتجاوز نطاقهما، وغيرهما محتاج إلى نبيّ آخر.

وبديهي أنّ بعثة الأنبياء وتجديد إرسالهم في غير هذه الأسباب يُعتبر جزافاً وعبثاً، وهما محالان على الله سبحانه.

ومن الثابت أنّ هاتيك الأسباب كلّها قد ٱنتفت وزالت ببعثة محمّد ﷺ وإرساله رحمةً للعالمين.

أمّا ٱنتفاء السبب الأوّل: فإنّ شريعة محمّد ﷺ ما زالت ولم تزل شامخة الطّود، ساطعة المنار، خفّاقة الهواء، تطاول القرون، وتواكب الأجيال، وتعاليم محمّد ﷺ ما برحت باسقة العود وارفة الظّلال، يانعة الثّمار تؤتي أكلها كلّ حين.

وكتاب محمّد ﷺ لا يزال غضّاً طريّاً مصوناً محفوظاً من عوادي الدّسّ والتحريف، وهو الكتاب السماويّ الوحيد الّذي ظلّ محتفظاً بوثاقته وطابعه الإلهي الأصيل، ولم يزل معينه العذب صافياً فيّاضاً بالنّور والخير والجمال.

وسيرة محمّد ﷺ لا تزال حيّة في النفوس، مشرقة بالفضائل، فوّاحة بالمآثر والأمجاد.

وأمّا ٱنتفاء السبب الثاني: فإنّ شريعة محمّد ﷺ هي أكمل الشرائع، وأجمعها لحاجات البشر في كافّة حقول الحياة ونواحيها الكُثُر، لم تغفل منها جليلاً أو

حقـيراً إلّا وشرّعت له حكماً وقرّرت له نظاماً حتّى آداب الأكل والشّرب والنّـوم والخلاء، وليس فيها نقص أو فراغ يتطلّبان التكميل والإتمام.

﴿ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِن شَيء ﴾. (الأنعام / ٣٨)

﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ ٱلكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيء ﴾. (النّحل / ٨٩)

﴿وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً ﴾. (الإسراء / ١٢)

وأمّا ٱنتفاء السّبب الثالث: فإنّ الله تعالى بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى جميع الخلق، وكافّة البشر، وأرسـله رحمةً للعالمـين، وجعل الإسـلام ديناً عامّاً خالداً للنـاس، لا يختصّان بزمنٍ خاصٍّ أو شعبٍ محدود.

وأصدق شـاهد على ذلك دعوته العالميـة، ورسائله وبعوثه إلى ملوك العالم، يدعوهم إلى الإيمان، وٱستطاع بجهوده الجبّارة أن يرفع راية الإسلام على أوسع بقاع الأرض.

وقد أنبأ الله عزّ وجلّ عن رسالته العالميـة العامّة، وبعثته إلى جمـيع الخلق في آيات من الذِّكر الحكيم:

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إلّا كافّةً لِلْناسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾. (سبأ / ٢٨)

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إلّا رَحْمَةً لِلْعالَمِين ﴾. (الأنبياء / ١٠٧)

﴿قُلْ يا أَيُّها ٱلنّاسُ إنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُم جَمِيعاً ﴾. (الأعراف / ١٥٨)

وحيث ٱنتفت جميع تلك الأسباب، ختم الله تعالى النّبـوّات بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وختم الشرائع بالإسلام، وأغنى البشرية بهما عن جميع الأنبياء والشرائع، وأعلن إلى الدّنيا أنّ الإسلام هو دينه الّذي ٱرتضاه وفضّله على الأديان كلّها وفرض على الخلق ٱعتناقه والسّير على هُداه:

﴿إنّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ الإسْلام﴾ . (آل عمران/ ١٩)

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلخاسِرِين﴾ .

(آل عمران/ ٨٥)

﴿اليَـوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم ، وأتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتي ، ورَضِيتُ لَكُم الإسْلامَ دِيناً﴾ . (المائدة/ ٣)

مبادئ الإسـلام

الدِّين الإسلامي:

هو دين الإنسانية الخالد، والحافل بأرفع وأكمل المبادئ والنّظم السماوية الّتي عرفتها البشرية منذ مولدها حتّى انبثاق فجر الإسلام، ما جعله صفوة الأديان.

هو الدِّيـن الّذي يلائم العقـول النـيِّرة، والفطر السـليمة، ويواكب الأجـيال والعصور، مستوعباً جميع حاجات البشر، وشؤونهم التشريعية في سائر حقول الحياة ومجالاتها الدينية والمدنية، وضامناً لأتباعه السعادة والسلام.

هو دين العقل والمنطق، دين العلم والبرهان، دين الحرِّية والمساواة، دين المحبّة والسلام، دين الأدب والأخـلاق، دين العزّة والمنعة، دين المُثُل العُـليا الّتي هام بها المصلحون وتمنّاها الحكماء عبرَ الحياة.

هو الدِّين الّذي كلّما درسته ومحّصته، ٱزددتَ إعجاباً به وتعشّقاً له وتفانياً فيه، وغدوتَ تتفاداه بأعزِّ ما تملك، كما تفدّاه المسلمون الأوّلون العارفون بجلالتـه وسموّ معناه.

هو الدِّيـن الّذي ٱسـتطاع أن يُحـقِّق خلال ربع قرن من معـاجز الإصـلاح وفتوحات الإيمان، ما عجـزت عنـه الشرائع بأسرها، وأنشأ من أعراب الجاهليـة ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أخْرِجَت للنّاس**﴾، عقيدة وشريعة وحضارة ومجداً.

هو الدِّين الّذي تألّبت على محقه الأعداء دولاً وشعوباً، وجهدت عناصر البغي والفساد من حكّامه المنحرفين وخصومه المتآمرين، على إطفاء نوره وهدم كيانه، وظلّ رغم ذلك شامخ الصّرْح، خفّاق اللِّواء، ساطع المنار.

وليس في مقدور هذا القلم أن يوفِّي الدِّين الإسلامي حقّه من الوصف والتقدير، بيدَ أنِّي أعرض على القارئ الكريم طرفاً لامحاً من مبادئه الخالدة، وخصائصه المثالية الّتي تعكس واقعه الرّفيع، وأهدافه السامية، وعطاءه الجمّ.

وقبل البدء في عرضها، يحسن بي أن أُلِمَّ إلمامة قصيرة في شرح حقول الإسلام العامّة وعناصره الرئيسة.

تتلخّص مفاهيم الإسلام وتشريعاته في الحقول الأربعة التالية:

العقائد، العبادات، المعاملات، الأخلاق والآداب.

أمّا العقائد:

فقد بلغت قمّة أطوار الشرائع، وذروة تكاملها من الأزل حتّى مولد الإسلام، فأوضحت واقع التوحيد، وخصائص الألوهية، وصفاتها الحقّ، وجلت واقع النّبوّة والأنبياء عليهم السلام، وفصلت حقائق المعاد وأسرار القيامة، ومفاهيم النّعيم والعذاب وصوّرتها تصويراً رائعاً يستهوي العقول والقلوب، ويسيطر على المشاعر، حتّى باركها الله عزّ وجلّ، واصطفاها بين العقائد والأديان، كما أوضحنا في الأبحاث السالفة.

وأمّا العبادات:

فقد استهدف الإسلام بها تركيز العقيدة، وتزكية النفس، وتهذيب الخلق، وغرس نوازع الخير والصّلاح في وجدان المسلم، واجتثاث جذور الشّرّ والفساد فيه، ومن ثمّ إعداده وتأهيله لسعادة الدِّين والدّنيا، والفوز برضا الله تعالى ونعمائه.

ومن أبرز مزايا العبادات في الإسـلام، أنّها صِيغت بأسلوبٍ روحانيٍّ هادف يعرب عن أسمى مفاهيم العبودية لله عزّ وجلّ وغاية الخضوع والتذلّل له، ما ميزّها على عبادات سائر الأديان.

هذا إلى ما تكفّله من تنظيم شؤون الإنسان، وتصعيد حياته الرّوحية والمادِّية، وتسديده شعوراً وسلوكاً، وإسعاده فرداً ومجتمعاً.

فالصّلاة مثلاً: تُهذِّب الضّمير، وتُقوِّم الخُلْق، وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر.

والزّكاة: من أقوى العوامل على علاج الفقر، وإنعاش فقراء المسلمين، والتأليف بينهم وبين الأغنياء، ونشر السلام والرّخاء في ربوعهم، وإنقاذهم من نوازع الطبقية المقيتة وأحقادها المدمِّرة.

والصِّيام: باعث على صحّة الجسم والنّفس، وازدهارهما معاً، بما يغرس في الصائم من قوّة الإرادة، وملكة الصّبر، وكبح جماح الغـرائز العارمة، ويمدّه بالصحّة والقوّة والمناعة.

وهكذا تزخر عبادات الإسلام بجليل الخصائص، وألوان العطاء الّتي يستلزم عرضها وشرحها أبحاثاً مفصّلة لا تتّفق وموضوع هذا الكتاب.

وأمّا المعاملات:

فقد شرّع الإسلام لها دستوراً جامعاً شاملاً، يُنظِّم حياة الناس ويحفظ حقوقهم، ويحمي أرواحهم وأموالهم وكراماتهم، ويُشيع الحقّ والعدل بينهم، حسبك أن تستعرض حقول الفقه الإسلامي لتراها زاهية بألوان التشريع الإلٰهي، وحافلة بجميع حاجات الإنسان فرداً ومجتمعاً: كالبيع والشِّراء، والإجارة، والرّهـن، والشركة، والمزارعة، والحدود، والديات، ونحوها من الحقول الشاملة الكاملة.

وأمّا الأخلاق والآداب:

فقد ٱستكمل الإسلام فيها مبادئ الأخلاق، وجمع فيها أصول الفضائل والمُـثُل العُليا، فبلغت قمة الكمال والجمال الخُلُقِيَّيْنِ، وأبرز خصائصها أنّها أخـلاق وآداب طبيعية، مبرّأة من مظاهر التصنّع المقيت والتكلّف المرهق للنفس، كما هي: منزّهة من عوامل التبذّل والإسفاف الشائعين في أخلاق وآداب العصر الحديث.

هي دستور أخلاقي فريد، يغرس في المسلم مثالية الخلق الرفيع ويوجّهه نحو السِّيرة الحميدة، والسلوك الأمثَل، ويطبعه بطابعه المميّز الوضّاء.

كما رسمه الرسول الأعظم ﷺ: «**المُؤمِن مَنْ أمنهُ النّاس على أموالِهم ودمائِهم، والمُسْلِمُ مَنْ سَلمَ المسلمون من يَدِهِ ولسانِهِ، والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ السّيِّئات**»[1].

فهي تحضُّ على التواصي بالحقِّ، والتمسّك بالعدل، والتعاون على البرِّ، والوفاء بالعهد والوعد، والتحلِّي بالصِّدق والأمانة والصّبر... كما تحثّ على برّ الوالدين، وصلة الأرحام، ورعاية الأصدقاء والجيران، والعطف على الضّعفاء والبؤساء. وتحتِّم احترام النفوس والأعراض والأموال، وصيانتها من كلِّ داعر متلصِّص.

وأباحت مُتع الحـياة وأشواقها ولذائذها البريئة بأسلوب سويّ لا إفراط فيه ولا تفريط.

وحرمت كلّ ما يضرّ بالإنسان فرداً ومجتمعاً صحِّياً وأخلاقياً، ممّا يتلف الصحّة ويثلب السّمعة والكرامة، ويثير العداء والبغضاء في النفوس: كشرب الخمر، ولعب القمار، وتعاطي الرِّبا، وممارسة الاغتياب والسّخرية والبذاء ونحوها من الخِلال الذميمة.

---

(١) الوافي، ج ١٤، ص ٤٨، عن الفقيه.

وأمرت بالسّعي لاكتساب الرِّزق، وتوفير لوازم العيش الكريمة لتنقذ المجتمع الإسلامي من مآسي الفاقة والحرمان.

وقد كان المسلمون الأوّلون إبّان تمسّكهم بالإسلام، وتطبيق أخلاقه وآدابه، أرقى الأمم حضارة، وأرفعهم مجداً، وأوفرهم سعادة ورخاءً، ولمّا ٱنحرفوا عن نهجه وهداه، عراهم الوهن والتخلّف، وٱنتابتهم الهزائم والنّكسات. ولا منقذ لهم من هذا الدّرك الهابط الفاضح إلّا تجديد الولاء للإسلام، والتمسّك بمبادئه، والسّير على هداه.

وإليكَ فيما يلي طرفاً من مبادئ الإسـلام، وخصائصه الجمّة الرفيعـة، لتكون عظة بالغة ودرساً قيِّماً لشبابنا الناهض، يحفِّزهم على استغلال كنوز الإسلام، وٱستلهام مُثُله الرائدة، واسترفاد عطائه الزّاخر.

١ ـ الإسلام دين الفِطْرَة

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلْدِّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلّتي فَطَرَ ٱلناسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذلِكَ ٱلدِّين ٱلقَيِّم ﴾. (الرّوم / ٣٠)

الفطرة هي: الصِّفة الطبيعية في الإنسـان، كالجبلة والغـريزة. وإنّ من أبرز خصائص الإسـلام ومحاسنه الّتي ميّزته على سـائر الأديان أنّه دين الفِطَر السليمة والطِّباع الكريمة، والنفوس الواعية، واية ذلك: أنّك تراهُ يتجاوب ويتناغم مع فطرة الإنسان، وجبلته السويّة، فلا تجد في كافّة حقوله وجوانبه نشازاً عن لحن الفطـرة ومنطقها السديد، وإنّما هو دين سماحة ويُسْر، يستهدف هداية البشر وإسعادهم ديناً ودنيا بأسـاليبه المحبّبة، ووسائله الحكيمة الهـادفة، كما أوضحته خصائص الإسـلام وحقوله السالفة.

فمن مظاهر الفطـرة فيه: أنّه يدعـو الناس ويوجِّههم إلى ٱسـتطلاع الآيـات الكونية، وٱستجلاء ما تتّسم به من روعة الإبداع، ودقّة النظام، وسموّ الغاية، وحكمة التدبير، لتؤمن بفطرتها بخالق الكون، ووحدانيّته وحكمته.

﴿وفي ٱلأرْضِ آياتٌ للمُوقِنِين * وفي أنفُسِكُم أفلَا تُبْصِرُون ﴾.

(الذّاريات / ٢٠ ـ ٢١)

وهكذا ليس في عقائـده ما يُنافي الفِطَـر السليمة ويخالفها، بل هو من أبـرز الأديان السماوية تناغماً وٱنسجاماً معها، وأكثرها يُسراً ووضوحاً، لا تجد في مبادئه

ألغازاً معقّدة يقصر العقل عن هضمها وفهمها، كما لا تجد في أحكامه ما يُرهق الجسم أو النّفس، ويصيبهما بالضِّيق والعُسْر:

﴿يُرِيدُ ٱللهُ بِكُمُ ٱليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلعُسْرَ﴾. (البقرة/ ١٨٥)

﴿ما جَعَلَ عَلَيْكُم في ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. (الحجّ/ ٧٨)

ومن آيات الفطـرة فيه: أنّه يأمر أتباعـه بالإيمان والتصديق بجميع الأنبـياء والمرسلين عليهم السلام، وكتبهم السماوية، حيث أنّهم رُسُل الله تعالى، ودُعاة دينه، وكلّهم ينهلون من معين سماويّ واحد، ويستهدفون برسالاتهم هدفاً واحداً هو هداية البشر وإصلاحهم وإسعادهم، فلا مناصَ من تصديقهم والإيمان بهم جميعاً.

﴿قُولُوا آمَـنّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلَيْـنا وما أُنْزِلَ إلى إبْراهيـمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ والأسْباطِ وما أُوتيَ مُوسى وعِيسى وما أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّـونَ من رَبِّهم لا نُفـرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُم ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمون * فإن آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَد ٱهْتَدُوا وإن تَوَلَّوا فإنّما هُم في شِقاقٍ فسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وهُوَ ٱلسّميعُ ٱلعَلِيم﴾. (البقرة/ ١٣٦ ـ ١٣٧)

وليس غريباً بعد هذا على الإسلام أن يدع الناس أحراراً في أديانهم دون أن يقسرهم على ٱعتـناقه، ويضطرّهم إليه، لامتناع غرس الإيمان الصـادق الواعي في نفوسهم بالقهر والإكراه، وراحَ يلتمس لهم أسلوباً فطريّاً وجدانيّاً، شرحَ فيه مفاهيم الرّشد والصّلاح، ومفاهيم الغيّ والفساد، وبعد هذا الشّرح الفاصل المميّز، خيّرهم أن يكونوا من أهل هذا أو ذلك:

﴿لا إكْراهَ في ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطّاغُوتِ ويُؤْمِن باللهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ ٱلوُثْقىٰ لا ٱنفِصامَ لَها واللهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾. (البقرة/ ٢٥٦)

وهكذا تجـد الدسـتور الإسلامي والعـبادات الإسـلامية، وأخلاق الإسـلام موسومة بطابع الفطرة والطبيعة.

فالدستور الإسلامي يسوس الناس بالحكمة واليُسْر، يُنظِّم حياتهم، ويصون حقوقهم الفردية والإجتماعية، ويُظلِّلهم بعدله ورعايته، ولا ينزع إلى القسوة والتنكيل إلّا في ظروف خاصّة يقتضيها أمن المجتمع وسلامه، وتستدعيها طبائع المجرمين وأعمالهم الإجرامية، فيُعاقبهم آنذاك بصرامة بالغة، حسماً لبغيهم وحمايةً لحقوق الناس وأمنهم، وليس في ذلك ما يُناقض الفطرة والطّبع السليمين.

والعبادات الإسلامية: تتجاوب ومقتضيات الفِطَر الواعية، فهي لا تبعث على تعذيب الجسد وهدر طاقاته جزافاً كما يفعله الرّهبان الهاربون من مباهج الحياة ومُتعها البريئة، ولا ترهق الإنسان بالفروض الشاقّة كالآصار الّتي كانت في العصور الغابرة، وإنّما هي عبادة مثالية تصوِّر طاعة الله تعالى والخضوع له والتذلّل إليه بأسلوبٍ شيِّق مبرّأ من مظاهر التعقيد والتهويل البادية في الأديان الأخرى، أو التبذّل والإسفاف الّتي تمارسها معابد الغرب اليوم وقد راقت عبادات الإسلام بعض المنصفين الغربيين وراح يُمجِّدها ويثني عليها أطيب الثّناء.

قال المستشرق الأمريكي (بودلي):

«لو أنّ القدِّيس بطرس عاد إلى روما لامتلأ عجباً من الطّقوس الفخمة وملابس الكهنوت المزركشة، والموسيقى الغريبة في المعبد المقرونة باسمه، ولن يعيد البخور والصّور والرّقى إلى ذهنه أي شيء من تعاليم سيِّده المسيح. ولكن إذا ما عاد محمّد إلى أيِّ مسجد من المساجد بين لندن وزنجبار، فإنّه سيجد نفس الشعائر البسيطة الّتي كانت تُقام في مسجده في المدينة، الّذي كان من الآجر وجذوع الشجر»(١).

وتتجلّى دعاية الفطرة في (الرُّخص) الّتي شرّعها الإسلام، وهي: تخفيف

(١) الإسلام بين الإنصاف والجمود، للأستاذ محمّد عبدالغني، ص ٣٢، عن سلسلة مع الإسلام.

الأحكام الشرعية وتيسيرها على المكلّف، في حالات الطّوارئ، ومعاناة العُسْر والحَرَج، وٱستبدالها بأحكام أكثر سهولة ويُسراً.

رخّص له في التيمّم عند فقدان الماء، أو مخافة الضّرر، أو العطش من استعماله.

ورخّص له في الإفطار خشية المرض من الصِّيام، أو تفاقمه، أو طول برئه.

ورخّص له في الصّلاة جالساً عند عجزه عن القيام، ومضطجعاً إذا عجز عن الجلوس.

ونحو ذلك من الرُّخص المفصّلة في الأسفار الفقهية.

والأخلاق الإسلامية:

هي كذلك أخلاق طبيعية، مبرّأة من مظاهر التصنّع والتكلّف، ومنزّهة عن عوامل التبذّل والإسفاف، فهي تُهذِّب ضمير المسلم، وتُلطِّف مشاعره، وتعمِّر وجدانه بالقِيَم الأخلاقية ومفاهيمها النبيلة، محبِّبة له خِلال الحقّ والعدل والجمال، ومُنفِّرة له من سجايا الباطل والجور والفساد، ومن ثمّ تبوِّئه قمة الكمال الخلقي ببساطة ويُسْر.

﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى ٱلبِرِّ وٱلتّقْوى، ولا تَعاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدْوان﴾.

(المائدة/ ٢)

﴿ولا تَسْتَوي ٱلحَسَنَةُ ولا ٱلسّيِّئة، ٱدْفَعْ بالّتي هِيَ أحْسَن فإذا ٱلّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كأنّهُ وَلِيٌّ حَمِيم﴾. (فُصِّلت/ ٢٤)

﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنّ ٱلسّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أولئكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾. (الإسراء/ ٣٦)

﴿يا أيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إنّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَب بَعْضَكُم بَعْضاً﴾. (الحجرات/ ١٢)

﴿يا أيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا لا يَسْخَر قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسى أن يَكُونوا خَيْراً مِنْهُم، ولا نِساءٌ من نِساءٍ عَسى أن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ، ولا تَلْمِزُوا أنْفُسَكُم ولا تَنابَزُوا بالألْقاب﴾. (الحجرات/ ١١)

﴿يا أيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِن ذَكَرٍ وأنْثى وَجَعَلْناكُم شُعوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا، إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ ٱللهِ أتقاكُم﴾. (الحجرات/ ١٢)

﴿إنّما ٱلمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فأصْلِحُوا بَينَ أخَوَيْكُم﴾. (الحجرات/ ١٠)

﴿إنَّ ٱللهَ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وٱلاحْسانِ وإيْتاءِ ذِي القُرْبى ويَنْهى عَنِ ٱلفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْي﴾. (النّحل/ ٩٠)

﴿خُذِ ٱلعَفْوَ وأمُر بالعُرْفِ وأعْرِض عَنِ الجاهِلِين﴾. (الأعراف/ ٢٠٠)

إلى كثيرٍ من الآيات الأخلاقية الّتي يزخر بها القرآن الكريم.

لقد علم الإسلام أنّ الإنسان شغوف بزخارف المادّة، ومباهجها الفاتنة كما تراوده الأشواق الروحية، ومُثُلِها الرفيعة، فلم يدعه هملاً وغفلاً يعبّ من الأولى ما يبعث على ضراوته، وهبوطه عن واقعه الإنسانيّ، أو ينزع إلى الثانية ما يسوِّل له الرّهبنة والتزمّت والجمود، فرسم له دستوراً أخلاقياً جامعاً بين مآرب المادّة وأشواق الرّوح، ومنسِّقاً بينهما تنسيقاً حكيماً، يلائم الفِطَر البشرية، ولايصدم غرائزها وأهدافها.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلتي أخْرَجَ لِعِبادِهِ وٱلطَّيِّباتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا في ٱلحَياةِ ٱلدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ ٱلقِيامَة﴾. (الأعراف/ ٣٢)

﴿يا أيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم وٱشْكُروا للهِ﴾.
(البقرة/ ١٧٢)

﴿وَهُوَ ٱلّذِي خَلَقَ لَكُم ما في الأرْضِ جَميعاً﴾. (البقرة/ ٢٩)

وقال الصّادق عليه السلام: «**ليسَ مِنّا مَنْ تَرَكَ دُنياهُ لآخِرَته، ولا آخِرَتهُ لدُنياه**»[1].

وقال العالم عليه السلام: «**إعْمَل لدُنْياكَ كأنّكَ تعيشُ أبَداً، واْعْمَل لآخِـرَتِكَ كأنّكَ تموتُ غَداً**»[2].

وهكذا راعى الإسـلام فطرة الإنسان وغرائزه الجنسـية، فلم يسـتنكرها أو يقمعها بالحرمان، وإنّما هذّبها وأحسنَ سياستها وتوجيهها، وأباحَ أشواقها البريئة في حدود منطقيّة عادلة لا إفراط فيها ولا تفريط.

هذه إلمامة قصيرة اْستجلينا فيها مظاهر الفطرة في الدِّين الإسلامي ومواكبته للجِبلة السويّة والطِّباع الكريمة، في حقوله الروحية المادِّية، والتشريعية والتنفيذية.

---

(١) عن الوافي، ج ١٠، ص ٩، عن الفقيه.

(٢) نفس المصدر.

٢ ـ الإسلام دين العقل

يعتبر العقل في طليعة الفضائل والمواهب الّتي ازدان بها الإنسان وفاقَ بها جميع الخلق، ونال به العناية الكُبرى والحظوة البالغة من الله عزّ وجلّ، حيث كرّمه وأغدق عليه سوابغ نعمه وجزيل آلائه الّتي ميّزته وفضّلته على سائر الكائنات.

وكان من مظاهر انحراف بعض الأديان عن واقعه السماويّ الأصيل، أنّها كانت تناشد أربابها إلى تجميد العقل، وحَجْره وإغفال قيمه ومعاييره «اطفؤوا نور العقل، اطمسوا عين البصيرة، فإنّ الدِّين ينافي العقل».

وكان هذا الإجراء التعسّفي مهرباً وجدانياً من استشعار التناقضات الصارخة بين العقل وبين مفاهيمها الدينية المحرّفة. وظلّت رواسب تلك الدعوة في الأمم الغربية إلى عهد قريب، فكانت الكنيسة تحرّج فهم الأناجيل على عامّة أتباعها مستأثرة به دونهم، حسبك في ذلك أن تستعرض قاموس الكتاب المقدّس، فإنّك لا تجد فيه كلمة (العقل) ولا مترادفاته من اللّبّ والنُّهى لإغفالها في كتب العهدين وعدم اتّخاذه وسيلة لتفهّم حقائق الدِّين وآياته.

ولمّا جاء الإسلام مجدّ العقل وأطراه، وأوضح أنّه الرائد الأمين والمرشد الحكيم للإنسان، والحَكَمُ الفصل بين الحقّ والباطل، والهدى والظّلام، والخير والشّرّ، وطفق يدعو إلى تحكيمه وٱستلهام وحيه في القرآن الكريم زهاء خمسين مرّة أو تزيد، واعتبر الّذين لا يفقهون البراهين العقلية، ولا يستجيبون لمنطقها وحججها كالأنعام أو أضلّ.

﴿وَلَقَد ذَرأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلجِنِّ وٱلإنسِ لَهُم قُلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ولَهُم أعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ولَهُمْ آذانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِها أولئك كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ، أولئكَ هُمُ الغافِلُون﴾. (الأعراف / ١٧٩)

ونعى على الجامدين المتحجِّرين الّذين ألغوا عقولهم، وقلّدوا آباءهم تقليداً غبيّاً رغم كفرهم وضلالهم:

﴿وإذا قِيلَ لَهُم ٱتّبِعُوا ما أنْزَلَ ٱللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِع ما ألفَيْنا عَلَيْهِ آباءنا أوَ لَو كانَ آباؤهُم لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولَا يَهْتَدُون﴾. (البقرة / ١٧٠)

وهكذا أنحى باللّوم والتّقريع على متّبعي الظّنون والأوهام الّذين لا يتحرّون الحقائق ولا يتّبعون الحقّ والواقع:

﴿وإن تُطِعْ أكْثَرَ مَن في الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبيلِ ٱللهِ إن يَتَّبِعُونَ إلّا ٱلظَّنَّ وإنْ هُمْ إلّا يَخْرُصُون﴾. (الأنعام / ١١٦)

﴿إنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ ٱلحَقِّ شَيْئاً﴾. (يونس / ٣٧)

ومضى الإسلام يؤكِّد ضرورة تحكيم العقل، وٱتّخاذه ذريعة إلى فهم العقيدة الإسلامية وتركيزها في نفوس المسلمين، فالعقيدة السطحية الّتي لا يهضمها العقل، ولا يساندها البرهان، سرعان ما تنطفئ وتتلاشى في أعاصير الشّبه والمطاعن.

من أجل ذلك تميّز الإسلام عن سائر الأديان، بأنّه الدِّين الّذي تتجاوب مبادِئُهُ ومفاهيمه، وصميم العقل والوجدان، وليس فيه ما يناقضها ويخالفها، خلافاً للأديان الأخرى الّتي تتجلّى فيها الإستحالات العقلية: كالتثليث وألوهية المسيح ونحوهما من الممتنعات.

وناهيكَ في جلالة العقل وتنويه أهل البيت عليهم‌السلام عنه وٱعتباره سمة مميّزة للمؤمن الحقّ، ومقياساً صادقاً للمكافأة على الأعمال.

قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا رأيتُم الرّجل كثير الصّلاة، كثير الصِّـيام، فلا تباهوا به، حتّى تنظروا كيف عقله»** [1].

وقال الباقر عليه السلام: **«إنّما يداق(*) الله العـباد في الحسابِ يوم القيامة على قدر ما أتاهم من العقول في الدّنيا»** [2].

من هذا العـرض الخاطف، نُدرك عناية الإسـلام بالعقل، وتحـريره من أسر الأوهام والتقاليد المزيّفة، وإبراز تجاوب العقل والدِّين وانسجامها في واقع الإسلام.

---

(١) الوافي، ج ١، ص ٣٤، عن الكافي.

(*) يداقّ الله العبادَ في الحساب: يحاسبهم بالدِقّة.

(٢) الوافي، ج ١، ص ٢٥، عن الكافي.

٣ ـ الإسلام دين العلم

تميّز الإسلام فيما تميّز به من صنوف الخصائص والفضائل أنّه دين (العلم)، فقد مجّد العلم، وأشاد بفضله، ورغّب فيه بألوان التشويق والتحريض الّتي لا نظيرَ لها في الأديان الأخرى. فقد ذكر القرآن الكريم اسم العلم زهاء (مئة مرّة)، وذكر الألفاظ المشتقّة منه أضعاف ذلك، تكريماً للعلم والعلماء، وتعظيماً لشأنهما الرفيع. فلم يعرف الإسلام ذلك التناقض الصارخ، والتناكر البشع بين العلم والدِّين الّذي عرفته الأمم الغربية وعاشته ردحاً طويلاً من الزّمن.

ولم يعان المسلمون ذلك الصِّراع الدامي والمآسي الرهيبة الّتي عاناها علماء الغرب وعباقرته المجدِّدون إبّان نهضتهم العلمية، حيث «قامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرِّفون بزمام الأمور في أوروبا، وكفّروهم واستحلّوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدِّين المسيحي.

أنشأوا محاكم التفتيش الّتي تُعاقب ـ كما يقول البابا ـ أولئك المُلحِدين والزّنادقة.. فجدّت واجتهدت أن لا تدع في العالم عرقاً نابضاً ضدّ الكنيسة...

ويُقدّر أنّ مَنْ عاقبتهم هذه المحاكم يبلغ عددهم (ثلاثمائة ألف)، أُحْرِقَ منهم إثنان وثلاثون ألفاً أحياء»[١].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للأستاذ السيد أبي الحسن النّدوي، ص ١٦٦.

فلم يشهد المسلمون ذلك العداء المسعور، والتناحر البشع بين الدِّين والعلم، وإنّما كان الإسلامِ والعلم صنوين مقترنين لا ينفكّ أحدهما عن صاحبه، فكان الأوّل رائداً للعلم ونصيراً للعلماء، وكان الثاني شعار الإسلام ورمز أمجاده، وهذا ما تُصوِّره نصوص الكتاب والسنّة:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلّذِينَ يَعْلَمُونَ وٱلّذِينَ لَا يَعْلَمُون﴾. (الزّمر / ٩)

﴿يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وٱلّذِينَ أوتُوا العِلْمَ دَرَجات﴾. (المجادلة / ١١)

﴿إنّما يَخْشى ٱللهُ مِنْ عِبادِهِ ٱلعُلَماءُ﴾. (فاطر / ٢٨)

﴿وَتِلْكَ ٱلأمْثالُ نَضْرِبُها للنّاسِ وما يَعْقِلُها إلاّ ٱلعالِمُون﴾. (العنكبوت / ٤٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «طَلَبُ ٱلعِلْم فريضةٌ على كُلِّ مُسلم، ألا إنّ اللهَ يُحبُّ بُغاة العِلْم»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا كُميل! هلكَ خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقيَ الدّهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة**»[2].

وقال الباقر عليه السلام: «**عالِمٌ يُنْتَفَعُ بعلمِهِ أفضلُ من سبعينَ ألف عابِد**»[3].

وكان من نتائج هذا التشويق الملحّ على العلم، أن ٱتّسعت آفاقه في الإسلام وزخر مدّه وكثر عطاؤه، حتّى ٱستطاع المسلمون أن يخلِّفوا تراثاً علمياً ضخماً، خلال أربعة قرون من حضارتهم الزاهرة، يربو ويفوق ما أنتجته الحضارة اليونانية في آمادٍ طويلة.

---

(١) عن الكافي.

(٢) عن النّهج.

(٣) عن الكافي.

وٱستطاع المسلمون بفضل سبقهم وتفوّقهم العلميّ أن يُطوِّروا أساليب الأبحاث العلمية عن مناهجها التقليدية القديمة، إلى المنهج التجريبي القائم على التمحيص والإختبار الدّقيقين، والّذي أحدثَ تطوّراً هامّاً، وٱزدهاراً رائعاً في دنيا العلم، وحسبَ الغربيّون، أنّه من صنعهم وابتكارهم. والحقّ أنّ المسلمين هم واضعو أساسه ومبتكرو نظامه، كما شهد بذلك المنصفون من كتّاب الغرب.

قال (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب):

«إنّ العرب لم يظلّوا طويلاً معتمدين على كتب اليونان الّتي نُقِلت لهم، فقد أدركوا بعد لأي، أنّ التجربة والترصّد والمشاهدة خير من أفضل الكتب. وبهذا سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة الّتي تكاد تكون من القضايا المسلّمة»[1].

وقال (درابر) المدرِّس بجامعة نيويورك في كتابه (المنازعة بين العلم والدِّين):

«لقد كان تفوّق العرب في العلوم ناشئاً من الأسلوب كالذي توخّوه في بحوثهم ... فانّهم تحقّقوا أنّ الأسلوب العقليّ لا يؤدِّي إلى التقدّم، وأنّ الأمل في الوقوف على الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها.

ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم الأسلوب التجريبيّ والدستور العمليّ»[2].

وقد برع المسلمون وحلّقوا في كافّة العلوم الدينية والدنيوية وكانوا فرسانها المجلِّين.

أمّا العلوم الدينية: كعلم الكلام والفقه والأصول والتفسير والحديث، فقد كانوا ولا يزالون منفردين بها، لا يجاريهم فيها سائر الأمم والأديان، وقد زخرت المكتبة

(١) الإسلام بين الإنصاف والجحود، للأستاذ محمّد عبدالغني، ص ٤٩ ـ ٥٠، من سلسلة مع الإسلام.

(٢) الإسلام دين الهداية والإصلاح، للأستاذ محمّد فريد وجدي، ص ٤٢.

الإسلامية بالنّمط الرائع الفريد من إنتاجهم الفكري، وظلّ المسلمون مشاعل وهّاجة، ومنارات ساطعة في العلوم الدينية، حتّى بعد أفول الحضارة الإسلامية وضعف النشاطات العلمية فيها، وظلّت المدارس الإسلامية تؤدّي رسالتها العلمية بكلِّ فخر وٱعتزاز، رغم ظروفها الحرجة والأزمات الّتي ٱنتابتها وأحاطت بها من كلِّ جانب، وٱستطاعت أن توفِّر للمسلمين رصيداً علمياً ضخماً، وثروة فكرية نامية لا نظيرَ لها في أمم العالم.

وأمّا العلوم الدنيوية: كعلم الطِّبّ والكيمياء والهندسة والفلك وغيرها من العلوم الّتي ليست لها صلة مباشرة بالدِّين، فلا يستطيع مُنصِف أن ينكر فضل المسلمين فيها، وسبقهم في مضمارها، وكانوا في عهود نهضتهم وحضارتهم روّاد العلم، وقادة الفكر، وأساتذة العالم، عليهم تتلمذ الغرب، ومنهم ٱقتبس علومه ومعارفه، ومن حضارتهم ٱنبثقت حضارة القرن العشرين الّتي يُدلّ بها الغرب على المسلمين جحوداً ونكراناً، وهذا ما ٱعترف به المنصفون من كتّاب الغرب.

قال (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب):

«لا نرى في التاريخ أمّة ذات تأثير بارز كالعرب، فجميع الأمم الّتي كانت ذات صلة بالعرب، اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزّمن».

وقال: «ثبت الآن أنّ تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشّرق، وأنّ أوروبا مَدينة للعرب بحضارتها...».

ونقل عن الأستاذ (ليبري) قوله:

«لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخّرت نهضة أوروبا الحديثة عدّة قرون».

وقال (لوبون) في هذا المقام:

«إنّ المسلمين العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم المسيحية عدّة قرون، ونحنُ

الغربيِّين لم يُتح لنا الإطِّلاع على التراث اليوناني والروماني إلّا بفضل العرب، ولم يستغن التعليم في جامعاتنا عمّا نُقِلَ إلى لغاتنا من كتب العرب إلّا في أزمان متأخِّرة»(١).

وقال المؤرِّخ الإنجليزي (جون دوانبورت):

«لو لم تقم في جنوب أوروبا الحضارة الأندلسية العربية، لظلّت هذه القارّة ـ أي أوروبا ـ تسبح إلى اليوم مع شعوبها المختلفة النِّحل والنّزعات في حلك من ظلمة الجهل والبداوة، ولما ظهر للمدنيّة الأوروبية الحالية من أثر في الوجود»(٢).

وقال الفيلسوف الفرنسي (أرنست رنان) في كتابه (تعليقاتي على تواريخ الأديان):

«إنّ الآثار والأسفار المحتوية على شتّى الفنون والعلوم الّتي أضفاها الإسلام على الكون، والّتي نقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الفرنجة، وما تقدّمها من احتكاك بين العرب وأوروبا عن طريق الأندلس، أدّى كلّ ذلك إلى إفعام المكتبات الأوروبية الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الّذي أنتجته قرائح العرب. وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوروبية بأسرها، كما رفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدّن الّذي نشاهدها عليه اليوم»(٣).

وقال العلّامة (سيدو) في كتابه (تاريخ العرب):

«كان المسلمون في القرون الوسطى متفرِّدين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلّت أقدامهم، وتسرّبت عنهم إلى أوروبا، فكانوا هم سبباً لنهضتها وٱرتقائها» (٤).

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٠.

(٢) المسلمون والعلم الحديث، للأستاذ عبدالرزّاق نوفل، ص ٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩.

(٤) روح الدِّين الإسلامي، للأستاذ عفيف طبارة، ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

ومن دواعي انتشار العلم وٱزدهاره في الحياة الإسلامية، تيسيره وإتاحته لجميع أفراد المسلمين على ٱختلاف عناصرهم وقوميّاتهم ومستوياتهم الإجتماعية، دون تميّز أو تفريق بين شريف أو وضيع، غنيّ أو فقير، عربيّ أو أعجميّ، فقد كان العلم مُشاعاً لكلٍّ ناهل ومنتجع من الناس.

وكذلك كان من عوامل تفوّق المسلمين ورقيّهم العلمي، اهتمامهم بإنشاء المدارس وتعميمها في أقطار العالم الإسلامي، فقد أسّسوا في كلّ قرية مدرسة وفي العواصم مدارس عديدة، بذلوا في إنشائها وتوفيرها جهوداً جبّارة، وأموالاً جسيمة، كان لها الفضل الأكبر في تخريج فئات من أقطاب العلم، الّذين أسهموا في دعم النّهضة العلمية، وخلّفوا رصيداً علميّاً ضخماً يبعث على الفخر والإعتزاز.

وهكذا عُنيَ المسلمون بتأسيس المكتبات العامّة، الحافلة بأعداد ضخمة من الكتب في مختلف العلوم والفنون، فأنشأوا في العواصم الإسلامية ومدنها الكبيرة دوراً لها، وشجّعوا على ٱرتيادها والإنتفاع منها في ظرف كانت الكتب فيه عسيرة المنال، لا يقوى ٱستنساخها وٱقتنائها إلّا هواتها الأثرياء.

هذه لمحة خاطفة من أمجاد الإسلام العلمية، ومَنْ شاء التوسّع فيها فليرجع إلى مظانها في أسفار التاريخ الإسلامي.

موقف الإسلام من المخترَعات الحديثة

لقد أثارت الإكتشافات والمخترَعات العلمية الحديثة دهشة الناس وإكبارهم، وطفقوا يثنون على المكتشفين والمخترعين، ويطرون عبقريّاتهم، ويثمّنون جهودهم الإنسانية النبيلة، وبهذه المكاسب تفوّقت حضارة القرن العشرين على الحضارات السالفة، وبذتها في فتوحاتها العلمية.

وبالرغم من نفاسة تلك المختَرَعات، وجزيل نفعها، وبالغ آثارها في تيسير الحياة، فإنّ بعضها قد ٱستُغِلّ في مجالات الإجرام والتخريب، وإضرار البشرية وتعريضها للدّمار والهلاك، كالأسلحة النووية الفتّاكة، والصّواريخ العابرة للقارّات، والقنابل الجرثومية والغازية السامّة، ونحوها من الوسائل الحربية المدمِّرة، الّتي شوّهت جمال الحضارة الراهنة، وكدّرت صفو مكاسبها العلمية، وبديهيّ أنّ تلك الأعتدة الجهنّمية غير مسؤولة عمّا تُحدِثه من دمار وأهوال، وإنّما هي خاضعة لرغبة الإنسان، ونزعاته الخيِّرة أو الشرِّيرة، ووجدانه المؤمن أو الكافر.

ففي مقدوره أن يجعلها ذريعة لصالح البشر، وتذليل مصاعب الحياة، وتيسّر وسائل العيش، وتوفير عوامل الرّخاء والرّفاه للناس، كما في وسعه أن يتّخذها وسيلة للتخريب والإجرام واستعباد البشر وٱبتزاز خيراتهم، وهدر حقوقهم وكراماتهم.

وبعد ٱستجلاء هذا الواقع، نستطيع أن نعرف موقف الإسلام من هذه المختَرَعات.

الإنسان من وجهة نظر الإسلام هو أشرف مخلوق، وأجلّ كائن على الأرض، لِتَمَيُّزِهِ بخصائص الإنسـانية، ومزاياها المشرِّفة، وقد أمدّه الله تعالى بصنوف الرعاية والتكريم، وجزيل النِّعم والآلاء ما يقصر البيان عن حصرها وتعدادها، حتّى سخّر له عناصر الكون وقوى الطبيعة وذخائر السماوات والأرض:

﴿أَلَمْ تَرَوا أنّ ٱللّهَ سخّر لَكُم ما في السّمٰوات وما في ٱلأرْضِ وأسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَةً﴾. (لقمان / ٢١)

فلا حرج على المسلم أن يتمتّع بخيرات الأرض ومنافعها الطيِّبـة، وينتفع بما أودع الله تعالى في الكون من صنوف الطاقات والقوى، ويستغلّ المختَرَعات العلمية، والتيسيرات الحضارية في سبيل مصالحه الخيِّرة، وغاياته النّبيلة، وعلى ضوء مبادئ الإسلام ومُثُله الرفيعة.

أمّا أرباب الحضارات المادِّية، فإنّهم رغم تفوّقهم العلميّ، وإبداعهم في مجالات الإختراع، أخذوا يُجـنِّدون شطراً هامّاً من طاقاتهم ومبتكراتهم العلميـة في سـبيل أهدافهم الإستعمارية، وٱستعباد الشعوب وٱبتزاز ثرواتها الطبيعية، لا يردعهم وازِع دين أو ضمير، لإفلاسهم من قيمها ومثلها العُليا، وأصبحت الحياة من جراء ذلك بركاناً يُنذِر البشرية بالدّمار والهلاك.

وهنا نُدرِك عظمة الإسلام وسموّ مثاليّته، فإنّه حين دعا إلى العلم، ورغّب فيه، أراد بذلك العلم النافع المقرون بالإيمان والمتحلِّي بالخُلْق الكريم، والمشاعر الإنسانية المهذّبة، والهادف إلى تهذيب الإنسان، وتزكية نفسـه، وإسعاده مادِّياً وروحياً، ديناً ودنياً، ليقي المسلمين شرور العلم المادِّي ونزعاته الأثيمة المتحلِّلة من ضوابط العقيدة والإيمان.

يقول الدكتور (هورتن) وهو من علماء الألمان:

«نجد بالإسلام اتّحاد الدِّين والعلم، وهو الدِّين الوحيد الّذي يوحِّد بين هٰذين. ونجد أنّ الدِّين موضوع بدائرة العلم، وأنّ وجهة الفيسلوف ووجهة الفقيه متماشيتان معاً كتفاً لكتف دون نزاع»[1].

(١) الإسلام والعلم الحديث، لعبدالرزّاق نوفل، ص ١٧٧.

٤ ـ الإسلام دين الوحدة

لا مناصَ للأُمَمِ الواعية من الإتحاد والتآزر، وتنسيق الجهود وتوحيد الأهداف، لتحقِّق بذلك ما تصبو إليه من أماني القوّة والعزّة والمجد، فإن أغفلت ذلك، عراها الوهن والإنحلال وٱنتابها الفشل والإخفاق.

وهذا ما أدركته الأمم المتحضِّرة دولاً وشعوباً، وطفقت تُجنِّد كلّ طاقاتها وإمكاناتها المادِّية والمعنوية لتكتّلها ورصّ صفوفها، بتشكيل الأحلاف، وإنشاء المعاهدات بينها، حتّى ٱنقسم العالم اليوم إلى كتلتين متناحرتين: شرقية وغربية.

وإذا كانت قوى البغي والإلحاد تتّحد وتتعاضد، في سبيل أطماعها وأهدافها الإستعمارية، فما بالنا نحن المسلمين منقسمين على أنفسنا شِيَعاً وأحزاباً؟!! لا نلتقي إلّا على افتراق، ولا نتّحد إلّا على ٱختلاف وتناكر.

وما بالنا لا نتّحد؟!! وقد تألّبت علينا قوى الكفر والعدوان تتحدّانا وتضطهدنا وتسومنا الخسف، حتّى غدونا أمّة مستضعفة لا يؤبه بها، ولا وزنَ لها في المجال الدوليّ!!

ما بالنا لا نتّفق وديننا دين الإلفة والمحبّة، دين التآخي الرّوحي، دين التعاضد والتآزر، هو الدِّين الّذي نادى بالوحدة ودعا إليها على أوسع نطاق شهدته البشرية، وعرفه تاريخ الأديان، كما تصوِّره المفاهيم الإسلامية وأهدافها التالية:

أ ـ وحدة الإنسانية:

الإسلام يُقرِّر وحدة الإنسانية، ويدعو إليها بأسلوب عاطفي بليغ، فهو يُذكِّر البشر بوحدة أصلهم ونِجارهم، وانبثاقهم جميعاً من أرومة واحدة (آدم وحوّاء) تسامت، وتفرّعت إلى شعوب كثيرة، وقبائل جمّة، وحيث كانوا كذلك، فعليهم أن لا يتناسوا أواصر النّسب الأولى، ويحتفظوا بذكراها، ويرعوا ذمامها، وينعموا في ظِلالها الوارفة بحياة آمِنة وتعايش سلميّ.

﴿ يا أيُّها ٱلنّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْناكُم شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنّ أكْرَمَكُم عِنْدَ ٱللهِ أتقاكُم ﴾. (الحجرات / ١٣)

وبهذا التقرير العاطفي البليغ، استطاع الإسلام أن يُلطِّف مشاعر البشر ويوجِّهها نحو الصفاء والسلام.

ويمضي الإسلام في تقرير وحدة الإنسانية، وثبوتها في غابر العصور، وقديم الأزمان، وإنّ من أهداف الأنبياء عليهم السلام دعم هذه الوحدة، وتوثيق أواصرها بين البشر وتخفيف حدّة البغضاء والخصام فيهم:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَما ٱخْتَلَفَ فِيهِ إلّا ٱلّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدى ٱللهُ ٱلذِّينَ آمَنُوا لِما ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإذْنِهِ وَٱللهُ يَهْدِي مَن يَشاءُ إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾. (البقرة / ٢١٣)

ب ـ وحدة الإيمان:

إنّ من أقوى وأخطر عوامل الفرقة والتناحر بين البشر ٱختلافهم في العقائد والأديان، فترى أرباب الأديان والشرائع، لا يفتأون عن مناجزة مخالفيهم في العقيدة

والمبدأ، والتنكيل بهم ما وسعهم ذلك، ممّا أثار حروباً شعواء، وأحدث مجازر رهيبة، راحَ ضحيّتها ملايين البشر.

فلمّا أشرق فجر الإسلام، وطفق النّبيّ ﷺ يُجدِّد نظام الحياة ويُصلح حياة البشر، ويُشيع في الدّنيا مفاهيم الأمن والسلام، استهدف توحيد الأديان السماوية، والتأليف بينها، بأسلوب مبتكر رائع، لم تعرفه الشرائع السالفة، ولم يستهدفه الأنبياء عليهم السلام من قبل، وركّز ذلك على واقع ديني أصيل، وبرهان منطقيّ ثابت:

ذلك أنّ الأديان مهما تنوّعت وتخالفت، فإنّها متّفقة في جوهرها ومبدئها وغاياتها، فكلّها منبثق من وحي السماء، ومستمدّ من نورها الوهّاج، وكلّها تستهدف غاية واحدة، هداية البشر وإصلاحهم، وإنّما اختلفت مفاهيم الشرائع، لاختلاف ظروف البشر الزمانية والمكانية، وتفاوت مستوياتهم الفكرية وأبعاد وعيهم وآستجابتهم للفرائض والأحكام.

من أجل ذلك، توغّلت الشرائع في أطوار التكامل ومعارج الرّقي، حتّى بلغت قمّة الكمال والجلال في الشريعة الإسلامية.

والأنبياء عليهم السلام وإن اختلفت أقدارهم وكفاءاتهم، فكلّهم رُسل الله تعالى وسفراؤه إلى الخلق، وهم خزّان علم الله، وتراجمة وحيه، وسدنة شرائعه، فعلى المسلم أن يؤمن بهم جميعاً، غير مفرِّق بينهم في الإيمان والإجلال.

﴿آمَنَ الرّسُولُ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كَلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(البقرة / ٢٨٥)

﴿قُولُوا آمَنّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إلىٰ إبْراهِيمَ وَإسْماعِيلَ وَإسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسىٰ وَعِيسىٰ وَما أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ * فَإِن آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ ٱهتَدَوا وَإِن تَوَلَّوا فإنّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ . (البقرة / ١٣٦ ـ ١٣٧)

بهذا التوجيه السامي، والغاية الرفيعة، وبهذه السماحة المثالية، فاقَ الإسلام سائر الأديان، وٱعتبر بحقّ دين (الوحدة والوئام).

ج ـ وحدة المسلمين:

وبعد أن قرّر الإسلام وحدة الإنسانية ودعا إلى توحيد الأديان السماوية، عمدَ إلى توحيد المسلمين وتضامنهم، لأنّهم أجدر الناس بالإتّحاد، وأولاهم بالتضامن، لتآخيهم الروحي، وٱنضوائهم تحت راية الإسلام:

﴿إنّ هٰذهِ أمّتُكُم أمّةً واحدةً وأنا ربّكُم فاعبِدون﴾ . (المؤمنون / ٥٢)

لذلك دعاهم إلى التلاحم ووحدة الصّفّ كيلا يجد العدوّ ثغرة يتسلّل منها إليهم فيُمزِّق وحدتهم ويُفرِّق شملهم، وبالتالي يسترقّهم لأطماعه ومآربه العدوانية الكافرة.

﴿وٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرّقُوا وٱذكرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُم إذ كُنتُم أعداءً فألّفَ بينَ قُلوبِكُم فأصْبَحتُم بِنِعْمَتِهِ إخواناً﴾ . (آل عمران / ١٠٤)

وبعد أن وحّد المسلمين، أهابَ بهم أن يكونوا مثلاً عالياً في التعاطف والتآزر ليطهِّر المجتمع الإسلامي من عوامل التبعثر والتناكر، ويشيع فيه الحبّ والوئام.

﴿وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِناتِ بَعْضُهُمْ أوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ . (التّوبة / ٧١)

وهكذا ركّز الإسلام على وحدة المسلمين ودعا إليها قولاً وعملاً حتّى استطاع تطويرها وتصعيدها إلى عقد الأخوّة والإسلامية والتآخي الرّوحي بين المسلمين.

﴿إنّما المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ . (الحجرات / ١٠)

وقد آخى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين المهاجرين أنفسهم والأنصار كذلك، فكانت أخـوّة مثالية واتّحاداً روحيّاً لا نظـيرَ له في سـائر الشرائع والمبادئ، وكان المتآخون مثلاً رفيعاً في التعاطف والمؤاساة.

وكان من نتائج تلك الوحدة وذلك الأخاء، أن تبوّأ المسلمون عرش المفاخر والأمجاد، وٱستطاعوا بتضامنهم وإخلاصهم أن يزيلوا مُلك الأكاسرة ويُحطِّموا عروش القياصرة، وغدوا قادة الأمم ومنارها الوضّاء، حتّى دبّ إليهم الخلاف وشاعت فيهم عوامل الفرقة والإنقسام، أفَلت حضارتهم وٱنهارت أمجادهم وأصبحوا أشلاء مبعثرة لاتملك لنفسها نفعاً ولاتدفع عنها ضيماً، وهذا ما تخوّفه القرآن الكريم عليهم وحذّرهم منه:

﴿وَلَا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَب رِيحُكُم﴾. (الأنفال / ٤٦)

﴿وَلَا تَكُونوا كالّذينَ تَفَرَّقُوا وٱخْتَلَفُوا مِن بعدِ ما جاءَهُم ٱلبَيِّناتِ وأولئكَ لهُم عَذابٌ عظيم ...﴾. (آل عمران / ١٠٦)

ولئن قصّر المسلمون فيما سلف وأهملوا واجب التماسك والتعاضد، فمن الخطأ أن يصرّوا على تقصيرهم ويتمادوا في تنافرهم، وعليهم أن يستأنفوا حياة جديدة قائمة على التفاهم والتآزر وتوحيد الأهداف والجهود، ليُثبتوا بذلك وجودهم ويسـتردّوا أمجادهم من جديد، وليس هذا بالأمر اليسـير، وإنّما هو مأرب سـام عزيز المـنال لا يتحقّق إلّا بجهود جبّارة وتوعية إسلامية شاملة تستثير مشاعر المسلمين وعزائمهم وتوجِّهها نحو الوحدة والتلاحم.

صور الوحـدة

ورُبّ سائل يسأل: كيف تتحقّق الوحدة، وما هي صورها وأساليبها؟ وجواب ذلك وتفصيله يستلزم أبحاثاً متخصِّصة مفصّلة لا يتّسع لها هذا الكتاب ولا يتّفق وموضوعه الخاص المحدّد. بيدَ أنّي أشير إلى ملامحها إشارة خاطفة.

أ ـ الوحدة السياسية:

لا يستغني المسلمون عن وحدة سياسية تجمع كلمتهم، وتدعم كيانهم، وتوحِّد جهودهم وأهدافهم، وتجعلهم كالبنيان المرصوص تماسكاً، أو كالجسد الواحد شعوراً وإحساساً.

وليس المراد من هذه الوحدة اتِّحاد الدول الإسلامية في دولة واحدة، واستظلالها بعَلَم واحد، لتعذّر ذلك وٱمتناعه اليوم، لتفكّك هذه الدول واختلافها ميولاً واتِّجاهاً.

والمعنيّ بالوحدة هو تكتّل المسلمين وتلاحمهم وتعاضدهم تعاضد الأحلاف الدولية الشائعة أو تأليف هيئة أمم إسلامية تستهدف تنسيق سياسة المسلمين، وحلّ مشاكلهم وتحقيق أهدافهم، وإشاعة العدل والرخاء والسلام في أرجاء العالم الإسلامي، تجاوباً مع روح الإسلام ومبادئه الخالدة ونظمه الإجتماعية البنّاءة.

ولا تتسنّى هذه الوحدة إلّا بتوفّر الشروط التالية:

١ ـ إذكاء الوعي الإسلامي، واستشعار الأخوّة الإسلامية بين المسلمين دولاً وشعوباً، وتعزيز مفاهيمها وأواصرها في نفوسهم، إستهداءً بالقرآن الكريم: ﴿إنّما

الْمُؤْمِنُونَ أَخْـوةٌ﴾، وتأسّياً بالرسـول الأعظـم ﷺ، في مؤاخاته بين المسـلمين وتوحيدهم تحت راية العقيدة والإيمان.

ولا ريـبَ أنّ هذا الشـعور السّـامي، هو من أنجح بواعـث التآلف والتلاحـم الإسـلاميين، وأبلَغ أثراً وأحمَد عاقبةً من البواعـث الأخرى كالقوميـة والعنـصرية والإقليمية الباعثة على الفرقة والتبعثر.

ولكن المسـلمين واأسفاه قد تلاشـت في نفوسهم مشـاعر الأخوّة وغاضت عواطفها الفيّاضة المبدعة، فتناسوا عهد الأخاء الإسلامي والروّابط الروحية الوثيقة، مسـتبدلين بها النّعرات الطائفية والحزبية الّتي مزّقت شمل المسـلمين وفرّقتهم شـيعاً وأحزاباً، انخداعاً بمفاتن أعدائهم ودعاياتهم الماكرة المضلِّلة «فرِّق تَسُد».

٢ ـ جدير بالأمم الإسلامية أن تتفادى جهدها دوافع الإساءة والعدوان بينها، وتنبذ مثيرات الفرقة والنِّزاع، فهي المعاول الهدّامة والجراثيم الفتّاكة في كيان المسلمين، ومعنوياتهم ووحدتهم ومن ثمّ تخلّفهم وانهيارهم تحت سيطرة المستعمرين.

من أجل ذلك، أهابَ القرآن الكريم بالمسـلمين، وناشـدهم أن يكونوا مثلاً رفيعاً في تلاحمهم وتجاوبهم في الأحاسيس والمشاعر ليقيهم مآسي الإنقسام والإنحلال:

﴿**وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا**﴾. (آل عمران / ١٠٤)

﴿**ولا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَب رِيحكُم**﴾. (الأنفال / ٤٨)

وقال الرسول الأعظم ﷺ: «**سِباب المؤمـن فسوق، وقتاله كُفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه**»[1].

وقال الصادق عليه السلام: «**المسلم أخو المسلم، هو عينه، ومرآته ودليله، لا يخونه**

(١) الكافي للكليني رحمه الله.

ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه»[1].

وقال عليه السلام لأصحابه: **«اتّقوا الله وكونوا أخوة بَرَرَة متحابِّين في الله متواصلين متراحمين، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه»**[2].

وقد شرّع الإسلام قانون الإصلاح، وتسوية الخلافات الدامية بين المسلمين بآية واحدة من كتابه الكريم:

﴿وإن طائِفَتان مِنَ المُؤْمِنين اقْتَتَلُوا فأصْلِحُوا بَيْنَهُما فإن بَغَت إحداهُما على الأخرى فَقاتِلوا الّتي تَبْغِي حتّى تَفِيء إلى أمْرِ الله، فإن فاءَت فأصْلِحُوا بَينَهُما بالعَدْلِ وأقْسِطُوا إنّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين﴾. (الحجرات/ ٩)

وقد تنبّهت حضارة القرن العشرين إلى هذا القانون العادل الخالد، وحاولت محاكاته بعد أربعة عشر قرناً من نزوله، فأنشأت هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن لحسم المشاكل الدولية، ولكنّها أخفقت إخفاقاً ذريعاً في تحقيق السلام العالمي، لنزوعها إلى الأثرة ومحاباة الدول الكُبرى، ورعاية مصالحها الإستعمارية وإغفالها عنصر (العدل) في هذا القانون، وأصدق شاهد على ذلك مأساة فلسطين وممالاة إسرائيل على اضطهاد العرب وتشريدهم واستلاب أوطانهم رغم ظلامتهم الصارخة وحقوقهم المشروعة العادلة.

من أجل ذلك اشترط الإسلام (العدل) في الإصلاح، وأمر الأمم الإسلامية أن تُسارع إلى حسم النِّزاع بين دولتين إسلاميّتين وحلّه على مبادئ القسط والعدل المبرئين من نوازع الإثرة والمحاباة حقناً لدماء المسلمين وإشاعة للسلام العادل بينهم.

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ١٠١، عن الكافي.

(٢) الوافي، ج ١٣، ص ١٠٠، عن الكافي.

٣ ـ على الدول الإسلامية أن تعقد حِلْفاً إسلامياً صادقاً واعياً، يوحِّد جهودها وأهدافها، ويُحقِّق عزّتها وكرامتها، ويحميها من دوافع البغي والعدوان، ويعتبر ٱضطهاد أيّ دولة إسلامية ٱضطهاداً للمسلمين، وٱغتصاب أيّ جزء من أرضها ٱغتصاباً للوطن الإسلامي الكبير، وعلى الحلف أن يجاهد بأسره في حماية أعضائه وتعزيزهم.

بهذا التحالف والتناصر، تثبت الأمم الإسلامية وجودها، وتستردّ أمجادها، وتغدو أمّة شامخة الصّرْح مرهوبة الجانب. وما وهَنَ المسلمون، وتفرّقوا أيدي سبا إلّا بتفكّك الدول الإسلامية وتخاذلها، وتناسي قيمها ومُثلها الرفيعة، ولا منجى لهم من هذا التخلّف الرّزي، إلّا التعاضد الصادق، والتناصر المخلص والتمسّك بمبادئ الإسلام وتطبيق شريعته الغرّاء:

﴿إن تَنْصروا ٱلله ينصركُم ويُثبِّت أقدامَكُم﴾. (محمّد / ٨)

ب ـ الوحدة الإقتصادية:

للإقتصاد أهمِّيّته وآثاره في حياة الدول والشّعوب، فهو نظام أعمالها وقوام حياتها، وعنوان حضارتها، من أجل ذلك كانت الوحدة الإقتصادية ضرورة ملحّة في دنيا المسلمين، وعنصراً فعّالاً من عناصر نهضتهم ورقيّهم المادِّي والأدبي، ولا يستطيعون تصعيد بلادهم، وٱستثمار خيراتها، وٱستغلال مواردها الطبيعية إلّا بتضافر الجهود الإسلامية، وتنسيق خططها في هذا المجال.

وتُعتبر البلاد الإسلامية من أخصب البلدان، وأوفرها عطاءً وخيراً، وأجمعها للثّروات الطبيعية، ولكنّ المسلمين واأسفاه لتفكّكهم وتخلّفهم العلمي لا يجنون من ثمار بلادهم إلّا الوشل والفُتات. ولو أنّهم وحّدوا طاقاتهم وكفاءاتهم العلمية والفنِّية في ٱستغلال تلك الثّروات والموارد لكانوا أثرى الأمم، وأوفرهم رخاءً وخصباً، وٱستغنوا عن عون الأجانب وشركاتهم الإحتكارية، وأصبح المسلمون:

كالعِيْس في البَيْداء يقتلها الظّما　　　والمـاءُ فوقَ ظُهُـورها مَحْمُـولُ

لذلك كان على الدول الإسلامية أن تتّخذ الخطوات الإيجابية التالية:

١ ـ عليها أن تعدّ الأكفاء من الخبراء والفنِّيين المسلمين، في كافّة حقول الحياة الحضارية، لاستغلالهم في تصعيد البلاد الإسلامية صناعياً وزراعياً، وٱستثمار كنوزها ومعادنها على أفضل وجه ممكن، والإستغناء بهم عن خبرة الأجانب، وتكاليف ٱستيفادهم.

٢ ـ الاهتمام بإنشاء المصانع والمعامل المنتجة لحاجات الأمم الإسلامية والعناية بتحسين الإنتاج الوطني وتوفيره وتيسيره.

٣ ـ الاهتمام بتجديد وتحسين أساليب الريّ والزراعة الباعثة على تجويد المحصول الزراعي وإنمائه.

٤ ـ تشجيع الإقتصاد الوطني بكافة صوره وحقوله، عن طريق التبادل الصناعي والتجاري بين البلدان الإسلامية، والإستغناء به عن البضائع الأجنبية، إلّا في الحاجات الملحّة، والحالات الإضطرارية.

٥ ـ التخطيط الواعي، والعزم الجاد المخلص على تحقيق الإكتفاء الذّاتي للدول الإسلامية في مختلف حقول الحياة ومآربها الصناعية والزراعية والإقتصادية... ليضمنوا بذلك العيش الحرّ الكريم، والإستغناء عن الأجانب.

ولا ريب أنّ تحقيق تلك الأهداف والغايات يتطلّب أموالاً جسيمة، وثراءً ضخماً لا تملكه الدول الإسلامية، ومن الممكن تيسيره بأمرين:

١ ـ إنشاء شركات تعاونية مساهمة، قائمة على رؤوس أموال إسلامية، تستثمر على ضوء التشريع الإسلامي.

٢ ـ تأسيس بنك دولي إسلامي، يدعم ويُموّن تلك المشاريع الإقتصادية بأسلوب (لا ربوي) يلائم الشريعة الإسلامية.

وهذا التخطيط يكلّف الأمم الإسلامية دولاً وشعوباً تكاليف مادّية وفكريّة باهظة تتطلّب الكثير من التضحية والبذل، بيدَ أنّ الغايات السامية، والمآرب الجسيمة لا تُدْرَك إلّا بالجدِّ والثّبات.

تريدين إدراك المعالي رخيصةً ولا بدّ دون الشّهد من إبر النّحلِ

ج ـ الوحدة الثّقافية:

وهي من أبرز عناصر الوحدة الإسلامية ومقوّماتها الفعّالة، وتتجسّد هذه الوحدة بتخطيط منهج دراسيّ عام للمسلمين، يجمع بين فضائل العلم الحديث ومحاسنه، وبين مبادئ الإسلام ومُثُله العُليا، ويبعث على توحيد مشاعر المسلمين، والتقريب بين مذاهبهم وتنسيق جهودهم وأهدافهم، ليتعاضدوا جميعاً على تعزيز الإسلام وتحقيق آمال المسلمين.

فجدير بقادة الفكر الإسلامي، أنْ يُعْنَوا بالمفاهيم التالية:

١ ـ الاهتمام بإشاعة التعارف بين الأمم الإسلامية وأقطارها المختلفة، وذلك بتنظيم الرّحلات السياحية، وإتاحة فرص اللّقاء بين المسلمين، وتيسير وسائل الإعلام عنها صحفياً وإذاعياً، ودراسة جوانب حياتها السياسية والجغرافية والإقتصادية وعوامل رقيّها وتخلّفها، ليكون باعثاً على التعارف والتآلف بين المسلمين، وتحقيق أهدافهم ومصالحهم المشتركة.

٢ ـ الاهتمام بدراسة أصول الدِّين الإسلامي ومفاهيمه دراسة واعية، تستجلي عظمة الإسلام، وتبرز تفوّقه على جميع الشرائع والأديان، لتركّز العقيدة الإسلامية في

نفوس المسلمين، ويزدادوا إيماناً وٱعتزازاً بدينهم، ويتنكّبوا مزالق الشّبه والتضليل الّتي يثيرها أعداء الإسلام.

أليسَ من المُخْجِل أن يدرس المسلمون مبادئ الغرب وتاريخه بدقّة وتفصيل، وهم يجهلون مبادئ الإسلام وتاريخه وشريعته!! وهذا هو سرّ تخلّفهم، وضعف معنويّاتهم.

٣ ـ الاهتمام بالتوعية الإسلامية، ونشر فضائل الإسلام وأمجاده في الدول الأجنبية، والأوساط غير المسلمة، بأسلوب علميّ بليغ، يُبرز عظمة الإسلام، وسموّ مبادئه وأهدافه، ويُطهِّر الأفكار والنفوس الحاقدة على الإسلام والمسلمين من ضلالات الدّسّ والتشويه الّتي أشاعها الصّليبيّون حول الإسلام، وأضلّت الكثيرين من أشياعهم وناعقيهم.

ولو عُنِيَ المسلمون بذلك، لاستطاعوا أن يستميلوا عدداً كبيراً من أولئك لفراغهم الفكري، وإقفار حياتهم من قِيَم الدِّين والأخلاق وسأمهم من مآسي الحضارة الراهنة ومساوئها المقيتة.

وممّا يساعد على تحقيق تلك الأهداف الإسلامية السالفة، أن تكون للمسلمين لغةٌ عامّةٌ موحّدةٌ إلى جانب لغاتهم العديدة، لتيسير التفاهم والتخاطب بينهم على ٱختلاف لغاتها وعناصرها.

وأجدر اللّغات وأحقّها بذلك (اللّغة العربية) لغة القرآن الكريم، والسنّة النّبوّية الشريفة، والعبادات الإسلامية، وهي أوسع اللّغات، وأقدرها على ٱستيعاب المفاهيم العلمية، والمشاعر الجمّة، والتعبير عنها بفصاحة وجلاء.

٥ ـ الاسلام دين الحرِّية

الحـرِّية هي انعتاق الإنسـان وتحرّره من أسر الرِّقّ والطّغـيان وتمتّعه بحقوقه المشروعة، وهي أسمى أهداف الحياة وأجلّ آمالها وأمانيها، وقد قرّر الإسلام مبدأ الحرِّية وبالغَ في نشره وحمايته في المجتمع الإسلامي، لتعزيز كرامة المسـلمين، ورفع معنويّاتهم.

وليست الحـرِّية كما يفهمها المهرتقون هي: التحلّل من جميع النّظم والضّوابط الكفيلة بتنظيم المجتمع وصيانة حقوقه وحُرماته، فتلك هي حرِّية الغاب والوحوش الباعثـة على تسيّبه وفساده، وإنّما الحـرِّية الحَقّ هي: التمتّع بالحقوق المشروعة الّتي لا تضرّ بحقوق الناس ولا تجحف بمصالحهم.

ولا نسـتطيع أن نعرف فضل الإسـلام في تركيز الحـرِّية، ودأبه على نشرها وإشاعتها حتّى نسـتقرئ أبعاد حرِّية الأمم والشّـعوب المعاصرة له، والسابقة عليه والمتأخِّرة عنه.

كانت أشهر الأمم في صدر الإسلام ثلاثة: الرّومان، والفرس والعرب، ومَنْ عداهم من الأمم كان على شاكلتهم في السياسة والحكم.

أمّا الرّومان:

فمن أبرز مظاهر سياستهم أنّهم كانوا يضطهدون شعوبهم، ويستذلّون كرامتها ويحجرون على حرِّياتها، وكان رعاياهم يعيشون حياة طبقيّة مذلّة.

ففيها الطبقة الأرستقراطيّة المستأثرة بالحكم والسلطان، والناعمة بحياة البذخ والتّرف، والمحضيّة بالجاه العريض والثّراء الضّخم.

وفيها الطبقة البائسة الشقيّة الّتي تعاني ضروب الإضطهاد وتُقاسي مرارة العبودية، وتعيش في حَجْر فكري خانِق، لا يحقّ لأحدها أن يخالف رأي سيِّده المتسلِّط عليه، أو يعتنق غير دينه أو يتصرّف بشأن من شؤونه الخاصّة إلّا بموافقته ورضاه.

وبالرّغم من ٱشتهار الرومانيين بالأنظمة والقوانين، فإنّ سلطانها نافذ على العامّة فحسب، أمّا أشرافهم فقد كانوا فوق القانون لا يُؤاخَذون على جناية، ولا يُعاقَبون على جُرم ٱقترفوه، وربّما قتل أحدهم فرداً من العامّة أو ٱبتزّ ماله، فلا يجرأ المظلوم على مقاصَصتِه والمطالبة بحقِّه.

وأمّا الفُرس:

فقد كانوا أشدّ ٱستبداداً وأبشع ٱستعباداً لرعاياهم من الرّومان، إذ لم تكن لهم تلك النّظم والقوانين السائدة في الحضارة الرّومانية، وإنّما كانت الأقطار والشعوب الفارسية تُساس بأمر حكّامها المستبدِّين وأهوائهم.

وكان الملوك الأكاسرة منهمكين في لهوهم وشهواتهم لا يُعنيهم من رعاياهم إلّا الخضوع لسلطانهم، وتنفيذ رغباتهم، وتقديم المزيد من الأتاوات والضرائب لهم.

لذلك شاع الظّلم فيهم، وضاعت في ظلال سطوتهم قِيَم الحرِّية ومفاهيمها السامية.

أمّا العرب:

فقد كانوا أسوأ حالاً، وأكثر تسيّباً من هؤلاء وأولئك، لتخلّفهم الحضاري،

وشيوع التقاليد الجائرة فيهم، فقد ٱستحبّوا حياة الغاب وولعوا بالغزو والسّلب، وسفك الدِّماء وٱنتهاك الحرمات، والتشدّق بالثأر والإنتقام، كما صوّره الأدب الجاهليّ، وأسرفوا في القسوة والوحشية حتّى وأدوا البنات، وٱسترقّوا الضّعفاء، وأغفلوا مؤاخذة الأشراف على جناياتهم والإقتصاص منهم: ممّا أوجب تفاقم الظُّلامات في ربوعهم، وتلاشي الحرِّية فيها.

أمّا الدول الكُبرى في هذا العصر:

فقد ٱنقسمت إلى معسكرين: غربيّ وشرقيّ، وكلّ منهما يزعم أنّه هو حامي الحرِّية، ورائد السلام العالمي، وكلاهما يناقض زعمه دون خجل أو مبالاة.

فالمعسكر الأوّل: هو الّذي مالأ اليهود، وساندهم على اغتصاب فلسطين، وتشريد مواطنيها الشرعيين في الآفاق!! وهو الّذي أشاعَ التمييز العنصريّ والتفاوت الطّبقيّ بين البيض والسّود في أمريكا، وبين الأوروبيين والملوّنين في جنوب أفريقيا!! وهو الّذي عاضدَ التبشير النصرانيّ على غزو الأقاليم الأفريقية، وحملها على التنصّر، وحرّم على دعاة المسلمين نشر الدعوة الإسلامية فيها، وهو الّذي استعبد الشعوب الإسلامية، وٱبتزّ خيراتها وثرواتها الطبيعية بسطوته وسلطانه.

والمعسكر الثاني: هو الّذي حجز بلاده وشعوبه بالسّور الحديديّ وحكمها حكماً دكتاتورياً ألغى فيه حرِّية الفكر وحرِّية القول وحرِّية العمل، حتّى أصبح الإنسان في ظلِّ سطوته الرهيبة آلة صمّاء لا تمتلك الحرِّية والإختيار!! وهو الّذي جحد الأديان، واعتبرها أفيون الشعوب، وٱضطهد كلّ مؤمن بها محافظ عليها!!

وهذا هو موقف الدول والشعوب من الحرِّية عبرَ التاريخ القديم والحديث!

ومن هنا نُدرك فضل الإسلام في تقدير الحرِّية وحرصه البالغ على تعزيزها ونشرها في دنيا الناس.

لقد منح الإسلام كلّ فرد حقّ الحرِّية المحمودة في مختلف شؤون الحياة، ومجالاتها الدينية والدنيوية، وحماها بألوان الضمانات الكفيلة بصيانتها وسيادتها، وإليكَ طرفاً من الحرِّيات الّتي منحها الإسلام:

أ ـ الحرِّية الدينية:

العقيدة الدينية هي: من حاجات الإنسان وأشواقه الملحّة، الّتي لا يستغني عنها، ولا يجد بديلاً منها، لفطرته على الإيمان، ورسوخ الحاسّة الروحية فيه، بيدَ أنّه رغم ذلك لا يستجيب للعقيدة ولا يؤمن بها إلّا إذا تقبّلها العقل، وٱرتضاها الوجدان، وساندها المنطق، فإن خلت العقيدة من تلك الخلال، وفُرِضَت على الإنسان قسراً وإكراهاً، استنكرها ورفضها أشدّ الرّفض، وٱستحالت مفاهيمها إلى رواسب مقيتة من النِّفاق والرِّياء والخِداع.

وهذا ما يُفسِّر حكمة الإسلام وفلسفته في منحه حرِّية العقيدة وعدم الإكراه على ٱعتناقه:

﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشدُ مِنَ ٱلغَيِّ﴾. (البقرة/ ٢٥٧)

﴿لَكُم دينُكُم وَلِيَ دِين﴾. (الكافرون/ ٦)

لذلك منح الإسلام الحرِّية الدينية للمسلمين وللذمِّيين القائمين بشرائط الذمّة والمحافظين عليها، فمن حقّ المسلم أن يكون حرّاً طليقاً في عقيدته، وممارسة عباداته وأحكام شريعته، وليس لأحدٍ قسره على نبذها، ومخالفة دستورها، ويعتبر ذلك جناية كُبرى وعدواناً صارخاً على أقدس الحرِّيات وأجلّها خطراً في دنيا الإسلام.

وهكذا منح الإسلام الذمِّيين ـ المحافظين على شرائط الذمّة ـ حرِّية العقيدة، فلم يقسرهم على اعتناقه ويضطرّهم إليه، وإنّما خيّرهم بين الإسلام أو أداء الجزية، ومهادنة المسلمين، وعدم الإساءة إليهم.

وهذه أكرم معاملة لفئات مناهضة للإسلام، لا تفتأ عن مكايدته والتآمر عليه، رغم ٱستظلالها بسلطانه العادل، وليس الجزية إلّا ضريبة يدفعها المواطنون الذمّيّون للدولة الإسلامية ازاء حمايتها لهم وصيانتها أرواحهم وأموالهم وكراماتهم، كما يدفع المسلمون ضريبة الزّكاة، وليس من العدل والإنصاف فرضها على المسلمين، وإعفاء الذمّيّين من ضريبة الجزية رغم مجافاتهم للإسلام.

وفي الوقت الّذي فرض الإسلام الجزية على الكتابيين، فقد راعى عواطفهم ومشاعرهم، فأمر المسلمين أن يلتزموا بالرِّفق والحكمة في مناظرتهم ودعوتهم إلى الإسلام ويتفادوا ٱمتهانهم وٱستذلالهم:

﴿ولا تُجادِلُوا أهلَ الكِتابِ إلّا بالّتي هيَ أحْسَن﴾. (العنكبوت / ٤٦)

﴿ادع إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ وٱلمَوْعِظَةِ ٱلحَسَنةِ وجادِلْهُم بالّتي هيَ أحْسَن﴾.
(النّحل / ١٢٦)

وكذلك أوصى الإسلام ببرِّهم والعدل فيهم ما لم يبيتوا الكيد والغدر للمسلمين:

﴿لَا يَنْهاكُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إلَيْهِمْ إنّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلمُقْسِطِينَ * إنّما يَنْهاكُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأخْرَجُوكُم مِن دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلىٰ إخْراجِكُمْ أن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فأُولئِكَ هُمُ ٱلظّالِمُونَ﴾. (الممتحنة / ٨ ـ ٩)

ورُبّ معترض: إذا كان الإسلام دين الحرِّية، فلماذا شرّع قتل المرتدّ عنه؟!

وجواب ذلك أنّ الإسلام لم يُشرِّع ذلك جزافاً وعبثاً، وإنّما ٱستهدف حماية الإسلام ووقايته من مكائد المرتدّين، ومؤامراتهم الهدّامة، حيث تألّبت وبيّتت فئات من أهل الكتاب على التظاهر باعتناق الإسلام، والمراءات به خداعاً ونفاقاً، حتّى إذا وثق بهم المسلمون، وركنوا إليهم، باغتوهم برفض الإسلام والإرتداد عنه، مُرجفين

بأنّه دين باطل مزيّف!! لذلك أمرَ الإسلام بقتل المرتدّ لإجرامه وحياطة على الإسلام ومعنويات المسلمين، ولو لم يتّخذ هذا الإجراء لاعُتِبرَ مفرِّطاً ومقصِّراً بقيمه ومعنويات أتباعه.

﴿وقالَت طائِفَـةٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمِنُوا بالّذي أُنْزِلَ على ٱلّذينَ آمَنُوا وَجْهَ ٱلنّهارِ وٱكْفرُوا آخره لعلّهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلاّ لمَن ٱتّبع دينكُم﴾.

(آل عمران/ ٧٣)

هذا إلى أنّ الإرتداد مهما كانت بواعثه هو شذوذ وتمرّد على المُثُل العُليا الّتي جاء بها الإسـلام، ومناهضـة مبادئه الكفيلة بهداية الإنسان وإسعاده ديناً ودنياً، والمرتدّ كالعضو الفاسـد في البدن، الّذي لا محيصَ من قطعه وٱستئصاله خشـية من غوائله، وسراية عدواه، أو كمقترفي الخيانة العُظمى، وأيّة دولة تُلام على قمع المرتدِّين عليها والعابثين بكيانها وكرامتها؟!

والآن فلِنَعُد إلى صُلب الحديث عن الحـرِّية الدينية في الإسلام، لنرى كـيف دأبَ على نشرها وتركيزها في مختلف جوانب الحياة الدينية.

من ذلك تحرير الإنسان من الحجر الفكري، وعبوديّة الوسطاء المـزيّفين الّتي عاشتها الأمم الغابرة ردحاً من الزّمن، وخنعت لسيطرتها المدجّلة. ولم يكن أحدهم يملك حرِّية التصرّف في شؤونه وأعماله الروحية والمادِّية إلّا بإشراف الكهنة والقسِّيسين وتحت وصايتهم، فلا يسوغ له أن يُنشئ عقد بيع أو شراء أو نكاح، ولا يحقّ له أن يلتمس الغفران والرِّضا من الله عزّ وجلّ، وليس له أن يمـوت إلّا بإشرافهم، وتحت سمعهم وبصرهم، حيث جعلوا أنفسهم وسـطاء بين الله تعالى وعباده، وأسرفوا في تحكّمهم وسـيطرتهم، حتّى أوهمـوا النّاس أنّهم يملكون حقّ الغفران وحقّ الحرمان، ومقاليد الجنّة والنار، ممّا ٱضطرّ أتباعهم إلى تملّقهم وٱستدرار عطفهم بالجعالات والرّشا لابتياع صكوك الغفران منهم.

ولمّا جاء الإسـلام، حرّر العقول من تلك الأوهام والأضاليل، وأشعر الناس بأنّ الله تعالى هو خالقهم والمسيطر عليهم، وهو وحده الّذي يملك حقّ العفو والغفران، وحقّ الحرمان والعقاب، وليس ذلك لأحدٍ سواه:

﴿غافِرِ ٱلذّنْبِ وقابِلِ ٱلتّـوْبِ شَديدِ ٱلعِـقابِ ذي ٱلطّـوْلِ لا إله إلاّ هُوَ إليهِ ٱلمَصِير﴾. (غافر / ٣)

وبهذا حرّر الإسلام البشر من حجر الوسطاء المزيّفين، وٱستشعروا في ظِلاله معاني الحرِّية والكرامة والإستقلال الفكري والنفسي، وعلموا أنّ السعادة والشّـقاء الأخرويين منوطان بأعمال الإنسان وطاعته أو عصيانه لله عزّ وجلّ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَت رَهينة﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * ومَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾.

(الزّلزلة / ٧ ـ ٨)

﴿فاليَومَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ولا تُجْزَوْنَ إلاّ ما كُنْتُم تَعْمَلُون﴾. (يّس / ٥٤)

وهكذا حرّر الإسلام أُسَراء التقليد الأعمى، والمحاكاة البلهاء، الّذين اعتنقوا أديان آبائهم وأسـلافهم، وٱتّبعوا تقاليدهم الجاهليـة، دون تفكّر وتبـصُّر في زيفها وبطلانها، وأهابَ بهم أن يتحرّروا من أسر ذلك التقليد المُذلّ، وأن يُحكِّموا عقولهم ويستدلّوا بها إلى الدِّين الحقّ والشريعة الإسلامية السمحاء.

ب ـ الحرِّية المدنيّة:

ومغزاها أن يكون المسلم حرّاً طليقاً في تصرّفاته الخاصّة، وشؤونه المدنيّـة: فيحقّ له أن يستوطن ما أحبّ من البلدان، ويختار ما شاء من المكاسب والحِرَف، ويتنقّل حيث شاء من الأقطار، ويتخصّص فيما رغبَ فيه من العلوم والفنون، ويمارس

ما أراد من العقود كالبيع والشِّراء، ويتزّوج مَنْ تروقه من النِّساء، وهو حرٌّ في ذلك على شرط أحكام الشريعة الإسلامية، ودستورها الأمثل.

ج ـ حرِّية الإصلاح والتوجيه:

وهذه الحرِّيـة تخصّ أكفاء المسـلمين القادرين على نشر التوعية الإسـلامية وتوجيه المسلمين، وهي من أقوى بواعث تصعيد المجتمع الإسلامي وآزدهاره: دينياً وثقافياً وأخلاقياً، ووقايته وتطهيره من شرور الرّذائل والمنكرات:

﴿كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت لِلْناسِ تأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَتنْهَوْنَ عَنِ ٱلمُنْكَر﴾.

(آل عمران / ١١٠)

هذه لمحة خاطفـة من صور الحرِّية في الإسـلام، ونموذج من عرضٍ مُفصّل، يطول بيانه وتفصيله.

٦ ـ الإسلام دين المساواة

وهكذا يتجلّى فضل الإسلام وسموّ مبادئه وأهدافه في تقرير المساواة كما تجلّى في الحرِّية من قبل، فقد شرّعها في ظرف كانت الأمم العالمية تعيش حياةً طبقيّة مقيتة، وتمارس أبشع أساليب الأثَرة والأنانية.

فكان التفاوت الطّبقي من أبرز خِلال العرب ومظاهرهم الجاهلية، إذ كانوا يمتهنون البؤساء والضّعفاء، ويعاملونهم معاملة الأرقّاء، ويُقدِّسون الأماثل والأشراف، ولا يؤاخذونهم على جناية أو جرم ٱقترفوه كما أشرت إليه. حسبكَ في ذلك سيرة ملوكهم آنذاك.

«كان عمرو بن هند ملكاً عربياً، وقد عوّد الناس أن يُكلِّمهم من وراء حجاب، وقد ٱستكثر على سادة القبائل أن تأنف أمّهاتهم من خدمته في داره. وكان النّعمان بن المنذر قد بلغ به العسف أن يتّخذ لنفسه يوماً للرِّضى يغدق فيه النِّعم على كلِّ قادمٍ إليه، خبط عشواء، ويوماً للغضب، يقتل فيه كلّ طالِع عليه من الصّباح إلى المساء. ومن القصص المشهورة قصّة (عمليق) ملك طسم وجديس، وكان يستبيح كلّ عروس قبل أن تُزَفّ إلى عريسها».

وهكذا كانت الأمم الغربية تمثِّل أبشع صور التمايز الطّبقي، حتّى الثورة الفرنسية الّتي أيقظت الغربيين، وأثارت فيهم شعور العزّة والمناداة بالمساواة.

ولكن مظاهر الطبقية لا تزال حتى اليوم شائعة فيهم، تُصوِّرها أقوالهم وتصرّفاتهم:

فالألمانية النازية: كانت تُقدِّس الجنس الآري، وتُفضِّله على سائر الأجناس البشرية.

والأمم الأمريكيـة: لا يزال الصِّراع فيها قائماً بين البيض والسّـود من جرّاء أنانية البيض، وترفّعهم عن مخالطة السّود، في المدارس والمطاعم وسائر مرافق الحياة.

وهكذا درجت بريطانيا على إشـاعة التفاوت الطّبقي بين البيض والملوّنين في جنوب أفريقيا، حيث جعلت البيض سادة مدلّلين، والسّود أرقّاء مستعبدين لهم.

وكذلك تجد التمايز والتفاوت واضحين في ظِلال الحكم الشيوعي: بين العامل ورئيسه، والحكّام والرعيّة، والفنّانين والكادحين، ولم يستطع رغم تشدّقه بالمساواة محو الطبقية بين أتباعه كما أوضحتُ ذلك في البحث السالف.

المساواة في الإسلام:

لقد شرّع الإسلام مبدأ المساواة، وصاغه بأسلوب مثالي فريد لم تستطع تحقيقه سائر الشرائع والمبادئ.

فأفراد المجتمع الإسلامي، بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، أشرافاً وسُوقةً، أغنياء وفقراء، كلّهم في شرعة الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا يتفاضلون إلّا بالتقـوى والعمل الصّالح.

﴿يا أيُّها ٱلناسُ إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأنثى، وَجَعَلْناكُم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنّ أكْرَمَكُم عِنْدَ ٱللهِ أتقاكُم﴾. (الحجرات/ ١٣)

والقوانين الإسلامية والفرائض الشرعية، نافذة عليهم جمـيعاً، دون تمـايز أو تفريق بين أجناسهم وطبقاتهم.

حسبكَ في ذلك: القرآن الكريم، فقد أمرَ سيِّد المرسلين أن يعلن واقعَهُ للناس:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُم إِلٰهٌ واحِد﴾. (الكهف / ١١٠)

وجاء هذا الإعلان في وقتٍ كان الملوك والعظماء يتألّهون على الناس ويحسبون أنّهم فوق مستوى البشر.

وما ٱنفكّ النّبيّ ﷺ عن تركيز مبدإ المساواة وتصعيده حتّى ٱستطاع تطويره والتسامي به إلى المؤاخاة الروحية بين المؤمنين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ أَخوَة﴾. (الحجرات/ ١٠)

وكان ﷺ وآله الأطهار أوّل الداعين إليه، والمطبّقين له قولاً وعملاً، قال ﷺ: **«إنّ الله تبارك وتعالى قد أذهبَ بالإسلام نخوة الجاهلية، وتفاخرها بآبائها، ألا إنّ الناس من آدم، وآدم من تُراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم»** [(١)].

ويُحدِّثنا الرّواة: **«أنّهُ ﷺ كانَ في سفر، فأمرَ بإصلاحِ شاةٍ، فقال رجلٌ: عليَّ ذبحها، وقال آخر: عليَّ سلخها، وقال آخر: عليَّ طبخها، فقال ﷺ: وعليَّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله! نحنُ نكفيك! فقال: قد علمتُ أنّكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميّز عليكم، فإنّ الله يكره من عبده أن يراهُ متميِّزاً بين أصحابه، وقام فجمع الحطب»** [(٢)].

وخرج ﷺ إلى بئرٍ يغتسل، فأمسكَ حذيفة بن اليمان بالثوّب على رسول الله ﷺ وستره به حتّى ٱغتسل. ثمّ جلس حذيفة ليغتسل، فتناول رسول ﷺ الثّوب وقام يستر حذيفة، فأبى حذيفة، وقال: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسول الله لا تفعل! فأبى رسول الله إلّا أنْ يستره بالثّوب حتّى ٱغتسل، وقال: **«ما ٱصطحب اثنان قطّ إلّا**

---

(١) الوافي، ج ١٤، في وصيّة النّبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٤١٥.

وكان أحبّهما إلى الله أرفقهما بصاحبه»(١).

ويُحدِّث الرّواة كذلك: «أنّ سوادة بن قيس قال للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيام مرضه: يا رسول الله! إنّكَ لمّا أقبلتَ من الطائف ٱستقبلتكَ وأنتَ على ناقتك العضباء، وبيدِكَ القضيب الممشوق، فرفعتَ القضيب وأنتَ تُريد الراحلة، فأصابَ بطني، فأمرهُ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقتصّ منه، فقال: إكشف لي عن بطنك يا رسول الله! فقال: أعوذُ بموضع القصاص من رسول الله من النار يوم النار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: يا سوادة بن قيس، أتعفو أم تقتصّ؟ فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال: اللّهمّ ٱعْفُ عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيِّك محمّد»(٢).

وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام في حرصه ودأبه على تركيز مبدإ المساواة ونشره في الأوساط الإسلامية:

قال الصّادق عليه السلام: لمّا وُلِّيَ عليّ عليه السلام صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «إنِّي لا أرزئكم من فيئكم درهماً ما قام لي عذق بيثرب. فلتصدقكم أنفسكم، أتروني مانعاً نفسي ومُعْطيكم؟! قال: فقام إليه عقيل كرّم الله وجهه، فقال له: الله! لتجعلني وأسود بالمدينة سواء. فقال: إجلس، أما كان أحد يتكلّم غيرك، وما فضلكَ عليه إلّا بسابقةٍ أو تقوى»(٣).

«ومشى إليه ثلّة من أصحابه عند تفرّق الناس عنه، وفرار كثير منهم إلى معاوية طلباً لما في يديه من الدّنيا، فقالوا: يا أمير المؤمنين! إعطِ هذه الأموال، وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، ومَنْ تخاف عليه من

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٤١٦.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٧١.

(٣) البحار، ج ٩، ص ٥٣٩، عن الكافي.

الناس فراره إلى معاوية، فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله ما أفعل ما طلعت شمس ولاحَ في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيتُ بينهم، وكيف وإنّما هي أموالهم»[1].

وقال عمر بن الخطّاب للناس يوماً: ما قولكم لو أنّ أمير المؤمنين شاهد ٱمرأةً على معصية؟ ـ يعني أتكفي شهادته في إقامة الحدّ عليها؟ ـ، فقال له عليّ بن أبي طالب: «يأتي بأربعة شهداء أو يُجلَد حدّ القَذْف، شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين»[2].

وخرج عليه السلام على أصحابه، فمشوا خلفه، فالتفتَ إليهم فقال: لكُم حاجة؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين! ولكنّا نحبّ أن نمشي معك، فقال لهم: «انصرفوا، فإنّ مشي الماشي مع الراكب، مفسدة للراكب، ومذلّة للماشي»[3].

وقال الرّاوي: كنتُ مع الرِّضا عليه السلام في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم. فقلت: جُعِلْتُ فداك، لو عزلتَ لهؤلاء مائدة، فقال: «مه، إنّ الرّبّ تبارك وتعالى واحد، والأمّ واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال»[4].

وقد انبهر الكتّاب الغربيّون بمبدأ المساواة في الإسلام، وطفقوا يُعربون عن إعجابهم به وإكبارهم له:

---

(١) البحار، ج ٩، ص ٥٣٣، بتصرّف وتلخيص.

(٢) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، لمحمّد الغزالي، ص ٢٧.

(٣) محاسن البرقي.

(٤) الكافي.

قال (جب) في كتابه (مع الإسلام):

«ليس هناك أيّة هيئة سوى الإسلام يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة، وإذا وُضِعَت منازعات دول الشّرق والغرب العظمى موضع الدّرس، فلا بدّ من الإلتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع».

وقال الكاتب (هراس ليف) في (المجلّة الإسلامية الإنجليزية):

«ما كان شيء في العالم ليقنعني بأنّ أيّ دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أنّ بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرتُ كثيراً من الكنائس والمعابد، فرأيتُ التفريق بين الطّبقات داخل المعابد كما هو خارجها. وكان ٱعتقادى بالطّبع أنّ الأمر لا بدّ كذلك داخل المساجد الإسلامية، ولكن ما كان أشدّ دهشتي حينما رأيتُ الشعور بالمساواة على أتمّه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج بلندن)، هناك وجدتُ أجناساً مختلطين على ٱختلافهم في المراتب ٱختلاطاً لك أن تُسمّيه أخويّاً، ولم أكن شاهدتُ مثل ذلك، ترى في المسجد نوبياً من بلاد ممباسيا يُصافح عظيماً من رجال الأعمال المصريين أو سياسياً من بلاد العرب، وقد ٱرتفعت الكلفة بين الجميع، فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقلّ الناس شأناً، وإنّك لا تجد أقلّ محاولة لتخطّي الصفوف إلى مكان ممتاز في المسجد، لأنّه ليس هناك أيّ مكانٍ ممتاز، فالكلّ عند الله سواءً، لا فضلَ لأحدٍ على سواه»[1].

وقال المستشرق (بودلي) مؤرّخ (سيرة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم):

«وقضى محمّد على فروق الطّبقات واللّون والأجناس، والحجّ أعظم شاهد على ديمقراطية الإسلام، فهناك يجتمع المسلمون: الأوروبيون، والآسيويون، والأفريقيون،

(١) الإسلام والعلم الحديث، لعبدالرزّاق نوفل، ص ١٦٣.

والصّعاليك، والأمراء، والتجّار، والمقاتلون في نفس الإزار البسيط الّذي كان محمّد وأتباعه يرتدونه في حجّة الوداع عام ٦٢٢م، إنّهم جميعاً يتناولون نفس الطّعام، ويتقاسمون نفس الخيام، ويعاملون دون تمييز، سواءً أجاءوا من مرافئ (سيراليون) أم من قصر نظام حيدر آباد... إنّهم جميعاً مسلمون، إنّ هذا لهو الميزة الكافية، ولهم في مؤسِّس هذا الدِّين أسوة، فقد حكم جزيرة العرب، ولكن ما كان يجد ما يضيره في تناوله الطّعام وعبداً من العبدان»[١].

وقال المستشرق النمساوي المسلم (فايس):

«لقد أبطلَ الإسلام العصبية العرقية ـ الحقد الجنسي ـ وشقّ الطّريق إلى الإخاء الإنساني وإلى المساواة، ولكن المدنية الغربية لا تزال عاجزة عن أن تنظر إلى ما وراء ذلك الأفق الضيِّق من العداء الجنسي والقومي. إنّ الإسلام لم يعرف الطبقات الإجتماعية ولا حروب تلك الطبقات في مجتمعه، ولكن التاريخ الأوروبي كلّه ـ منذ أيام اليونان والرومان ـ مملوء بالكفاح بين الطبقات، وبالعداء الإجتماعي»[٢].

وبتقرير مبدأ المساواة، ٱستشعر المسلمون مفاهيم العزّة والكرامة، وأصبحوا منار الأمم ومثلها الأعلى في ذلك.

ومن آيات حكمة الإسلام وسموّ أهدافه ومبادئه، أنّه في الوقت الّذي قرّر فيه المساواة وشرّعها تحقيقاً للعدل الإجتماعي، وإتاحةً لفرص التكافؤ بين عامّة المسلمين، فإنّه شرّع التفاضل والتمايز بينهم كذلك، نظراً لبعض القيم والكفاءات الّتي لا يسوغ إغفالها وهدرها، ويعتبر بخسها مناقضاً لصميم العدل والإنصاف، بيدَ أنّه أناط التفاضل

---

(١) الإسلام بين الإنصاف والجحود، من سلسلة مع الإسلام، لمحمّد عبدالغني حسن، ص ٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٠.

في المجالات والأعمال المقدورة للإنسان، والداخلة في وسعه وإمكانه، كطاعة الله تعالى وتقواه، دون ما كان خارجاً عنهما من أسباب التمايز كوفرة المال، أو سعة الجاه:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ ٱللهِ أتقاكُم﴾. (الحجرات/ ١٣)

من أجل ذلك، فاضلَ الإسلام بين الأنبياء عليهم السلام، وميّز بعضهم على بعض، رعاية لقيمهم وكفاءاتهم وأبعاد جهادهم في سبيل الله وهداية البشر وإسعادهم.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ ٱللهُ ورَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجات﴾. (البقرة/ ٢٥٣)

وفضّل العلماء على الجهلاء، لتفوّق الأوّلين بالعلم والعرفان:

﴿هَلْ يَسْتَوي ٱلّذينَ يَعْلَمُونَ وٱلّذينَ لا يَعْلَمُون﴾. (الزّمر/ ٩)

وهكذا فاضلَ بين الناس في الرِّزق، لاختلاف كفاءاتهم وطاقاتهم في إجادة الأعمال ووفرة الإنتاج، فليسَ من العدل مساواة الذّكيّ بالغبيّ، والمُجِدّ بالكسول، والعالِمِ المُخترِعِ بالعامِل البسيط، إذ المساواة والحالة هذه منافية لصميم العدل والوجدان، ومدعاة لخنق العبقريات والمواهب وهدر الطاقات والجهود.

﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُم في ٱلحَياةِ ٱلدُّنيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ، لِيَتّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مما يَجْمَعُون﴾.

(الزّخرف/ ٣٢)

٧ـ الإسلام دين السلام

ومن محـاسن الإسلام ومزاياه الغُرّ أنّه دين السلام، حيث دعا إليه وجهد في إحلاله ونشره، بأساليبه الحكيمة الفذّة الّتي لم يحلم بها دعاة الإصلاح وروّاد السلام.

فمن آيات سلامه أنّه جعل تحيّة الإسلام الّتي يتبادلها المسلمون ويتلاقون بها صباحاً ومساءً هو السلام، فهو شعار الإسلام وسمة المسلم.

وهكذا أعلن القرآن الكريم دعوته إلى السلام وحضّه عليه في قبس من آياته الكريمة:

﴿يا أيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا في السِّلْمِ كافّة﴾. (البقرة/ ٢٠٨)

﴿وإن جَنَحُوا لِلْسَّلْمِ فاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلى ٱللهِ إنّهُ هُوَ ٱلسّميعُ ٱلعَليم﴾.

(الأنفال/ ٦١)

ونستطيع أن ندرك أبعاد رغبة الإسلام في السلام وقدرته على نشره وإحلاله في حياة الناس دولاً وشعوباً من واقع الأمّة العربية ومقارنة حياتها الجاهلية بالإسلام، فقد عاشـت في الأولى حروباً متواصلة شـعواء كادت أن تبيدهم وتفنيهم! كحرب البسوس وداحس والغبراء. فاستطاع الإسـلام أن يطـوِّر طباع العـرب وأخلاقهم وينقلهم من ذلك الجوّ العابس الدامي بالتناحر والحروب، إلى جوٍّ مشرق بالصـفاء والسلام، وأصبح الّذين كانوا بالأمس ألدّاء إخواناً متعاطفـين: ﴿أشِدّاءُ عَلى الكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم﴾.

ودأب الإسلام بكلِّ عزم وإصرار على توطيد دعائم السِّلم، ونشر مفاهيمه المتجسِّدة في رسالته الخالدة، وأهدافه الإصلاحية، وأهاب بالدّنيا معلناً فيها ومبشِّراً لها.

﴿قَدْ جاءَكُم مِنَ ٱللهِ نُورٌ وكِتابٌ مُبِينٌ * يَهْدي بِهِ ٱللهُ مَنِ ٱتَّبعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ ٱلسّلامِ ويُخْرِجُهُم مِنَ ٱلظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإِذْنِهِ ويَهْدِيهِم إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(المائدة/ ١٥ ـ ١٦)

وقد تدرّج الإسلام في إحلال السلام، وتصعيد مفاهيمه حتّى ٱستطاع أن يُحقِّق بتخطيطه ومبادئه السلام العالمي، مبتدئاً بغرس قِيَم السلام ومفاهيمه في وعي المسلم ووجدانه، فالأسرة المسلمة، فالمجتمع الإسلامي، فالصّعيد العالمي العام، مستهدفاً إشاعة الوِئام والسلام في كلِّ حقلٍ من هذه الحقول، وتطهيرها من سموم الفرقة والتناحر، وسأعرض في الأبحاث التالية عرضاً، مجملاً أهداف الإسلام ومراحل دعوته إلى الإسلام.

أ ـ سلام الفرد:

للفرد قيمته وأهمِّيّته في نظر الإسلام بصفته عنصراً من عناصر المجتمع، ولِبْنَةً في كيانه، وبمقدار ما يستشعر الفرد في ظلال مجتمعه مفاهيم السلام والرخاء، أو يحسّ بفراغها وفقدانها، ينعكس ذلك على حياة المجتمع، وتتجاوب بينهما مشاعر الوئام والسِّلم، أو الفرقة والتناحر.

من أجل ذلك، بدأ الإسلام في غرس السلام وبثِّه في وعي المسلم وشعوره، متذرِّعاً إلى ذلك بسياسته الروحية الهادفة، وتوجيهه الخُلُقي الحكيم.

فهو يعمد على تزكية النفس، وتصعيد طاقاتها الخيِّرة، وقمع نوازعها الشرِّيرة،

وذلك بإشعار المسلم بهيمنة الله تعالى عليه، ورقابته له، ومجازاته إيّاه على أعماله الصالحة أو السيِّئة، ليستقيم على الهدى، ويسير على النّهج، ويغدو عضواً صالحاً في المجتمع، يُباركه ويُبادله مشاعر الأمن والسلام:

﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاها * فأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها﴾. (الشّمس/ ٧ ـ ١٠)

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾.

(الزّلزلة/ ٧ ـ ٨)

كذلك يعمل الإسلام على إعزاز المؤمن ورفع معنويّاته، بإشعاره برعاية الله تعالى له، وعطفه عليه، ومساندته إيّاه، ليستشعر الطمأنينة النفسية والسلام الروحي، ويجنِّبه مآسي القلق والمخاوف: خوف الأعداء والحسّاد، وخوف الأزمات والخطوب:

﴿قُلِ ٱللّٰهُمَّ مالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشاء وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ ٱلخَيْرُ إنّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾. (آل عمران/ ٢٦)

﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والّذِينَ آمَنُوا في ٱلحَياةِ ٱلدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلأشْهادُ﴾.

(المؤمن/ ٥١)

﴿إنَّ ٱلّذِينَ قالُوا رَبُّنا ٱللهُ ثُمّ ٱسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلمَلائِكَةُ ألّا تَخافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلّتي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ في ٱلحَياةِ ٱلدُّنْيا وَفي ٱلآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعا إلى ٱللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقالَ إنّني مِنَ ٱلمُسْلِمِينَ﴾.

(فصّلت/ ٣٠ ـ ٣٣)

وكذلك ٱستطاع الإسلام أن يعقد السلام بين مآرب الإنسان المادِّية وأشواقه الروحية، وألّف بينهما تأليفاً عادلاً حكيماً، يضمن سعادة النفس والجسم، فهو

لا يستنكر الرغائب المادِّية، ولا يقمع نوازعها بالحرمان، لرسوخها في النفس وسيطرتها عليها، كما لا يبيحها إباحة مطلقة توجب انهماك الإنسان عليها ووقوعه في أسرها وعبوديّتها، ومن ثمّ هبوطه عن مستواه الإنسانيّ الرّفيع. ولكنّه أشبعَ النوازع المادِّية وأباح مُتعها في حدودٍ منطقية عادلة، لا إفراط فيها ولا تفريط، كما أشبعَ النّوازع الروحية وأشواقها السامية، وعقد السلام بين هذه وتلك بأسلوب رائع خلّاب يحقِّق للإنسان سعادة الدِّين والدّنيا، ويضمن إزدهار الجسد والرّوح، كما نُفصِّله في البحث التالي (الإسلام دين ودنيا).

وهكذا واصلَ الإسلام عطفه وإشفاقه على المؤمن حتّى في حالات انحرافه، ومقارفته المعاصي والآثام، فأشعرهُ بسعة رحمة الله تعالى وكرم عفوه ورضوانه، ليستميله إلى التوبة ويُحبِّب له الإنابة، ويُشجِّعه على الطّاعة والإستقامة، ويشيع في وجدانه مفاهيم السلام والأمن من سخط الله وعقابه.

﴿وإذا جاءَكَ ٱلّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم كَتَبَ ربُّكُم على نَفْسِهِ ٱلرّحْمَةَ أنّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُم سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمّ تابَ من بَعْدِهِ وأصْلَحَ فإنّهُ غَفورٌ رَحيم﴾. (الأنعام/ ٥٤)

﴿نَبِّئْ عِبادي أنّي أنا ٱلغَفُورُ ٱلرّحِيم﴾. (الحجر/ ٤٩)

﴿إنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ ويُحِبُّ ٱلمُتَطَهِّرِين﴾. (البقرة/ ٢٢٢)

ومضى الإسلام يتعقّب دواعي القلق والوجَل في نفس المسلم، فاقتلعها وغرس فيها معاني السكينة والأمن، فصانَ حرمته، وحمى حياته وماله وكرامته من الإساءة والعدوان. فلا يُسَوِّغُ لأحدٍ أن يهدرَ دَمَ المسلم، أو يبتزَّ ماله، أو ينتهِكَ عرضَه وكرامته، ولا يُسَوِّغُ كذلك اغتيابَه والتجسّس عليه، والسخريةَ منه، أو ينالَه بسوءٍ أدبيّ أو مادِّيّ، والإسلام له بالمرصاد يقتصّ منه ويُنكِّل به.

وبهذا نَفَثَ الإسلام في رَوْعِ المسلم مفاهيم الطمأنينة والسلام، ووفّر له أسباب العزّة والسكينة والمِنْعة.

ب ـ سلام الأسرة:

لقد عُني الإسلام بالأسرة عناية بالغة، ورعاها بالتنظيم والتهذيب، لأهمِّيّتها الإجتماعية، وأثرها في المجتمع الإسلامي، وجهد أن تحيا حياةً سعيدة هانئة، يسودها الحبّ والتعاطف، ويُظلِّلها الوئام والإنسجام، وأشاعَ فيها السلام كما أشاعه في حياة الفرد.

وتبدأ حياة الأسرة باقتران الزّوجين وتعاقدهما بالزّواج الشّرعي المقدّس، وقد شرّع الإسلام لكلٍّ منهما حقوقاً وآداباً ليوثِّق بينهما أواصر الوداد والوئام، ويقيهما من مثيرات النّكد والتنغيص، وجعل للزّوج حقوقاً على زوجه بحكم قوامته عليها، وكفالته لها، وهي:

١ ـ الطّاعة:

فالزّوجة مسؤولة عن طاعة زوجها، وتلبية رغباته المشروعة ومفاداة ما يسيئه ويغيظه، كالخروج من الدار بغير إذنه، والتبذير في ماله، وإهمال وظائفها المنزلية، ونحو ذلك ممّا يستثير سخط الزّوج ويوهن حبّه وثقته بزوجه، ومن ثمّ يُعرِّض الحياة الزوجية للبلبلة والأزمات الخطيرة.

٢ ـ حُسْن المُعاشرة:

وعلى الزّوجة أن تحيط زوجها بحُسْن العشرة، وجميل الرّعاية، ولُطف المُداراة، وذلك برعاية شؤونه، وتوفير وسائل راحته النفسية والجسمية، وحُسْن التدبير المنزليّ، ليستشعر منها الحبّ والإخلاص، وتغدو بذلك حَظيّةً عنده، أثيرة يُبادلها مشاعر العطف والإيثار.

٣ ـ الصِّيانة:

وأهمّ واجبات الزّوجة صيانة شرف زوجها وسمعته، فتتفادى جهدها عمّا يخدشها ويضرّ بها: كالخلاعة، والميوعة، وإفشاء أسرار الزّوج، وكشف ما يحرص على ستره وإخفائه من مظاهر الفاقة والعَوْز، فذلك ممّا يُضْعِف ثقة الزّوج بها ويُهدِّد سلام الحياة الزوجية.

القوامة:

ولابدّ للأسرة من راعٍ وقيّم يسوسها بحُسْن التنظيم والتوجيه، ويوفِّر لها وسائل العيش الكريم، ويحيطها بأسباب العزّة والمنعة، وتلك مهمّة خطيرة، تستلزم الحنكة، وقوّة الإرادة، ووفرة التجربة في حقول الحياة، فأيّ الزّوجين أحقّ بهذه الرعاية والقوامة؟

لا ريبَ أنّ الرّجل بحكم خصائصه ومؤهّلاته، أوفر تجربة، وأكثر خبرة وحذقاً في شؤون الحياة من المرأة، وأكفأ منها على حماية الأسرة ورعايتها مادِّياً وأدبياً، وأشدّ قوّة على تحقيق وسائل العيش ومستلزمات الحياة، لذلك كان الزّوج أحقّ برعاية الأسرة والقوامة عليها، وهذا ما قرّره الدستور الإسلامي الخالد:

﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّساءِ بما فَضَّلَ ٱللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وبِما أَنْفَقُوا مِن أمْوالِهِم﴾. (النِّساء/ ٣٤)

وهكذا منح الإسلام (الزّوجة) حقوقها المادِّية والأدبية، إزاء حقوق الزّوج عليها، مشرِّعاً ذلك على أساس الحكمة والعدل، ورعاية مصلحة الزّوجين وسلامهما معاً، وهي:

١ ـ النّفقة:

وهي حقّ محتَّم على الزّوج يجب أداؤه إلى الزّوجة، وتوفير حاجاتها المعاشية:

من الملبَس والمسكَن والمطعَم، ونحو ذلك من لوازم الحياة حسب شأنها وعادتها، والنّفقة حقٌّ معلومٌ للزّوجة تتقاضاه من زوجها وإن كانت ثريّة موسرة، لا يسقط إلّا بنشوزها وتمرّدها على الزّوج.

٢ ـ حُسْن العشرة:

الزّوجة أنيسة الزّوج، وشريكة حياته، تشاطره السرّاء والضرّاء، وتواسيه في الأفراح والأحزان، وتنفرد بجهودٍ شاقّةٍ مُضنيةٍ: من تدبير المنزل، ورعاية الأسرة، ووظائف الأمومة، فعلى الرّجل أن يُحْسِنَ عشرتها، ويسوسها بالرِّفق والمداراة، تلطيفاً لمشاعرها ومكافأة لها على جهودها الجبّارة، وذلك ما يُسلِّيها ويُخفِّف متاعبها، ويُضاعف حبّها وإخلاصها لزوجها.

والمرأة بحكم عواطفها ووظائفها مرهفة الإحساس، سريعة التأثّر، قد تواجه زوجها بكلمةٍ نابيةٍ أو تقريعٍ جارحٍ صادرَين عن ثورة نفسية وهياج عاطفي، فعلى الرّجل أن يضبط أعصابه، ويقابل إساءتها بحُسْن التسامح والإغضاء، لتسير سفينة الأسرة آمنة مطمئنّة في محيط الحياة الزوجية، لا تزعزعها أعاصير النّفرة والخِلاف.

فإذا تمادت المرأة في عصيان زوجها، وتمرّدها عليه، فعلى الزّوج أن يتدرّج في علاجها وإصلاحها بالنّصح والإرشاد، فإن لم يُجْدِ معها ذلك، أعرضَ عنها وٱعتزل مضاجعتها، فإن لم يُجْدها هذا أو ذاك، ضربها ضرباً تأديبياً مبرّءاً من القسوة والتشفِّي الحاقد:

﴿واللّاتي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وٱهْجِرُوهُنَّ في ٱلمضاجِعِ، وٱضْرِبُوهُنَّ فإن أطَعْنَكُم فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبيلاً﴾. (النِّساء/ ٣٤)

٣ ـ الحماية:

والزّوج بحُكم قوامته على زوجته ورعايته لها، مسؤول عن حمايتها وصيانتها

عمّا يسيئها ويضرّها أدبياً ومادّياً، وعليه أن يكون غيوراً عليها صائناً لها عن التخلّع والإختلاط بالرِّجال ومعاشرة المريبات من النِّساء.

ومن هنا نُدرِك حكمة التشريع الإسلامي في أمر المرأة المسلمة بالحجاب ونهيها عن التبرّج والإختلاط المريب، حرصاً على كرامتها ووقايتها من دوافع الإساءة والتغرير، ووقاية الأسرة المسلمة من المآسي والأرزاء الّتي حاقت بالأمم الغربية ومسخت أخلاقها وضمائرها، وأوردتها موارد الشّقاء والهلاك:

﴿يا أَيُّها ٱلنَّبِيُّ قُل لأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ ونِساءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أدْنى أن يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ﴾. (الأحزاب/ ٥٩)

وبعد أن قرّر الإسلام الحقوق والآداب الزّوجية، وأشاع السلام في حياتها، عطف على نشره في حياة الأبوين والأبناء، وجهد في توثيق أواصر الحبّ والعطف بينهما، فأشعر الأبناء بجلالة الأبوين، وعظيم فضلهما عليهم وضرورة مكافأتهما بحُسْن الوفاء، وجميل التوقير والإجلال، ولُطف البرّ والإحسان:

﴿وَوَصَّيْنا ٱلإنْسانَ بِوَالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ في عامَيْنِ أنِ ٱشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ إلَيَّ ٱلمَصِير * وَإنْ جاهَدَاكَ عَلى أن تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في ٱلدُّنيا مَعْرُوفاً﴾. (لقمان/ ١٤ ـ ١٥)

﴿وَقَضى رَبُّكَ ألّا تَعْبُدُوا إلّا إيّاهُ وبالوالِدَيْنِ إحْساناً، إمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيما * وٱخْفِضْ لَهُما جَناحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُما كما رَبّياني صَغِيراً﴾. (الإسراء/٢٣ـ٢٤)

وجهد الإسلام بعد هذا على نشر مفاهيم السلام على الصعيد الأسريّ الواسع، الّذي ينتظم الأقرباء والأرحام، ودعاهم إلى التواصل والتعاطف والمواساة في الأفراح والأحزان، ليشيع في الحياة الأسرية العامّة السكينة والصّفاء.

وركّز الإسلام على صلة الأرحام، حتّى عدّ قطعها جرماً كبيراً وجناية نكراء:
﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أن تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ وَتُقَطِّعُوا أرْحامَكُم﴾.[1]
(محمّد/ ٢٢)

ج ـ سلام المجتمع:

ومضى الإسلام في إحلال السلام ونشره في المجتمع الإسلامي الكبير، ليُنشئ من عناصره وفِئاتِه أسرة إسلامية متلاحمة متجاوبة في المشاعر والعواطف، متذرِّعاً إلى ذلك بنظمه الخالدة وسياسته الإصلاحية الحكيمة.

فهو يُطالب المسلم أن يكون عفّ اللِّسان، مهذّب الكلام، حلو المقال لما يعكسه أسلوب الحِوار على المجتمع من آثار إيجابية أو سلبية.

فالكَلِم الطَّيِّب، والحديث المنطقيّ الهادئ يستهوي المجتمع، ويُشيع فيه التآلف والتعاطف، كما يُشيعُ فيه البذاءُ والتهاترُ الإستياءَ والتوتّرَ:

﴿وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً﴾. (البقرة/ ٨٣)

﴿وإذا قُلْتُم فاعْدِلُوا وَلَو كانَ ذا قُرْبى﴾. (الأنعام/ ١٥٢)

﴿وٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنّ أنْكَرَ ٱلأصْواتِ لَصَوْتُ ٱلحَمِير﴾. (لقمان/ ١٩)

وهكذا ناشدهُ بالتحلِّي بحُسْن الخُلق، وطيب العشرة، ولُطف المجاملة لمواطنيه، وتفادي التطاول عليهم، والإساءة إليهم، لتسود في المجتمع مشاعر الصّفاء والوئام، وتصفو أجواؤه من أكدار الخصومة والنِّزاع.

﴿إنّ ٱللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ وٱلإحْسانِ، وإيتاءِ ذي ٱلقُربى، ويَنْهى عَنِ ٱلفَحْشاءِ وٱلمُنْكَرِ وٱلبَغْي، يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكّرُون * وأوْفُوا بِعَهْدِ ٱللهِ إذا عاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا

---

(١) مَنْ شاء التوسّع في هذه الأبحاث، فليرجع إلى القسم الثاني من كتاب أخلاق أهل البيت عليهم السلام للمؤلّف.

الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وقَدْ جَعَلْتُمْ ٱللّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً ﴾ . (النّحل/ ٩٠ ـ ٩١)

لقد ٱشتملت هاتان الآيتـان الكريمـتان على أربع نصـائح وأوامر لها آثارها الفاعلة في سلام المجـتمع وتعاطفه، وٱحتوت على أربعة نواهٍ تثير في المجتمع مآسي التناكر والعداء.

وقال تعالى: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أن يَكُونوا خَيْراً مِنْهُم، وَلَا نِساءٌ مِن نِساءٍ عَسَى أن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ، وَلّا تَلْمِزُوا أنْفُسَكُم، وَلَا تَنابَزُوا بالأَلْقابِ، بِئْسَ ٱلاِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ، ومَنْ لَمْ يَتُبْ فأولئِكَ هُمُ ٱلظّالِمُون * يا أَيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إنّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إثْمٌ، وَلا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، أيُحِبُّ أحَدُكُم أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وٱتّقُوا ٱللّهَ إنّ ٱللّهَ تَوّابٌ رَحيم ﴾ .

(الحجرات/ ١١ ـ ١٢)

وعلى المسلم بعد هذا وذاك أن يُعايش المجتمع تعايشاً سلمياً والإهتمام بشؤونه، وحبّ الخير لأفراده، ونبذ نوازع الأنانية والإستئثار بالمصالح والمنافع الذاتية على مصالحهم ومنافعهم.

فمن الخسّة واللُّؤم أن يُعنىٰ المرءُ بتحقيقِ أشواقه ومآربه، وتجاهل أشواق الآخرين ومآربهم.

﴿مُحَمّدٌ رَسُولُ ٱللّهِ وٱلّذينَ مَعَهُ أشِدّاءُ عَلى ٱلكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم﴾ .

(الفتح/ ٢٩)

﴿إنّما ٱلمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فأصْلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُم﴾ . (الحجرات/ ١٠)

﴿وٱبْتَغِ فيما آتاكَ ٱللّهُ ٱلدّارَ الآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيا وأحْسِنْ كَما أحْسَنَ ٱللّهُ إلَيْكَ، ولَا تَبْغِ ٱلفَسادَ في ٱلأرْضِ إنّهُ لا يُحِبُّ ٱلمُفْسِدِين﴾ .

(القصص/ ٧٧)

وهكذا هذّب الإسلام الفرد والمجتمع الإسلاميّ، وأهّلهما للتعايش السّلميّ، والتعاون على المصالح المشتركة، والتعاطف المادّي والأدبي، والإستظلال براية الإسلام، فحقّق بذلك أروع الفتوحات الإصلاحية في بناء السلام الإجتماعي، وإعلاء صرحه.

لقد جاء الإسلام بمعجزة اجتماعية كُبرى، كانت الحجر الأساس في تحقيق السلام للأمّة الإسلامية.

لقد سنّ للمؤمنين مبدأ المؤاخاة الروحية والتآخي الإسلامي، تحقيقاً للسلام فيهم، وحسماً للتناكر والتبعثر اللّذين عاشتهما الجاهلية العربية قروناً وأجيالاً.

آخىٰ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، تآخياً روحياً مثالياً، وأصبح المتآخون مثلاً رفيعاً في الإنسجام والتعاطف، كما أوضحتُ ذلك في الأبحاث السالفة.

﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا وٱذْكُروا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُم إذْ كُنْتُم أعْداءً فأَلّفَ بَينَ قُلوبِكُم فأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخواناً، وكُنْتُم عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنّارِ فأنقَذَكُم مِنْها﴾. (آل عمران/ ١٠٣)

وبعد أن حقّق الإسلام هذا الفتح الخطير، أهاب بالمسلمين أن يكونوا رموزاً وضّاءة، ونماذج فريدة، في التحلّي بالقِيَم والمُثُل الأخلاقية الرائدة، واستلهامها في الشعور والسلوك، وٱستغلالها في تنمية العلاقات الإجتماعية، وتوثيق أواصر المجتمع، وٱزدهاره بالسكينة والسلام.

فأمر بالصِّدق، وأداء الأمانة، والوفاء بالوعد والعهد، والحكم بين الناس بالعدل، والتروّي في تصديق الأنباء المغرضة والأراجيف الزائفة، وحثّ على التواصي بالحقِّ والتعاون على البرِّ، ورعاية الحقوق والواجبات...

ونهىٰ عن مُثيرات الفِتَن والتباغض والتنازع في الأوساط الاجتماعية: كالخمر،

والقمار، والرِّبا، والرّشا، والغشّ والإحتكار.

وهكذا حرَّمَ الإسلام كُلَّ ما يُكدِّرُ صفوَ العلاقات الإجتماعية، ويشيع الفرقة والعداء بين المسلمين: كالغيبة، والنميمة، والسّخرية، والفحش والبذاء، وألوان التطاول والبغي.

﴿ يا أيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا في ٱلسِّلْمِ كافّة، ولا تَتّبِعُوا خُطُواتِ الشّيْطان ﴾.
(البقرة/ ٢٠٨)

وكذلك ناشدَ الإسلام أتباعه ودعاهم إلى التسامح وضبط النّفس ازاء مثيرات الغضب ما وسعهم ذلك:

﴿ ٱدْفَعْ بالّتي هِيَ أحْسَنُ، فإذا ٱلّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كأنّهُ وَلِيٌّ حَميم * وَما يُلَقّاها إلّا ٱلّذينَ صَبَرُوا وما يُلَقّاها إلّا ذُو حَظٍّ عَظيم ﴾. (فُصِّلت/ ٣٤ ـ ٣٥)

﴿ وَالكاظِمِينَ ٱلغَيْظَ والعافِينَ عَنِ ٱلنّاسِ وَٱللهُ يُحِبُّ المحْسِنين ﴾.
(آل عمران/ ١٣٤)

لقد عالج الإسلام مشكلة (الحبّ والبغض) الخطيرة الفاعلة في الحياة الإجتماعية، إذ كلّما شاعَ فيها الحبُّ نَعِمَتْ بالسكينة والرّخاء، وخفّت فيها حدّة الشّرور.

وكلّما تفاقم فيها البغض ساءها القلق والتوجّس، وطغت فيها نوازع البغي.

من أجل ذلك، غرس الإسلام في المجتمع الإسلامي أزهار الحبّ وأشواقه ودواعيه، لينعم بالصّفاء والإنسجام، وعنى بتنقية أجوائه من دوافع الشنآن والبغض ليقيه من مردوداتها السلبية المقيتة.

ومن هنا بالغَ الإسلام في ترغيب أتباعه على التوادد والتعاطف، ونبذ الكراهية

والبغض ما وسعهم تحقيقاً للعدل والسلام الإجتماعيين، كما صوّرته الآيات الكريمة السالفة والتالية.

﴿ولاَ تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم﴾. (الأنفال/ ٤٨)

وأتاح الإسلام ـ فوق ذلك ـ فرص اللِّقاء والتواصل للمسلمين، جماعة وأفراداً، لتعزيز مشاعر الإلفة والوداد بينهم، وتوفير دواعي الوئام والسلام لهم.

وذلك بتزاورهم في شتّى المناسبات، وتلاقيهم في صلاة الجماعة، وتواجدهم في مواقف الحجّ، وٱجتماعهم في المحافل والنّدوات العلمية والدينية والإجتماعية، ونحوها من فرص اللِّقاء ومجالاته العديدة، الهادفة إلى تلاحم المسلمين وتجاوبهم في العواطف والمشاعر.

﴿وتَعاوَنُوا على ٱلبِرِّ وٱلتّقْوى ولا تَعاوَنُوا عَلى ٱلإثمِ وٱلعُدْوان﴾. (المائدة/٢)

﴿مُحَمّدٌ رَسُولُ ٱللهِ وٱلّذِينَ مَعَهُ أشِدّاءُ عَلى ٱلكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم﴾.

(الفتح/ ٢٩)

﴿وَفي أمْوالِهِم حَقٌّ لِلْسائِلِ وٱلمحْرُوم﴾. (الذّاريات/ ١٩)

وبعد أن رسم الإسلام بواعث السلام الإجتماعي إيجاباً وسلباً، شرّع الضمانات الكفيلة بحمايته وسيادته في المجتمع، وقرّر العقوبات الصارمة للعابثين بأمنه وٱستقراره، فقد ضمنَ حياة المسلم، واعتبر هدرها جرماً عظيماً يستوجب الخلود في النار:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً﴾. (النِّساء/ ٩٣)

ولم يكتف بإنذار السفّاكين والمجرمين على الوعيد الأخروي، فقد شرّع القصاص من القاتل عمداً، والدية عليه خطأً، حماية لأرواح المسلمين، وحقناً لدمائهم:

﴿وَلَكُم في ٱلقِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألبابِ لَعَلَّكُم تَتَّقُون﴾. (البقرة/ ١٧٩)

وكذلك حمى عرض المسلم وصانه من عبث الغواة والداعرين، بأساليبه التأديبية وحدوده الزاجرة:

﴿ٱلزّانِيَةُ وٱلزّاني فاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مائَةَ جَلْدَةٍ ولا تأخُذْكُم بِهِما رأفَةٌ في دِينِ ٱللهِ﴾. (النّور / ٢)

كما وقى ماله وصانه من السّلب والإبتزاز:

﴿وَٱلسّارِقُ وٱلسّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ ٱللهِ﴾.

(المائدة / ٣٨)

وهكذا جهد الإسـلام في حماية المسلمين فرداً ومجتمعاً، مادّياً وأدبياً، ودأبَ على إحلال السلام وإشاعته في المجتمع الإسلامي.

د ـ السلام العالمي:

وبعد أن قطع الإسلام أشواطاً واسعة موفّقة في إقرار الإسلام ونشره في حياة الفرد المسلم والأسرة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي الكبير، عَمَدَ على نَشْرِهِ وإحلاله في حياة البشرية جمعاء، وعلى الصعيد العالمي العام.

فهو ـ كما أسلفنا بيانه ـ يُقرِّر وحدة الإنسانية، ويدعو إليها بأسلوبٍ عاطفيّ جذّاب، فيُذكِّر البشر بوحدة أصلهم وٱنبثاقهم من أرومة واحدة (آدم وحوّاء) وأنّهم جميعاً من سلالة ذينك الأبوين الكريمين، ليُعزِّز في وجدانهم مشاعر التعارف والتآلف، ويُجنِّبهم دوافع التناكر والخِصام:

﴿يا أيُّها ٱلناسُ إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْناكُم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنّ أكْرَمَكُم عِنْدَ ٱللهِ أتقاكُم﴾. (الحجرات / ١٣)

وبهذا التقرير ٱستطاع الإسلام أن يُلطِّف ويُهذِّب عواطف البشر ومشاعرهم،

ويوجِّهها نحو الصفاء والسلام، ويُحبِّب إليهم التآلف والتعاطف.

وحاول الإسـلام محاولةً أخرى كان لها أثرها في دعم السلام العالمي، حيث دعا إلى توحيد الأديان السماوية، والتأليف بينها بأسلوب مبتكر رائع لم تعهده الشرائع السالفة، ولم يهتد إليه الحكماء المصلحون من قبل، وقد شرحته في بحث (الإسـلام دين الوحدة).

مستهدفاً بتلك المحاولة الجادّة علاج النّعرات الهدّامة، والعصبيّات المدمِّرة بين أرباب الأديان المختلفة، الّتي طالما أثارت الحروب الضارية والمجازر الرهيبة.

وتتجلّى طبيعة الإسلام ونزعته السلمية في موقفه من أهل الكـتاب، خاصة لإيمانهم برسالة السماء، وتقاربهم في جوهر العقيدة مع الإسـلام، حيث أهاب بهم، ودعاهم إلى التآلف، وتوحيد الكلمة، ونبذ نوازع الفرقة والتناكر، وذلك بـاعتناق العقيدة الواحدة الّتي دعت إليها الأديان الإلهيـة، ونادى بها الأنبياء والمرسلون عبرَ شرائعهم وأديانهم.

﴿قُلْ يا أهْلَ ٱلكِتابِ تَعالَوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَـنا وبَينَكُمْ ألاّ نَعْبُدَ إلاّ ٱللّهَ، ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، ولا يَتّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً من دُونِ ٱللهِ، فإنّ تَوَلّوا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بأنّا مُسْلِمُون﴾. (آل عمران / ٦٤)

﴿قُولُوا آمَـنّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إلَيْـنا وما أُنْزِلَ إلى إبْراهِيـمَ وإسْماعيلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ والأسْباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُم وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون * فَإن آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوا وإن تَوَلَّوا فإنّما هُمْ في شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسّمِيعُ العَلِيم﴾. (البقرة / ١٣٦ ـ ١٣٧)

وهكذا أباحَ الإسـلام لأتباعه التعامل مع الكتابيِّين في شؤون الحـياة وتبادل العلائق الودِّية بين المسـلمين والذِّمِّيين، حتّى أجاز التزوّج بالكـتابيات، رغبـةً في التعايش السّلمي، وتحقيقاً للسّلام بين الفريقين:

﴿ٱليومَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّباتُ ، وطَعامُ ٱلّذِينَ أُوتُوا ٱلكِتابَ حِلٌّ لَكُم ، وطَعامُكُم حِلٌّ لَهُم ، وٱلمُحْصَناتُ مِنَ ٱلمُؤْمِناتِ ، وٱلمُحْصَناتُ مِنَ ٱلّذينَ أُوتُوا ٱلكِتابَ مِنْ قَبْلِكُم ، إذا آتَيْتُموهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غيرَ مُسافِحِينَ ولا مُتَّخِذِي أَخْدان﴾ .

(المائدة / ٥)

ودعا الإسلام إلى مجاملة أهل الكتاب، والتزام أدب المناظرة معهم وتفادى الخَرْق بهم، والتطاول عليهم.

﴿ولا تُجادِلُوا أَهْلَ ٱلكِتابِ الّا بالّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . (العنكبوت / ٤٦)

وأوصى كذلك بمداراة المسالمين منهم، وبرّهم، والتزام العدل في سياستهم، رغبةً في السلام والوئام.

﴿لا يَنْهاكُمُ ٱللهُ عن ٱلّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُم في ٱلدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيارِكُم أن تَبَرُّوهُم وتُقْسِطُوا إلَيْهِم إنّ ٱللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين﴾ . (الممتحنة / ٨)

ورغم محاولات الإسلام السلمية، وتعاطفه مع الكتابيين، فإنّهم ما فتئوا عن التآمر عليه، والكيد له، والعدوان عليه، عبرَ العصور القديمة والحديثة، والحملات الصليبية الجائرة، وتحدِّيات إسرائيل للأمّة الإسلامية ومقدّساتها أصدق شاهد على ذلك.

ومن هنا، ناشدَ الإسلام أتباعه المضطهَدين بمجابهة البغي والعدوان حرصاً على عزّة المسلمين وكرامتهم، وصيانة للأمن والسلام، حيث إنّ مقاومة الجور وكفاح الباغين من أقوى ضمانات السلام.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدى عَلَيْكُم فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما ٱعْتَدى عَلَيْكُم﴾ . (البقرة / ١٩٤)

وهكذا أمر الإسلام بالكفِّ عن قتال الأعداء والجنوح إلى السلم إذا ما جنحوا إليه ورغبوا فيه:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ﴾ . (الأنفال / ٦١)

والجدير بالذِّكر: «أنّنا نرى القرآن الكريم يدعو تارةً إلى الأمن والسلام، وتارةً يدعو إلى الإستعداد والإعداد والمعاملة بالمثل، وتارةً يدعو إلى القتال الشديد العنيف، وقد يظـنّ ظانّ أنّ ذلك تناقض أو ٱختـلاف، وليس هناك في الواقع تنـاقض ولا اختلاف.

إنّ القرآن الكريم يدعو إلى السلام العام فيقول مثلاً:

﴿يا أيُّها ٱلذِينَ آمَنُوا ٱدخُلوا في السِّلْمِ كافّة﴾ . (البقرة / ٢٠٨)

ويقول: ﴿فاصْفَحْ عَنْهُم وقُل سَلَام﴾ . (الزّخرف / ٨٩)

وإنّما يكون ذلك في الأحوال الصالحة لنشر الإسلام والتبشير به، وبين القوم المستعدِّين لتقبّل دعوة السلام. وأمّا حين يُمْعِنُ الكفر ببغيه والشِّرْك بطغيانه، وحين تتعرّض الحُرُمات للإنتهاك ويُداس وطن الإسلام، فهنا يحرِّض القرآن على القـتال العنيف:

﴿يا أيُّها ٱلنّبيُّ جاهِدِ ٱلكُفّارَ والمُنافِقِينَ وٱغْلُظ عَلَيْهِم﴾ . (التّوبة / ٧٣)

ويقول: ﴿يا أيُّها ٱلنّبيُّ حَرِّض ٱلمُؤْمِنينَ على القِتالِ﴾ . (الأنفال / ٦٥)

فإذا دفع المسلمون عن أنفسهم عار الإحتلال والإستعباد والهوان، كان عليهم بعد ذلك أن يؤمِّنـوا حرِّيتهم، وأن يحفظـوا أمّتهم، وأن يحرسـوا ديارهم، فيُحسنوا الإستعداد للمفاجئات، ويقفوا للطوارئ بالمرصاد، فإذا حدث عدوان من أحد قابلوه بالمثل، وشرعة المماثلة هي أجدى الوسائل لحفظ السلام، ولذلك يقول القرآن:

﴿وقاتِلُوا في سَبيلِ ٱللهِ ٱلّذِينَ يُقاتِلُونَكُم ولا تَعْتَدُوا إنّ ٱللهَ لا يُحِبُّ ٱلمُعْتَدِين﴾ . (البقرة / ١٩٠)

ويقول: ﴿فإن ٱعْتَزَلُوكُم فَلَم يُقاتِلوكُم وألقوا إليكُم السَّـلَمَ فَما جَعَلَ ٱللهُ لَكُم عَلَيْهِم سَبيلاً﴾ . (النِّساء / ٩٠)

ويقول: ﴿وأعِدُّوا لَهُم ما ٱسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ ومِن رِباطِ ٱلخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدوّكُم﴾. (الأنفال / ٦٠)

فأنتَ ترى أنّه قد أمكن التوفيق بين الآيات الكثيرة الواردة في شأن الحرب والسلام، وعرفنا من هذا التوفيق أنّ لكلِّ طائفة من هذه الآيات هدفها ومناسباتها، فلا تعارُضَ بينها وبين الآيات الأخرى»[1].

وطفقَ الإسلام بعد ذلك يعالج مثيرات الفتن، ودوافع الحروب العدوانية علاجاً هادفاً بنّاءً، فأوصدَ بذلك منافذ البغي، وكبح جماح الطّغيان، ووطّد الأمن والسلام العالميين.

فهو يستنكر ويحرِّم جميع صور العدوان ومختلف ألوانه الفردية والإجتماعية والدولية، كعدوان فرد على فرد، أو جماعة على أخرى، أو دولة على دولة، ويعمل على إثارة المشاعر الإنسانية النبيلة في ضمير البشر، وتهذيب نوازعهم العارمة، وغرس القِيَم والمُثُل السامية في وجدانهم تحقيقاً للسّلام الشامل العادل.

﴿إنّ ٱللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ وٱلإحْسانِ وإيتاءِ ذي ٱلقُرْبى ويَنْهى عَن ٱلفَحْشاءِ وٱلمُنْكَر وٱلبَغْي﴾. (النّحل / ٩١)

وكذلك يشجب الإسلام ويستنكر الدوافع الّتي تشيع التناكر بين الأمم وتثير هَوَس الحروب فيهم: كالفوارق العنصرية، والتطاحن الطّبقيّ، والنّعرات القومية والوطنية، وأوصد شرورها بما وضع لها من قِيَم عادلة، ومقاييس أصيلة تردّها إلى واقعها الحقّ. وأعلن «أنّ النّاس من آدم، وآدم من تُراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم».

والإسلام بعد هذا هو صفوة الأديان والشرائع، ومثلها الأعلى والأكمل، الّذي ختمها الله به، وآثره عليها جميعاً:

---

(١) وسائل تقدّم المسلمين، من سلسلة مع الإسلام، للأستاذ الشرباصي، ص ٤٤ ـ ٤٥.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلخاسِرين﴾ .
(آل عمران / ٨٥)

والرسول الأعظم محمّد بن عبدالله ﷺ هو سيّد الرّسل وخاتم الأنبياء، والمبعوث رحمةً للعالمين:

﴿وَما أرْسَلْناكَ إلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمِين﴾ . (الأنبياء / ١٠٧)

﴿وَما أرْسَلْناكَ إلاّ كافّةً للناسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ . (سبأ / ٢٨)

والقرآن الكريم هو الكتاب السماويّ الخالد، الّذي لخّص الله فيه مفاهيم الوحي وٱستكمل به كتب السماء، وجعله قيِّماً عليها، وحَكَماً بينها:

﴿وأنْزَلْنا إلَيْكَ ٱلكِتابَ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلكِتابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ .
(المائدة / ٤٨)

والأمّة الإسلامية بحكم شريعتها الخالدة ومبادئها الإنسانية الرفيعة، وبفضل رسولها الأعظم وقرآنها المجيد، هي الجديرة بزعامة العالم وقيادته الروحية والفكرية وإحلال الحقّ والعدل فيه، ونشر الإسلام في ربوعه وأكنافه، وهي الّتي تستطيع تسوية نوازع الفرقة والنِّزاع بين شعوبه وأفراده:

﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُم أُمّةً وَسَطاً لِتَكُونوا شُهَداءَ على ٱلنّاسِ ويَكُونَ ٱلرّسُولُ عَلَيْكُم شَهيداً﴾ . (البقرة / ١٤٣)

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلمُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بالله﴾ . (آل عمران / ١١٠)

وحينما يتسنّى للمسلمين وتُتاح لهم الفُرَص في أداء رسالتهم العالمية والإضطلاع بواجبهم المقدّس في هداية البشر، ونشر مبادئ الإسلام ومُثُلِهِ العُليا، ففي مقدورهم آنذاك أن ينشروا الحقّ والعدل في أكناف الأرض، ويُطهِّروا أجواءها من أعاصير الخصومة والنِّزاع، ويُحقِّقوا السعادة والسلام لكافّة البشر.

﴿وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلى ٱلّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا في ٱلأرْضِ وَنَجْعَلَهُم أئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلوارِثِين * وَنُمَكِّنَ لَهُم في ٱلأرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامانَ وجُنُودَهُما مِنْهُم ما كانُوا يَحْذَرُون﴾. (القصص/ ٥ ـ ٦)

﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في ٱلأرْضِ كما ٱسْتَخْلَفَ ٱلّذينَ مِن قَبْلِهِم ولِيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُم ٱلّذي ٱرْتَضى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أمْناً يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً ومَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فأولئِكَ هُمُ ٱلفاسِقُون﴾.
(النّور/ ٥٥)

وهنا نُدرِك سرّ تحريض القرآن الكريم للأمّة الإسلامية على أن تعدّ ما وسعها من وسائل القوّة والمنعة الباعثة على تعزيز دينها وهيبة سلطانها لتستطيع أداء رسالتها الإصلاحية العامّة، وتحقيق أهدافها الإنسانية ونشر السلام العالمي، فالأمّة العزلاء محكوم عليها بالهوان والإنحلال، لا تملك الإحتفاظ بكرامتها أو الدفاع عنها، ولا تستطيع تنفيذ خططها البنّاءة:

﴿وأعِدُّوا لَهُم ما ٱسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ ومِن رِباطِ ٱلخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُم﴾. (الأنفال/ ٦٠)

ونستجلي من هذا الواقع بواعث الحروب الإسلامية وأهدافها الإصلاحية النبيلة، فإنّها لم تَستهدف ٱستعباد البشر، وٱستلاب ثرواتهم وخيراتهم، ومدّ السيطرة والنفوذ عليهم، وإنّما كانت تهدف أوّلاً صدّ العدوان عن المسلمين، وحماية الدعوة الإسلامية من كيد الكافرين وحملاتهم الجائرة المتواصلة. وتستهدف ثانياً تحرير العالم من ضَلالات الكفر وخرافاته المقيتة الّتي عاشها قروناً وأجيالاً، وإنقاذه من عبودية الطواغيت البشرية، وجورهم وتحكّمهم في الناس، ولم يعرف تاريخ الحروب أنبل قصداً وأشرف غاية من الحروب الإسلامية:

«فقد قسم الإسلام العالم البشري إلى قسمين فقط: أولياء الله وأولياء الشيطان، وأنصار الحقّ وأنصار الباطل، ولم يُشرِّع حرباً ولا جهاداً إلّا ضدّ أنصار الباطل وأولياء الشّيطان:

﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ في سَبيلِ ٱللهِ وٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ في سَبيلِ ٱلطّاغوتِ، فَقاتِلُوا أولياءَ ٱلشّيْطانِ إنّ كَيْدَ ٱلشّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً﴾. (النِّساء / ٧٦)

وهذه هي الحروب الّتي لم يشهد التاريخ أيمَن منها، وأقلّ إراقة للدِّماء ولا أعوَدَ منها على الإنسانية بالصّلح العام والخير المشترك والسعادة الجمعاء، فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسّرايا على ألف وثمانية عشر نفساً (١٠١٨)، المسلمون منهم (٢٥٩) والكفّار (٧٥٩).

أمّا المصابون في حرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) الكونية، فيبلغ عددهم على الأصحّ (واحداً وعشرين مليون نسمة)، والمصابون في الحرب العالمية الثانية الكُبرى ١٩٣٩م لا يقلّ عن (خمسين مليوناً)، وكانت نفقات الحرب الأولى (٣٧ ألف مليار جنيه)، أمّا نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة (مليون جنيه).

ولقد كانت الحروب الإسلامية حاقنة للدماء، عاصمة للنفوس والأموال، وفاتحة السعادة والغبطة في العالم، أمّا حرب التنافس الحرب الكُبرى، فقد كانت مقدّمة حروب متسلسلة»[1].

---

(١) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسّيِّد علي الحسني الندوي، ص ١٩٣ ـ ١٩٤، بتصرّف وتلخيص.

الإسلام دين ودنيا

يتألّف الإنسان من عنصرين: عنصر الجسد، وعنصر الرّوح، وهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، ومتفاعلان تفاعلاً قوياً، لا ينفكّ أحدهما عن الثاني إلّا بتصرّم العمر ونهاية الحياة.

ولا ريب أنّ سعادة الإنسان وهناءه الجسمي والنفسي منوطان بصحّة هٰذين العنصرين وازدهارهما معاً، لذلك كان محتّماً على كلّ واعٍ لبيب أن يعنى بهما عناية فائقة تضمن صحّتهما وهناءهما المنشود.

ولكلٍّ من الجسم والرّوح أشواقه وحاجاته:

فحاجات الجسم هي: المآرب المادِّية الموجبة لنموّه ونشاطه: كالغذاء والشّراب والكساء والمسكن ونحوها من ضرورات الحياة.

وحاجات الرّوح هي: الأشواق الروحية والنفسية الّتي تتعشّقها الرّوح، وتهفو إليها: كالعلم، والجاه، والحرِّية، والسعادة، وراحة البال، والضمير، وما إلى ذلك من الأماني الروحية. ولا مناصَ من تَلبِيَـةِ هذه الرغائب والمآرب الجسمية والروحية لضمان صحّة الجسم والرّوح وهنائهما المرجوّ.

فحرمان الجسم من أشواقه باعث على الضعف والسقم والإنحلال وحرمان الروح من أمانيها، داعٍ إلى الحيرة والقلق والشقاء، والسعادة الحقّ منوطة بتوفير رغائبهما المادِّية والروحية.

ومن أجمل وأسمى خصائص الإسلام ومبادئه، أنّه الدِّين الأوحد الّذي ٱستطاع

أن يُشرِّع للمسلمين نظاماً خالداً يؤلِّف بين الدِّين والدنيا، ويجمع بين مآرب الجسد وأشواق الروح بأسلوب هادف حكيم، يلائم فطرة الإنسان، ويضمن له السعادة والرخاء.

فهو: لا يستنكر غرائز الإنسان ونوازعه المادِّية، ولا يعمد على قَمْعِها وكبتها، ما يبعث على حرمانه، ومناهضة فطرته ونزوعه إلى الرهبنة، وإنّما هذّب الغرائز وأحسن سياستها وتوجيهها، وأباح لها المُتع النافعة واللّذائذ البريئة في حدود سويّة عادلة لا إفراط فيها ولا تفريط يضرّان بالجسم أو النفس، كما أوضحتُه في الأبحاث السالفة.

فتراهُ يُحبِّذ لذائذ الحياة وطيِّباتها، ويستنكر الحرمان منها والعزوف عنها في مواطن عديدة من كتابه المجيد:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلتي أخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ للّذِينَ آمَنُوا في ٱلحَياةِ ٱلدُّنيا خالِصَةً يَوْمَ ٱلقِيامَة﴾. (الأعراف / ٣٢)

﴿وٱبْتَغِ فيما آتاكَ ٱللهُ الدّارَ الآخِرَةَ، ولاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيا وأحْسِنْ كَما أحْسَنَ ٱللهُ إلَيْكَ﴾. (القصص / ٧٧)

﴿يا أيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم وٱشْكُرُوا ٱللهَ إن كُنْتُم إيّاهُ تَعْبُدُون﴾. (البقرة / ١٧٢)

وقال تعالى مظهراً نعماءه وآلاءه على العباد:

﴿ألَم تَرَوا أنّ ٱللهَ سَخّرَ لَكُم ما في السّمٰواتِ وما في الأرْضِ وأسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَة﴾. (لقمان / ٢٠)

وهكذا جاءت نصوص أهل البيت عليهم السلام تُنسِّق وتُعادل بين أشواق الجسد وأشواق الرّوح.

قال الصّادق عليه السلام: «**لَيسَ مِنّا مَنْ تَرَكَ دُنياهُ لآخِرَتِهِ، ولا آخِرَتَهُ لدُنياه**»[1].

وقال العالم عليه السلام: «**إعمل لدُنْياكَ كأنّكَ تعيشُ أبَداً، واعْمَل لآخِـرَتِكَ كأنّكَ تموتُ غَداً**»[2].

وقال عليّ بن إبراهيم القمي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّموا طَيِّباتِ ما أحلّ اللهُ لَكُم**﴾ (المائدة / ٨٧):

«عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: نزلت هذه الآية الكريمة في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون: فأمّا أمير المؤمنين فحلف أن لا ينام في اللّيل أبداً، وأمّا بلال فإنّه حلف أنّه لا يفطر بالنّهار أبداً، وأمّا عثمان بن مظعون فإنّه حلف أن لا ينكح أبداً، فدخلت إمرأة عثمان على عائشة، وكانت امرأة جميلة، فقالت عائشة: ما لي أراكِ متعطِّلة؟! فقالت: ولِمَن أتزيّن! فوَالله ما قربني زوجي منذ كذا وكذا، فإنّه قد ترهّب ولبس المسوح وزهد في الدنيا.

فلمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أخبرتهُ عائشة بذلك. فخرج فنادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: **ما بالُ أقوامٍ يُحرِّمون على أنفسهم الطّيّبات. ألا إنِّي أنام اللّيل وأنكح وأفطر بالنهار، فمَن رغبَ عن سنّتي فليسَ منِّي ...**»[3].

ودخل أمير المؤمنين (عليّ) عليه السلام على العلاء بن زياد الحارثي يعوده...

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين! أشكو إليكَ أخي عاصم بن زياد.

---

(١) الوافي، ج ١٠، ص ٩، عن الفقيه.

(٢) نفس المصدر.

(٣) البحار، م ١٥، ج ٢، ص ٥٢.

قال: وما له؟

قال: لبسَ العباء وتخلّى عن الدنيا.

قال: عليَّ به. فلمّا جاء قال: يا عِدِيَّ نفسه! لقد استهام بك الخبيث، أما رحمتَ أهلك وولدك!! أترى أنّ الله أحلّ لك الطّيِّبات وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك.

قال: يا أمير المؤمنين! هذا أنتَ في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك.

قال: ويحك! إنِّي لستُ كأنت، إنّ الله تعالى فرضَ على أئمّـة الحقّ أن يُقدِّروا أنفسهم بضَعَفَة الناس، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره»[1].

وروى الشيخ الطّوسي في التهذيب، عن الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله تعالى يحبّ الجمالَ والتجمّل، ويبغض البؤس والتباؤس، فإنّ الله إذا أنعمَ على عبدٍ نعمةً أحبّ أن يُرى عليه أثرها. قيل: كيف ذلك؟ قال: يُنظِّفُ ثوبَهُ، ويُطيِّب ريحه، ويُجصِّص داره، ويكنس أفنيته**»[2].

وروى الكليني بسنده: «أنّ سفيان الثوري دخلَ على أبي عبدالله عليه السلام، فرأى عليه ثياباً بيضاً كأنّها غرقئُ البيض، فقال له: إنّ هذا اللِّباس ليس من لباسك، فقال له: إسمع منِّي، وَعِ ما أقول، فإنّه خير لك عاجلاً وآجلاً، إن أنتَ متَّ على السنّة، ولم تمت على بدعة. أخبرك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في زمان مقفر جدب، فأمّا إذا أقبلت الدنيا فأحقّ الناس بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرت يا ثوري؟! فوَالله إنِّي مع ما ترى ما أتى عليَّ منذ عقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعهُ موضعاً إلاّ وضعته»[3].

---

(١) البحار، ج ٢، من كتاب الإيمان والكفر، ص ٥٣.

(٢) أعيان الشّيعة، ج ٤، القسم الثاني، ص ٣٢.

(٣) نفس المصدر.

وفي الوقت الّذي ألّف الإسلام بين نوازع الإنسان المادّية والروحية، فإنّه لم يُغْفِل تحذيره من سحر الأولى ومفاتنها الباعثة على ٱستعباده وٱسترقاقه لها، وإعراضه عن الآخرة. ومن ثمّ هبوطه عن مستواه الإنساني الرّفيع.

وهذا ما يُفسِّر حضّ الإسلام على الزّهد في الدنيا، والترغيب في الآخرة:

﴿فَأَمّا مَنْ طَغَىٰ * وآثَرَ ٱلحَياةَ ٱلدُّنيا * فإنّ الجَحِيمَ هِيَ ٱلمأوىٰ * وأمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهىٰ ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلهَوىٰ * فإنّ ٱلجنّةَ هِيَ ٱلمأوىٰ﴾. (النّازعات/٣٧ـ٤١)

وهكذا دأب الإسلام على تصعيد طاقات الرّوح وإشباع رغائبها ونوازعها الخيِّرة: فهو يدعو إلى تنوير النفس بمعرفة الله تعالى والعقائد الحقّ، وتثقيفها بالعلم النافع والمعارف المثمرة الّتي تُنير للإنسان سُبل الهداية، وتوجّهه وجهة الخير والرّشاد.

ويحثّ على تزكية النفس وتهذيب سجاياها، وترويضها على طاعة الله عزّ وجلّ، لتكون ينبوعاً فيّاضاً بالفضائل والمكرمات:

﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاها * فألْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها * قَد أفْلَحَ مَن زَكّاها * وقَدْ خابَ مَن دَسّاها﴾. (الشمس/ ٧ ـ ١٠)

وبالرغم من ترغيب الإسلام في تلبية الأشواق الروحية، والتسامي بالنفس إلى آفاق طاعة الله ورضوانه، فإنّه لا يرتضي الإفراط فيها والإنهاك المرهق عليها، ويعتبره من ضروب الهوَس النفسي:

﴿وَرَهْبانيّةً ٱبتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِم إلاّ ٱبتِغاءَ رِضْوانِ ٱلله فما رَعوها حَقَّ رِعايَتِها﴾. (الحديد/ ٣٨)

ولا غرابة أن يشجب الإسلام حياة الرهبنة والرهبان لمناقضتها طبيعته السمحاء، وأريحيّته المثالية، وأهدافه الإصلاحية الوثّابة، فهو يدعو إلى السعي والعمل لتحقيق وسائل العيش ومطالب الحياة الكريمة، وينهى عن الخمول والتعطّل الباعثين على

التخلّف والحرمان وتجميد الطاقات الجسمية والفكرية الّذي تأباه الفِطَرُ السليمةُ والعقولُ النيِّرة.

وقد حمل التاريخ إلينا صوراً من حماقات الرهبان وأساطيرهم المضحكة:

«فحدّثوا عن الراهب (ماكاريوس) أنّه نام ستة أشهر في مستنقع، ليقرص جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد.

وكان الراهب (يوسيبيس) يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح.

وقد عبد الراهب يوحنّا ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة، ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدّة، فإذا تعب جدّاً أسند ظهره إلى صخرة.

وكان بعض الرهبان لايكتسون دائماً، وإنّما يتستّرون بشعرهم الطويل، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السِّباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدّون طهارة الجسم منافية لنقاء الرّوح، ويتأثّمون عن غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطّهارة وأوغلهم في النجاسات والدّنس»(١).

وقد تبرّأ الإسلام من تلك البدع والحماقات، وأعلن ٱستنكاره منها، وأهاب بالمسلمين أن يجمعوا بين محاسن الدِّين ومحاسن الدنيا، ويستمتعوا بملاذ الجسد البريئة، وأشواق الرّوح المعتدلة، كما أوضحتهُ النصوص السالفة.

وبهذا النظام الفذّ، ازدهرت حضارة الإسلام، وبلغ المسلمون قِمّة الكمال والجمال المادِّي، وسعدوا بحياة رضيّة هانئة.

---

(١) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسّيّد الندوي، ص ١٥٨.

٩ ـ الإسلام دين البشريّة الخالد

عرفنا في الأبحاث السالفة كيف تدرّج الله تعالى في هداية البشر وتوجيههم وجهة الخير والصّلاح، فبعث الأنبياء عليهم السلام متعاقبين متوالين، وأرسلهم بشرائعه حسب أطوار البشرية وحاجاتها ومستوياتها الفكرية متدرِّجاً بها من طور بدائي إلى أطوار تكاملية، حتّى بلغت في نهاية أشواطها وآخر مطافها قمّة الكمال والجمال.

وبهذا ندرك سرّ خلود الدِّين الإسلامي، وصلاحيّته لجميع العصور والأجيال، وتفوّقه على سائر الشرائع والأديان، إذ هو حصيلة أطوار تصاعدية متكاملة منذ مولد البشرية حتّى ٱنبثاق فجر الإسلام، وقد لخّص الله فيه محاسن الأديان كلّها، وجمع فيه أسمى النظم والمبادئ ما جعله أكملها دستوراً، وأوسعها شريعة، وأكرمها عطاءً، وأخلدها حياةً، وأكثرها ضماناً بإصلاح البشر وإسعادهم ديناً ودنياً.

وندرك كذلك سرّ ختم النّبوّات والأنبياء بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، فهو الّذي جمع الله فيه فضائل الانبياء عليهم السلام وأمجادهم جميعاً، وفضّله عليهم بما منحه من صنوف الخصائص والمواهب، ما جعله سيِّد الرّسل وخاتم الأنبياء عليهم السلام ورحمة للعالمين:

﴿ما كانَ مُحَمّدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجالِكُم ولكِن رَسُولَ ٱللهِ وخَاتَمَ ٱلنَّبيِّين وكانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليماً﴾. (الأحزاب / ٤٠)

﴿وَما أرْسَلْناكَ إلّا رَحْمَةً لِلْعالَمِين﴾. (الأنبياء / ١٠٧)

﴿وَما أرْسَلْناكَ إلّا كافّةً لِلْناسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾. (سبأ / ٢٨)

وحيث كان الإسلام خاتمة الشرائع والأديان، وكان في القمة السامقة من تصاعد الشرائع وتكاملها، وجبَ أن يكون ديناً عالمياً خالداً للبشرية جمعاء وحافلاً بجميع الخصائص والمبادئ الّتي تؤهِّله لمسايرة أطوار الحياة وتلبية حاجات البشر مدى الدّهر.

فليس الإسلام عقيدة روحية أو نظاماً أخلاقياً فحسب، وإنّما هو دين ودولة، عقيدة وشريعة تُنظِّم حياة البشر، وتستوعب حاجاتهم وشؤونهم في كافّة حقوق الحياة وجوانبها الدينية والمدنية الروحية والمادِّية.

ولو لم يكن الإسلام حافلاً بتلك الخصائص والخِلال، لما ختم الله تعالى به الشرائع، وآثرهُ على الأديان كلّها، وفرضَ على جميع العباد ٱعتناقه وٱتِّباعه.

﴿إنّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ الإسْلام﴾. (آل عمران / ١٩)

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلخاسِرين﴾. (آل عمران / ٨٥)

﴿اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم وأتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإسْلامَ دِيناً﴾. (المائدة / ٣)

وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: **«حلالي حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامي حرامٌ إلى يوم القيامة»**.

والله عزّ وجلّ حينما شرّع الدِّين الإسلامي، كان عالِماً خبيراً بأطوار البشر عبرَ الحياة، وحاجاتهم المتجدِّدة مدى الدّهر، لذلك أكملَ الإسلام وضمّنه جميع مقتضيات التشريع الخالد، ومستلزمات أحكام الحياة الأبدية، في صور من المبادئ العامّة، والأصول الثابتة الملائمة لجميع الأطوار والحاجات، وأناط بالمسلمين تطبيق تلك المبادئ وٱستنباط الأحكام الجزئية منها.

وشرّع لذلك الأحكامَ الخاصّة ذات الموضوعات المعيّنة الّتي لا تُبطل حكمة تشريعها مدى العصور والأحقاب، وقد قام فُقَهاؤُنا الأعاظم بجهود جبّارة مشكورة في ٱستنباط الأحكام الشرعيّة من أدلّتها التفصيلية، وسّعت الفقه الإسلامي، ويسّرت للمسلمين أحكام دينهم في مختلف العصور والبيئات.

لذلك كان من الخطأ الفاضح والتجنّي الصارخ على الاسلام نزوع طائفة من المسلمين إلى غلق باب الاجتهاد، وإلغاء مكاسبه العلمية وعطائه القيّم السخي، ما أوهمَ قصور الشريعة الإسلامية عن حلِّ مشاكل الناس وإمدادهم بالأحكام الشرعية المتجدِّدة، ومن ثمّ ٱتّهمها الجهلاء بالعجز عن مواكبة البشرية الصاعدة، وسدّ حاجاتها عبرَ الحياة، وراحوا يُطالبون سدّها بالنظم الوضعية والدساتير المستوردة المناقضة للإسلام، تقليداً غبياً ومحاكاةً بلهاء للأمم الغربية في فصلها بين الدِّين والدولة، وجعل الدِّين في معزل عن الحياة.

وهذا برهان صارخ على جهل هؤلاء بالإسلام، وعجزهم عن ٱستنباط أحكامه، وعدم التفريق بينه وبين الأديان الأخرى الّتي لا تملك دستوره الكامل ومصادره التشريعية الواسعة، وقدرته على إمداد البشر بصنوف الأحكام الدينية والمدنية، وفي كافّة حقول الحياة ومرافقها الجزئية أو الكلِّية الجليلة أو الحقيرة.

وليس شيءٌ أدلّ على خلود الإسلام، وصلاحيّته لجميع العصور والأجيال، من قدرته على إدارة الدولةِ الإسلامية في عهود حضارتها وٱتِّساع آفاقها وأقطارها، وتعدّد أممها وعناصرها، فإنّه ٱستطاع أن يُدبِّر شؤونها ويُنظِّم حياتها أروع تنظيم دون أن يستمدّ تشريعاً من غيره أو يستورد قانوناً أجنبياً عنه، وإنّما سايرها وأمدّها بالأحكام الشرعية الوافية والمستوعبة لجميع شؤون الحياة. وقد أثبت الواقع التاريخي خلود الإسلام عبرَ الحياة، وأنّه لم يدّع النّبوّة بعده صلّى الله عليه وآله وسلّم مُدّعٍ إلّا تجلّت عليه سمات الشعوذة والدّجل أو أعراض الهستريا والجنون.

ولم يعرض أحد على البشر ـ بعد القرآن ـ كتاباً باسم السماء إلّا وبدَت عليه مظاهر الإفتراء والحماقة والسّخف.

وليس المراد بخلود الدِّين الإسلامي وصلاحيّته لسائر الأزمنة والأمكنة، أنّه يستسيغ البدع والمنكرات المتفشِّية الداعرة: كالقمار والخمر، والرِّبا والرّشا، والتفسّخ الخلقي ونحوها من الأمراض الإجتماعية، وإنّما المُراد بخلوده وصلاحيّته أنّه يلائم المجتمعات السليمة والبيئات النقيّة من سموم التحلّل والفساد، ويعمل على تصعيدها وترقيتها أدبياً ومادّياً ديناً ودنياً.

وكان المسلمون في عهود تمسّكهم بالإسلام، وسيرهم على هداه، أرقى الأمم حضارة، وأسماهم أدباً وأخلاقاً، وأرفعهم جاهاً ومجداً، ولمّا انحرفوا عن نهجه وتخلّوا عنه، أفَلَتْ حضارتهم، وهَوَوْا من علياء مجدهم:

﴿ذلكَ بأنّ ٱللهَ لَم يَكُ مُغيِّراً نِعْمَةً أنْعَمَها على قَوْمٍ حتّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهِم﴾.

(الأنفال / ٥٣)

ولا يستطيع المسلمون أن يستردّوا أمجادهم، وينقذوا كرامتهم من هوان النّكسات والهزائم إلّا بتجديد الولاء للإسلام وتطبيق مبادئه الخالدة وٱتّباع شريعته الحافلة بكلِّ وسائل الرّقيّ والإزدهار، والمحقِّقة لجميع الأماني والآمال. وقد بهرت خصائص الإسلام، وجلالة تشريعاته وملائمتها لأطوار الحياة الصاعدة بعض المنصفين من كتّاب الغرب، وطفقوا يُمجِّدونها ويثنون عليها الثّناء العاطر، وإليك طرفاً من شهاداتهم:

قال الباحث الأمريكي (هوكنج) أستاذ الفلسفة بجامعة (هارفرد) في كتابه (روح السياسة العالمية):

«إنّ في نظام الإسلام كلّ استعداد داخلي للنموّ، لا بل إنّه من حيث قابليّته للتطوّر يَفضُل كثيراً من النّظم المماثلة، والصعوبة لم تكن في ٱنعدام وسائل النموّ والنهضة

في الشرع الإسلامي، وإنّما في انعدام الميل إلى ٱستخدامها. وإنِّي أشعر بكوني على حقّ حين أقدِّر الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللّازمة للنهوض».

وقال الدكتور (أنريكوا أنسابا ثوحين):

«إنّ الإسلام يتمشّى مع مقتضيات الحاجات الظاهرة، فهو يستطيع أن يتطوّر دون أن يتضاءل في خلال القرون، ويبقى محتفظاً بكامل ماله من قوّة الحياة والمرونة... فهو الّذي أعطى العالم أرسخ الشرائع ثباتاً وشريعةً تفوق في كثير من تفاصيلها الشرائع الأوروبية».

وقال العلّامة (سافيتلانا):

«إنّ في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدنيّ إن لم تقل أنّ فيه ما يكفي للإنسانية كلّها»[(١)].

وقد أصدر مؤتمر لاهاي للقانون الدولي القرار التالي:

«إنّ الشريعة الإسلامية حيّة مرنة، تصلح للتطوّر مع الزّمن، وإنّ اللّغة العربية قد دخلت من الآن فصاعداً في عِداد اللّغات الّتي يجب أن تُسمع في المؤتمر»[(٢)].

وقال الأستاذ (شيرل) عميد كلِّية الحقوق بجامعة فينّا:

«إنّ البشرية لتفخر بانتساب رجل كبير كمحمّد إليها، إذ أنّه رغم أمِّيّته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحنُ الأوروبيون أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قِمّتِهِ بعد ألفي عام»[(٣)].

---

(١) روح الدِّين الإسلامي، لعفيف طبارة، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) الإسلام والشيوعية، لعبدالمنعم النمر.

(٣) قالوا في الإسلام، للشيخ حسين الظالمي، ص ٥٥.

وقال الأستاذ (أدمونت بورك):

«القانون المحمّـدي قانون ضابط للجميع، نُسِجَ بأحكم نظامٍ حقوقي، وأعظم نظام علمي، وأسمى تشريع منوّر، لم يسبق قطّ للعالم إيجاد مثله»[1].

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٣٣.

سرعة انتشار الإسلام

ولأجل تلك المبادئ الإسلامية الخالدة والمزايا الفريدة، انتشر الإسلام بسرعة مدهشة في أمدٍ قصير، ومضى يسير مسير الشمس مشعّاً بالنور والهدى، فيّاضاً بالحقِّ والعدل والسلام، حتّى بلغ سلطانه الصّين شرقاً وإسبانيا غرباً.

وبالرغم من تألُّبِ قوى الكفر والبغي على الاسلام، وتصميمها على محقه وإطفاء نوره، فقد ظلّ شامخاً وهّاجاً، وقد عاصرته أديان ذات سلطان قاهر وثراء ضخم ودعاة كثيرون، أوقفوا حياتهم على التبشير بها والدعوة إليها، ترغيباً وترهيباً، فلم تنتصر وتنتشر انتصار الاسلام وانتشاره، رغم بساطته وخلوّه من تلك الوسائل التبشيرية، وما ذاك إلّا لسماحته ومثاليّته المحبّبة إلى الناس، فتلقّفوه برغبة ملحّة وشغف بالغ، وطفقوا ينهلون من معينه، ويستلهمون مثله العُليا ومفاهيمه المعطاءة.

أثر الإسلام في حياة الأمم:

لقد عكسَ الإسلام على الأمم العالمية مآثره المعطاءة، وكان له الأثر البالغ في توعيتها ورفعها إلى معارج الرّقي الفكري والمادِّي، واستنارت بضوئه وهداه كلٌّ حسب ٱستجابتها له وٱنتفاعها بِخَيْرِهِ الفيّاض، ولا يستطيع الباحث أن يعرف أبعاد فضل الإسلام وآثاره على الأمم إلّا بمعرفة حالاتها وأوضاعها في فجر الإسلام، واستعراض ذلك يتطلّب بحثاً مسهباً، بيدَ أنِّي أشير إليها بما لخّصه المؤرِّخون والباحثون:

قال الأستاذ (دينسون) في كتابه (الأفكار الأساسية للتمدّن):

«في القرنين الخامس والسادس، كان العالم المتمدين على شفا جرفٍ هاوٍ من الفوضى، لأنّ العقائد الّتي كانت تعين على إقامة الحضارة قد ٱنهارت ولم يك ثَمّ ما يعتدّ به ممّا يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أنّ المدنيّة الكُبرى الّتي تكلّف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكّك والإنحلال، وأنّ البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجيّة، إذ القبائل تتحارَب وتتشاجَر، لا قانون ولا نظام، أمّا النظم الّتي خلّفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والإنهيار بدلاً من الإتّحاد والنظام، وكانت المدنيّة كشجرة ضخمة متفرِّعة امتدّ ظلّها إلى العالم كلّه واقفة تترنّح، وقد تسرّب إليها العطب حتّى اللّباب»[1].

«كانت الجاهلية العالمية الّتي سبقت الإسلامية العالمية ليلاً موصول الظلام، مبسوط الهول على الأرض...

ولم تكن الرّوم في القرنين السادس والسابع للميلاد إلّا دولة منحلّة، ألحّ عليها سرف الغنى، وترف العيش، وفساد العقيدة، وتباين المذاهب، حتّى ٱنتهى أمر دينها في بيزنطة إلى خلاف مستحكم في طبيعة المسيح، وجدل متحكِّم في صفات هذه الطبيعة.

وآلَ أمر دنياها في روما إلى ٱستغراق في شهوات الحسّ، ونزوات النفس، كفكفت من سلطان العقل، وطأطأتْ من إشراق الرّوح، وكان من هذا الدِّين المسيخ، ومن هذه الدنيا الداعرة أن قامَ في شطْرَي الإمبراطورية الغاربة نظام من الحكم السّفيه الفاجر، أرهق الأمّة بالضّرائب، وأفسد الحكومة بالرّشا، ولوّث المجتمع بالرّذائل، وأشعر النّاس بذلّة الرِّق، فعظّموا القادة، وألّهوا القياصرة، حتّى ٱنحدر

(١) مقارنة الأديان، للدكتور أحمد شلبي، ج ٣، ص ٣٣.

السّيِّد والمسود، والعابد والمعبود إلى هوّة لا قرار لها إلّا العدم.

كذلك لم تكن الفرس في ذلك العصر نفسه إلّا حطام دولة، وغثاء جيل مُنيت بما مُنيت به الرّوم من تحلّل العقـيدة، وتعفّن الأخلاق، وسطوة الشّهوات، وتفاوت الطّبقات، وطغيان الملوك، وبطلان الدِّين، وأربت عليها بنشوء المذاهب المعوجّة فيها، وغلبه الميول الشاذّة عليها، فمن «رمزيّة» زرادشت الّذي مهّد للمجوسية الحمقاء، إلى «عدميّة» ماني الّذي حرّم الزّواج استعجالاً للفناء، إلى «وجوديّة» مزدك الّذي جعل الناس شركة في الأموال والنساء، إلى حال من الإجتماع العفن والنظام البالي لا يعيش فيهما حرّ، ولا يدوم عليهما ملك.

وكان الناس من وراء هاتين الدولتين يعيشون على حالٍ أسوأ من هذه الحال، وفي دركٍ أسفل من هذا الدّرك، فالعرب واليهود قد وصفهم الكتاب العزيز فيما لا بيان بعده، والهنود وأهل الصّـين كانوا من البـوذيّة والبرهميّة في وثنيّة إباحيّة لا حصرَ لأصنامها، ولا حدّ لأوهامها، ولا علاج لما ٱبتلتهم به من أدواء خُلقية وٱجتماعية، بعضها يبيد عالماً بأسره.

أمّا الشـعوب الأوروبيـة في الشمال والغرب، فكانت لا تزال خارج الوجـود المتمدِّن، لا تشعر بأحد، ولا يشعر بها أحد»[1].

من هذا الوصف اللّامح، نُدرِك مبلغ تسيّب الأمم العالمية وٱنحطاطها وتوحّشها آنذاك. ولّما أشرق الإسـلام وأرسل الله تعالى محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم رحمةً للعالمـين، كانت رسالته عهداً زاهراً في تاريخ البشر، وفصلاً جديداً ممتعاً من فصول الحياة غيّر مجرى التاريخ، وأحدث تطوّراً مدهشاً في العقول والأفكار والمبادئ العالمية المختلفة، ولمست الإنسانية في دينه أنّه الدِّين المثالي السّمح الّذي لخّص فضائل الأديان، وتخلّص من

---

(١) كتاب دفاع عن العقيدة والشريعة، للأستاذ محمّد الغزالي، ص١٩٣ـ١٩٤، باختصار.

آصارها الشاقّة المرهقة.

وانبهرت الأمم والشعوب بخصائصه ومآثره، وتأثّرت بمفاهيمه عن قصد وغير قصد، وانعكست على عقائدها وعلومها وآدابها، وكانت محفِّزاً على الثورات التحرّرية والحركات الإصلاحية في العالم.

وإليكَ مجملاً من آثار الإسلام في حياة الأمم الفكرية والرّوحية، حسب العناوين التالية:

أ ـ العقيدة:

لقد أعلن الإسلام توحيد الله عزّ وجلّ، واتِّصافه بجميع صفات الكمال، وتنزّهه على سائر النقائص، وعن المشابهة لكافّة المخلوقات، وعرض ذلك بأسلوب علميّ مشرق يملأ النفس ويقنع الوجدان.

«وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول؛ لأنّها تشمل الأمم الإنسانية جميعاً، كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير...

﴿وما أَرْسَلْناكَ إلاّ كافّةً لِلْناسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾. (سبأ / ٢٨)

بهذه العقيدة الشاملة، غلب المسلمون أقوياء الأرض، ثمّ صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم..

هذه العقيدة الشاملة هي الّتي أفردت الإسلام بمزية لم تُعهَد في دينٍ آخر من الأديان الكتابية، فإنّ تاريخ التحوّل إلى هذه الأديان لم يُسجِّل لنا قطّ تحوّلاً اجتماعياً إليها من دين كتابي آخر بمحض الرِّضا والإقتناع، إذ كان المتحوِّلون إلى المسيحية أو إلى اليهودية قبلها في أوّل نشأتها أمماً وثنيّة على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد.. ولم يحدث قطّ في أمّةٍ من الأمم ذات الحضارة العريقة أنّها

تركت عقيدتها لتتحوّل إلى دين كتابي غير الإسلام، وإنّما تفرّد الإسلام بهذه المزيّة دون سائر العقائد الكتابيّة، فتحوّلت إليه الشعوب فيما بين النهرين، وفي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وفارس، وتحوّل إليه أناس من أهل الأندلس وصقلية، كما تحوّل إليه أُناس من أهل النّوبة الّذي داموا على المسيحية أكثر من مائتي سنة، ورغّبهم فيها جميعاً ذلك الشمول الّذي يجمع النفس والضمير ويعمّ بني الإنسان على تعدّد الأقوام والأوطان، ويحقِّق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية، فيما امتازت به من عقائد الشرائع، وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع...

ومن ثمّ كانت هذه العقيدة الإلهٰية في الاسلام مصحِّحة متمِّمة لكلِّ عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات أو في مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبيّة...

والنّبوّة الإسلامية جاءت مصحِّحة متمِّمة لكلِّ ما تقدّمها من فكرة عن النّبوّة كما كانت عقيدة الإسلام الإلهٰية مصحِّحة متمِّمة لكلِّ ما تقدّمها من عقائد بني الإنسان في الإلٰه»(١).

وهكذا أعلن الإسلام حرِّية الإنسان، واستقلاله في عبادة الله تعالى والتزلّف إليه وٱستماحة العفو والغفران منه، يوم كانت الأديان تحجر على أتباعها ذلك، وتحول بينهم وبين التصرّف في كثير من شؤونهم الدينية أو الدنيوية إلّا بإشراف الكهنة وقيد وصايتهم.

ومنذ أن أعلن الإسلام مفاهيم العقيدة، أهان الشِّرْك والمشركين وأذلّهم إذلالاً، وسرت حقائقه إلى الأديان الأخرى، وغدت تؤوِّل ما فيها من صور الوثنيّة والشِّرْك إلى مشابهة التوحيد الإسلامي، وتنزع إلى التحرّر من وصاية الكهنة وحجرها المقيت، وظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام. من ذلك أنّه في القرنين

---

(١) حقائق الإسلام، للأستاذ عبّاس محمود العقّاد، بتصرّف وٱختصار.

الثاني والثالث الهجريين ظهر في (سبتمانيا)[1] حركة تدعو إلى إنكار الإعتراف أمام القُسَس، وأن ليس للقسِّيس حقّ في ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ٱرتكب من إثم...

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية؛ فقد أصدرَ الإمبراطور الروماني (ليو) الثالث، أمراً سنة ٧٢٦م، يُحرِّم فيه تقديس الصور والتماثيل. وأمراً آخر سنة ٧٣٠م، يعدّ الإتيان بهذا وثنيّة، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع..

وكذلك وُجِدَت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانيّة وأنكرت ألوهيّة المسيح عليه السلام.

ويمكن لَمَن يطالع تاريخ أوروبا الديني وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمّس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفي السائد»[2].

ب ـ العلم:

وهكذا كان المسلمون في عصورهم الذهبية، روّاد العلم، وقادة الفكر، وأساتذة العالم عليهم تتلمذَ الغرب، ومنهم ٱقتبس علومه ومعارفه، حيث كان للإسلام آثاره ومعطياته في نشر العلوم والمعارف في أرجاء الأرض، كما شهد بذلك المنصفون من كتّاب الغرب وأعلامه.

قال العلّامة (غوستاف لوبون):

«ظلّت ترجمات كتب العرب، ولا سيّما الكتب العلمية، المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول أنّ تأثير

---

(١) مقاطعة فرنسية في جنوب غرب فرنسا على البحر الأبيض المتوسط.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١١٩ ـ ١٢١.

العرب في بعض العلوم كعلم الطِّب دامَ إلى أيامنا، فقد شُرحت كتب ابن سينا في مونبلييه في أواخر القرن الماضي...»[1].

وقال (بريفولت) مؤلِّف كتاب (بناء الإنسانية) في معرض كلامه عن الحضارة العربية:

«إنّه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الإزدهار الأوروبي إلّا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثّرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة»[2].

وقد عرَضتُ طرفاً من هذه الشهادات في الموضوع السالف (الإسلام دين العلم).

ج ـ الأخلاق والآداب:

وكذلك كان للمسلمين أثر بالِغ في تقويم أخلاق الأمم وسلوكها، فقد ٱستطلع الغرب أخلاق المسلمين وآدابهم في الحروب الصليبية أو في الأندلس، فأُعجِبوا بها وأكبروها، ورأوها أخلاقاً مثالية حَريّة بالتأسِّي والإقتداء.

رأوا المسلمين أمّة متآزرة متعاطفة تتجاوب بمشاعر الإخاء وأحاسيس الرّحمة والإشفاق، ورأوهم مثلاً عالياً في الصِّدق والأمانة والإخلاص ورعاية العهود والمواثيق وأداء الحقوق والواجبات، ورأوهم إذا ما حانَ وقت الصّلاة هرعوا إلى المساجد لأداء فرضها، تاركين متاجرهم مفتوحة من غير حارس آمنين عليها من سطوة السُّرّاق واللّصوص.

راقتهم تلك الفضائل وتعشّقوها وتأثّروا بها، وانعكست على أخلاقهم

---

(١) من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي، ص ٣٩.

(٢) هذا الدِّين، لسيِّد قطب.

وسلوكهم من ذلك نزوعهم إلى توقير المـرأة ورعاية حقـوقها بعد أن كانت مُهانـة مبخوسة الحقّ عندهم، وثورتهم على الإستبداد والطّغيان الّذين عانوا مرارتها قروناً وأجيالاً، ما حفّزهم على الثورة الفرنسـية والمناداة بحقوق الإنسان ومبادئ الحرِّية والمساواة والعدل الّتي حقّقها الإسلام قبلها بإثني عشر قرناً.

يقول (المستر بارثلمي سنت هيلر):

«لقد أُصلحت مفاسد أمرائنا وأشرافنا في القرون الوسطى بمعاشرة المسلمين وتقليدهم، وٱقتبس أسلافنا من المسلمين الآداب الجنسية والأخلاق والصِّفات المقبولة والسّجايا المحمودة»(١).

وقال (غوستاف لوبون):

«كانت أخلاق العـرب في أدوار الإسـلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ـ ولا سيّما الأمم النصرانية ـ وكان عدلهم وٱعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة، ووفاؤهم بعهودهم، ونُبل طبائعهم، ممّا يستوقف النّظر، ويناقض سلوك الأمم الأخرى ولا سيّما الأمم الأوروبية أيام الحروب الصليبية»(٢).

هذه نظرات خاطفة في أثر الإسلام في حياة الأمم الدينية والعلمية والأخلاقية، عدا آثاره العديدة الأخرى في مجالات اللّغة والتشريع والآداب الّتي يطول عرضها في هذا المجال.

ولكن المسـلمين واأسـفاه، بعد أن كانوا قادة الأمـم وروّادها إلى الفضـائل والمكرمات، قد أضاعوا مآثرهم بانحرافهم عن خطِّ الإسـلام ونبذهم مُثُلَه وآدابه، ما صيّرهم في حالٍ زَريٍّ من التسيّب والتخلّف والإنحلال.

---

(١) قالوا في الإسلام، للشيخ حسين الظالمي، ص ١٦١.

(٢) الإسلام بين الإنصاف والجحود، للأستاذ محمّد عبدالغني حسن.

أسباب تخلّف المسلمين

لقد ٱنتابت العـالم الإسلامي صنوف الكوارث والنوائب الّتي أدّت إلى تخلّف المسلمين وٱنهيار أمجادهم وأفول حضارتهم، وغدت الأمم الإسلامية دولاً وشعوباً تعاني ضروب المآسي والأرزاء من جرّاء تلك الكوارث.

وبالرغم من تخلّف المسـلمين وضعف معنويّاتهم، فإنّ الدِّين الإسـلامي بعدُ لا يزال محتفظاً بشموخه وعزّته، وقدرته على إنهاض أتباعـه، وٱسـترداد أمجادهم ومعنـويّاتهم، وإمدادهم بأسمى وأكمل النظـم والمبادئ الكفيلة بإسـعادهم وإشاعة السلام والرخاء في حياتهم.

ومن الثابت أنّ المسـلمين لم يتخلّفوا ويخسروا أمجادهم إلّا بعد انحرافهم عن خطّ الإسلام وإعراضهم عن مُثِله ومفاهيمه.

وإليكَ عرضاً مجملاً لأبرز الأسباب والعوامل الّتي أدّت إلى تخلّف المسـلمين وٱنتكاستهم المريعة:

أ ـ المنافقون:

لقد تظاهرت زمرة من وجهاء العرب باعتناق الإسلام، ودخلوا فيه طمعاً في نواله أو رهبة من سلطانه، وٱحتلّ هؤلاء بشهرتهم وجاههم مكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي، وكانوا في واقعهم أعداء الإسلام وخصومه الألدّاء، لا يفتأونَ عن الكيد له والتآمر عليه ما وسعهم ذلك.

وقد فضح القرآن الكريم نواياهم الماكرة الغادرة في مواطن عديدة وآيات جمة، حتّى نزلت سورة كاملة فيهم، ولم يستطع هؤلاء أن ينالوا ثأرهم من الإسلام في عهد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، لقيادته الحكيمة، وسلطانه الروحي المنيع، وكانوا يتحيّنون الفرص لمحق الإسلام والإجهاز عليه.

ولمّا توفّي النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والتحق بالفردوس الأعلى، طفقوا يعيثون في الإسلام فساداً، ويسعون جهدهم في وأد رسالته، وإطفاء نوره الوضّاء، ما سبّب بلبلة المسلمين وتخلّفهم، وانهيار معنويّاتهم:

﴿وما مُحَمّدٌ إلّا رَسُولٌ قد خَلَت مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُل، أفإن ماتَ أو قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُم عَلى أعقابِكُم ومَن يَنْقَلِب عَلى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللهَ شَيْئاً﴾. (آل عمران / ١٤٤)

وحسب القارئ أن يستطلع هذا الواقع من أحداث التاريخ الإسلامي المحزنة، الّتي كادت أن تُطفئ شعلة الإسلام، لولا عناية الله تعالى به ورعايته له بالنصر والتأييد:

﴿يُرِيدُونَ أن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بأفواهِهِم ويأبى ٱللهُ إلّا أن يُتِمّ نُورَهُ ولو كَرِهَ ٱلكافِرُون﴾. (التّوبة / ٣٢)

ب ـ إنحراف المسلمين عن قادتهم الأكفاء:

وكان من أقوى أسباب تخلّف المسلمين، وإخفاقهم انحرافهم عن الأئمة الهُداة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام، الّذين استخلفهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عليهم، وأعلن للملأ الإسلامي:

أنّ الهدى والسعادة في اتّباعهم، وأنّ الضلال والشقاء في مجافاتهم والإنحراف عنهم، لاستكمالهم شرائط الخلافة الحقّ، وتحلّيهم بجميع الفضائل والكفاءات لقيادة

المسلمين، وسياستهم سياسة إسلامية عادلة.

من أجل ذلك، حثّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على موالاتهم والإقتداء بهم في مواطن عديدة وأحاديث روتها صحاح المذاهب الإسلامية[1].

من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنّي تركتُ فيكُم ما أن تمسّكتُم به لن تضلّوا بعدي: كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»**.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنّما مثل أهل بَيتي فيكم كمثلِ سفينة نوح، مَنْ ركبها نجا، ومَنْ تخلّف عنها غرق. وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل، مَنْ دخلهُ غُفِرَ له»**.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنْ أحبّ أن يحيا حياتي ويموت ميتتي، ويدخل الجنّة التي وعدني ربِّي وهي جنّة الخُلد، فليتولّ عليّاً وذرِّيّته من بعده، فإنّهم لن يُخرجوكم من باب هدى، ولن يُدخلوكم باب ضلالة»**.

وممّا يحزّ في النفس ويدعو إلى الأسى والأسف البالغين، أن تولّى الخلافة الإسلامية وقيادة المسلمين أشخاصٌ لا يفقهون واقع الإسلام، ولا يتحلّون بسماته، ولا يعنون بشريعته، ولم يكن لهم هدف في الحياة إلّا التحكّم في المسلمين وابتزاز أموالهم باسم الإسلام، وصرفها على اللّهو الداعر والمجون الآثم والدعاية المزيّفة، كما صوّر ذلك تاريخ المتحلّلين من خلفاء الأمويين والعبّاسيين، الّذين سبّبوا نكبة الإسلام وفجيعة المسلمين وانحطاطهم.

---

(١) مَنْ شاء الإطّلاع على نظائر هذه الأحاديث ومصادرها، فلينظر كتاب المراجعات للمرحوم الإمام شرف الدّين.

وحسب الباحث أن يستقرئ سيرة أولئك الخلفاء المتحلّلين ليُدرك مبلغ غيِّهم وٱستهتارهم بقِيَم الدِّين والأخلاق، وٱستهانتهم بدماء المسلمين وأموالهم وكراماتهم!!

فكَم ٱجترح معاوية بن أبي سفيان إثماً فاضحاً، وٱقترف جناية نكراء!! فهو الّذي أعلن سبّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وجعله فرضاً محتماً على المنابر الإسلامية، وغدا سُنّة مبتدعة زهاء أربعين سنة، حتّى رفعه عمر بن عبدالعزيز.(١)

وهو الّذي قتل سيِّد شباب أهل الجنّة الحسن بن عليّ سُمّاً، وطفقَ بعد ذلك يتعقّب عيون الصّحابة والتابعين من أصحاب الإمام عليه السلام ويبيدهم قتلاً وتدميراً: كمالك الأشتر، وحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق وأضرابهم من أعلام الإسلام، وشهداء العقيدة والمبدأ.(٢)

وهو الّذي سلّط ٱبنه ٱلداعر ٱلمتهتِّك يزيد على رقاب المسلمين قسراً وٱعتباطاً، فعاثَ فساداً في الدِّين، وسوّد صحائف التاريخ الإسلامي، وأذلّ المسلمين خلال سنوات سلطانه الجائر إذلالاً فظيعاً: قتلَ الحسين عليه السلام في السنة الأولى، وهدمَ الكعبة المعظّمة في الثانية، وأباحَ المدينة المنوّرة عاصمة الإسلام ومثوى الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم لجيشه المسعور في الثالثة.

وتمادى الوليد بن يزيد في غيِّه ومجونه، حتّى عزم أن يتّخذ لشرابه قبةً فوق الكعبة المعظّمة ٱستخفافاً بقداستها، وٱستهتاراً بقِيَم الدِّين والأخلاق، فأهلكه الله تعالى على أيدي جماعة من أهل بيته.

وهكذا درجَ الخلفاء الأمويون ـ خلا عمر بن عبدالعزيز ـ على التحلّل من قِيَم

---

(١) راجع كتاب الغدير، للمرحوم الحجّة الأميني، ج ١٠، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٦.

(٢) نفس المصدر، ج ١١، ص ١٦ ـ ٧٠.

الإسلام، والإستخفاف بشريعته الغـرّاء، حتّى ٱنهار كيانهم، ولاقوا مصير طغيانهم المحتوم.

ولم يكن خلفاء بني العبّاس أقلّ تحلّلاً وخلاعة من بني أميّـة، فما ٱستتبّ لهم المُلك والسـلطان، حتّى انهمكوا بالدّعارة والتهـتّك، فعاقروا الخمـر وهاموا بالقيان والمغنِّـين، وأسرفوا في حـياة البذخ والبـطر، وٱستهانوا بأرواح المسـلمين وأموالهم وكراماتهم، ممّا أشـاع الجـور والإضطهاد والتحلّل والفسـاد في المجتمع الإسـلامي، ومن ثمّ ٱستطاع أعداء الإسلام تدمير الحضارة الإسلامية وسحق كرامة المسـلمين ومقدِّراتهم.

ومن هنا نستجلي بواعث الفتوحات الإسلامية في عصور الأمويين والعبّاسيين، فإنّها ـ وإن إتّسمت بسمات الإسـلام، وتحلّت بروحه الوثّابة ـ ناجمة في الغالب عن حبِّ التوسّع في المُلك والرغبة في ٱمتداد السلطان، وكان الإسلام ذريعة إلى تحقيقها وكسب مغانمها وأمجادها.

ج ـ الأرزاء والنّكبات:

وهكذا ٱستهدفت المسـلمين صنوف الأرزاء والخطوب الّتي زعزعت كيانهم، وطوّحت بأمجادهم، وإليك أهمّها:

١ ـ الحروب الصّليبية:

تلك الحروب الضـارية الّتي شنّتها الدول الصّليبـية الحاقدة المسـعورة، والّتي كانت تستهدف استبعاد المسلمين، والقضاء على الإسلام، وسحق الحضارة الإسلامية، وٱستغرقت هذه الحروب خمسـين سـنة، كانت سجالاً بين المسـلمين والصليبـيين، اقترف الصليبيـون فيها أبشـع جرائم الفـتك والتدمير، ما أدّى إلى وهن المسـلمين وزعزعة كيانهم وأثار ٱستنكار الغربيين ونقدهم للصّليبيين.

٢ ـ غزو التـتار:

وكان هذا الغـزو من أعظم الفجائع والرّزايا الّتي أصابت المسـلمين، وسبّبت انهيارهم وضعف معنوياتهم، فقد زحف التـتار بِجَيشِهم المغولي على بغـداد، مُصَمِّمِينَ على إبادة المسلمين وتدمير الحضارة الإسلامية.

يقول (الخميسي) في تاريخه:

«في سنة ستّ وخمسين وستمائة، وصل الطاغية هولاكو حفيد جنكيزخان إلى بغداد بجيوشه... ودخل التتار المدينة واْقتسموها، وبقيَ السيف يعمل أربعة وثلاثين يوماً، وقلّ مَنْ سلم، فبلغ القتلى ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة (١٫٨٠٠٫٠٠٠)... ثمّ أُحرِقت بغداد بعد أن قُتِلَ أكثر أهلها، ثمّ عبرَ هولاكو ورجاله الفرات لمحاصرة حلب، فلمّا دخلوها وضعوا السّيف يومين في رقاب أهلها حتّى أبادوا الخلق.

ورث التـتار المسـلمين، وخلفـوهم في الحكومـة، وناهيكَ به بؤساً وشـقاءً للمسلمين أن تتولّى أمورهم أمّة جاهلة وحشيّة ليس لها علم ولا دين ولا حضـارة ولا ثقافـة، لقد أطبقَ الظّلام أو كاد على العـالم الإسـلامي، وطمع فيه الطامعـون، واْنحلّت وحدته، وتفكّكت عُراه، وذلّ شأنه بعد عزّه»[١].

٣ ـ الحكم العثماني:

وجاء بعـد هذا وذاك، دور الحكومة العثمانيـة، وسـيطرتها على أكثر الممالك الإسلامية، وكان العثمانيـون في بدء نهضتهم وفتوحاتهم أمّة حيّة واسعة السـلطان، مرهوبة الجانب، مشهورة بالروح الإسلامية، والسِّيادة الدينية والمدنية، وظلّوا كذلك ردحاً طويلاً من الزّمـن، حتّى شـاعت فيهم عوامل الوهن والإنحـلال، وطغت على

---

(١) المجتمع الإسلامي، للدكتور أحمد شلبي، ص ١٧٠.

ملوكهم نوازع الإستبداد والجور وفساد الأخلاق، وأخلد الشعب التركي إلى الميوعة والتّرف، ما طوّح بالحكم العثماني، وقوّض سلطانه الواسع.

وقد عانت الشعوب الإسلامية في ظلال سطوته الغاشمة مهانة الإستعباد ومرارة الفاقة والحرمان، وعاشت في جمود فكري، وخواء علمي وتخلّف حضاري، ما أوجب وَهَنها وتخلّفها قروناً وأجيالاً.

٤ ـ الإستعمار الكافر:

ثمّ حدثت الرزيّة العُظمى على المسلمين بسيطرة الإستعمار الكافر على الممالك الإسلامية وامتداد سلطانه الجائر عليها، وطفقَ يُجنِّد كلّ طاقاته وقواه للقضاء على الإسلام، ووأد الشعور الإسلامي وتمييع المسلمين، مندفعاً بأحقاده الدينية وعدائه الصّليبي الموروث الّذي أعربَ عنه اللّورد (أللنبي) بقولته المتشفِّية عند ٱحتلاله بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى: «اليوم فقط ٱنتهت الحروب الصّليبية»!

وقد ٱنتكس المسلمون في ظلِّ هذا الإستعمار، وسياسته العدائية الماكرة أبشع نكسة في تاريخ الإسلام، فحيثما امتدّ نفوذه غرس مبادئه المادِّية، ومفاهيمه التحليلية الداعرة، وعمل على تجريد المسلمين من دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وأشاع في أوساطهم عوامل التسيّب والفساد، ليستعمرهم جسداً وفكراً مادِّياً ومعنوياً، وٱستطاع بمناهجه التعليمية وتخطيطه الإستعماري الماكر أن يُخرِّج أجيالاً من شباب المسلمين يحملون أفكاره السامّة، وينادون بشعاراته المزيّفة، ويحاكونه محاكاة بلهاء، ما صيّر الكثير منهم أعداء الإسلام وروّاد ضلال للمسلمين لا يَفتأون عن تضليلهم وتسميم أفكارهم بصنوف الشُّبه والأراجيف، كزعمهم أنّ التمسّك بالإسلام من عوامل الرجعية والتخلّف، والتحلّي بالأخلاق الإسلامية من مظاهر الجمود والغباء، وأنّ الحضارة الحقّ والمدنيّة السعيدة لا تُنال إلّا بسحق تلك المفاهيم والتحلّل التامّ منها!!

ممّا سبّب تخلّف المسلمين وتميّعهم دينياً وأخلاقياً واجتماعياً، ومعاناتهم ضروب المذلّة والهوان، حتّى رُزئوا بمأساة فلسطين، واعتداء الصّهاينة على كراماتهم وأوطانهم.

صمود الإسلام:

وبالرغم من تلك الأرزاء والخطوب الّتي زعزعت كيان المسلمين وطوّحت بأمجادهم، فإنّ الإسلام لا يزال صامداً شامخاً فيّاضاً بألوان العطاء، وضامناً لأتباعه الرُّقِيَّ والإزدهار، وهذا من آيات عظمته وخلوده.

وممّا يبعث على التفاؤل، أنّ الواعين من المسلمين بدأوا يُدركون مآسي الحضارة المادِّية شرقيّها وغربيّها، وإفلاسها من قِيَم الرّوح والأخلاق، وعجزها عن تحقيق آمال البشر وإحلال السلام والطمأنينة في حياتهم، رغم تيسيراتها الحضارية، ووسائلها الترفيهية، فقد زجّت بهم في حربين عالميّتين خلال ربع قرن، وهي اليوم تتأهّب لحربٍ نووية ثالثة، تُنذِر العالم بالدّمار والفناء، وغدا الناس من جراء ذلك يتطلّعون إلى مبادئ خيِّرة ودستور كامل يُنقذهم من مآسي الحروب، ويُسَرِّي عنهم آلامَ القلق والمخاوف، ويضمن لهم سعادة الدِّين والدّنيا، وراحة البال والضمير، وهذا ما يُحقِّقه الإسلام بعون الله وكرمه.

وسائل إصلاح المسلمين

وبالرغم من تخلّف المسلمين، وانتكاساتهم القديمة أو الحديثة، فإنّ الإسلام هو: المنقذ الوحيد لهم والقادر على إنهاضهم واسترداد أمجادهم، بيدَ أنّ ذلك هدف سامٍ، وأمنية شاقّة تتطلّب المزيد من اليقظة والوعي وتضافر الجهود وشحذ الهمم، والتخطيط الهادف الحكيم، فليست دروب الإصلاح مفروشة بالأزهار والرّياحين، ولكنّها مليئة بالأشواك والعوائق الّتي يعسر تخطّيها والتغلّب عليها إلّا بالصبر والصمود.

أ ـ توجيه المسلمين:

لقد جهد أعداء الإسلام من المستعمرين والمبشّرين ودعاة المبادئ المستوردة أن يُضلّلوا المسلمين بأساليبهم الماكرة ودعاياتهم المركّزة على تشويه الإسلام ومسخ قيمه ومفاهيمه، حتّى فتنوا أغرار المسلمين ولبّسوا عليهم دينهم وأضلّوهم عن نهجه وهداه.

وأصبح الكثيرون منهم لا يفقهون الإسلام ولا يحملون من سماته إلّا الإسم المجرّد والإنتساب المزيّف. وغدا الإسلام غريباً بين أتباعه كغربته في العصور الجاهلية أو أشدّ.

من أجل ذلك، كان محتماً على قادة الفكر الإسلامي أن يعرّفوا المسلمين واقع الإسلام، ومبادئه الخالدة ومفاهيمه المعطاء، بأسلوب شيّق جذّاب يبرز جماله وجلاله، ليكونوا على بصيرة من دينهم وشريعتهم، ومحصّنين ضدّ الإغواء والإضلال.

وبديهيّ أنّ معرفة الإسلام معرفة نظرية لاتجدي ولاتحقِّق الأهداف الإصلاحية إلّا إذ اقترنت بالتطبيق في واقع الحياة، وتنفيذها في عالم الشعور والسلوك، لتعكس على المسلمين آثارها الطيِّبة، وتطبعهم بطابعها الإسلامي الأصيل.

وواضح أنّ المسلمين لن يُثبتوا وجودهم ويُحقِّقوا آمالهم بمُحاكاة الغرب، وتقليد نزعاته المادِّية، وسلوكه الدّاعر، فذلك من دواعي التخلّف، والميوعة والضّعف، وإنّما يحقِّق المسلمون أهدافهم ومآربهم بالتمسّك بالإسلام، والسّير على هداه، وتصعيد طاقاتهم ومعنوياتهم الروحية.

بهذا ٱنتصر المسلمون الأوّلون، وسادوا الأمم، وحلّقوا في آفاق العزّة والمجد، وبهذا ينتصر المسلمون اليوم، ويحرزون آمالهم وأمانيهم.

ب ـ إذكاء الوعي الإسلامي:

وعي **الأمّة** هو: مقياس رقيها أو تخلّفها، ومناط قوّتها أو ضعفها، ومتى اتّسمت الأمّة بازدهار الوعي، ويقظة الضمير، ورهافة الحسّ، دفعها ذلك إلى تعزيز كيانها وتصعيد أمجادها، وحينما تفقد الأمّة وعيها، تلاشت قيمها وٱنهارت معنويّاتها وغدت فريسة الطامعين، وٱستجابت لكلِّ ناعق، وٱستساغت ألوان الضّيم والإضطهاد.

ومن دواعي الأسى والأسف البالغين، أن نجد الأمم الإسلامية ضعيفة الوعي، واهية الإحساس الديني والمدني، وهذا هو سرّ تخلّفها وٱنهزامها في المعارك، فقد شنّ أعداء الإسلام حروباً شعواء على العالم الإسلامي، تستهدف ٱستعبادَ المسلمين، والقضاء على الإسلام، وكان من الأمم الإسلامية أن تهبّ مسارعة إلى الدفاع عن دينها وأوطانها وكراماتها، فإذا هي فاقدة الوعي، مخدّرة الشعور، منهارة العزم، لا تعبأ بهوانها وهزائمها الفاضحة، ولا يعنيها في الحياة إلّا الأطماع المادِّية، والتهالك على اللّذائذ والشّهوات.

لذلك كان محتماً على قادة المسلمين وموجِّهيهم أن يدأبوا على إذكاء وعي الأمم الإسلامية، وإيقاظ مشاعرها، وإرهاف عزائمها، لتدرأ عنها الضّيم والهوان، وتستأنف حياة جديدة حافلة بالعزّة والمنعة والإباء.

ج ـ إصلاح المناهج الدراسية:

للمناهج الدراسية أثر بالغ في تكييف حياة الأمم وتوجيهها فكرياً وأخلاقياً واجتماعياً، وانطباعها بطابعها الخاص.

وحيث كانت المناهج الدراسية في الأمم الإسلامية موسومة بطابع الحضارة الغربية وفلسفتها المادِّية، وإقفارها من قيم الروح والأخلاق، عكست آثارها على المسلمين، وبذرت في نفوسهم بذور الزّيغ والإنحراف والتمرّد على الإسلام.

لذلك كان من الواجب المقدّس على المسلمين أن يُصلحوا تلك المناهج، ويصوغوها بأسلوب حكيم يلائم طبيعة الإسلام ويواكب شريعته، ويجمع بين محاسن العلم والدِّين، بهذا يتحرّر المسلمون من التبعية الفكرية للغرب وينالون استقلالهم العلمي، وينقذوا الأجيال المسلمة المثقّفة من الشّطط والإنحراف.

أليسَ من الغُبن والهوان أن يدرس الشباب المسلم تاريخ أوروبا، ولا يدرس تاريخ الإسلام دراسة واعية عميقة، ويعرف مبادئ الغرب معرفة واسعة، ولا يعرف أصول الدِّين الإسلامي ومفاهيمه؟!!

أليسَ من الغبن والهوان أن يدرس الشباب المسلم دساتير الغرب ونظمه الوضعية، ولا يعنى بالشريعة الإسلامية ودستورها الكافل عناية موضوعية وافية؟!!

إنّ المسلمين لن ينالوا مآرب العزّة والمجد، إلّا بالإستقلال العلمي والفكري، وسيرهم على ضوء الإسلام ومفاهيمه الرائعة الجليلة.

د ـ الإصلاح الإقتصادي:

من مظاهر تخلّف المسلمين اليوم افتقارهم إلى الخبراء الأجانب افتقاراً مخجلاً في أغلب حاجات الحياة وشؤونها الحضارية والمدنية.

فهم مفتقرون إلى استيراد البضائع والصناعات الأجنبية، لعجزهم عن صنعها وإنتاجها، ومفتقرون كذلك إلى الخبراء والفنِّيين الأجانب لاستغلالهم في المشاريع العمرانية.

ولا ريبَ أنّ ذلك من سمات التخلّف والنّقص الّتي يستنكرها الإسلام ويأباها لأتباعه الأباة الأعزّاء.

فلا مناصَ للعالم الإسلامي الناهض المتطلِّع إلى غدٍ أفضل، وحياة كريمة حُرّة أن يتلافى هذا النقص الفاضح، ويعمل بكلِّ جدٍّ وإخلاص على توفير الكفاءات الإسلامية، وإعداد الخبراء والفنِّيين المسلمين، ليسهموا بإعمار البلد الإسلامي، وتحقيق حاجاته المتنوِّعة، فيتسنّى لهم آنذاك تصنيع بلادهم، وتنمية اقتصادها، وٱستثمار خيراتها، ومن ثمّ التحرّر والإستغناء عن الأجانب.

وهذه أمنية شاقّة عسيرة تتطلّب جهوداً جبّارة، وعزماً مخلصاً وصبراً جميلاً، يُحقِّق لهم أهدافهم وآمالهم.

لأستسهلنّ الصّعب أو أُدرِكَ المُنى ... فما ٱنقادت الآمال إلّا لصابر

الإسلام هو منقذ الإنسانية
ورائدها إلى السعادة والسلام

واليوم وقد أعلنت الحضارة المادِّية إفلاسها من قِيَم الروح والأخلاق، وبرهنت على قصورها عن إسعاد البشر، وبثّهم مفاهيم الطمأنينة النفسية والسلام الروحي، فهي رغم سبقها وتفوّقها على جميع الحضارات السالفة، فإكتشافاتها العلمية، وتيسيراتها الحضارية ورقيّها المادِّي، فقد طغت على أربابها أعراض خطيرة مفزعة تركت علماء الإجتماع وأطبّاء النفوس والأعصاب في حيرة بالغة وقلق شديد أزاء مدّها الطّاغي ومآسيها الرهيبة: حيث تفاقمت الأمراض النفسية والعصبية في ربوعهم، وغصّت المستشفيات والعيادات الطبِّية بشكاتها والمصابين بها، وكثُرت أحداث الجنون والإنتحار، وآزدادت الجرائم وشاع التفسّخ الخلقي والشذوذ الجنسي في أرقى الدول الحضارية، وآندلعت من جرّاء أطماعها التوسّعية وتنافسها المادِّي، حربان عالميّتان خلال ربع قرن راحَ ضحيّتها ملايين البشر قتلى وجرحى ومشوّهين، وها هي اليوم تتأهّب لحربٍ نووية ثالثة تُهدِّد البشرية بالدّمار والفناء، وغدت تعيش حياة كئيبة مليئة بالقلق والمخاوف. كما شهدت بذلك تقارير الخبراء في أرقى الممالك المتحضِّرة.

قال (ديل كارينجي) في كتابه (دَع القلق وابدأ الحياة):

«تدلّ الإحصاءات في أمريكا على أنّه في كلّ خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث إنتحار، وفي كلّ مائة وعشرين ثانية يُصاب شخص بالجنون. ومعظم حالات الإنتحار،

وكثير من حالات الجنون على الأرجح يمكن أن يُقطع دابرها إذا أصاب هؤلاء الناس شيئاً من الأمان والإطمئنان وسكينة النفس الّتي يجلبها الدِّين وتجلبها الصلاة».

وقال الدكتور الشهير (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، ص ٤٤:

«إنّنا قوم تُعساء لأنّنا ننحطّ أخلاقياً وعقلياً.. إنّ الجماعات والأمم الّتي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نموّ وتقدّم، هي على وجه الدقّة، الجماعات والأمم الآخذة في الضّعف، والّتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنّها لا تُدرك ذلك، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية الّتي شيّدها العالم حولها».

أمّا الفجائع الّتي عاناها أرباب الحضارة المادِّية، والخسائر الأخلاقية والصحِّية والإجتماعية الّتي تكبّدوها، فإنّك تستطيع أن تستقرئ أبعادها وإحصاءاتها في بحث السفور من كتاب أخلاق أهل البيت عليهم السلام للمؤلِّف.

وما تلك المآسي والأرزاء الّتي تمخّضت عنها حضارة القرن العشرين، إلّا نتيجة حتمية لهوسها المادِّي، وإقفار حياتها من قِيَم الروح ومفاهيم الأخلاق، وانعدام التوازن والتعادل بين المآرب المادِّية والأشواق الروحية، ما جعلها غير ملائمة للبشر، وعاجزة عن تلطيف مشاعرهم وتخفيف أعباء الحياة عنهم.

وقد بدأ الواعون من المتحضِّرين يُدركون بشاعة نكستهم والأخطار الماحقة الّتي تتوعّدهم وتُنذرهم بالدّمار والفناء، وطفقوا يدعون أقوامهم إلى الدِّين من جديد، ويحبِّبون إليهم مُثُلَه وأهدافه.

«ففي لندن يشهد المرتاد لحديقة (هايد بارك) وخاصة في أيام الآحاد، حلقات للخطابة الحرّة، ومن بين خطبائها وُعّاظ من الكنيسة يحاولون أن يجتذبوا إليهم أكبر

عدد من الجمهور بأبلغ أساليب التأثير.

كما يُشاهَد في المناطق المكتظّة بدور السينما، رجل يصعد منصّة حديدية يحملها زميل له، فيعظ الناس، ويشرح لهم حقائق الدِّين.

وفي بعض بلدان أوروبا يجد النازل في الفندق بجانب سريره نسخة من الكتاب المقدّس مُهداة من جمعية أصدقاء الكتاب المقدّس، ليقرأ منه قبل نومه، وعند ٱستيقاظه ما يتذكّر به دينه وعقيدته.

وفي أكثر جامعات أوروبا جمعيات باسم الطلّاب المسيحيين، لها ندوة أسبوعية يخطب فيها أحد رجال الكنيسة ويشرح حقائق الدِّين ومبادئه.

وكثيراً ما سُمع عن جمعية التسلّح الخلقي المنتشرة في أوروبا، هي تدعو في الظاهر إلى التخلّق بالفضيلة والرحمة والعدالة.

لقد بدأ القوم يفكِّرون في الإستفادة من الدِّين لتخفيف أضرار مدنيّتهم، وطفقوا يُدركون إفلاس حضارتهم من الناحيتين الروحية والأخلاقية، وبالرغم من أنّ حضارتهم تُمثِّل أرقى ما وصل إليه الإنسان من حياة مادِّية، بيدَ أنّ هذا وحده لا يسعد الإنسان كما رأيت، بل لابدّ من حضارة تأخذ بيد الناس إلى حياة روحية راقية، بجانب ذلك الرقي المادِّي، بحيث تحفظ التوازن دائماً بين الحياتين المادِّية والروحية، فلا تطغى إحداهما على الأخرى»[1].

فأيّ الأديان وأيّ المبادئ يستطيع تحقيق هذه الأمنية، وينقذ الإنسانية الضّالّة المعذّبة من بؤسها وشقائها، ويوجِّهها نحو السعادة والصلاح.

فالدِّين المسيحي رغم جلالته وقدسيّته، عاجز عن تحقيق ذلك لطابعه الروحي

---

(١) كتاب من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي، ص ٦ ـ ١٠، بتصرّف وٱختصار.

المحض ونزوعه إلى الزّهد في الحياة، والإعراض عن أشواقها ومتعها البريئة، ما جعله شاقّاً مرهقاً مناقضاً لفطرة الإنسـان ونوازعه الأصيلة، وقاصراً عن مواكبـة أطوار الحياة الصاعدة والأجيال الناهضة المتطوِّرة، كما صوّرته النصوص الإنجيلية.

فقد جاء في الإصحاح العاشر من إنجيل متّى:

«لاتقتنوا ذهباً ولا فضّة ولا نحاساً في مناطقكم، ولا مزوداً للطريق، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصى...».

وجاء في التاسع عشر:

«وأقول لكم أيضاً: إنّ مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنيّ إلى ملكوت الله».

وجاء فى الإصحاح السادس:

«لا تقدرون أن تخدمـوا الله والمال، لذلك أقول لكم: لا تهتمّـوا لحـياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون، أليست الحياة أفضل من الطّعام، والجسد أفضل من اللِّباس ــ إلى أن قال ــ ولكن ٱطلبوا ملكوت الله وبرِّه، وهذه تُزاد لكم».

«ولم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان، بحيث تقوم عليه حضارة، أو تسير في ضوئه دولة، ولكن كان فيها اثارة من تعاليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء بولس فطمس نورها وطعّمها بخرافات الجاهلية الّتي ٱنتقل منها، والوثنيّة الّتي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية حتّى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليـونانية، والوثـنية الرومية والإفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلّت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطـرة في اليمّ، وعادت نسيجاً من معتقـدات وتقاليد لا تُغذِّي الروح، ولا تمدّ العقل، ولا تُشعل العاطفة، ولا تحلّ المعضلات الحياتية، ولا تنير السبيل، بل

أصبحت بزيادة المحرِّفين وتأويل الجاهلين تحول بين الإنسان والعلم والفكر»[١].

وهكذا يعجز الدِّين اليهودي عن إنقاذ البشرية وريادتها لطابعه المادِّي الصِّرف، وإيثارِه القِـيَم المادِّيـة على القِيَم الروحيـة، فهو مناقض ومعاكس لطبيعة المسـيحية واتجاهها الروحي المحض، كما وصفه الدكتور أحمد نسيم سوسـه في كتابه القيِّم (في طريقي إلى الإسلام)، ص ٧٥:

«فإذا أمعنّا النظر في الديانة الموسوية، نجد أنّها ديانة جافّة مُعَقّدة، كَثُرَ فيها الإرتباك والتطويل والتحريف، وأنّ مضمونها لا يتعدّى دائرة الحياة الدنيوية إلّا قليلاً من الناحية الروحية، لا يروي غليلاً ولا يشفي عليلاً، لذلك فهي جسمانية أكثر منها روحانية».

وقال في ص ١٠٦ من كتابه:

«وتختلف اليهودية بمعناها الشامل عن الإسلام، بكونها جعلت الثروة والمال ضالّتها، وممّا يؤيِّد ذلك، أنّ التوراة قد زهدت في ذكر الحياة الأخروية، وقد أهملت أمر القيامة الّتي هي حقيقة دينية معترَف بها، وقد اتّخذت الثروة والمال أساساً لها في الترغيب والتخويف».

ولئن قَصُرت الديانتان: المسيحية واليهودية عن إنقاذ الإنسـانية وإسـعادها، فإنّ المبادئ الوضعيّة أكثر قصوراً وأشدّ عجزاً عن ذلك، لهوسها المادِّي وتهالكها على المآرب المادِّية، ومناهضتها القِيَم الروحية والأخلاقية وسحقها، فهي سـبب شـقاء الإنسانية وعذابها.

والإسـلام هو الدِّين الوحيد الّذي يسـتطيع الإضطلاع بقيادة الأمم وإبلاغها أماني السعادة والسلام.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسّيِّد الندوي، ص ٢٨.

فهو الدِّين الّذي جمعَ محاسن الدنيا ومحاسن الآخرة، وألّف بين الأشواق المادِّية والأشواق الروحية، تأليفاً قاصداً سويّاً يلائم الفِطَر البشرية ويواكب سيرها الصّاعد في كافّة العصور والأجيال، وهو الدِّين الّذي ٱستطاع أن يحـقِّق خلال ربع قرن من معاجز الإصلاح وفتوحات الإيمان ما عجزت عنه جميع الشرائع والأديان.

«إنّ أبرز ما يلفت نظر الدّارس لشريعتنا ومبادئنا وحضـارتنا، أنّها تمـيّزت بالخصائص التالية:

١ ـ أنّها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي تنادي بالإلٰه الواحد الّذي لا شريك له، هو وحده الّذي يُعبَـد، وهو وحده الّذي يُقصَـد: ﴿**إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعين**﴾، وهو الّذي يُعِزّ ويُذِلّ ويُعطي ويمنح، وما من شيء في السماوات والأرض إلّا وهو تحت قدرته وفي قبضته.

هذا السموّ في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأقوياء، وتصحيح العلاقة بين الحـاكمـين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق وربّ العالمين.

وهذه الوحدة في العقـيدة تطبع كلّ الأسس والنّظم الّتي جاءت بها شريعتنا، فهنالك الوحدة في الرسـالة، والوحدة في التشريع، والوحـدة في الأهداف العامّـة، والوحدة في الكيان الإنساني العام...

٢ ـ وثاني خصائص شريعتنا ومبادئنا، أنّها إنسانية النّزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الّذي أعلنَ وحدة النوع الإنساني رغم تنوّع أعراقه ومنابته ومواطنه، في قوله تعالى:

﴿**يا أيُّها ٱلناسُ إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْناكُم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا إنّ أكرَمَكُم عِنْدَ ٱللهِ أتقاكُم**﴾. (الحجرات / ١٣)

إنّ القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحقّ والخير والكرامة، جعل حضارته عقداً تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم الّتي خفقت فوقها راية الإسلام.

ولذلك كانت كلّ حضارة تستطيع أن تُفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمّة واحدة، إلّا الشريعة الإسلامية، فإنّها تُفاخر بالعباقرة الّذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب.

٣ ـ وثالث خصائص شريعتنا ومبادئنا، أنّها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحلّ الأوّل في كلِّ نظمها ومختلف ميادين نشـاطها، ولم تتخلّ عن هذه المـبادئ قطّ، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد.

ففي الحكم، وفي العلم، وفي التشريع، وفي الحرب، وفي السِّلم، وفي الإقتصاد، وفي الأسرة.. روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً، وبقيت بذلك شأواً سامياً لم تبلغهُ حضارة في القديم والحديث.

وبذلك كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

٤ ـ ورابع هذه الخصائص: أنّها تؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها.

فهي: خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفـة والفكر في وقتٍ واحد. وهي ميزة لم تُشاركها فيها حضارة في التاريخ، فاستطاعت أن تُنشئ نظاماً للدولة قائماً على مبادئ الحقّ والعدالة، مرتكزاً على الدِّين والعقـيدة، دون أن يقيم الدِّين عائقاً دون رقي الدولة، بل كان الدِّين من أكبر عوامل الرقي فيها. فمن بين جدران المساجد في بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة، انطلقت أشعّة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة.

٥ ـ ومن خصائص شريعتنا ومبادئنا، التسامح الديني العجيب الّذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدِّين.

إنّ صاحب الدِّين الّذي يؤمن بأنّ دينه حقّ، وأنّ عقيدته أقوَم العقائد وأصحّها، ثمّ يُتاح له أنْ يحمل السّيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ثمّ لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على ٱتِّباع دينه، إنّ رجلاً مثل هذا لعجيب في التاريخ.

فكيف إذا وُجِدَ في التاريخ حضارة قامت على الدِّين، وشادت قواعدها على مبادئه، ثمّ هي أشدّ ما عرف التاريخ تسامحاً وعدالةً ورحمةً وإنسانيةً، هذا ما صنعته حضارتنا.

٦ ـ إنّنا أثبتنا في الماضي قدرتنا على إنشاء مثل الحضارة المرتقبة، ولا يُنكر أنّ حضارتنا كانت أكثر من الحضارة الحديثة رحمةً بالناس وسمّواً في الخُلْق، وعدالة في الحُكم، وإشراقاً في الروح، وٱقتراباً من المثل الأعلى للإنسان في مختلف عصوره وأطواره.

وما دمنا قد ٱستطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة في عصور التخلّف العلمي والفكري، فإنّنا أقدَر على أن نُقيم مثل تلك الحضارة في عصور التقدّم العلمي، وانكشاف المجهول من الكون شيئاً بعد شيء.

تلك هي بعض الأسباب الّتي تجعل الأمّة الوحيدة الّتي تستحقّ حمل لواء الحضارة بعد الغربيين لإنشاء حضارة جديدة تُخفِّف من شقاء الإنسان، وتُحقِّق له قسطاً أكبر من الأمن والطمأنينة والحياة الإنسانية المستقرّة»[1].

هو الدِّين الّذي أنشأ أعظم وأيمن حضارة في تاريخ الحضارة، كما عرّفناه في الأبحاث السالفة، وأصدق شاهد على ذلك أقوال المنصفين من كُتّاب الغرب.

---

(١) من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي، ص ٢٨ ـ ٣٢، بتصرّف وٱختصار.

قال الفيلسوف الألماني (نيتشه) عن الإسلام والحياة:

«لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقرية القديمة، ثمّ حرمتنا بعد ذلك الإسلام. لقد ديست بالأقدام تلك المدنيّة العظيمة: مدنيّة الأندلس. ولماذا؟ لأنّها من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، نعم من غرائز رجال..

إنّ تلك المدنيّة الإسلامية لم تنكر الحياة، بل أجابتها بالإيجاب، وفتحت لها صدرها. ولقد قاتلَ الصّليبيون تلك المدنيّة بعد ذلك، وكان أولى بهم أن يسجدوا على التّراب ويعبدوها.

وما مدنيّتنا في هذا القرن التاسع عشر إلّا فقيرة وانية بجانب مدنيّة الإسلام في ذلك الوقت»[1].

وقال المستشرق النمساوي المسلم (ليوبولد فايس) [محمّد أسد]:

«إنّ الإسلام من وجهته الروحية والإجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات الّتي خلّفها تأخّر المسلمين، أعظم قوّة نهّاضة بالهمم عرفها البشر»[2].

وقال العالم السوربوني مؤلِّف كتاب (المدنيّة الإسلامية):

«إنّ العالم في هذه الآونة من تاريخه تتجاذبه قوّتان مادِّيّتان جبّارتان: قوّة روسيا السوفيتية ومعها بلاد ما وراء الستار الحديدي، وقوّة أمريكا ومعها جماعة حلف الأطلنطي والدول الرأسمالية الغربية، وهاتان القوّتان المادِّيّتان في طريقهما إلى الفناء، وستبقى فوق أرض الله قوّة واحدة لا يعرفها أصحابها، وهذا من حسن حظّنا حتّى الآن، ولكن قد يأتي يوم يعرف أصحاب هذه القوّة قوّتهم، فيدين لهم العالم

---

(١) الإسلام بين الإنصاف والجحود، للأستاذ محمّد عبدالغني حسن، ص ٦٢.

(٢) نفس المصدر.

بأسره، هذه القوّة الّتي حاربناها بضعة قرون، ولم نستطع أن نستأصلها، هي: (الإسلام). فالإسلام يصنع (الرّجل المثالي) الّذي لا يُقهَر ولا يُغلَب، وسرّ قوّة هذا الرّجل أنّه يؤمن بأنّ الله واحد لا شريكَ له، وأنّ الأمر كلّه بيده، ومن شأن هذا (الإيمان) أنّ هذا الرّجل إذا نوى القتال لا يهاب الموت، لأنّه يعتقد في قرارة نفسه أنّه يُقاتل في سبيل الله، وبأمرٍ من الله، وفي حياته اليومية يقف في الصّلاة مُصلِّياً. وما صلاة الجماعة عند المسلمين إلّا مظهر للتنظيم العسكري الصّلب عند المسلمين»[1].

وقال المفكِّر (برنادشو):

«لن ينتعش العالم من كبوته إلّا إذا أخذ بتعاليم الديانة الإسلامية، ولا بدّ منه إلى هذه النتيجة في نحو قرنين من الزّمان»[2].

وقال المفكِّر (برنادشو) أيضاً:

«إنّ العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمّد، هذا النّبيّ الّذي وضع دينه دائماً موضع الإحترام والإجلال، فإنّه أقوى دين على هضم جميع المدنيّات، خالد خلود الأبد، وإنِّي أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدِّين على بيِّنة، وسيجد هذا الدِّين مجاله الفسيح في القارّة (يعني أوروبا)، وإذا أراد العالم النّجاة من شروره فعليه بهذا الدِّين، إنّه دين التعاون والسلام والعدالة في ظلِّ شريعة متمدينة محكمة لم تنسَ أمراً من أمور الدنيا إلّا رسمته ووزنته بميزان لا يُخطئ أبداً، وقد ألّفتُ كتاباً في محمّد، ولكنّه صودِرَ لخروجه عن تقاليد الإنكليز»[3].

---

(١) قالوا في الإسلام، ص ١٤٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) كتاب محمّد عند علماء الغرب، لفضيلة الشيخ خليل ياسين العاملي.

دفاع عن الإسـلام

لقد عانى الإسلام عبرَ تاريخه القديم والحديث ضروب المؤامرات والمناوءات إلى محقه وإطفاء نوره، وما فتئ أعداؤه يوالون الحملات الضارية عليه، ويستهدفونه بكلِّ عوامل الهدم والتخريب، ولولا حماية الله تعالى له وعنايته به، لأصبحَ خبراً بعد عيان، ولكنّه رغـم ذلك ظلّ صامداً شامخاً لا تزعزعه الأعاصـير الهوج، وهذا من آيات عظمته وخلوده.

وكان من أقسى وأفظع ما مُنيَ به الإسلام، تلك الحملات المسعورة الّتي شنّها الغرب عليه، مجنِّداً فيها كلّ طاقاته وقواه المادِّية والمعنوية لمسخه وتدميره بضروب المكائد والمطاعن فيه وفي رسوله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وكتابه الكريم، وشريعته الخالدة، وإشاعة الأراجيف حول قداستهم جميـعاً، ما ضلّل الأمم الغربيـة، وشـحنهم كُرْهاً بالغاً، وعداءً موروثاً للإسلام والمسلمين، توارثتهُ أجيالهم حتّى عصرنا الراهن الّذي يتشدّق الغرب فيه أنّه عصر الديمقراطية، وحرِّية الفكر والدِّين.

وكان ذلك امتداداً لأحقادهم الصليبية الّتي لا تزال تضطرم في نفوسهم وتبدر كلّما وجدت مجالاً للتنفيس عن سعارها اللّاهب، كما صوّرها ذلك الغـربي الحاقد بقولته الخرقاء: «ما دامَ القـرآن يُتلى، والكعبة تُحجُّ، ومحمّد يُصلّى عليه، فالنصرانية كمسلول يقيء برئته».

﴿يُرِيدُونَ أن يُطْفِئُـوا نُورَ ٱللهِ بأفواهِهِم ويأبى ٱللهُ إلّا أن يُتِمّ نُوْرَهُ وَلَو كَرِهَ المُشْرِكُون﴾. (التّوبة / ٣٤)

«وشرُّ ما مُنِيَت به حملات التحامل على الإسلام، هو ذلك الإتّفاق المبيت، والتدبير المحكم بين المستشرقين، كأنّهم أمام متّهم لابدّ أن يدينوه... حتّى لقد أصبحت التُّهم والأباطيل معروفة مكروهة لكثرة ما توارد عليها من سهام الإتّهام...

وقد صوّر لنا المستشرق (ليوبولد فايس) [محمّد أسد] محاكمة الأوروبيين للإسلام بصورة فيها كثير من السّخرية اللّاذعة، ليصل في النهاية إلى النتيجة الّتي خرج بها من بحثه، وهي: أنّ أحكام المستشرقين على الإسلام هي أحكام مبيّتة مدبّرة، وأنّ بعض ما يبدو في سير المحاكمة من عدالة إنّما هو للتعمية والتضليل، وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوّهة للإسلام وللأمور الإسلامية تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقو أوروبا...

والواقع أنّ هذه الحملة كانت ثمرة الحروب الصّليبية قد أُحْكِمَ تنظيمها، وكانت أشبه بحركة مقاومة علمية للإسلام، وقد أعدّت أوروبا سلاحاً غير الحديد والنار لمحاربة الإسلام، ذلك هو سلاح المقاومة لهذا الدِّين بوسائل علمية، وعن طريق الهدم المعنوي في حركة ظاهرها العلم والبحث، وباطنُها المكر والخُبث...».

وفي ذلك قال المستشرق المنصِف (إميل درمنجهم):

«ما الّذي يربحه هؤلاء المستشرقون من أنّهم يصفون النّبيّ محمّداً عليه‌السلام بأنّه دجّال، وأنّ الإسلام مجموعة من الهرطقات كلّها، وأنّه من عمل الشّيطان، وأنّ المسلمين وحوش، وأنّ القرآن نسيج السخافات؟

اللّهمّ إنّهم لم يربحوا إلّا الحقد الّذي يغلي في صدورهم، والغيظ الّذي يتميّزون به...

إنّ الحقّ يقتضينا أن نُفرِّق بين المستشرقين المبشِّرين، والمستشرقين الباحثين، ولن نجد الجحود للإسلام والتحامل عليه إلّا بين الفريق الأوّل، فهم تتوقّع كلّ حقد

مقصود، وكلّ نيّة خبيثة، فإذا هم يصوِّرون الإسلام بما يشاء لهم الهوى، ويُصوِّرون المسـلمين بما تمليه عليهم العداوة الدفينـة، وتستحيل كلّ هذه العـداوات إلى أفكار مسمّمة يودعونها كتبهم، فلا يُفرِّقون فيها بين البحث والتعصّب، ولا يُميِّزون بين العلم والتحزّب»(١).

ومن أبرز سمات أبحاثهم السمات التالية:

«١ ـ سوء الظّنّ والفهم لكلّ ما يتّصل بالإسلام وأهدافه ومقاصده.

٢ ـ سوء الظّنّ بالمسلمين وعلمائهم وعظمائهم.

٣ ـ تصـوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصـور وخاصّة في العصر الأوّل بمجتمع متفكّك تقتل الأنانية رجاله وعظماءه.

٤ ـ تصوير الحضارة الإسـلامية تصويراً دون الواقع بكثـير، تهويناً لشأنها، وٱحتقاراً لآثارها.

٥ ـ جهلهم بطبيعة المجتمع الإسلامي على حقيقته، والحكم عليه من خلال ما يعرفونه من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم.

٦ ـ إخضاعهم النصوص للفكرة الّتي يفرضونها حسب أهوائهم، والتحكّم فيما يفرضونه من النصوص.

٧ ـ تحريفهم للنصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً، وإساءتهم فهم العبادات حين لا يجدون مجالاً للتحريف.

٨ ـ تحكّمهم بالمصادر الّتي ينقلون منها، فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتاب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه..

فقد أتاحَ لهم تشجيع حكوماتهم، ووفرة المصادر بين أيديهم وتفرّغهم للدراسة،

---

(١) الإسلام بين الإنصاف والجحود، للأستاذ محمود عبدالغني حسن، بتصرّف وٱختصار.

واختصاص كلّ واحد منهم بفنٍّ يفرغ له جهده في حياته، كلّها أن يصبغوا بحوثهم بصبغة علمية.

وكان من أثر ذلك، أن أصبحت كتبهم وبحوثهم مرجعاً للمثقّفين منّا ثقافة غربية، وقد خُدِعَ أكثر هؤلاء المثقّفين ببحوثهم، واعتقدوا بمقدرتهم العلمية، وإخلاصهم للحقّ، وجروا وراء آرائهم ينقلونها كما هي، ومنهم مَنْ يُلبسها ثوباً إسلامياً جديداً، ولا أريد أن أضرب لك الأمثال، فقد رأيت من صنيع الأستاذ (أحمد أمين) في فجر الإسلام مثلاً لتلامذة مدرسة المستشرقين من المسلمين»[1].

تهجّم الغربيين على النّبيّ ﷺ:

لقد تهجّم الغربيون على رسول الله ﷺ بصنوف التُّهم والأراجيف الكاشفة عن حقدهم الدّفين، وتجرّدهم من أبسط آداب اللّياقةِ والأخلاق.

فمن تهجّماتهم: أنّ الشريعة الإسلامية ليست إلٰهية، ولا تمتّ بنسب إلى السماء، وإنّما هي: ـ على حدِّ افترائهم ـ من صنع محمّد ﷺ، واقتباساته الّتي اقتبسها من مفاهيم الشريعتين اليهودية والنصرانية، وتخبّط هؤلاء المرجفون في تشخيص مَنِ ٱقتبسَ منهم، وٱقترفوا ضروب التجنّي والإفتراء، فطَوراً حسبوه بُحَيرىٰ الرّاهب، وآخر ورقة بن نوفل، وتارةً قسّ بن ساعدة، وأخرى رجال مختلفون من فئات اليهود والنصارى.

كيف ٱستساغ هؤلاء المخمورون هذا التصوّر المأفون؟!

أليسَ مغزى ذلك أنّهم فرضوا ـ وهم لا يشعرون ـ أنّ النّبيّ ﷺ فوق مستوى البشر، وأنّه قادر على صنع الأديان وسنِّ الشرائع كقدرة الله عزّ وجلّ؟!

---

(١) كتاب السنّة، للدكتور السباعي، ص ٣٦٦، بتصرّف وٱختصار.

تُرى كيف يستطيع رجل أمِّي لم يُمارس القراءة والكتابة، ولم يتتلمذ على أستاذ، وعاشَ بين ظهراني أمّة جاهلية متخلِّفة، أن يأتي بالشريعة الإسلامية الحافلة بأسمى وأكمل العقائد والمبادئ والنظم لو لم يستلهم وحي الله تعالى، ويستمدّ من خزائن علمه ؟!

وكيف ٱستطاع هذا الأمِّي أن يستوعب الشريعة الإسلامية رغم ٱتِّساعها وٱحتوائها على جميع مستلزمات التشريعات الدينية والمدنيّة الّتي يعجز العبقري النابه أن يتلقّاها في آماد طويلة ؟!

وكيف ٱستوعبها خلال ربع قرن من بعثته حتّى وفاته، وهو قبل البعثة لم يدّع النّبوّة، ولم ينطق بآية، ولم يفه بتشريع سماوي ؟!

كيف يُتّهم النّبيّ ﷺ ذلك الإتّهام الصفيق، وهو الصادق الأمين الّذي شهد أعداؤه وأحبّاؤه بصدقه وأمانته وعدله ؟!

وكيف يتطفّل صاحب الشريعة الكاملة الخالدة على الشرائع السالفة الّتي تلاعبت بها الأهواء، وشابتها بالدّنس والتحريف، كالتثليث وألوهية المسيح ونحوها من الضّلالات الّتي ٱستنكرها الإسلام، وصحّح مفاهيمها الخاطئة المدسوسة ؟!

حسبك ما ذكره الباحثون الغربيون عن واقع المسيحية، وٱنحرافها عن خطِّها السماوي الأصيل إبّان فجر الإسلام.

فقد كتب (تايلور) في كتابه (المسيحية القديمة) ج ١، ص ٢٦٦:

«إنّ ما قابله محمّد وأتباعه في كلِّ ٱتِّجاه.. لم يكن إلّا خرافات منفرة، ووثنيّة منحطّة ومخجلة، ومذاهب كنيسية مغرورة، وطقوساً دينية منحلّة وصبيانية، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيِّرة، بأنّهم رُسُلٌ من قِبَلِ اللهِ، مُكلّفون بإصلاح ما ألمّ بالعالم من فساد».

«وعندما أراد (موشايم) وصف هذا العصر، رسم صورة للمقارنة أبرزَ فيها التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر، وخرج بأنّ الدِّيانة الحقيقية في القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة، حتّى أنّه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها.

فحيثما اْتّجه الباحث في واقع الأديان إبّان مولد الإسلام، وجد ضلالاً يحتاج إلى الهداية، واْنحرافاً يتطلّب التقويم، ولن يجد أبداً نموذجاً أخلاقياً ودينياً يصلح لأن ينقله محمّد ﷺ أو يبني عليه نظامه الإصلاحي.

وأمّا اليهود: فقد كانوا فئتين:

الغالبية العُظمى كانت تعادي الإسلام، وكانت تخفي علمها عن الرسول ﷺ، وفي مناسبات عديدة حاولت بلا جدوى خداعه، وبثّ المكائد في طريقه، وكانوا أحياناً يلقون عليه بأسئلة محرجة عن الروح، وعن بعض الألغاز التاريخية، وأحياناً أخرى يطالبونه بأنْ يُنْزِل عليهم من السماء كتاباً مدوّناً.

وهؤلاء كانوا بعيدين كلّ البُعد عن موقف الملقِّن المتّصف بالترحيب.

وبالعكس كان هناك فريق من علماء بني إسرائيل، الّذين ضاقوا ذرعاً باِدِّعاءات اليهود العنصرية، وبغرورهم الذاتي، فحضروا إلى الرسول ﷺ ليستمعوا إلى تعاليمه، وليتفحّصوا وجهه. وعندما تعرّفوا عليه في الحال، بناءً على بعض المعلومات الموجودة في كُتبهم، شهدوا له بصدق رسالته.

وبين هاتين الفئتين المعادية والخاضعة، لم يترك التاريخ مكاناً لأصدقاء معلِّمين للرسول ﷺ»(١).

---

(١) نُقل باختصار وتصرّف عن مدخل إلى القرآن الكريم، للدكتور محمّد عبدالله دراز، ص ١٣٧ و ١٦٢ ـ ١٦٣.

هذا الى أنّ «المراجع الّتي تلقّينا منها عقائد العبريين كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية إلى يومنا هذا مبسوطة بين أيدي جميع القادرين على مطالعتها في لغاتها الأصيلة أو لغاتها المترجمة، وأشهرها التوراة والتلمود...

وقد وصفوه (الإلٰه) في كتبهم المقدّسة، فقالوا عنه مرّة: أنّه يحبّ ريح الشواء، وقالوا عنه مرّة أخرى: إنّه يتمشّى في ظلال الحديقة ليتبرّد بهوائها، وقالوا عنه: إنّهُ يصارع عباده ويصارعونه، وإنّه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده، وغبروا ردحاً من الزّمن وهم يسوّون بينه وبين عزازيل شيطان البرية، فيتقرّبون إليه بذبيحة ويتقرّبون إلى الشيطان بذبيحة مثلها...

فالعقيدة الإلهٰية كما دان بها العبريون وجمدوا عليها إلى عصر الميلاد، إنّما هي عقيدة شعب مختار بين الشعوب في إله مختار بين الآلهة، وليس في هذه العقيدة إيمان بالتوحيد، ولا هي ممّا يتّسع لديانة إنسانية...

ثمّ تطوّرت هذه العقيدة الإلهٰية بعد ظهور المسيحية... واتّصلت المسيحية بالأمم الأجنبية وفي مقدّمتها الأمّة المصرية، فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة إلهٰية جديدة في مذهب العبريين، وهي: عقيدة الثالوث المجتمع من الأب والإبن وروح القدس، وفحواها أنّ المسيح المخلِّص هو ابن الله، وأنّ الله أرسله فداءً لأبناء آدم وحوّاء، وكفّارة عن الخطيئة الّتي وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة في الجنّة...

ومن الواضح البيِّن أنّ عقائد الفرق المسيحية على ذلك النّحو لم تكن تُغري بالإعجاب، أو ممّا يدعو إلى الإقتداء.

ومن الواضح البيِّن: أنّ موقف الإسلام كان موقف المصحِّح المتمِّم، ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية.

فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزّه عن لوثة الشِّرك، منزّه عن جهالة

العصبية وسلالة النّسب، منزّه عن التشبيه الّذي تسرّب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية...

فمن بلاد العصبية خرج الدِّين الّذي ينكر العصبية..

ومن جوف بلاد القبائل والعشائر، خرج الدِّين الّذي يدعو إلى إله واحد ﴿رَبّ العالمين﴾، ربّ المشرق والمغرب، وربّ الأمم الإنسانية جميعاً...

ومن ثمّ كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام مصحِّحة متمِّمة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات..

ودين يُصحِّح العقائد الإلهية ويُتمِّمها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها، تراهُ من أينَ أتى ومن أي رسول كان مبعثه ومدّعاه؟!

من صحراء العرب.

ومن الرسول الأمِّي. إن لم يكن هذا وحياً، فكيف يكون الوحي من الله؟!»[1].

وهكذا «جاءت النّبوّة الإسلامية مصحِّحة متمِّمة لكلِّ ما تقدّمها من فكرة عن النّبوّة، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصحِّحة ومتمِّمة لكلِّ ما تقدّمها من عقائد بني الإنسان في الإله...

وإنّه لمن المتّفق عليه بين أتباع الديانات الكتابية، أنّ بني إسرائيل لم يعرفوا النّبوّة على مثال أتمّ وأكمل من نبوّة موسى الكليم. ومع هذا كان أرفع ما تصوّروه من معنى وحي الله إليه عليه السلام أنّه كان يخاطبه فماً إلى فم، وعياناً بغير حجاب...».

وقد ذكرنا في الأبحاث السالفة:

---

(١) كتاب حقائق الإسلام، للأستاذ الكبير محمود عبّاس العقّاد، ص ٤٥ ـ ٥٥، بتصرّف وٱختصار.

«وهكذا يعرض التاريخ علينا صوراً من ضلالات بني إسرائيل وٱنحرافاتهم في حياة موسى وهارون وبعد وفاتهما، فإذا هي سلسلة من الجرائم الفظيعة: من قتل الأنبياء، وتحريف التوراة، والتهالك على المال، وأسرفوا في ذلك حتّى أنكر بعضهم المعاد الأخروي، والثّواب والعقاب فيه.

وهكذا طفقت أمّة عيسى عليه السلام بعد غيبته تحرِّف الكَلِم عن مواضعه، وتهرف بمزاعم يبرأ منها السيِّد المسيح عليه السلام، كقولهم بالتثليث، واختلاقهم عليه بأنّه ابن الله سبحانه، وغالوا فيه حتّى حسبوه هو الله»(١).

كلّ ذلك خلا المفارقات الجسيمة بين النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وبين من ٱتّهم بالإقتباس منهم لغةً ونزعةً ومحيطاً.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ إِنَّمَا يُعلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ ٱلّذي يُلْحِدُون إليهِ أعْجَمِيٌّ وهٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبين﴾. (النّحل / ١٠٤)

أليسَ من السّخف والغباء أن يتوهّم المرء إمكان ٱستجداء الغنيّ من الفقير، وٱقتباس العالِم من الجاهل، وٱستعانة القوي بالضّعيف؟!

وتشابه بعض المفاهيم الإسلامية بغيرها من الشرائع الإلٰهية لا يدلّ على أخذ الإسلام منها وتطفّله عليها، وإنّما يدلّ على توشيج علاقاتها الأصيلة، وٱنبثاقها جميعاً من وحي السماء.

أمّا أسطورة بُحيرىٰ: فالمعروف من رواة السِّيَر أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا ٱصطحبه عمّه إلى الشام وهو ابن تسع سنين أو ٱثنتي عشرةَ سنة، رآه بُحيرى في قافلةٍ من قريش، ودهشَ لمرآه، إذ رأى غمامة على رأسه تسايره وتضلِّله من الشمس حيثما

---

(١) المصدر السابق.

سار واتّجه من الشّمس، وعلم أنّها من دلائل النّبوّة، وسمات الرِّسالة، وانبرى مسرعاً إلى أبي طالب قائلاً له: «ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوَالله لئن رأوا وعرفوا ما عرفت أنا منه ليبغينّهُ شَرّاً، فإنّه كائن لابن أخيك هذا لشأن» !! فأرجعه عمّه إلى مكّة مسرعاً به، وليس في جميع السِّيَر ما يشعر باتّصاله ببُحيرىٰ، أو اقتباس شيء من معارفه ومفاهيمه.

وكذلك ورقة بن نوفل الّذي عزوا إليه ترجمة الأناجيل إلى العربية، واتّهموا النّبيّ ﷺ بالإطّلاع عليها، والإقتباس منها، وهذه فرية فاضحة، حيث أنّ من الثابت أنّ ورقة لم يُترجم الإنجيل، ولم يرَ النّبيّ ﷺ ترجمته المختلَقة، كما شهد بذلك المستشرق الأميركي (بورلي) في كتابه (سيرة الرسول ﷺ):

«فالزّعم بأنّه قد سرق الإنجيل زعم باطل، فما رآهُ أبداً، والقول باطّلاعه على ترجمة الإنجيل الناقصة الّتي قام بها ورقة بن نوفل لا يضع أمامه إنجيلاً كاملاً ليراه، وحتّى هذه الترجمة لم يرها، فإنّ أوّل ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد موت محمّد بقرون»[1].

«وهناك حدث مؤكّد فيما يتّصل بالعهد الجديد (الإنجيل)، وهو: أنّه حتّى القرن الرابع الهجري لم تكن قد وُضِعت ترجمة عربية.

وقد ذكر الأب شدياق: أنّ أوّل نصّ مسيحي تُرجِمَ إلى العربية كان مخطوطاً بمكتبة القديس بطرسبرج، كُتِبَ حوالى عام (١٠٦٠م) بِيَدِ رجل يُدعى ابن العال»[2].

هذا إلى االثابت المشهور من سيرة النّبيّ ﷺ بأنّه لم يكن عارفاً بالقراءة والكتابة، كما شهد بذلك المنصفون من كتّاب الغرب:

---

(١) الإسلام بين الإنصاف والجحود، ص ١٢٢.

(٢) الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبيّ، ترجمة عبدالصّبور شاهين، ص ٣١١.

قال (الكونت هنري دي كاستر) مؤلِّف كتاب (الإسلام):

«إنّ محمّداً ما كان يقرأ ولا يكتب. بل كان ـ كما وصف نفسه مراراً ـ نبيّاً أمّيّاً. وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه. ولا شكّ أنّه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقّى العلم بحيث لا يعلمه الناس، لأنّ حياة الشرقيين كلّها ظاهرة للعيان، على أنّ القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار»[1].

وقال (توماس كارليل) في كتابه (الأبطال):

«ثمّ لا ننسى شيئاً آخر، وهو أنّه ـ أي النّبيّ محمّد ـ لم يتلقّ درساً على أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخطّ حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب. ويظهر لي أنّ الحقيقة هي: أنّ محمّداً لم يكن يعرف الخطّ والقراءة، وكلّ ما تعلّم هو عيشة الصحراء وأحوالها»[2].

والثابت من خبر ورقة أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا أنبأ خديجة بما رأى من تباشير النّبوّة وطلائع الوحي، أخذته إليه، وكان شيخاً هرماً مكفوفاً، وقصّت عليه رؤيا النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فأجابها: «إنّه هو النّبيّ المُنتظَر الّذي بشّر به المسيح عيسى بن مريم»، وتوفّي بعد ذلك بزمنٍ قصير.

وهكذا القول في قسّ بن ساعدة، فإنّه قد ماتَ قبل بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

إنّ تلك التُّهم تجنّيات صارخة على سيّد الرّسل، يستنكرها ويستبشعها كلّ ذي وعي ووجدان.

قال (كارليل) الإنجليزي:

«من العار أن يصغي إنسان متمدِّن من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين: إنّ

(١) الإسلام بين الإنصاف والجمود، لمحمّد عبدالغني حسن، ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٥.

دين الإسـلام كذب، وإنّ محمّـداً لم يكن على حـقّ، لقد آنَ لـنا أن نُحـارب هـذه الإدِّعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة الّتي دعا إليها هذا النّـبيّ ظلّت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزّمان لملايين كثيرة من الناس، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة الّتي عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادِع؟ ولو أنّ الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير، لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً، وكان الأجدر بها أن لا توجد...

وعلى ذلك، فمن الخـطأ أن نعدّ محمّـداً رجلاً كاذباً متصـنّعاً، متذرِّعاً بالحِيَل والوسائل لغاية أو مطمع... وما الرسالة الّتي أدّاها إلّا الصِّدق والحقّ، وما كلمته إلّا صوت حقّ صادر من العالم المجهول، وما هو إلّا شهاب أضاء العالم أجمع. ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء»[1].

وهكذا تهجّم الحاقدون على القرآن:

فحسبوا أنّه ليس من وحي الله عزّ وجلّ وكلامـه الكريم، وإنّما هو من كلام محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ونسج بلاغته!

وهذه فرية لا تستحقّ الجدل والنقاش، لسخفها وسقوطها بداهة ووجداناً، بيدَ أنِّي أفنِّدها إظهاراً لهرائها ودجلها الفاضحين:

لو ٱفترضنا جدلاً: أنّ القرآن الكريم لا يخلو من فروض ثلاثة:

إمّا أن يكون من كلام العرب.

أو يكون من كلام النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. أو هو كلام الله تعالى ووحيه.

والفرض الأوّل باطـل: حيث أنّ كلام العـرب، وأسـاليب بيانهـم وطرائق تعبـيرهم معروفة ومشهورة، وليس فيها ما يُضاهي القـرآن الكريم أو يلحق شأوه

(١) المصدر السابق، ص ١٢٩.

في بلاغته المعجـزة، وإسـلوبه الفذّ الرفيع، كما شهد بذلك الخـبراء العارفون بأسرار البلاغة، وأساليب البيان، وقد أوضحتُ ذلك في إعجاز القرآن البلاغي، وهذا برهان صارخ على ٱنتـفاء لصاقة القـرآن بالعرب، وأنّه فوق مستوى عقـولهم وطاقاتهـم البلاغية.

والفرض الثاني ساقط كذلك: لتميّز أسلوب القـرآن الكريم عن أسلوب كلام النّبيّ ﷺ وأحاديثه تميّزاً واضحاً محسوساً،، وتفوّقه عليه فكراً وتعبيراً.

فأسلوب النّبيّ ﷺ يتّسم بفصاحة اللّغة، وعذوبة الألفاظ، وحُسْن البيان الّذي يستهدف تعليم الجماهير، وتوعيتهم بمفاهيمه السامية الحكيمة، وهو في طابعه ومنهجه كبقيّة أساليب العرب البليغة.

أمّا أسلوب القـرآن: فإنّه نمط فريد، ونمـوذج فذّ يتميّز عن جميـع أسـاليب العرب، ويسمو عليها سموّاً خارقاً معجزاً، تقاصر عن شأوه أقطاب البلاغة وعجز عن مساجلته أعلام البيان.

أسلوب القـرآن أسلوب ساحِر آسِر، يتألّق بين الأساليب تألّق اللآلئ بـين الحصى، وآية ذلك: أنّ أبلغ البلغاء إذا ما طعّم حديثه بآية قرآنية، وجدتها تشعّ في خلاله إشعاع القمر بين الكواكب.

ناهيكَ أنّ النّبيّ ﷺ كان يُبلِّغ الآيات القرآنية، وينطق بأحاديثه الشخصية في مجلسٍ واحد، فيظهر البـون الشاسع وتبدو المفارقات الجسـيمة بين الأسلوبين: القرآني والنّبوي، ولو كان القرآن من كلام الرسول ﷺ لما ٱختلفا وتميّزا هذا التمايز الصارخ.

وحيث تجلّى بطلان الفرضين السالفين، فقد ثبت القول الثالث: وأنّ القرآن هو من وحي الله تعالى وكلامه الكريم المجيد.

كلّ ذلك خلا القرائن الثبوتية القاطعة باستحالة اختلاق النّبيّ ﷺ للقرآن الكريم، وٱمتناع ذلك عليه للأسباب التالية:

١ ـ إنّ النّبيّ ﷺ ـ كما أوضحناه ـ كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، وكيف يستطيع الأمّي أن يُنشئ قرآناً عجز عن مضاهاته عظماء البلغاء.

٢ ـ إشتمال القرآن على أسرار الغيب وأحداث المستقبل الّتي يستحيل على جميع البشر إداركها والإحاطة بها إلّا عن طريق وحي الله وإلهامه.

٣ ـ إشتهار النّبيّ ﷺ بالصّدق والأمانة وسموّ المثالية ـ كما مرّ بيانه ـ كلّ ذلك برهان ساطع على نزاهته وترفّعه عن اختلاق القرآن والتقوّل به على الله عزّ وجلّ.

٤ ـ «إنّ محمّداً ﷺ ـ بلغة عصرنا ـ قبض على الفكر اليهودي والنصراني، وقدّمه إلى الضمير العالمي، متّهماً بالتزوير على أوسع نطاق في ميدان الإعتقاد والتشريع.

ولم يكن هذا الإتّهام مجملاً ولا مبهماً، بل كان واضحاً مفصّلاً، ذُكِرَ في أعقاب دعوة مسهبة جادّة لتوحيد الله، وإصلاح العمل، وترقية السلوك الفردي والجماعي. دعوة لا نظير لها في الكتب الموجودة بأيدي مَنْ ينتسبون لموسى أو عيسى...

ونحن نسأل الخصم: هل ينكر الوحي جملة؟!

إن كان الأمر كذلك، فلا نبوّات البتّة، وسقطت ديانته قبل أن تسقط الديانة الّتي يهاجمها، وٱرتفعت الثّقة بكلِّ إنسان زعم يوماً أنّ مَلَكاً جاءه، وأنّ وحياً نزلَ عليه، فكلّهم كذبة.

وإن كان يؤمن بالوحي، ويُصدِّق أنبياء اليهودية أو النصرانية وحدهم، فما سرّ هذه التفرقة؟ أليسَ هو التعصّب لما ورثتَ من آبائك وقومك...؟!

إنّ لمحمّد ﷺ كتاباً أرى أنّه من عند الله، ويرى الخصم أنّه من عند نفسه. فماذا لموسى وعيسى؟ أليست لهم كتب من هذا الطِّراز؟ غاية ما هناك صحائف كتبها أناس كثيرون تضمّنت نتفاً من تعاليم أولئك النّبيِّين، وقيمة هذه الصحائف من ناحيَتَي السّند والمتن تشبه ـ مع التجوّز ـ قيمة بعض الأحاديث المرويّة عن الرسول محمّد بن عبدالله ﷺ ...

إنّ التوراة لم تتحدّث عن الدار الآخرة. فهل ما حفل به الإسلام من حديث عن الدار الآخرة، وعن الجنان وما فيها من مثوبة، والنِّيران وما فيها من عقوبة، مأخوذ من التوراة؟

والنصرانية ـ كما يعلم الجميع ـ عقيدة لا شريعة، فهل ألوف الأحاديث الّتي نظّم بها الإسلام الحياة العامّة، وخاضَ بها في أدقِّ التفاصيل، وصاغَ منها شريعة جامعة رائعة، هل هذه مأخوذة عن النصرانية؟

والوحدانية المطلقة الّتي أسندت إلى الله صفات الجلال والجمال والكمال، والّتي أبعدت عنه كلّ شبهة تلحقه بالبشر، أو تلحق البشر به:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيم﴾. (الشّورى / ١١)

هل هذه الوحدانية ٱقتبسها الإسلام من التثاليث الكنيسية، أو من الأوصاف البشرية الّتي راجت في العهد القديم عن الله؟...

فكيف يُقال: إنّ الإسلام سرقَ المبادئ والشرائع الّتي كانت عند الآخرين ونسبها لنفسه؟»[١].

---

(١) نُقل بتصرّف وتلخيص عن كتاب دفاع عن العقيدة والشريعة، للأستاذ المفضال محمّد الغزالي.

٥ ـ لقد صرّحت الآيات القرآنية بأنّ النّبيّ ﷺ لم يكن ذا علم وٱطّلاع على تاريخ الأنبياء والمرسلين وقصصهم قبل الوحي:

﴿تِلْكَ مِن أنْباءِ ٱلغَيْبِ نُوحِيها إليكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قومُكَ من قَبْلِ هٰذا فاصْبِرِ إنّ العاقبةَ للمُتّقين﴾. (هود / ٤٩)

والقرآن الكريم ـ كما أسلفنا ـ هو الّذي قصّ أخبارهم بأسلوبه الرائع الأخّاذ، وشرح سِيَرهم، وفصّل معاجزهم، وأبانَ فضلهم على البشر، ونزّههم عمّا ٱتّهمتهم به الكتب السماوية من ضروب الإفتراءات، وألصقت بهم أبشع التُّهم، ولولاه لاندرست أخبارهم، وٱنطمس تاريخهم المجيد.

فأنّى للنّبيّ ﷺ أن يحيط علماً بقصص الأنبياء وتاريخهم الآمن، طريق الوحي الإلهي، والقرآن المجيد.

٦ ـ لقد حفل القرآن الكريم بأسمى وأخلد المُثُل والمبادئ في مختلف شؤون الحياة، الدينية والدنيوية، وحوى من أسرار الكون، وحقائق العلوم ما جعله أكمل الكتب السماوية، وأجلّها محتوىً وأسلوباً، وأوفرها عطاءً وأمنعها من التقليد والمحاكاة، فلا بُحيرى الرّاهب، ولا ورقة بن نوفل، ولا نصارى العالم ويهوده بقادرين على اللّحاق بشأوه أو الدسّ فيه، كما يزعم المرجفون.

قال العالم الفيلسوف (رينيه جينو)، الّذي دوّى ٱسمه في أوروبا قاطبة وفي أمريكا، قال وهو يُعلّل سبب إسلامه:

«إنّي تتبّعتُ كلّ الآيات القرآنية الّتي لها ٱرتباط بالعلوم الطبّية والصحّية والطّبيعية، والّتي درستها من صغري، وأعلمها جيّداً، فوجدتُ هذه الآيات منطبقة كلّ الإنطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمتُ لأنّي تيقّنتُ أنّ محمّداً ﷺ أتى بالحقّ الصّراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون لَهُ معلّم أو مدرّس من البشر.

ولو أنّ كلّ صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم، قارنَ كلّ الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلّم جيّداً ـ كما قارنتُ أنا ـ لأسلمَ بلا شك، إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض»[(١)].

٧ ـ لم تشهد البشرية بعد خاتم الأنبياء **محمّد** ﷺ متنبّئاً حاول ادّعاء النّبوّة إلّا تجلّى عليه الكذب الصّارخ، والدّجل الفاضح، والحماقة المزرية.

ولم يُعرَض على الملأ ـ بعد القرآن الكريم ـ كتاب وُسِمَ بالوحي السماوي إلّا ظهر عليه الإفك والإختلاق، وبرزت فيه سمات السّخف والهراء، وأثار السخرية والتندّر.

أليسَ هذا برهان على صدق الرسول الأعظم **محمّد** ﷺ وأصالة معجزته الخالدة ـ القرآن الكريم ـ وأنّه ﴿**لَكِتابٌ عزيزٌ * لا يأتيهِ الباطِلُ مِن بَينِ يَدَيهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ من حَكِيمٍ حَميد**﴾ (فُصِّلت / ٤٢ ـ ٤٣).

إتّهام النّبيّ ﷺ بحبّ المال والسلطان:

وهكذا يتمادى المغرضون في غيّهم وتهجّمهم على النّبيّ ﷺ وافترائهم عليه بأنّه كان يستهدف بدعوته كسب المال والثّراء، وتسنّم الحكم والسلطان.

ما أسخف وأتفه هذا الإتّهام!!

فحسب الباحث أن يستطلع تاريخ النّبيّ ﷺ وسيرته العاطرة بالأمجاد، ليدرك مبلغ زهده في المال، وإعراضه عن مغريات السلطان، وقد ساور قريشاً هذا الوهم المخرّف، فحاولت إغراء النّبيّ ﷺ بالمال الضّخم، والزّعامة المطلقة عليها،

---

(١) أوروبا والإسلام، سلسلة الثقافة الإسلامية، للدكتور عبدالحليم محمود، ص ٦٣.

ما يجعله أغنى قريش مالاً وثراءً وأوسعها جاهاً وجلالاً وسلطاناً، على أن يكفّ عن دعوته، وتبليغ رسالة الإسلام، فأبى وقال قولته الخالدة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتّى يُظهره الله أو أهلك دونه».

وهذا برهان صارخ على نزاهته وترفّعه على زخارف المال والسلطان، وكان ﷺ أشدّ الناس تواضعاً، وأزهدهم في مظاهر الأبّهة والجلالة، كان يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويحمل بضاعته من السوق، ويُجالس الفقراء، ويواكل المساكين، وقد ٱرتحل إلى عالم الخلد، ودرعه مرهونة على قَرضٍ أنفقه في ضَرورراتِ عياله!! وكان في وسعه أن يستجمع لذائذ العيش وزخارف الحياة كلّها، ولكنّه الزّاهد الّذي حُبِّب إليه حياة الشّظف والحرمان.

قال (كاريل)، وهو يُفنِّد إتّهام النّبيّ ﷺ بالمال والسلطان:

«ويزعم المتعصِّبون أنّ محمّداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان... كلّا وإسم الله لقد ٱنطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس، المملوء رحمةً وبرّاً وحناناً، وخيراً ونوراً وحكمة، أفكارٌ غير الطّمع الدنيوي، وأهدافٌ سامية غير طلب الجاه والسلطان.

لقد كان زاهداً متقشِّفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه، وسائر أموره وأحواله، فكان طعامه عادة الخبز والماء، وكثيراً ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار. فهل بعد هذا مكرمة ومفخرة؟

فحبّذا محمّد من رجل متقشِّف، خشن الملبَس والمأكل، مجتهد في الله، دائب في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان»[1].

---

(١) أوروبا والإسلام، من سلسلة الثقافة الإسلامية، للدكتور عبدالحليم محمود، ص٣٨.

وقال (جيمس متشنر):

«قد أحدث محمّد بشخصيّته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية، وفي الشرق كلّه. فقد حطّم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده، ورفع عن المرأة قيد العبودية الّتي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الإجتماعية، وقد عُرِضَ عليه في آخر أيامه أن يكون حاكماً بأمره، أو قدّيساً، ولكنّه أصرّ على أنّه ليس إلّا عبداً من عباد الله، أرسله إلى العالَمِ منذراً وبشيراً»(١).

اتّهام النّبيّ ﷺ بالشّهوة الجنسية العارمة:

وليس شيء أدعى إلى السخرية والرِّثاء من وصم النّبيّ ﷺ بالتولّه بحبِّ النِّساء، والولع بالرغبات الجنسية، محتجِّين على ذلك بتعدّد أزواجه!!

لا يشين الرّجل الممتلئ بالصحّة والقوّة والرجولة، ولا يعيبه قوّة غريزته الجنسية، وإنّما يُشينه ويُزري به أن يكون مُسْتَرَقاً لتلك الغريزة، تُسخِّره لإشباعها كيف تشاء، وتستنفذ طاقاته على حساب طاقاته الأخرى.

وهذا ممتنع على النّبيّ ﷺ، حيث كان أرفع نفساً، وأسمى هدفاً، وأثمن وقتاً من التولّع بالنِّساء والهيام بحبِّهنّ. والثابت من سيرته أنّه كان يصرف أوقاته الثمينة المباركة على جلائل الأعمال والغايات: على عبادة الله عزّ وجلّ، واستلهام وحيه، وتبليغ رسالته، ورعاية المسلمين وحلِّ مشاكلهم، وقيادة الحروب الإسلامية، وردّ شبهات الملحدين والمنافقين، ونحو ذلك من وظائف النّبوّة والأنبياء، وواجباتهم العديدة المقدّسة، فأنّى له هذا الوقت الفارغ ليُبدِّده فيما يتّهمه به الأعداء؟!!

واحتجاجهم بتعدّد أزواجه ناشئ من جهلهم بأهدافه وغاياته من ذلك التعدّد:

---

(١) الإسلام والعلم الحديث، لعبدالرزّاق نوفل، ص ٦١.

فقد كان يستهدف بمصاهراته العديدة، إنشاء العلائق وتوثيق الروابط مع الأسر الّتي صاهرها، ومن ثمّ ٱستمالتها إلى معاضدته على نشر الدعوة الإسلامية وإرساء دعائم الإسلام.

ولا غرابة في ذلك، فطالما تذرّع الملوك والرؤساء بمصاهرة قادتهم وزعماء شعبهم لإنشاء العلائق الودِّية، وتعزيز أواصر الزّلفى والقُربى بينهم وبين أصهارهم.

وربّما ٱتّخذوا المصاهرة وسيلة للتقارب والتعاطف مع الدول الأخرى، تحقيقاً لذلك الهدف المنشود.

وهذا ما توخّاه الرسول الأعظم ﷺ من مصاهراته العديدة، وتزوّجه النساء العديدات. فهو ﷺ لم يتزوّج امرأة رغبةً في جمالها الباهِر، وحُسْنها الفاتِن، وكان معظم نسائه من الأيامى والأرامل اللّاتي فقدنَ أزواجهنّ في الحروب الإسلامية، والذّود عن كيان الإسلام، وحُرِمنَ من أكفاء الرجال، ولم يبن بامرأة عذراء إلّا عائشة، وذلك بعد وفاة خديجة بنت خويلد.

وهكذا جهل الحاقدون خصائص الرسول ﷺ، والأحكام الّتي ميّزهُ الله بها عن أمّته، فأوجب عليه ما لم يجب على غيره من المسلمين: كالتهجّد باللّيل، وقضاء دَيْن الميِّت الفقير، وحرّم عليه وعلى ذرِّيّته أخذ الزّكاة الواجبة، وأباحَ له ما حرّم على غيره من التزوّج بما زاد عن أربع زوجات.

فعَلامَ هذا الإجحاف حول الرسول ﷺ في أمر إباحة الله له ويبغون تحريمه عليه ؟!!

قال (كاريل) وهو يُدلي بشهادته المنصفة في هذا المجال:

«ما كان محمّد أخا شهوات، برغم ما ٱتُّهِمَ به ظلماً وعدواناً، وشدّما نجور ونُخطئ إذا حسبناه رجلاً شهوياً، لا همّ له إلّا قضاء مآربه من الملاذ. كلّا! فما أبْعَد

ما كان بينه وبين الملاذ أيّاً كانت»[١].

ومن الغريب أن نجد أعداء الإسلام رغم اختلاف أديانهم، وتناقض مبادئهم، ورغم تباغضهم وتناحرهم، قد اتّفقوا وتألّبوا على الكيد للإسلام والطّعن فيه، والتشنيع عليه ما وسعهم ذلك.

فمن أراجيفهم أنّ «الدِّين أفيون الشّعوب». وهذه قولة (كارل ماركس) وأشياعه الّذين دأبوا على ترديدها، ونشرها في الأوساط الإسلامية خاصّة.

وربّما كان لأنصار هذه الفكرة عذرهم في اختلاقها وترويجها. حيث كانت أوروبا عامّة وروسيا خاصّة تعيش طبقيّة مذلّة، وغبناً اجتماعياً فاحشاً، ضاعت في سورته قيم الإنسانية، وتلاشت في بطره مفاهيم العدل والإنصاف، فكان الإقطاع يُمثِّل أبشع صور الإستعباد ويُمارس أقسى صور الظّلم والإضطهاد، يتمتّع أربابه في بذخ مفرط وترف فاجر، وازاءهم جماهير الشعب تُعاني مآسي البؤس والشّقاء وتُكابد آلام المرض والحرمان، ويهلك كلّ سنة منهم حشود هائلة فريسة الجوع والمرض والبرد، وأسيادهم في بروجهم العاجيّة لاهون عنهم، لا يعيرونهم عطفاً واهتماماً.

وكلّما أظهر البؤساء شعور السخط والإستنكار على أربابهم، وحاولوا الثورة عليهم، والتخلّص من أسرهم واضطهادهم، بادرهم رجال الكنيسة ـ وكانوا أنصار الإقطاع ومؤيِّديه ـ يُخدِّرون مشاعرهم باسم الدِّين، ويُحبِّذون لهم الصبر على الظلم، والخنوع والإضطهاد:

«لا تُقاوموا الشرّ، بل مَنْ لطمكَ على خدِّكَ الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً، ومَنْ أراد أن يُخاصمكَ ويأخذ ثوبك، فاترك له الرِّداء أيضاً، ومَنْ سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين» (انجيل متّى، الإصحاح الخامس، آيات ٣٩ ـ ٤١).

---

(١) الإسلام بين الإنصاف والجمود، ص ١٣٩.

في ذلك المحيط البائس، نبتت فكرة (ماركس)، وفي جوِّه المكفهرّ المحموم، نمت وترعرعت حتّى أصبحت شعاراً يُنادي به كلّ ناعق مُضللّ.

ولئن كان لدُعـاة هذه القولة ظروفهم وملابساتهم الّتي أملَتْها عليهم، فما بال أغرار المسلمين يُردِّدونها ترديد الببغاء، ويتشدّقون بها تشدّقاً غبيّاً، دون وعي وتمييز بين واقعنا وديننا وواقع أولئك المخدّرين ودينهم.

ليس الإسـلام ـ كما يتوهّمـونه ـ أفيون الشـعوب، وليس هو مخدِّر البؤسـاء والمظلومين عن المطالبة بحقِّهم، ودفع الضّيم عنهم، وحسبه شرفاً أنّه مُفجِّر الثورات الإصلاحية، وراشد التحرّر في الشرق الإسلامي، وأنّ جميع النّهضات التحرّرية ضدّ الغُزاة والمستعمرين كانت بوحي الإسلام وتحفيزه وإلهامه.

وكيف يُتّهم الإسلام بالتخدير؟! وهو الّذي نفخ في أتباعه روح العزّة والكرامة والإباء، وحبّب إليهم التضحية والفداء في إحقاق الحقّ وإقامة العدل، ونصرة المظلوم، وقمع الطّغاة والجبّارين:

﴿وَما لَكُم لا تُقاتِلُـونَ في سَـبِيلِ ٱللهِ وٱلمُسْـتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجـالِ وٱلنِّسـاءِ وٱلوِلْدانِ ٱلّذينَ يَقُـولونَ رَبّنا أخْرِجْنا من هذهِ ٱلقَـرْيَةِ ٱلظّالِمِ أهْلُها وٱجْعَـلْ لَنا مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً وٱجْعَلْ لَنا مِن لَدُنْكَ نَصِيراً﴾. (النِّساء / ٧٥)

كيف يكون الإسلام مُخدِّراً؟! وهو يأمر بالجهاد وإعداد القوى الكفيلة بحماية أتباعه وصدّ العدوان عنهم:

﴿وَمَن يُقاتِل في سَبيلِ ٱللهِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نؤتِيهِ أجْراً عَظِيماً﴾.

(النِّساء / ٧٤)

﴿وَأعِدُّوا لَهُمْ ما ٱسْتَطَعْتُمْ مِن قُوّة﴾. (الأنفال / ٦٠)

وكيف يُنبَز الإسلام بالتخدير؟! وهو الّذي ندّد بالمُترفين، وأمطرهم بصواعق

وعيده وعذابه:

﴿وإذا أَرَدْنا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً أمَـرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْها ٱلقَـوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً﴾. (الإسراء/ ١٦)

﴿وأصْحابُ ٱلشِّمالِ ما أصْحابُ ٱلشِّمالِ * في سَمُومٍ وحَمِيمٍ * وظلٍّ مِن يَحْمُومٍ * لا بارِدٍ ولا كَرِيمٍ * إنّهُم كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِين﴾. (الواقعة/ ٤١ ـ ٤٥)

وكيف يوسَم الإسـلام بالتخدير؟! وهو الّذي شرّع القصاص والحـدود، قمعاً للعابثين بأمل الناس وحرماتهم:

﴿وَلَكُم في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألبابِ لَعَلَّكُم تَتَّقُون﴾. (البقرة/ ١٧٩)

﴿فَمَن ٱعْتَدىٰ عَلَيْكُم فاعْتَدُوا عَلَيهِ بِمِثْلِ ما ٱعْتَدىٰ عَلَيْكُم﴾. (البقرة/١٩٤)

﴿إنّما جَزاءُ ٱلّذينَ يُحارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في ٱلأرْضِ فَساداً أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيْدِيهِم وأرْجُلُهُم من خِلَافٍ أو يُنفَوا مِنَ ٱلأرْضِ ذٰلكَ لَهُم خِزْيٌ في ٱلدّنيا ولَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيم﴾. (المائدة/ ٣٣)

فأين تقع فرية التخدير من عظمة الإسلام؟!!

الإسلام والرجعية:

وهكذا ٱتّهم المهرِّجون الإسـلام وأنصاره بالرجعيـة، ووسـموا المتحلِّين من فضائله ومُثُله العُليا بِسِماتِ التقدّمية، وقبل مناقشة هذه الشّبهة الغبيّة، يحسن بنا تبيان معناها الحقّ، وتحديد مدلولها الصادق.

فالتقدّمية: مشـتقّة من التقـدّم نحو الأمـام. ويُقصد بها السّـير نحو التكامل والتحلِّي بالفضائل والمكارم الباعثة على رُقيِّ الإنسان وإسعاده.

والرجعية: مشتقّة من التراجع إلى الخلف. ويُراد منها حياة الجهل والتخلّف والإتّصاف بصفات الجاهلية المتحلِّلة من قِيَم الدِّين والأخلاق.

وقد شاء المغرضون أن يُحرِّفوا واقع اللّفظين عن معناهما الحقّ، فأطلقوا التقدّمية على مدلول الرجعية، ووسموا الرجعية بسمات التقدّمية.

فحسبوا أنّ التقدّم معناه الإستخفاف بالدِّين، والكفر بقِيَم الأخلاق وإطلاق الغرائز والشّهوات تعبث كما تشاء، وتلهو كما تحبّ، وتمارس الآثام والمنكرات المحظورة شرعاً وأخلاقاً: كالخمر والميسر والخلاعة وٱتّخاذ العشيقات والأخدان، ونحو ذلك من ألوان الميوعة والتحلّل، الّتي تُمثِّل عهود الجاهلية الأولى.

وزعموا أنّ الرجعية مصداقها الإيمان بالدِّين، والتمسّك بالفضائل الروحية والأخلاقية، والتحلِّي بالعفّة والنزاهة عن الرذائل والمنكرات، فهذه كلّها سمات الرجعية والتخلّف وخِلال التحجّر والجمود. ومن هنا انبثقت تُهمة الدِّين بالرجعية، ووُصِمَ المحافظون عليه، والسائرون على هُداه بالتخلّف!!

كيف يُتّهم الإسلام بالرجعية؟! وهو الّذي نقل الأمّة العربية تلك النقلة المدهشة، وأنقذها من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ومن هوان العبودية إلى عزّ السِّيادة، ومن خِسّةِ الجهل إلى شرف العلم، ومن ضنك العيش إلى رغد الحياة، ومن ذمائم الأخلاق إلى محاسنها ومكارمها.

كيف يُوصَم الإسلام بالرجعية؟! وهو الّذي أنارَ الدنيا بمبادئه الخالدة ودستوره المثالي، وحضارته الزاهرة الّتي ٱنبثقت منها حضارة القرن العشرين، وٱنتهلت من ينابيعها الثرّة المعطاء.

ليس الإسلام كما يُصوِّره أعداؤه، رجعيّةً وتخلُّفاً، وإنّما هو دين التقدّمية الحقّة، ومفهومها الأصيل الرفيع.

الإسلام والمثالية:

ومن غرائب المعاندين، وهَوَسِهِم العصبي، أنّهم يتعسّفون ضروب الدّسّ والإختلاق على الإسلام، دون تعقّل وتفهّم، فيما يقعون فيه من ضروب التخبّط والتناقض. فمرّة يتّهمونه بتخدير الشعوب، وأخرى بالرجعية والجمود، وثالثة بالمثالية المُناقِضَةِ لتهمهم السالفة!

ماذا يقصدون بمثالية الإسلام؟!

أيقصدون أنّه دستور مغالٍ في مثاليّته، ومحلّق في أجواء المُثُل العُليا الّتي يعسر تطبيقها على البشرية؟!

أم يعنون أنّه دستور واقعي عملي، بيدَ أنّ المسلمين لم يُطبّقوه إلّا فترة خاطفة من تاريخ الإسلام؟!

والفرض الأوّل: واضح البطلان، إذ لو لم يكن الإسلام قابلاً للتطبيق وصالحاً لتنظيم حياة البشر وإسعادهم، لما ٱستطاع المسلمون الأوّلون أن يُنفّذوا دستوره، ويسيروا على ضوئه في مختلف مجالات الحياة، وحقولها الدينية والمدنيّة، ولما تسنّموا مركز القيادة والزّعامة العالمية، ومتى أمكن تطبيقه في ظرف خاص، كان ذلك برهاناً على واقعيّته، وإمكان تطبيقه مدى العصور والأجيال.

هذا إلى أنّ جميع الشرائع الإلٰهية الّتي عرفتها البشرية، وجميع المبادئ الوضعية لا تلحق شأوَ الإسلام، ولاتبلغ أوجَهُ الرفيع في كمال العقيدة وشمول الشريعة، وجَلال النظم، وسماحتها ويُسرها، وقدرتها البالغة على تنظيم حياة البشر، وتصعيدها ديناً ودنياً.

فكيف ٱستطاعت الأمم تطبيق تلك الشرائع والمبادئ، ولا تستطيع تطبيق الإسلام رغم ملائمته للفطر السليمة وأطوار الحياة الصاعدة؟!

وسرّ هذا التفريق أنّ الإسلام لم يتسنّ له ما تسنّى لها من حكم قاهر وسلطان نافذ يفرض على الناس تطبيقه وٱتّباعه بالحديد والنار.

على أنّ طبيعة الإسلام ومزاجه الخاص يستنكر المثالية الخيالية، ويشجب الواقعية المتزمّتة، ويختار بين هذه وتلك نهجاً قاصداً سويّاً لا إفراط فيه ولا تفريط.

فهو لا ينزع إلى الأولى لمناقضتها طبيعة الإنسان وغرائزه الأصيلة، ولا يجنح إلى الثانية لما تتّسم به من قسوة وتزمّت، فالإنسان مطبوع على الحبّ والكره، والعفو والإنتقام، والكرم والبُخل، والنّزوع إلى المثالية معناه إيثار الحبّ والعفو والكرم فيما يحسن وفيما لا يحسن، وفيمَن يستحقّ ذلك أو يستحقّ نقيضها من الصّرامة والجفاء.

وهذا باعث على تحمّل الضّيم والهوان، والتجرّد من خِلال الرجولة والنّخوة والحميّة.

إذا أنتَ أكْرَمْتَ الكريمَ ملكتهُ وإنْ أنتَ أكْرَمْتَ اللّئيمَ تمرّدا
ووضعُ النّدىٰ في موضعِ السيفِ بالعُلا مُضرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندى

كما أنّ الجنوح إلى الواقعية، باعث على التزمّت المقيت والعزوف عن قيم الإنسانية ومُثُلها الرفيعة.

من أجل ذلك، آثرَ الإسلام الإعتدال والتوسّط في مختلف جوانبه التعبّدية والتشريعية، وامتازت أمّته بهذه الميزة الكريمة:

﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُم أُمّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهداءَ عَلى ٱلنّاسِ ويَكُونَ الرّسُولُ عَلَيْكُم شَهيداً﴾. (البقرة/ ١٤٣)

فهو يُحبِّذ الاعتدال في العبادة: بحيث لا يغفلها المسلم ولا يتضرّر بها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**خادِع نفسكَ بالعبادة ولا تقهرها، وخُذ عفوها ونشاطها، إلّا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة فإنّه لا بدّ لكَ من قضائها وتعاهدها**

عند محلّها»[1].

ويُحبِّذ الإعتدال في حُبّ الدنيا: بحيث لا يزهد المسلم فيها، ولا يتهالك عليها.

«ليسَ منّا مَنْ تركَ دُنياه لآخرته، ولا آخرته لدُنياه».

ويُحبِّذ الإعتدال في الإنفاق: بحيث لا إقتار ولا تبذير فيه.

﴿ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ ٱلبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾. (الإسراء / ٢٩)

ويُحبِّذ الإعتدال في الطّعام والشّراب: بحيث لا إسراف ولا حرمان:

﴿وَكُلُوا وٱشْرَبُوا ولا تُسْرِفوا، إنّهُ لا يُحِبُّ ٱلمُسْرِفِين﴾. (الأعراف / ٣١)

وأمّا الفرض الثاني في مثالية الإسلام: أنّه دستور واقعي عملي، ولكنّه لم يطبّق إلّا في فجر الإسلام، وإبّان مولده.

وهذا حقّ أريد به باطل: فالأمّة الإسلامية رغم ٱنحراف حكّامها عن الإسلام، وتحلّل أكثرهم من قيمه ومفاهيمه، فقد ظلّت محتفظة بروح دينها، ومحتكمة إلى دستوره، ومستمسكة بشعائره وآدابه.

وظلّ الإسلام مشعلاً وهّاجاً تستهدي به الأمم، وتستمدّ منه مبادئ الحضارة وأصول المدنيّة. ولكن الأحداث الخطيرة، والحملات الضارية عليه، كان لها آثارها في تقليص سلطانه، وإضعاف مدِّه، ولولاها لساد أغلب الأمم ورفرفت رايته على بقاع الأرض.

فليس الإسلام دستوراً مثالياً كما يتوهّمه الحاقدون عليه، وإنّما هو دستور عملي كافل، طبّقه المسلمون حيناً من الزّمن، وهو اليوم كما كان صالحاً للتطبيق، وقادراً على هداية البشر وإسعادهم.

---

(١) نهج البلاغة.

الإسلام والسيف:

وهكذا شاء المغرضون أن يعزوا ٱنتشار الإسلام، وٱرتفاع مدِّه إلى قوّة السيف والإرغام على ٱعتناقه، محتجِّين على ذلك بالحروب الإسلامية.

هذه فرية مدجّلة، يعـرفها كلّ مَنْ خبرَ الإسـلام، وعرف نزعته السـلمية، ودعوته إلى السلام، وحرصه البالغ على إحلاله ونشره، وقد أوضحتُ ذلك في البحث السالف: (الإسلام دين السلام). وحسبك برهاناً على اختلاف تلك الشّبهة وسقوطها، إعلان القـرآن الكريم عن رغبته في السِّلم وترفّعه عن وسـائل القهر والإكراه على ٱعتناقه:

﴿لا إكْراهَ في ٱلدِّينِ، قَد تَبيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلغَيِّ﴾. (البقرة / ٢٥٦)

﴿إدعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ وٱلمَوْعِظَةِ ٱلحَسَنَةِ وَجادِلْهُم بالّتي هِيَ أحْسَن﴾.
(النّحل / ١٢٥)

﴿وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلى ٱللهِ إنّهُ هُوَ السّميعُ العَلِيم﴾.
(الأنفال / ٦١)

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين﴾. (الكافرون / ٦)

وأحداث التاريخ شاهدة أنّ ٱعتناق الناس للإسلام، ودخولهم أفواجاً فيه كان بدافع الرغبة، والإعجاب فيه، ناهيكَ أنّ أغلب الداخلين فيه قد ٱعتنقوه في ظروف كان الإسـلام فيها مُضطهَداً، والمسلمون فيها مستضعفون، لا يملكون حولاً ولا قوّة تُخوِّلهم فرض إرادتهم على الناس وإكراههم على الإسلام.

ففي فجر الدعوة الإسلامية، وحينما كان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم مستضعفاً في مكّة، دخل الإسلام جماعة من أماثل قريش وأعلام العرب.

وفي غمـرة ذلك الإضطهاد المرير الّذي عاناهُ النّـبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في مكّة وصابرهُ ثلاثَ عشرة سـنة، وقاسى المسـلمون فيها ألوان التعذيب والتنكيل حتّى ٱستشهد

بعضهم فيه، توافدت زُمَرٌ من أهل المدينة على الرسول ﷺ وأسلمت على يديه، وعادت مزهوَّةً بدينها الجديد، ومبشِّرة بمفاهيمه الخالدة.

ودارَ الزّمن دورته حتّى تمّ صلح الحديبية، وتلتهُ فترة السّلم والهدنة الّتي استغرقت سنتين، أسلمَ خلالها جمعٌ غفير من الناس يعدل الداخلين في الإسلام منذ مولده حتّى ذلك الصّلح.

وغزا الصّليبيون الشرق الإسلامي، عامدين على تدمير الحضارة الإسلامية وإبادة المسلمين، ولكنّه سرعان ما بهرتهم محاسن الإسلام وتعشّقه أحرارهم فاعتنقوه، وٱستظلّوا بظلاله الوارفة النديّة، وطفقوا بعد إسلامهم يجاهدون في صفوف المسلمين أقوامهم الصّليبيين.

قال (توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، ص ١٠٨:

«لقد اجتذبت الدعوة المحمّدية إلى أحضانها من الصّليبيين عدداً مذكوراً حتّى في العهد الأوّل، أي في القرن الثاني عشر، ولم يقتصر ذلك على عامّة النصارى، بل بعض أمرائهم وقادتهم ٱنضمّوا إلى المسلمين في ساعات ٱنتصار المسيحيين».

وتكرّر هذا الحدث المدهش في هجوم المغول على العالم الإسلامي، ذلك الهجوم الكاسح المدمِّر، وإذا بالإسلام ـ رغم ضعفه آنذاك ـ يجتذب حشداً خيِّراً من أولئك الغُزاة الفاتحين، ويُحفِّزهم على ٱعتناقه.

قال (توماس أرنولد) في كتابه السالف:

«لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوةً من غزوات المغول، فلقد ٱنسابت جيوش جنكيزخان وٱكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية، وقضت على ما كان من مدنيّة وحضارة... على أنّ الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته، وظهر من بين الأطلال، وٱستطاع دعاته أن يجتذبوا أولئك الفاتحين البرابرة ويحملوهم على ٱعتناقه».

وساد الإسلام في ربوع أفريقيا وأندونيسيا وهو أعزل من كلِّ سلاح وعاطل من وسائل القسر والإكراه على ٱعتناقه. وإليك شهادة الكاتب المسيحي الفرنسي (هو بيردشان) حاكم المستعمرات في أفريقيا حتّى عام ١٩٥٠، قال في كتابه (الديانات في أفريقيا)، ص ١٢٨ ـ ١٢٩:

«إنّ ٱنتشار دعوة الإسلام في أغلب الظروف لم تقم على القَسْرِ، وإنّما قامت على الإقتناع الّذي كان يقوم به دعاة متفرِّقون، لا يملكون حولاً ولا طولاً، إلّا إيمانهم العميق بربِّهم، وكثيراً ما ٱنتشر الإسلام بالتسرّب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما ٱعْتَنقَتْهُ الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأوّل، تبعتها بقية القبيلة. وقد يسّر ٱنتشار الإسلام أمراً آخر هو: أنّه دين فطرة بطبيعته سهل التناول لا لبسَ ولا تقييد في مبادئه، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف...».

فنستنتج من هذا العرض التاريخي الخاطف، أنّ الإسلام لم ينتشر بالسيف والإرغام، وإنّما ٱنتشر في ظروف كانت معاكسة له، وبين أقوام كانوا إلباً عليه، وما ذاك إلّا لسماحته ومثاليّته المحبّبة إلى النفوس.

وهنا لابدّ من إلمامة قصيرة نستجلي فيها بواعث الحروب الإسلامية الّتي يتذرّع بها الطاعنون على الإسلام، وإليك أهمّ تلك البواعث:

١ ـ الدفاع عن النفس:

لقد كابدَ الإسلام ضروب الكيد والعسف من أعدائه، داخل الجزيرة العربية وخارجها.

فمن الداخل: كانت قريش قد جنّدت كلّ طاقاتها وإمكاناتها في ٱضطهاد النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وصدِّه عن نشر الدعوة الإسلامية، حتّى تألّبت على قتله وٱغتياله، وجدّت في تعذيب المسلمين والتنكيل بهم ردعاً لهم عن الإسلام. ولمّا وقعت الهجرة، ونجا

الرسول والمسلمون من تلك المآسي والأخطار، تعاضدت قوى الكفر من جديد على غزوِ المدينةِ، وٱستباحتِها وإبادةِ الإسلام والمسلمين فيها.

ومن الخارج: كان الفرس والروم ـ بحُكم جوارهم للجزيرة العربية ـ يتوجّسون من المسلمين المخاوف، ويخشون ٱتِّساع سلطانهم، وٱنتشار دينهم، فطفقوا يتآمرون على الإسلام، ويبيتون له المكائد والشرور، ويتحيّنون الفرص للقضاء عليه.

فماذا يصنع المسلمون والحالة هذه؟

أليسَ من حقِّهم أن يذودوا الأعداء عن دينهم وعرينهم ويحمونهما عن الضّيم والهوان؟!!

أليسَ الجهاد آنذاك ضرورة يفرضها العقل والوجدان، وتسوغها شرائع السماء، وهذا ما ٱستهدفه الإسلام من محاربة أعدائه، بعد أن صابرهم طويلاً، وعانى من جورهم كثيراً.

٢ ـ تأمين الدعوة الإسلامية:

لقد كانت قريش تتوعّد كلّ مَنْ يُحاول اعتناق الإسلام، وتُنذره بالعقوبة الصارمة والعذاب الأليم، ممّا سبّب الفزع والهلع في نفوس الراغبين فيه، والتوّاقين إليه، ومن ثمّ ٱحجامهم عنه، خشية أن يُصيبهم ما أصاب المسلمين الأوّلين من صنوف البطش والتعذيب الّذي أودى بحياة نفر منهم، وتركتهم يخرّون أشلاءً تحت سياط قريش، وتنكيلها الماحق.

ولا ريبَ أنّ الصّبر على تلك المآسي، والخنوع للطّغاة، يفضيان إلى ضعف المسلمين، وٱنهيار معنوياتهم، ويبعث على تجميد الإسلام وحجره عن ٱنطلاقته الكُبرى وأداء رسالته العالمية، الّتي أرادها الله تعالى له.

من أجل ذلك جاهدهم الرسـول ﷺ، وأذلَّ كبرياءهم، تأميناً للدعـوة الإسلامية، وحماية للراغبين في الإسلام.

٣ ـ نشر الدعوة الاسلامية:

لقد شرع الله عزّ وجلّ قـتال الكـفّار والمشركين في جمـيع الشـرائع ومختلف الأديان، ذلك أنّهم بجحـودهم لله تعالى وكفرهم بنعمائه، وٱستبدالهم بعـبادته عبادة الأصنام والطّواغيت، ودأبهم على مناهضة الأنبـياء عليهم السلام، واضطهاد المؤمنـين بهم، وإعاقتهم عن تبليغ دعوتهم ونشر رسالاتهم، كلّ ذلك جرّدهم من حصانة الإنسان المثالي، وسلخهم من حرمات المؤمنين وقيمهم وأقدارهم، فأصبحوا كالجراثيم القاتلة الّتي يجب ٱستئصالها وإبادتها، كما صوّرها القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، علّة نجاستهم كفرهم بالله تعالى، وٱتّصافهم بخِلال الحيوان القذر المسعور.

وقد ٱسـتضرَتْ فئات الكفـر في فجر الإسـلام ضراوة بالغـة، وجهـدت ما ٱستطاعت في خنق الدعوة الإسلامية، وصدّها عن نشر رسالتها الخالدة، ومبادئها السـامية المعـطاء، ممّا ٱضطُرَّ الإسـلام إلى جهادها وإزاحتها عن موكبـه الضّخـم، ومسيرته الصاعدة المجدّة.

وهذا ما أقرّتهُ الشرائع السماوية، وأباحت كفاح أعدائها والمتألِّبين عليها بكلِّ صرامة وحزم، وها هي التـوراة تُحرِّض على ذلك في الإصـحاح العشرين من سـفر التثنية في العدد العاشر وما يليه:

«حين تقرب من مدينة لكي تُحاربها، ٱستدعها إلى الصّلح، فإن أجابتكَ إلى الصّلح وفتحت لك، فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك.

وإن لم تُسـالمك بل عملت حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الربّ إلهـك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السّيف، وأمّا النِّساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة

فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك الّتي أعطاك الربّ إلهك.

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدّاً الّتي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأمّا مدن هؤلاء الشعب الّتي يعطيك الرّبّ إلهك نصيباً، فلا تستبقِ منها نسمة ما بل تحرمها تحريم الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفيرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرّبّ إلهك».

وهكذا صرّح الإنجيل بأنّ المسيح عليه السلام ما جاء ليلقي سلاماً على الأرض بل سيفاً. كما جاء في متّى في الإصحاح العاشر عدد (٢٥) وما بعده:

«لا تظنّوا إنّي جئتُ لألقي سلاماً بل سيفاً، فإنّي لأفرّق الإنسان ضدّ ابنه، والإبن ضدّ أبيه، والكنّة ضدّ حماتها... ومَنْ أضاع حياته من أجلي يجدها».

وهل يؤخَذ الإسلام بعد هٰذين النصّين على محاربة الكافرين وقتلهم؟!

وحسبك برهاناً على ترفّع الإسلام عن وسائل القسر والإكراه على ٱعتناقه، شهادة المنصفين من كتّاب الغرب.

قال (أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام):

«نستطيع أن نستخلص بحقّ أنّ هذه القبائل المسيحية الّتي ٱعتنقت الإسلام، إنّما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرّة، وأنّ العرب المسيحيين الّذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح».

وقال أيضاً: «ويمكننا أن نحكم من الصِّلات الودِّية الّتي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب، بأنّ القوّة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمّد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم، ومنحهم الحرِّية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاحَ لرجال الكنيسة أن ينعموا

بحقوقهم ونفوذهم»[1].

وقال (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب):

«سيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أنّ القوّة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، وأنّ العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن ٱنتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام، وٱتّخذ العربية لغة له، فذلك لما كان يتّصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الّذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة الّتي لم تعرفها الأديان الأخرى»[2].

وقال المسيو (هنري دوكاستري) في كتابه (الإسلام تأثّرات ومباحث):

«فكان من وراء محاسنة المسلمين للأمم المقهورة أن ٱنتشر الإسلام بسرعة، وعلا قدر رجاله الفاتحين... وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصِر للمقهور هي الّتي ضعضعت الديانة النصرانية جدّاً، ثمّ زالت بالمرّة من شمال أفريقيا.

على أنّ الإسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره، فلم يكره على الأخذ به أحداً بالسيف ولا باللِّسان، بل دخل القلوب عن حبّ وٱختيار، وكان هذا من آثار ما أُودِع في القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب»[3].

وحسب الباحث أن يتبيّن أبعاد تسامح المسلمين إبّان سلطانهم إزاءَ المعاهدين الذمِّيين، ويستجلي شراسة السلطات الغربية وفتكها بالمسلمين خاصّة ومخالفيهم في العقيدة عامّة من خلال تاريخها السياسي.

---

(١) روح الدِّين الإسلامي، لعفيف طباره، ص ٢٠١.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٢٦.

(٣) الإسلام دين عام خالد، لفريد وجدي، ص ٢٢٥.

«ففي سنة (١٥٢١) م، كان الموت ومصادرة الممتلكات هو الحكم الّذي أصدره الإمبراطور شارل الخامس ضدّ جميع الهراطقة... وكانت عقوبة حرق الناس وشنقهم، وتمزيق جثثهم، وليّ ألسنتهم، هي العقوبات الشائعة لَمن يرفضون قبول الإعتراف بصحّة العشاء الربّاني على الطريقة الّتي يقول بها شارل.

أمّا في انكلترا، بعد أن أصبحت بروتستانتية، فكان البروسبتاديون طوال عهود ملوك عدّة، يُسجنون ويُكْوَوْن بالنار، ثمّ يُجلدون، وتُشوّه أجسادهم، ثمّ يُعرَضون في صندوق التعذيب.

وفي اسكتلندا، كانوا يُصادون في الجبال، فتصلم آذانهم من عروقها، ويُكْوَوْن بالحديد الملتهب، وتُلوى أصابعهم من خلاف. أمّا عظام سوقهم فتُهْرَس في أحذيتهم. كانت النِّساء يُجْلَدْنَ أمام الجمهور في الطرقات والشوارع، ويُعذّبُ الكاثوليك ويُشنقون، أمّا المعمدانيون والآريون، فكانوا يُحرقون أحياءً.

وبخصوص غير المسيحيين، فإنّ الكاثوليك والبروتستانت والأرثودكس وغيرهم، كانوا يعتبرون المسلمين واليهود خارجين من حظيرة المسيحية. وعلى هذا الأساس كان اليهود يُعذّبون في انكلترا ويُشنقون، أمّا المسلمون في إسبانيا فكان يتمّ حرقهم أحياء.

ومنذ المذابح الّتي أقامها شارلمان باسم الدِّين، فقاسى ويلاتها السكسون والفريذيون والقبائل الجرمانية الأخرى، ومن عقوبة الحرق حتّى الموت لآلاف الأبرياء من النِّساء والرِّجال...

وحين ٱحتلّ الصّليبيون مدينة القدس، فقد كانت أمخاخ رؤوس الأطفال الصِّغار تُلصق بالجدران حين تُسْحَق جماجمهم عليها... وكان الأولاد يُمزّقون على آلات الحصار، والرِّجال يُشْوَوْن على النار...

أمّا اليهـود، فقد سيقوا إلى كنيسهم حيث أُحرقوا دفعة واحدة. وفي مذبحـة واحدة، أُزهقت أرواح ما ينوف عن سبعين ألف إنسان.[1]

أمّا المسلمون، فكانوا يطلبون من أبناء دينهم مجرّد ضمان للمسالمة والصّداقة ثمّ الجزية لقاء الحماية، والتمتّع بحقوق مكافئة وٱمتيازات مماثلة...»[2].

إلى كثير من تلك الشهادات الّتي يطول عرضها في هذا المجال المحدود.

الإسلام والرِّقّ:

ومن مطاعن المهرِّجين على الإسلام، أنّه أباح الرِّقّ وأقرّ الإسترقاق، وتذرّعوا بذلك إلى ثلبه والوقيعة فيه.

وهذا اختلاق على الإسلام!! فليس هو المشرِّع للرِّقّ، ولا المستبيح الوحيد له، وإنّما كان شـائعاً متداوَلاً عبرَ العصـور، ومختلف الحضارات، وفي أشهر الشرائع السماوية، عرفتهُ الأمّة اليونانية، وأقرّه مشاهير فلاسفتها، وقادة الفكر فيها، وتعاطته الأمّة الرومانية، وأسرفت في اضطهاد الأرقّاء وإذلالهم، حتّى ٱستباحت قتلهم دون خيانة أو جرم. وأباحته الشريعة اليهودية، بيدَ أنّها ميّزت الأرقّاء الإسرائيليين عن غيرهم، فجوّزت ٱسترقاق الإسرائيلي حسب شروط وأوصاف ذكرها العهد القديم، كما جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج (٢ ـ ١٢):

«إذا ٱشتريتَ عبداً عبرانياً فستّ سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حرّاً مجّاناً، وإن دخل وحده، فوحده يخرج، إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه، إن أعطاه سيِّده امرأة وولدت له بنين وبنات، فالمـرأة وأولادها يكونون للسيِّد، وهو يخرج وحده،

---

(١) تاريخ التطوّر الفكري في أوروبا، للبروفسور دربير، ج ٢، ص ٢٢.

(٢) روح الإسلام، للسيِّد أمير علي، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦ باختصار.

ولكن إذا قال العبد أحبّ سيِّدي وإمرأتي وأولادي لا أخرج حرّاً، يُقدِّمه سيِّده إلى الله ويُقرِّبه إلى الباب أو إلى القائمة، ويثقب سيِّده أذنه بالمثقب يخدمه إلى الأبد».

وأمّا ٱسترقاق غير الإسرائيلي، فقد رخصت في التنكيل به وسومه سوء المذلّة والعذاب، وأباحت قتله وسبي نسائه وذراريه وٱغتنام أمواله، كما جاء في الإصحاح العشرين من سفر التثنية العدد العاشر الّذي عرضناه في البحث السالف ص ٣٣١.

وهكذا صرّح العهد القديم بإباحة الرِّقّ في مواطن أخرى.

فقد جاء في سفر التكوين الإصحاح التاسع (٢٥):

«ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته، وقال: مبارك الربّ إله سام، وليكن كنعان عبداً لهم...».

ودرجت الشريعة المسيحية على نهج اليهودية في إباحة الرِّقّ والإسترقاق، فكان القِسِّيسون يأمرون الأرقّاء بطاعة أسيادهم كطاعتهم للسيِّد المسيح.

قال بولس في رسالته إلى أهل أفسس:

«أيّها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ولا بخدمة العين كمَن يرضى الناس بل كعبيد المسيح، عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنيّة صالحة كما للرّبّ ليس للناس...».

وجاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر، ص ٨٦٥ من المجلّد السابع:

«الدِّيانة المسيحية لم تستنكر الاسترقاق في ذاته، ولم تعمل على إبطاله، فإنّ شريعته لم تكن قطّ لديهم موضعاً للبحث».

وجاء في قاموس الكتاب المقدّس للدكتور (جورج يوسف):

«إنّ المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي، ولا من وجهها الإقتصادي، ولم تحرِّض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية، حتّى

ولا على المباحثة فيها، ولم تقل شيئاً ضدّ حقوق أصحاب العبيد، ولا حرّكت العبيد إلى طلب الإستقلال، ولا بحثت عن مضار العبودية، ولا عن قساوتها، ولم تأمر بإطلاق العبيد حالاً، وبالإجمال لم تغيِّر النسبة الشرعية بين المولى والعبد بشيء، بل بعكس ذلك، فقد أثبتت حقوق كلّ من الفريقين وواجباته».

وتعاطت الأمم الغربية الاسترقاق بأبشع صوره وأقسى أساليبه، وظلّ سائداً فيها زهاء ألف سنة من بعد الإسلام، حتّى قرّرت إلغاءه قبيل القرن التاسع عشر.

فقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية، ج ٢، ص ٧٧٩:

«إنّ اصطياد الرّقيق من قُراهم المحاطة بالأدغال كان يتمّ بإيقاد النار في الهشيم الّذي صُنعت منه الحضائر المحيطة بالقرى، حتّى إذا نفر أهل القرية إلى الخلاء، تصيّدهم الإنجليز بما أعدّوا لهم من الوسائل».

وذكرت أيضاً: «إنّ التجّار البريطانيين كانوا يوردون الرّقيق إلى المستعمرات الإسبانية، ومكثت هذه التجارة مدّة طويلة في أيدي شركات حصلت من الحكومة البريطانية على حقّ احتكارها، ثمّ أطلقت فيها أيدي جميع الرعايا البريطانيين، ويُقدِّر (برايان إدوارد) مجموع ما استولى عليه البريطانيون من الرقيق واستعبدوه في المستعمرات من (١٦٨٠ ـ ١٧٨٦) بحوالي ٢٫١٣٠٫٠٠٠ شخص».

ونستنتج من هذا العرض الخاطف أنّ الرِّقّ كان شائعاً ومتداولاً في كافّة الأمم والعصور القديمة والحديثة، وأنّه كان يعاني أبشع صور الإستعباد والإستذلال. ولمّا جاء الإسلام أحاط بذلك خبراً، وأيقنَ أنّه ليس من الحكمة والصّواب إلغاء الرّقيق وتحريره تحريراً آنيّاً باتّاً، لأنّ ذلك يؤدِّي إلى مشاكلَ وأزماتٍ في حياة السادة والأرقّاء معاً.

فالتحرير المفاجئ يُحدِث بلبلة اجتماعية واقتصادية خطيرة بانعتاق الأرقّاء وتخلّفهم عن أعمالهم ووظائفهم الّتي كانوا يمارسونها في ظلِّ أسيادهم، ومن ثمّ تختلّ

موازين الأعمال، ويتعثّر سيرها وإنتاجها.

هذا إلى ما يُصيب الأرقّاء أنفسهم من مشاكل التعطّل والتسـيّب والحـرمان بمفارقة مواليهم، وهجر أعمالهم الّتي مارسوها ردحاً طويلاً من الزّمن، كما حدث ذلك في أمريكا حينما حرّرت الرقيق، فكان بعضهم يلتمس عملاً يسترزق به فلا يتسنّى له، فيؤوب مسرعاً إلى أسياده لاجئاً إليهم، وملتمساً العيش في ظلالهم.

وليس هذا بمستغرَب «فالكيان النفسي للعبد يختلف عن الكيان النفسي للحرّ، لا لأنّهُ جنس آخر كما ظنّ القدماء، ولكن لأنّ حياته في ظلِّ العبودية الدائمة جعلت أجهزته النفسية تتكيّف بهذه الملابسات، فتنمو أجهزة الطاعة إلى أقصى حدّ، وتضمر أجهزة المسؤولية واحتمال التبعات إلى أقصى حدّ.

فالعبد يُحسن القـيام بكثير من الأمور حين يأمرهُ بها سـيِّده، فلا يكون عليه إلّا الطاعة والتنفيذ، ولكنّه لا يُحسن شيئاً تقع مسؤوليّته على نفسه، ولو كان أبسط الأشياء، لا لأنّ جسمه يعجز عن القـيام بها، ولا لأنّ فكره ـ في جميع الأحـوال ـ يعجز عن فهمها، ولكن لأنّ نفسـه لا تطيـق احتمال تبـعاتها، فيتخيّل فيها أخـطاراً موهومة، ومشكلات لا حلّ لها، فيفرّ منها اتِّقاءً لنفسهِ من الأخطار...

هذا التكييف النفسي لا يذهب به إعلان تصدره الدولة بإلغاء الرّقيق، بل ينبغي أن يُغيّر من الداخل، بوضع ملابسات جديدة تُكيِّف المشاعر على نحو آخر وتُنمِّي الأجهزة الضامرة في نفس العبد، وتصنع كياناً بشرياً سوياً من كيانه المشوّه الممسوخ، وذلك ما صنعه الإسلام»[1].

وشيء آخر يحتِّم على الإسلام إباحة الرِّقّ والتحرّج عن إلغائه. ذلك إنّ من أهم أسـباب تكاثر الأرقّاء وتزايدهم هي الحـروب الّتي درجت الأمم العالميـة على

---

(١) شبهات حول الإسلام، لسيِّد قطب، ص ٣٨ ـ ٤٠.

ٱستعباد المنتصر فيها للمنكسر، وتسخيره وٱضطهاده دون رحمة وإشفاق.

فلو ألغىٰ الإسلام الرِّقّ لأوجب ذلك إطلاق سراح أسرى المحاربين الكفّار، وجعلهم يتمتّعون بكامل الحرِّية والإنطلاق، وترك أسراء المسلمين في قبضة الأعداء، يعانون مآسي العبودية، ومرارة الأسر. وأيّ شريعة أو أمّة ترضى لأتباعها هذا الغُبن الفاحش، والشّقاء المرهق المذلّ؟!

والإسلام بعد هذا كلّه ـ بحُكم واقعيّته ومثاليّته ـ يستنكر أشدّ الإستنكار أساليب الخداع والتضليل الّتي تُمارسها الأمم الإستعمارية الجائرة، حيث ألغت الإسترقاق قولاً، ومارستهُ عملاً وسلوكاً بأبشع صوره وأوسع أبعاده.

«لقد ألغت الثورة الفرنسية الرّقيق في أوروبا، وألغى (لنكولن) الرّقيق في أمريكا، ثمّ اتّفق العالم على إبطال الرِّقّ... كلّ ذلك من الظاهر، وإلّا فأين هو الرِّقّ الّذي أُلغي؟ وما اسم ما يحدث اليوم في أنحاء العالم؟ ما اسم الّذي تصنعه فرنسا في المغرب الإسلامي، وفي الهند الصينية؟ وما اسم الّذي تصنعه أمريكا في الزنوج وإنجلترا في الملوّنين في جنوب أفريقيا(*)؟!

أليسَ الرِّقّ في حقيقته هو تبعيّة قوم لقوم آخرين، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة للآخرين، أم شيء غير ذلك؟ وماذا يعني أن يكون هذا تحت عنوان الرِّقّ، أم تحت عنوان الحرِّية والأخاء والمساواة، ماذا تجدي العناوين البرّاقة إذا كانت الحقائق الّتي وراءها هي أخبث ما عرفتهُ من الحقائق في تاريخها الطويل؟!

لقد كان الإسلام صريحاً مع نفسه ومع الناس، فقال: هذا رقّ وسببه الوحيد هو كذا، والطريق إلى التحرّر منه مفتوح، والطريق إلى إلغائه كذلك موجود، ولكنّ

(*) هذا الّذي تحدّثَ عنه الكاتب قبل تحرير تلك البلدان من الإحتلال والتسلّط الغربي.

فتحه مرهون باتّفاق العالم على عدم استرقاق أسرى الحرب»[1].

ولأجل ذلك، جهد الإسلام في تحرير الرقيق تحريراً صادقاً، وعمد على تقليص ظلّ الرِّقّ تدريجياً، بأساليبه الحكيمة، وتشريعه الهادف، كما تُصوِّره النقاط التالية:

١ ــ أباح للمملوك أن يشتري نفسه من مالكه بعوض مؤجّل معلوم، ويُسمّى هذا الإجراء بـ (المكاتبة).

٢ ــ انعتاق العبد إذا أسلم قبل مولاه في دار الحرب.

٣ ــ تحرير أمّهات الأولاد بموت مواليهنّ من نصيب أولادهنّ.

٤ ــ انعتاق الأبوين وإن علوا، والأولاد وإن سفلوا بدخولهم في ملكيّة مشتريهم، وكذلك تنعتق المحارم من النِّساء كالعمّة والخالة والأخت وبنتها وبنت الأخ، فإنّهنّ ينعتقنَ بتملّكهنّ.

٥ ــ انعتاق العبد إذا عذّبه مولاه ونكل به.

٦ ــ التدبير، وهو: قول السيِّد لعبده أنتَ حرّ بعد وفاتي.

٧ ــ شرّع الإسلام عتق الأرقّاء تكفيراً عن الآثام والجناحات الّتي يقترفها المسلمون كقتل الخطأ، والظِّهار، والإفطار العمدي في شهر رمضان.

٨ ــ حبّذ الإسلام، وشجّع على العتق الاختياري طلباً لرضا الله تعالى، وكسباً لثوابه.

٩ ــ أرصد الإسلام ثمن موراد الزكاة في سبيل تحرير العبيد، وهو مورد ضخم يفي بتحرير جميع الأرقّاء في الأمم الإسلامية.

---

(١) شبهات حول الإسلام، ص ٤٨ ــ ٤٩.

رعاية الأرقّاء:

أمّا الّذين لم تؤاتهم فرص التحرّر والإنعـتاق، فقد لطّف الإسـلام مشاعرهم ورفع معنوياتهم، وأوصى بالرِّفق بهم والعطف عليهم، ورعايتهم مادِّياً ومعنوياً:

﴿وبالوالِدَينِ إحساناً وبِذِي ٱلقُرْبى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وما مَلَكَت أيمانكُم إنّ اللهَ لا يُحبُّ مَنْ كان مُختالاً فَخُوراً﴾ (النِّساء / ٣٦).

وقال الباقر عليه السلام: «**أربع مَنْ كنّ فيه بنى الله له بيتاً في الجنّة: مَنْ آوى اليتيم، ورحم الضّعيف، وأشفق على والديه، ورفق بمملوكه**»[١].

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا أنبّئكم بشرِّ الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله! فقال: مَنْ سافرَ وحده، ومنعَ رفده، وضربَ عبده**»[٢].

وقد كان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار والصّحابة الأكرمون، مثلاً عالياً وتجسيداً حيّاً للعطف والحنو على الأرقّاء، وجهدوا ما استطاعوا في تكريمهم ورفع معنوياتهم.

فقد آخى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بين بعض الموالي وبعض الأماثل الأحرار، وأمّر زيداً مولاه على جيشٍ فيه أعلام المهاجرين والأنصار، وأمّر ابنه أسامة على جيشٍ فيه مشـايخ قريش ووجوه الصحابة، ونال الأرقّاء في ظلِّ الإسلام حظوة بالغة ومكانة مرموقة، رفعت بعضهم إلى دست الوزارة والسلطان.

«ويُحدِّثنا الرواة أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام اشترى ثوبين متفاضلين في الثمن، فآثر غلامه قنبر بأجودهما وأغلاهما ثمناً، فقال له قنبر: أنتَ أولى به، تصعد المنبر وتخطب الناس.

---

(١) البحار، م ١٥، كتاب العشرة، ص ٤١.

(٢) البحار، م ١٥، كتاب العشرة، ص ٤١، عن ثواب الأعمال الصالحة للشيخ الصّدوق.

فقال له الإمام: وأنتَ شـاب ولك شره الشـباب، وأنا أسـتحي من ربِّي أن أتفضّل عليك، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ألبِسُوهم ممّا تلبسون، وأطعموهم ممّا تأكلون»[1].

«وجنى غلام للحسـين عليه السلام جناية توجب العقاب عليه، فأمر أن يُضرَب، فقال: يا مولاي! والكاظمين الغيظ، قال: خلّوا عنه، فقال: يا مولاي! والعافينَ عن الناس، قال: قد عفوتُ عنك، قال: يا مولاي! والله يُحبّ المحسنين، قال: أنتَ حرٌّ لوجه الله، ولكَ ضعف ما كنتُ أعطيك»[2].

«وكان عند الإمام زين العابدين عليه السلام أضياف، فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنّور، فأقبل به الخادم مسرعاً، فسقط السفود منه على رأس بُني لعليّ بن الحسين عليه السلام تحت الدرجة، فأصاب رأسه فقتله، فقال عليّ للغلام وقد تحيّر الغلام واضطرب: أنتَ حرٌّ، فإنّكَ لم تتعمّده، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه»[3].

«وبعث أبو عبدالله الصادق عليه السلام غلاماً له في حاجة، فأبطأ، فخرج أبو عبدالله على أثره، لمّا أبطأ فوجده نائماً، فجلس عند رأسـه يروِّحه حتّى انتبـه، فلمّا انتبـه قال له أبو عبدالله عليه السلام: يا فلان! والله ما ذلك لك، تنام اللّيل والنّهار! لك اللّيل، ولنا منك النّهار»[4].

«وقال الراوي: كنتُ مع الرِّضا عليه السلام في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة، فجمع عليها مواليه من السـودان وغيرهم، فقلت: جُعلتُ فداك! لو عزلت لهـؤلاء

---

(١) البحار، م ٩، ص ٥٠٠، بتصّرف وتلخيص.

(٢) البحار، م ١٠، ص ١٤٥، عن كشف الغمّة.

(٣) كشف الغمّة، للأربلي.

(٤) البحار، م ١٥، باب الحلم وكظم الغيظ، ص ٢١٣، عن الكافي.

مائدة، فقال: مَه، إنّ الرّبّ تبارك وتعالى واحد، والأمّ واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال»[1].

فأين هذه الطِّيبة المثاليـة، والسياسة الحانية العطوف على الأرقّاء ممّا تعانيـه الأمم المستضعفة في القرن العشرين من ضروب الإستعباد والإسترقاق والإضطهاد والتنكيل، كالزّنوج السود في أمريكا والملوّنين في جنوب أفريقيا؟!!

وهل يحقّ لهؤلاء الطّغاة أن ينقدوا الإسلام على إباحة الرِّقّ وإقراره؟!!

(١) الكافي.

الإسلام والمرأة

وهكذا تمادى الحانقون في غيّهم وتجنّيهم على الإسلام، ولم يدّخروا وسعاً في تشويهه واتّهامه بأبشع التّهم والمطاعن: كافترائهم عليه بأنّه يستحقر المرأة، ويستذلّ كرامتها، وينظر إليها نظرته إلى الحيوان المسخّر لمآرب الرجل ومصالحه.

لذلك أجدني مُلزماً بتزييف هذه الفرية، وتحديد واقع المرأة في الإسلام، ومبلغ عنايته بها وعطفه عليها وتكريمه لها، ما جعلها أسعد النِّساء وأوفرهنّ كرامة وعزّاً.

ولا يستطيع الباحث أن يستجلي أبعاد حظوة المرأة وسعادتها في ظلال الإسلام إلّا بالمقارنة بين حياتها وحياة النِّساء، اللّاتي سبقنها أو تخلّفنَ عنها في التاريخ، ليتبيّن المفارقات الجسيمة بينها وبينهنّ.

كما لا يستطيع استجلاء ذلك إلّا بدراسته على ضوء المبادئ السماوية الخالدة، والقِيَم المنطقية الأصيلة المُبرّأةِ من نوازع الجهل والهوى وسيطرة الأعراف والتقاليد المتقلِّبة والمتلوِّنة بتلوّن الأمم الّتي ابتكرتها والظروف الّتي شاعت فيها، فطالما استحسن العُرْف خِلالاً قبيحة، واستقبح سجايا كريمة، متأثِّراً بنوازع هذه أو تلك.

وإنّما يصلح العُرْف للتحكيم إذا كان مستنيراً بهدى الله تعالى، وتوجيهه الحكيم السديد، فإنّه آنذاك لا يُخطئ في الحكم، ولا يزيغ عن العدل والصّواب.

المرأة في التاريخ القديم:

لقد اضطرب المعيار الإجتماعي في تقييم المرأة وتحديد منزلتها الاجتماعية في

عصور الجاهليـة القديمة أو الحديثة، وتأرجح بين الإفراط والتـفريط وبين التطفيف والمغالاة، دون أن يستقرّ على حالٍ رضيٍّ من القصد والإعتدال.

فاعتُبِرت حيـناً من الدهر مخلوقاً قاصراً منحطّاً، ثمّ اعتُبِرت شـيطاناً يُسوِّل الخطيئة ويوحي بالشرّ، ثمّ اعتُبِرت سـيِّدة المجتمع تحكم بأمـرها وتصرفه بمشيئتها، ثمّ اعتُبِرت عاملة كادحة في سبيل عيشها وحياتها.

وكانت المرأة في أغلب العصور تعاني الشقاء والهوان، مهدورة الحقّ مُستَرَقّة للرّجل، يُسخِّرها لأغراضه كيف يشاء.

وهي في تقييم الحضارة الرومانية في تأرجح واضطراب، بين التطفيف والمغالاة: اعتبرتها رقيقاً تابعاً للرّجل، يتحكّم فيها كما شاء. ثمّ غالت في قيمتها فحرّرتها من سلطان الأب والزّوج، ومنحتها الحقوق المِلكيّة والإرثيّة وحرِّية الطّلاق وحرِّية التبذّل والإسفاف، فكانت الرومانية تتزوّج الرّجل بعد الآخر دونما خجل أو استحياء.

«فقد كتب (جوونيل ٦٠ ـ ١٤٠م) عن امرأة تقلّبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات.

وذكر القدِّيس (جروم ٣٤٠ ـ ٤٢٠م) عن امرأة تزوّجت في المرّة الأخـيرة الثالث والعشرين من أزواجها، وكانت هي أيضاً الحادية والعشرين لبعلها»[(١)].

ثمّ أباحوا لها طرق الغواية والفساد، ممّا سبّب تفسّخ المجتمع الروماني ثمّ سقوطه وانهياره. وهي في عُرْف الحضارة اليونانيـة تُعتبر من سقط المـتاع، تُباع وتُشترى، وتُعتبر رجساً من عمل الشيطان.

وقضت شـرائع الهند القديمـة: «أنّ الوباء والموت والجحـيم والسمّ والأفاعي

---

(١) الحجاب، للمودودي، ص ٢٢.

والنار... خير من المرأة». وكان حقّها في الحياة ينتهي بانتهاء أجَل زوجها الّذي هو سيِّدها ومالكها، فإذا رأت جثمانه يُحرَق ألقت بنفسها في نيرانه، وإلّا حقّت عليها اللّعنة الأبدية.

أمّا رأي التوراة في المرأة، فقد وضّحه سفر الجامعة في الكلمات الآتية:

«درتُ أنا وقلبي لأعلمَ ولأبحثَ ولأطلبَ حكمة وعقلاً، ولأعرف الشرّ أنّه جهالة، والحماقة أنّها جنون، فوجدتُ أمرّ من الموت المرأة، الّتي هي شِباك، وقلبها شِراك، ويدها قيود» (الإصحاح ١٤، الفقرة ١٧).(١)

وكانت المرأة في وجهة نظر المسيحية ـ خلال العصور الوسطى ـ مخلوقاً شيطانياً دنساً يجب الإبتعاد عنه.

قال (ليكي) في كتاب (تاريخ أخلاق أوروبا):

«وكانوا يفرّون في ظلِّ النِّساء، ويتأثّمون من قُربهنّ والإجتماع بهنّ، وكانوا يعتقدون أنّ مصادفتهنّ في الطريق والتحدّث إليهنّ ـ ولو كنّ أمّهات وأزواجاً أو شقيقات ـ تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية»(٢).

وهكذا كان المجتمع الغربي خلال تلك العصور، يستخفّ بالمرأة ولا يُقيم لها وزناً.

«فقد عُقد في فرنسا اجتماع سنة ٥٨٦م يبحث شأن المرأة، وما إذا كانت تُعدّ إنساناً أو لا تُعدّ إنساناً. وبعد النقاش، قرّر المجتمعون أنّ المرأة إنسان ولكنّها مخلوقة لخدمة الرّجل»(٣).

---

(١) مقارنة الأديان، الإسلام، للدكتور أحمد شلبي، ج ٣، ص ١٩٦، بتصرّف.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسيِّد الندوي، ص ١٦٠.

(٣) مقارنة الأديان، للدكتور أحمد شلبي، ج ٣، ص ٢٠٠.

«وفي إنجلترا حرّم (هنري الثامن) على المرأة الإنجليزية قراءة الكتاب المقدّس، وظلّت النِّساء حتّى سنة ١٨٥٠م غير معدودات من المواطنين، وظَلَلْنَ حتّى سنة ١٨٨٢ ليس لهنّ حقوق شخصية، ولا حقّ لهنّ في التملّك الخالص، وإنّما كانت المرأة ذائبة في أبيها أو زوجها»[١].

المرأة في المجتمع العربي الجاهلي:

وقد لخّص الأستاذ الندوي حياة المرأة في المجتمع العربي الجاهلي، حيث قال:

«وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، تُؤكل حقوقها وتُبتزُّ أموالها، وتُحرَم من إرثها، وتُعضَل بعد الطّلاق أو وفاة الزّوج من أن تنكح زوجاً ترضاه. وتورَث كما يورَث المتاع أو الدابّة. وكانت المرأة في الجاهلية يُطفّف معها في الكيل، فيتمتّع الرّجل بحقوقه، ولا تتمتّع هي بحقوقها، ومن المأكولات ما هو خالص للذّكور ومحرّم على الأناث، وكان يسوغ للرّجل أن يتزوّج ما يشاء من النِّساء من غير تحديد.

وقد بلغت كراهية البنات إلى حدِّ الوأد، وكانوا يقتلون البنات بقسوة، فقد يتأخَّرُ وأدُ المَوْؤدَةِ لسفرِ الوالد وشغله، فلا يئدونَها إلّا وقد كبرت وصارت تعقل، وكان بعضهم يُلقي الأنثى من شاهق»[٢].

المرأة في الحضارة الغربية الحديثة:

ولمّا بلغت الحضارة الغربية الحديثة أوجها، نالت المرأة فيها ـ بعد جهاد شاق وتضحيات غالية ـ حرِّيتها وحقوقها، وغدت تستشعر المساواة بالرّجل، وتُشاطره

---

(١) نفس المصدر.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسيِّد الندوي، ص٥٧، بتصرّف.

الأعمال في الدوائر والمتاجر والمصانع ومختلف الشؤون والنشاطات الاجتماعية.

وابتهجت المرأة الغربية بهذه المكاسب الّتي نالتها بالدموع والمآسي، متجاهلة واقع غبنها وخسرانها في هذا المجال. ولو أنّها حاكمت وعادلت في ميزان المنطق بين المغانم الّتي حقّقتها والمغارم الّتي حاقت بها... لأحسّت بالأسى والخيبة والخسران.

فقد خدعها دُعاة التحرّر في هذه الحضارة المادِّية، وغرّروا بها واستغلّوا سذاجتها استغلالاً ماكراً دنيئاً. استغلّوها لمضاربة الرّجل ومكايدته حينما بدأ يُطالب بمضاعفة أجور العمل وتخفيف ساعاته. فاستجابت لذلك... تعمل أعمال الرّجل قانعة بأجر دون أجره.

واستغلّوا أنوثتها في الحقل التجاري لمضاعفة الأرباح المادِّية، لقدرتها على اجتذاب الزبائن وتصريف البضائع، مستثيرين كوامن الجنس في نفوسهم. فأيّ استغلال أنكى وأسوأ من هذا الاستغلال؟!

وكان عليها بعد هذا أن تضطلع بمهامها النسوية من الحمل والوضع والتربية والتدبير المنزلي، إلى جانب كفاحها في سبيل العيش، كيلا يمسّها السّغب والحرمان لنكول الرّجل عن إعالتها في الغالب.

وبالرّغم ممّا حقّقته المرأة الأوروبية من صنوف الإنجازات والمكاسب، فإنّها تُعتبر في المعيار المنطقي خاسرة مخفِقة، قد خسرت ازاء تحرّرها دينها وأخلاقها وكرامتها، وأصبحت في حالة مزرية من التبذّل والإسفاف.

تحرير المرأة في الإسلام:

ونُدرك من هذا العرض السالف مبلغ التخبّط والتأرجح في تقييم المرأة عبرَ العصور القديمة والحديثة، دون أن تهتدي الأمم إلى القصد والإعتدال، ممّا أساء إلى المرأة والمجتمع الّذي تعيشه إساءة بالغة.

فلمّا ٱنبثق فجر الإسلام وأطلّ على الدنيا بنوره الوضّاء، أسقط تلك التقاليد الجاهلية وأعرافها البالية، وأشاد للإنسانية دستوراً خالداً يلائم العقول النيِّرة والفطر السليمة، ويواكب البشرية عبرَ الحياة.

فكان من إصلاحاته: أنّه صحّح قِيَم المرأة، وأعاد إليها اعتبارها، ومنحها حقوقها المادِّية والأدبية بأسلوبٍ قاصدٍ وحكيم، لا إفراط فيه ولا تفريط، فتبوّأت المرأة المسلمة في عهده الزّاهر منزلة رفيعة لم تبلغها نساء العالم.

لقد أوضح الإسلام واقع المرأة، ومساواتها بالرّجل في المفاهيم الإنسانية، واتِّحادها معه في المبدأ والمعاد، وحرمة الدم والعرض والمال ونيل الجزاء الأخروي على الأعمال، ليُسْقِط المزاعم الجاهلية إزاءَ تخلّف المرأة عن الرّجل في هذه المجالات.

﴿ يا أيُّها ٱلناسُ إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأنثى وجَعَلْناكُم شُعوباً وقبائِلَ لِتَعارَفوا إنّ أكْرَمَكُم عِنْدَ ٱللهِ أتقاكُم ﴾. (الحجرات / ١٣)

﴿ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِن ذَكَرٍ أو أنثى وهوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أجْرَهُم بِأحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُون ﴾. (النّحل / ٩٧)

وكان بعض الأعراب يَئِد البنات ويقتلهنّ ظلماً وعدواناً، فجاء الإسلام ناعياً مهدِّداً على تلك الجريمة النكراء، ومنح البنت شرف الكرامة وحقّ الحياة:

﴿ وَإذا ٱلمَوْؤُودَةُ سُئِلَت * بِأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَت ﴾. (التكوير / ٨ ـ ٩)

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أوْلادَكُم خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإيّاكُم إنَّ قَتْلَهُم كانَ خِطَئاً كَبِيراً ﴾. (الإسراء / ٣١)

وقضت الأعرافُ الجاهليةُ أنْ تسومَ المرأة ألوان التحكّم والإفتئات، فتارةً تُقسِرها على التّزويج ممّن لا ترغب فيه، أو تَعْضِلها من الزّواج. وأخرى تورَث كما

يورَث المـتاع، يتحكّم بها الوارث كيف يشـاء، فله أن يُزوِّجها ويبـتزّ مهـرها، أو يَعْضِلها حتّى تفتدي نفسها منه أو تموت فيرثها كرهاً وٱغتصاباً.

وقد حرّرها الإسلام من ذلك الأسر الخانق والعبودية المقيتة، ومنحها حرِّية اختيار الزّوج الكفْء، فلا يصحّ تزويجها إلّا برضاها، وحرّم كذلك استيراثها قسراً وإكراهاً:

﴿يا أيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَرِثُوا ٱلنِّساءَ كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنّ﴾. (النِّساء / ١٩)

وكانت التقاليد الجاهلية، وحتّى الغربية منها، إلى عهدٍ قريبٍ تمنع المرأة حقوق الملكية، كما حرمتها الجاهلية العربية حقوق الإرث، لأنّ الإرث في عُرْفهم لا يستحقّه إلّا رجال القبيلة وحُماتها المدافعون عنها بالسيف.

وقد أسقط الإسلام تلك التقاليد الزائفة، ومنحَ المرأة حقوقها الملكية والإرثية، وقرّر نصيبها من الإرث... أمّاً كانت، أو بنتاً، أو أختاً أو زوجة:

﴿لِلْرِجالِ نَصِيبٌ مِمّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلْنِساءِ نَصِيبٌ مِمّا ٱكْتَسَبْنَ﴾. (النِّساء ٣٢/)

﴿لِلْرِجالِ نَصِيبٌ مِمّا تَرَكَ ٱلوالِدانِ والأَقْرَبُونَ ولِلْنِّساءِ نَصِيبٌ مِمّا تَرَكَ ٱلوالِدانِ والأَقْرَبُون﴾. (النِّساء / ٧)

وفرض للزّوجة على زوجها حقّ الإعالة، ولو كانت موسرة.

وٱستطاع الإسلام بفضل مبادئه وسموّ آدابه أن يجعل المرأة المسلمة قدوة مثالية لنساء الأمم، في رجاحة العقل وسموّ الإيمان وكرم الأخلاق، ورفع منزلتها الإجتماعية، حتّى ٱستطاعت أن تناقش وتحاجّ الخليفة الثاني إبّان خلافته، وهو يخطب المسلمين وينهاهم عن المغالاة في المهور، فانبرت له امرأة من صفّ الناس، وقالت: ما ذاك لك؟

فقال: ولِمَ؟

أجابت: لأنّ الله يقـول: ﴿وآتَيْتُم إحداهُنَّ قِنْـطاراً فلا تأخُـذُوا مِنْهُ شَـيْئاً أتأخُذونَهُ بُهْتاناً وإثماً مُبيناً﴾. (النِّساء/ ٢٠)

فرجع عمر عن رأيه، وقال: أخطأ عمر وأصابت إمرأة.

وقد سجّل التاريخ صفحات مشرقة بأمجاد المرأة المسلمة ومواقفها البطولية في نصرة الإسلام، يقصّها الرواة بأسلوب رائع ممتع يستثير الإعجاب والإكبار.

«فهذه (نسيبة المازنية) كانت تخرج مع رسول الله ﷺ في غزواته، وكان ابنها معها، فأراد أن ينهزم ويتراجع، فحملت عليه، فقالت: يا بُنيّ! إلى أين تفرّ عن الله وعن رسوله؟ فردّته.

فحمل عليه رجل فقتله، فأخذت سـيف إبنها، فحملت على الرّجل فقتلته. فقال رسول الله ﷺ: باركَ اللهُ عليكِ يا نسيبة. وكانت تقي رسـول الله ﷺ بصدرها وثدييها، حتّى أصابتها جراحات كثيرة»[1].

«وحجّ معاوية سـنة من سـنيه، فسأل عن إمرأة من بني كنانـة كانت تنزل بالحَجونِ، يُقال لها (دارميّة الحَجونيّة)، وكانت سوداء كثيرة اللّحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها. فجيء بها، فقال: ما حالكِ يا بنة حام؟ فقالت: لستُ لحام إن عبتني، إنّما أنا امرأة من كنانة، ثمّ من بني أبيك.

قال: صدقتِ، أتدرين لِمَ بعثتُ إليكِ؟

قالت: لا يعلم الغيب إلّا الله.

قال: بعثتُ إليكِ لأسألكِ، علامَ أحبَبْتِ عليّاً وأبغضتني، وواليتهِ وعادَيتني؟

---

(١) عن سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٨٥.

قالت: أمّا إذا أبيت، فانِّي أحببتُ عليّاً على عدله في الرعيّة وقسمته بالسويّة. وأبغضتُكَ على قتال مَنْ هو أولى منكَ بالأمر، وطلبتكَ ما ليس لك بحقٍّ. وواليتُ عليّاً على ما عقد له رسول الله من الولاء، وعلى حُبِّه للمساكين، وإعظامه لأهل الدِّين. وعاديتُكَ على سفكِ الدماء، وشقّك العصا، وجوركَ في القضاء، وحكمكَ بالهوى.

قال: فلذلكَ إنتفخ بطنُكِ.

قالت: يا هذا! بِهِنْدٍ واللهِ يضربُ المثلُ في ذلك لا بي!!

قال معاوية: يا هذه اربعي! فإنّا لم نقل إلّا خيراً، فرجعت وسكنت.

فقال له: يا هذه! هل رأيتِ عليّاً؟

قالت: إي والله لقد رأيته.

قال: فكيف رأيتيه.

قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الّذي فتنك، ولم تشغله النِّعمة الّتي شغلتك.

قال: هل سمعتِ كلامه.

قالت: نعم والله، كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزّيت الصّدأ.

قال: صدقتِ، فهل لكِ من حاجة؟

قالت: أوَ تَفْعَل إذا سألتُك؟

قال: نعم.

قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها.

قال: تصنعين بها ماذا؟

قالت: أغذو بألبانها الصِّغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر.

قال: فإن أعطيتُكِ ذلك، فهل أحلّ عندكِ محلّ عليّ؟

قالت: ماء ولا كصدّاء، ومرعى ولا كالسّعدان، وفتى ولا كمالك.

ثمّ قال: أما والله، لو كان عليّ حيّاً ما أعطاكِ منها شيئاً.

قالت: لا والله، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين».

«وٱستدعى معاوية إمرأة من أهل الكوفة تُسمّى (الزّرقاء بنت عدي)، كانت تعتمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب عليّ، تُسمعهم كلامها كالصوارم، مستحثّة لهم بقول: لو سمعه الجبان لقاتل، والمُدبر لأقبل، والمُسالم لحارَب، والفارّ لكرّ، والمتزلزل لاستقرّ.

فلمّا قدمت على معاوية، قال لها: هل تعلمين لِمَ بعثتُ إليكِ؟

قالت: لا يعلم الغيب إلّا الله سبحانه وتعالى.

قال: ألستِ الراكبة الجمل الأحمر يوم صفّين، وأنتِ بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرّضين على القتال؟

قالت: نعم.

قال: فما حملكِ على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين! إنّه قد ماتَ الرّأس، وبُتِرَ الذّنب، ولن يعود ما ذهب، والّدهر ذو غير، ومَنْ تفكّر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال: صدقتِ، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلتِ؟

قالت: لا والله، لقد نسيته.

قال: لله أبوكِ! لقد سمعتكِ تقولين:

أيُّها الناس! ارعَووا وٱرجعوا، إنّكم أصبحتم في فتنة، غشّتكم جلابيب الظُّلَمِ، وجارت بكم عن قصد المحجّة، فيا لها فتنة عمياء صمّاء، بكماء. لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها. إنّ المصباح لا يُضيء في الشمس، وإنّ الكواكب لا تُنير مع القمر،

وإنّ البغل لا يسبق الفرس، ولا يُقطَع الحديد إلّا بالحديد، ألا مَنْ ٱسترشَد أرشدناه، ومَنْ سألنا أخبرناه.

أيّها الناس! إنّ الحقّ كان يطلب ضالّته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص، فكأنّكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل، وغلبَ الحقّ باطله، فإنّه لا يستوي المحقّ والمبطل، أفَمَن كان مؤمناً كمَن كان فاسقاً لا يستوون. فالنِّزال النِّزال، والصّبر الصّبر، ألا إنّ خضاب النِّساء الحناء، وخضاب الرِّجال الدماء، والصّبر خير الأمور عاقبة، أئتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده.

ثمّ قال: يا زرقاء! أليسَ هذا قولكِ وتحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك.

قال: لقد شاركتِ عليّاً في كلِّ دمٍ سفكه.

فقالت: أحسنَ الله بشارتك يا أمير المؤمنين! وأدامَ سلامتك، فمثلكَ مَنْ بَشَّرَ بخبر وسرّ جليسه.

فقال معاوية: أوَ يسرّكِ ذلك؟

قالت، نعم والله، لقد سرّني قولكَ، وأنّى إليَّ بتصديق الفعل.

فضحكَ معاوية، وقال: والله لوفاؤكم بعد موته أعجَبُ عندي من حبِّكُم له في حياته»[1].

«وهذه أمّ وهب بنِ عبدالله بن خباب الكلبي، قالت لابنها يوم عاشوراء: قم يا بُني! فانصر ابن بنت رسول الله.

فقال: أفعل يا أمّاه ولا أقصِّر.

فبرزَ وهو يقول رجـزه المشهور، ثمّ حمل فلم يزل يقـاتل، حتّى قتـل منهـم

---

(١) هاتان القصّتان (الثانية والثالثة) عن قصص العرب، ج ٢، وقد نُقلتا بتصرّف وٱختصار.

جماعة؛ فرجع إلى أمّه وامرأته، فوقف عليهما فقال: يا أمّاه أرضِيتِ؟

فقالت: ما رضيت أو تُقتَل بين يَدَي الحسين عليه السلام.

فقالت امرأته: بالله لا تفجعني في نفسِك!

فقالت أمّه: يا بُني! لا تقبل قولها، وارجع فقاتِل بين يَدَي ابن بنت رسول الله، فيكون غداً في القيامة شفيعاً لك بين يَدَي الله.

فرجع ولم يزل يُقاتل حتّى قتل تسعة عشر فارساً واثني عشر راجلاً، ثمّ قُطِعَت يداه، وأخذت أمّه عموداً، وأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأمّي، قاتِل دون الطّيّبين ـ حرم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فأقبل كي يردّها إلى النِّساء، فأخذت بجانب ثوبه «لن أعود أو أموت معك»، فقال الحسين عليه السلام: جُزيتُم من أهلِ بيت خيراً، إرجعي إلى النِّساء، رحمكِ الله. فانصرفت. وجعل يُقاتل حتّى قُتِلَ رضوان الله عليه»[(١)].

هذه لمحة خاطفة من عرض تاريخي طويل زاخر بأمجاد المرأة المسلمة ومواقفها البطولية الخالدة، اقتصرنا عليها خشية الإطالة.

وأين من هذه العقائل المصونات نساء المسلمين اليوم، اللّاتي يتشدّق الكثيرات منهنّ بالتبرّج ونبذ التقاليد الإسلامية ومحاكاة المرأة الغربية في تبرّجها وخلاعتها، فخسرت بذلك أضخم رصيد ديني وأخلاقي تملكه المرأة المسلمة وتعتزّ به، وغدونَ عاطلات من محاسن الإسلام وفضائله المثالية.

المساواة بين الرّجل والمرأة:

لقد غزت الشرق فيما غزاه من صنوف البدع والضّلالات، فكرة المساواة التامّة بين الرّجل والمرأة، ومشاطراتها له في مختلف نشاطاته السياسية والإقتصادية والإجتماعية.

---

(١) نفس المهموم، للشيخ عباس القمّي رحمه الله، بتصرّف وتلخيص.

وٱنخدع أغرار المسـلمين بهذه الفكـرة، وراحوا ينـادون بها ويدعون إليها، جهلاً منهم بزيفها ومخالفتها مبادئ الفطرة والوجدان، للفوارق العديدة بين الجنسين، واختلاف مؤهّلاتهما في مجالات الحياة.

ومتى تثبّتت المفارقات بين الرّجل والمرأة، تجلّى خطأ هذه الفكرة، وٱستبان ما فيها من تفريط وتضييع لخصائص كلّ منهما وكفاءته.

فالرّجل غالباً: هو أضـخم هيكلاً من المـرأة، وأصلَب عـوداً، وأقوى جلداً على معاناة الشدائد والأهوال، كما هو أوسع أفقاً، وأبعَد نظراً، وأوفر خبرة في تجارب الحياة.

والمـرأة غالباً، هي أجمل صـورة من الرّجل، وأضعَف جسماً وطاقـةً، وأرقّ عاطفةً، وأرهف حسّاً، تيسيراً لما أعدّت له من وظائف الأمومة ورسالتها الإنسانية في الحياة.

ويزداد التغاير والتباين بين الجنســين فيما ينتاب الأناث خاصّة، من أعراض الحيض والحمل والإرضاع، ممّا يؤثّر تأثيراً بالغاً في حياة المرأة وحالتها الصحِّية.

فهي تعـاني أعراضـاً مرضـيّة خـلال عادتها الشهرية، تُخـرجها عن طورها المألوف.

قال الطبيب (جب هارد):

«قلّ من النِّساء مَنْ لا تعتلّ بعلّة في المحيض، ووجدنا أكثرهنّ يشكين الصِّداع والنّصـب والوجع تحت السرّة، وقلّة الشهوة للطّعام، ويصـبحنَ شرسات الطِّـباع، مائلات إلى البكاء.

فنظراً لهذه العوارض كلّها، يصحّ القول: إنّ المـرأة في مخاضها تكون في الحقّ مريضة، وينتابها هذا المـرض مرّة كلّ شهر، وهذه التغـيّرات في جسم المـرأة تؤثّر

لا محالة في قواها الذهنية وفي أفعال أعضائها»[1].

وهكذا أعربَ الباحثون عن امتناع المساواة بين الجنسين.

قال الباحث الطبيعي الروسي (أنطون نيملاف) في كتابه الّذي أثبت فيه عدم المساواة الفطرية بينهما، بتجارب العلوم الطبيعية ومشاهداته:

«ينبغي أن لا نخدع أنفسنا بزعم أنّ إقامة المساواة بين الرّجل والمرأة في الحياة العملية أمر هيِّن ميسور. الحقّ إنّهُ لم يجتهد أحد في الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصِّنفين مثل ما ٱجتهدنا في روسيا السوفيتية، ولم يوضع في العالم من القوانين السّمحة البريئة من التعصّب في هذا الباب مثل ما وُضِعَ عندنا، ولكنّ الحقّ أنّ منزلة المرأة قلّما تبدّلت في الأسرة، ولا في الأسرة فحسب بل قلّما تبدّلت في المجتمع أيضاً».

ويقول في مكانٍ آخر:

«لا يزال تصوّر عدم مساواة الرّجل والمرأة ذلك التصوّر العميق راسخاً لا في قلوب الطّبقات ذات المستوى الذهني البسيط، بل في قلوب الطبقات السوفيتية العُليا أيضاً»[2].

وقال الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل:

«إنّ الإختلافات الموجودة بين الرّجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرّحم والحمل، أو من طريقة التعليم. إذ أنّها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك، إنّها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كلّه بمواد كيمائية محدّدة يفرزها المبيض. ولقد أدّى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الإعتقاد بأنّه يجب أن يتلقّى الجنسان تعليماً واحداً، وأن يُمنحا

(١) الحجاب، للمودودي، ص ٢٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٦.

قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة.

والحقيـقة: إنّ المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرّجل، فكلّ خليّة من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها.. والأمر نفســه صحيح بالنســبة لأعضائها، وفوق كلّ شيء بالنسبة لجـهازها العصبي. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للغبن مثل قوانين العالم الكوكبي.. فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلّها.

ومن ثمّ، فنحنُ مضطرّون إلى قبولها كما هي. فعلى النِّساء أن ينمِّين أهليّتهنّ تبعاً لطبيعتهنّ دون أن يحاولنَ تقليد الذّكور، فإنّ دورهنّ في تقدّم الحضارة أسمى من دور الرِّجال، فيجب عليهنّ ألّا يتخلّينَ عن وظائفهنّ المحدودة...

يجب أن يبذل المربّون اهتماماً شـديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذّكر والأنثى، كذا لوظائفهما الطبيعية. فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين.. ولذلك فلا مناصَ من أن نحسب حساب هذه الإختلافات في إنشاء عالم متمدين»[1].

«ووجّه مؤتمر (كاليفورنيا) اهتمامه إلى دراسة الاختلافات العقلية بين النِّساء والرِّجال.

وكان أبرع ما نوقشَ فيه، الدراسة الّتي قدّمتها الباحثة النفسية الدكتورة (اليانور ماكوبي)، وقد درست هذه الباحثة الإحصاءات وسجّلت الإختلافات العقلية بـين الجنسين خلال الأربعين سنة الأخيرة...

ودلّتها دراسـتها على أنّ الرِّجـال أكثر إنتـاجاً وٱبتكاراً من النِّســاء حتّى في المجالات الأدبية.

وعندما ٱنتقلت إلى ميدان الدراسـات العلمية والبحـوث، زادت الفجوة بين

---

(١) كتاب الإنسان ذلك المجهول، ص ١١٤ و١١٧، تعريب شفيق أسعد فريد.

الجنسين ـ أي برز تخلّف المرأة ـ وقالت: إنّ عدداً قليلاً من النِّساء الجامعيّات يندمجنَ في المشكلات العلمية، ويحاولنَ ابتكار نظريّات جديدة، وذلك بعد أن درست حالات أربعمائة من الجنسين ممّن حصلوا على درجة (الدكتوراه).

ومن هذه الإختبارات أثبتت أنّ البنات يتفوّقنَ على الأولاد في طلاقة اللِّسان، والقدرة على التعبير، ورواية القصص.

أمّا الأولاد، فكانوا يتفوّقون ويحصلون على الجوائز في العلوم الرياضية وعمليات التحليل في الجبر والهندسة وغيرها من العمليات الّتي تحتاج إلى تفكير منطقي كبير.

وظهر هذا الخلاف أيضاً في اختبارات الذّكاء الّتي تؤهِّل للإلتحاق بالجامعات، فإنّ نسبة الذّكاء في الصِّبيان كانت أعلى، ولم يكن السّبب في تخلّف النِّساء أنّهنّ يكرهنَ العمل مهندسات أو باحثات في العلوم الرياضية والطبيعية، بل كان نقصان في الصفات التحليلية للعقل...!!!

ماذا يقول مدّعو التسوية المطلقة بين الذّكور والإناث في كلّ شيء أمام هذه المقرّرات العلمية الّتي تعرضها امرأة باحثة»[1].

ولا يعتبر تفوّق الرّجل على المرأة في المجالات العلمية والنظرية مقياساً عامّاً شاملاً لجميع الرِّجال، فقد تبذّ المرأة الرّجل وتفوقه في ذلك، ولكنّ هذا لا ينفي تخلّفها عن أغلب الرِّجال.

وعزا بعضهم تخلّف المرأة عن الرّجل إلى التقاليد الإجتماعية، والنظم التربوية الّتي تكتنف حياتها.

---

(١) اقتباس ملخّص من كتاب حقوق الإنسان، للأستاذ محمّد الغزالي، ص ١٤٢ ـ ١٤٤.

وفاتهم أنّ تلك التقاليد والنظم قد تلاشت في أغلب الدول المتحلِّلة، وانعدمت فيها الفوارق بين الجنسين، وغدت المرأة تتمتّع بجميع فرص التكافؤ الّتي يتمتّع بها الرِّجال. وبالرغم من ذلك، فإنّها تُعتبر في المرتبة الثانية منه.

ومن هنا، نُدرِك امتناع المساواة المطلقة بين الرّجل والمرأة، ونعتبرها ضرباً من الحماقة والسّخف.

فهل يسع دعاة المساواة أن يطوِّروا واقع الرّجل ويجعلوه مشاركاً للمرأة في مؤهّلاتها الخاصة، ووظائفها النّسوية الّتي يعجز عنها هو. كذلك لا يسعهم أن يسترجلوا المرأة ويمنحوها خصائص الرّجل ووظائفه الّتي تعجز عنها هي.

إنّ الحكمة الإلهية قد كيّفت كلا الجنسين وأعدّتهُ إعداداً خاصّاً يؤهِّله لأداء وظائفه ومهمّاته في الحياة، فلا مناصَ من تنويع الأعمال بينهما حسب كفاءاتهما ومؤهّلاتهما... وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِقَ له.

فوظيفة الرّجل هي ممارسة الأعمال الشاقّة، والشؤون الخارجية عن المنزل، والكدح في توفير وسائل العيش لأسرته، والدّأب على حمايتها وإسعادها مادِّياً وأدبياً، ممّا تنوء به المرأة ولا تستطيع اتقانه وإجادته.

ووظيفة المرأة هي: أن تكون ربّة بيت وراعية منزل، وأُمّاً مثالية تُنشئ الأكفاء من الرِّجال، وهي وحدها الّتي تستطيع أن تجعل البيت فردوساً للرّجل، ويستشعر فيه الرّاحة من متاعب الحياة، وينعم الأطفال فيه بدفء الحنان ودواعي النموّ والإزدهار.

«إنّ الغذاء الروحي الّذي تُقدِّمه الأم لأولادها يُربِّي أجسامهم وينمِّيهم، فقد أثبتت التجارب العلمية الّتي أجريت لاختبار نموّ الأطفال الّذين يُنشئون في الملاجئ أو دور الحضانة، والأطفال الّذين يتربّون بين آبائهم وأمّهاتهم أنّه بعد تجاوز السنة

الأولى من أعمارهم يكون نموّ الطّفل بين أبويه أوضح وأكثر، لأنّه يحتاج بعد السنة الأولى إلى غذاء من العواطف كما يحتاج إلى غذاء من المادّة..

أمّا النموّ النفسي والعقلي والتهذيبي والسيطرة على الغرائز، فإنّه يكون كاملاً في الطِّفل بين أبويه، بينما يكون دون ذلك بكثير في الملجأ أو دار الحضانة.

ولا يمكن تنظيم الأسرة من غير ربّة بيت راعية كالئة»[1].

فإقحام المـرأة في ميادين الرّجل، ومنافسـتها له في أعماله، تضييع لكـفاءتها ومؤهّلاتها، ثمّ هو تجميـد للرّجل عن ممارسـته نشاطاته الحيـوية الّتي يجيدها ولا تجيدها المرأة، وتعطيل له عن إنشاء أسرة وتكوين بيت.

وقد أحدثت منافسة المرأة للرّجل في وظائفه ونشاطاته الخاصّة في الجاهلية الحديثة... شروراً أخلاقية واجتماعية ونفسية خطيرة، وكانت مضارّها أكثر من نفعها أضعافاً مضاعفة.

وأصبحت المرأة هناك تعاني مرارة الكفاح ومهانة الإبتذال في سبيل العيش، كما لا تمسّها الفاقة لنكول الرّجل عن إعالتها، ممّا عاقها عن أداء وظائفها الخاصّة من تدبير المنزل ورعاية الأسرة وتربية الأبناء تربية صالحة.

وبتقاعس المرأة عن أداء واجبها الأصيل، وانخراطها في المجتمع الخليط، أصيبت الإسرة هناك بالتبعثر والتسيّب والشّقاء، وشاعَ فيها التفسّخ والتهتّك والإنهيار الخلقي، كما شهد بذلك الباحث الطبيعي الروسي (أنطون نيميلاف) في كتابه الآنف الذِّكر:

«الحقّ إنّ جميع العمّال قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسية وهذه حالة جدّ خطيرة، تُهدِّد النظام الإشتراكي بالدّمار، فيجب أن نُحارب بكلّ ما أمكن من الطّرق،

(١) المصدر السابق، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

لأنّ المحاربة في هذه الجبهة ذات مشاكل وصعوبات. ولي أن أدلّكم على آلاف من الأحداث، يعلم منها أنّ الإباحية الجنسية قد سرت عدواها لا في الجهّال الأغـرار فحسب، بل في الأفراد المثقّفين من طبقة العمّال»[١].

وقالت الكاتبة (أني رورد):

«لَإنْ تشتغل بناتـنا في البيـوت خوادم أو كالخـوادم، خير وأخفّ بلاءً من اشتغالهنّ في المعـامل، حيث تصبح البنـت ملوّثة بأدران تَذهب برونق حـياتها إلى الأبد.

ألا ليتَ بلادنا كبلاد المسـلمين، فيها الحشـمة والعفاف والطّهارة.. الخادمـة والرّقيق ينعمان بأرغد عيش، ويُعامَلان كما يُعامَل أولاد البيت، ولا تُمسّ الأعراض بسوء.

نعم، إنّه لعار على بلاد الإنجلـيز أنْ تُجعَل بناتنا مثلاً للرّذائل بكـثرة مخالطة الرِّجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعـية من القيام بالبيت، وترك أعمال الرِّجال سلامةً لشرفها»[٢].

وقال (سامويل سمايلس):

«إنّ النـظام الّذي يقضي بتشغيل المـرأة في المعامل مهما تنشأ عنه من الثروة للبلاد، فإنّ نتيجته الحتمية هادمة لبـناء الحياة المـنزلية، لأنّه يهاجم هيكل المنزل، ويقوِّض أركان الأسرة، ويُمزِّق الروابط الإجتماعية...»[٣].

---

(١) الحجاب، للمودودي، ص ٢٥٧.

(٢) النظام التربوي في الإسلام، للعلّامة القرشي، ص ١٠٥.

(٣) نفس المصدر.

وحسبنا هذه الشهادات عظة وعبرة على بطلان المساواة بين الجنسين وأضرار اختلاطهما في الوظائف والأعمال، فهل من متّعظ ؟!

فإقحام المرأة في ميدان أعمال الرِّجال خطأ فاضح، وجناية كُبرى على المرأة والمجتمع الّذي تعيشه، وهدر لكرامتهما معاً.

نعم... يُستساغ للمرأة أن تُمارس أعمالاً تخصّها وتليق بها، كتعليم البنات، وتطبيب النِّساء وتوليدهنّ، وفي حالة فقدان المرأة مَنْ يعولها أو عجزه عن إعالتها، فإنّها والحالة هذه تستطيع مزاولة الأعمال والمكاسب الّتي تؤمِّن عليها من مفاتن المجتمع الخليط، ويؤمن عليها من فتنها كذلك.

ولكنّ الإسلام، صانَ كرامة المرأة المعوَزة، وكفلَ رزقها من بيت المال، دون أن يحوجها إلى تلك المعاناة، فلو أدّى المسلمون زكاة أموالهم، ما بقيَ فقير محتاجاً.

فماذا يُريد دعاة المساواة؟ أيريدون إعزاز المرأة وتحريرها من الغُبن الإجتماعي؟ فقد حرّرها الإسلام ورفع منزلتها ومنحها حقوقها المادِّية والأدبية.

أم يريدون مخادعة المرأة وابتذالها، لتكون قريبة من عيون الذِّئاب ومغازلاتهم؟ وماذا تريد المرأة المتحرِّرة؟! أتريد المساواة التامّة بالرّجل أم تريد حرِّية الخلاعة والإبتذال؟!

وكلّها غايات داعرة، حرّمها الإسلام على المرأة والرّجل، ليقيهما مزالق الفتن ومآسي الإختلاط.

التمايز بين الجنسين:

لقد حرّر الإسلام المرأة من تقاليد الجاهلية وأعرافها المقيتة، وأعزّها ورفع منزلتها، وقرّر مساواتها بالرّجل في الإنسانية ووحدة المبدأ والمعاد، وحرمة الدم

والعرض والمال، ونيل الجزاء الأخروي على الأعمال كما أوضحناه.

وحدّد قِيَم المرأة ومنزلتها من الرّجل تحديداً عادلاً حكيماً، فهو يساوي بينهما وبين الرّجل فيما تقتضيه الحكمة والصّواب، ويفرِّق بينهما في بعض الحقوق وبعض الواجبات والأحكام، حيث يجدر التفريق ويحسن التمايز نظراً لاختلاف خصائصهما ومسؤوليّاتهما في مجالات الحياة.

وهو في هذا وذاك يستهدف الحكمة والصّلاح، والتقييم العادل لطبائع البشر وخصائصهم الأصيلة. فلم يكن في تمييزه الرّجل في بعض الأحكام ليستهين بالمرأة أو يبخس حقوقها، وإنّما أراد أن يُحقِّق العدل ويمنح كلّاً منهما ما يستحقّه ويلائم كفاءته وتكاليفه.

وسنبحث في المواضيع التالية أهمّ مواطن التفريق والتمايز بين الرّجل والمرأة، لنستجلي حكمة التشريع الإسلامي وسموّ مبادئه في ذلك.

١ ـ القوامـة:

الأسرة هي الخليّة الأولى، الّتي انبثقت منها الخلايا الإجتماعية العديدة والمجتمع الصغير الّذي نما وٱتّسع منه المجتمع العام الكبير.

ومن الثابت أنّ كلّ مجتمع ـ ولو كان صغيراً ـ لا بدّ له من راعٍ كفءٍ يرعى شؤونه، ويُنظِّم حياته، ويسعى جاهداً في رقيّه وٱزدهاره.

لذلك كان لابدّ للأسرة من راعٍ وقيِّمٍ، يسوسها بحُسن التنظيم والتوجيه، ويوفِّر لها وسائل العيش الكريم، ويحوطها بالعزّة والمنعة. وتلك مهمّة خطيرة تستلزم الحنكة والدّربة، وقوّة الإرادة، ووفرة التجربة في حقول الحياة.

فأيّ الشخصين الرّجل والمرأة أحقّ برعاية الأسرة والقوامة عليها؟

إنّ الرّجل بحُكم خصائصه ومؤهّلاته أكثر خبرة وحذقاً في شؤون الحياة من المرأة، وأكفأ منها على حماية الأسرة ورعايتها أدبياً ومادّياً، وأشدّ قوّةً وجَلَداً على تحقيق وسائل العيش ومستلزمات الحياة. لذلك هو أحقّ برعاية الأسرة والقوامة عليها. وهذا ما قرّر الدستور الإسلامي الخالد:

﴿الرِّجالُ قَوّامُونَ على ٱلنِّساءِ بما فَضّلَ ٱللّهُ بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ، وبما أنفَقُوا مِن أمْوالِهِم﴾. (النِّساء/ ٣٤)

هذا إلى أنّ الرّجل هو المُنفِق على تموين أسرته، وتوفير وسائل عيشها ورخائها.

لذلك كان هو أجدر وأحقّ بسياسة الأسرة، والقوامة عليها من المرأة المُعفاة من ذلك.

وعلى هذا المبدأ، درجت الأمم والدول الديمقراطية الّتي خوّلت مواطنيها حقّ الرّقابة والإشراف عليها عن طريق البرلمانات لقاء بذلهم وإنفاقهم على إدارة شؤونها، وتحقيق مصالحها من الأتاوات والضّرائب، وقد لخّص مفكّروهم هذا المبدأ: «مَنْ يُنفِق يُشْرِف» أو «مَنْ يَدْفَع يُراقِب».

وليس معنى القوامة هو التحكّم بالأسرة وسياستها بالقسوة والعُنف، فذلك منافٍ لأخلاق الإسلام وآدابه. والقوامة الحقّ هي الّتي ترتكز على التفاهم والتآزر والتجاوب الفكري والعاطفي بين راعي الأسرة ورعيّته.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلّذِي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوفِ، ولِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

(البقرة/ ٢٢٨)

أمّا المرأة، فإنّها بحُكم أنوثتها، رقيقة العاطفة، مُرهفة الحسّ، سريعة التأثّر، تتغلّب عواطفها على عقلها ومشاعرها. وذلك ما يؤهّلها لأداء رسالة الأمومة،

ووظائفها المستلزمة لتلك الخِلال، ويقصيها عن مركز القيادة في الأسرة الّذي يتطلّب الحنكة، واتِّزان العواطف، وقوّة الجَلَد والحَـزْم، المـتوفِّرة في الرّجل، وهذا ما يؤْثِرهُ عليها في رعاية الأسرة والقوامة عليها.

هذا إلى أنّ المرأة السويّة بحُكم أنوثتها تستخفّ بالزّوج المائع الرّخو، وتُكبره إذا كان ذا شخصية قويّة جذّابة، تستشـعر في ظِلال رجولته مفاهيم العزّة والمنعـة، وترتاح الى حُسْن رعايته وتدبيره.

٢ ـ إيثار الرّجل على المرأة في الإرث:

وهكذا قضـت حكمة التشريع الإسلامي أن تؤثر الرّجل على المـرأة بضعف نصيبها من الإرث، ممّا حسبه المغفّلون انتقاصاً لكرامة المرأة وبخساً لحقوقها.

لا... لم يكن الإسـلام ليستهين بالمرأة أو يبخس حقوقها، وهو الّذي أعزّها ومنحها حقوقها الأدبية والمادِّية. وإنّما ضاعفَ نصيب الرّجل عليها في الإرث، تحقيقاً للعدل والإنصاف. ونظراً لتكاليفه ومسؤوليّاته الجسيمة.

فالرّجل مكلّف بالإنفاق على زوجتـه وأسرته وتوفير ما تحـتاجه من طـعام وكساء وسكن، وتعليم وتطبيب، والمرأة معفوّة من كلّ ذلك.

وكذلك هو مسؤول عن خدمة الإسلام والجهاد في نصرته، والمرأة غير مكلّفة به، والرّجل مكلّف بالإسهام في دية العاقلة ونحوها من الإلتزامات الإجتماعية، والمرأة مُعفاة منها.

وعلى ضوء هذه الموازنة بين الجهد والجزاء، نجد أنّ من العدل والإنصاف تفوّق الرّجل على المرأة في الإرث، وإنّها أسعد حالاً، وأوفر نصيباً منه، لتكاليفه الأسرية والإجتماعية، الّتي هي غير مسؤولة عنها.

وهذا ما شرّعه الإسلام ﴿**لِلْذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ**﴾ (النِّساء / ١١)، على أنّ تفضيل الرّجل على المرأة في الإرث لا يعمّ حقوقها المِلكيّة، وأموالها المكتسَبة، فإنّها والرّجل سيّان، لا يحقّ أن يبتزّ فلساً واحداً منها إلّا برضاها وإذنها.

٣ ـ الشّهادة:

وهكذا تجلّت حكمة التشريع الإسلامي في تقييم شهادة المرأة، واعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد، وقد أراد الإسلام بهذا الإجراء أن يصون شهادة المرأة عن التزوير والإفتراء، ليحفظ حقوق المتخاصمين عن البخس والضّياع.

فالمرأةُ سرعان ما تستبدّ بها عواطفها الجيّاشة وشعورها المُرهَف وانفعالها السريع، فتزيغ عن العدل، وتتناسى الحقّ والواجب، متأثِّرة بنوازعها نحو المتداعيين، قريباً لها أو عزيزاً عليها، وتفادياً من ذلك، قرنَ الإسلام بين المرأتين في الشهادة، لتكون إحداهما مُذكِّرة للأخرى ورادعة لها عن الزّيغ والممالأة:

﴿**واَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ من رِجالِكُم، فإن لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ واَمْرَأتانِ مِمّن تَرضَوْنَ من اَلشُّهَداءِ، أن تَضِلَّ إحْداهُما فَتُذَكِّرَ إحْداهُما الأخْرى**﴾.

(البقرة / ٢٨٢)

هذا وإنّ الطِّبّ الحديث قد اكتشف أنّ بعض النِّساء إبّان عادتهنّ الشهرية، قد تضعف طاقاتهنّ الذهنية، ويغدون آنذاك مظنّة للنِّسيان، كما أوضحتهُ التقارير السالفة، في بحث المساواة[١].

وهذا ما يؤيِّد ضرورة اقتران امرأتين في الشهادة، إذ باقترانهما وتذكير إحداهما للأخرى يتجلّى الحقّ ويتّضح الواقع.

---

(١) أنظر (قول الطّبيب جب هارد) في بحث المساواة.

٤ ـ تعدّد الزّوجات:

وما فتئ أعداء الإسلام يشنّون الحملات الظّالمة على الدِّين الإسلامي وشريعته الغرّاء، في صُور من النّقد اللّاذع، والتنديد الرّخيص، الكاشف عن حقدهم وكيدهم للإسلام.

فمِن ذلك تشنيعهم على الإسـلام بإباحته تعدّد الزّوجات، وأنّها على زعمهم إضرار بالزّوجة وإرباك لحياتها.

وقد جهل الناقدون أو تجاهلوا أنّ الإسلام لم يكن المُشرِّع الأوّل لذلك، فقد شرّعتهُ الأديان السماوية والقوانين الوضعيّة قبل الإسلام بآمادٍ وقرونٍ طويلة.

«فلا حَجْرَ على تعدّد الزّوجات في شريعة قديمـة قبل التوراة والإنجـيل، ولا حَجْرَ على تعدّد الزّوجات في التوراة أو في الإنجيل، بل هو مُباح مأثور عن الأنبـياء أنفسهم، من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الميلاد، ولم يرد في الإنجيل نصّ واحد يُحرِّم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبـياء ولِمَن دونهم من الخاصّة والعامّة. وما ورد في الإنجيل يشير إلى الإباحة في جميع الحالات، والإستثناء في حالة واحدة وهي: حالة الأسقف حين لا يطيق الرهبانيّة، فيقنع بزوجة واحدة اكتفاءً بأهْوَنِ الشرور...».

وقال (وستر مارك) العالِم الثِّقة في تاريخ الزّواج:

«إنّ تعدّد الزّوجات باعتراف الكنيسة بقِيَ إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرّر كثيراً في الحالات الّتي لا تُحصيها الكنيسة والدولة.

فالإسلام لم يأتِ ببدعة فيما أباح من تعدّد الزّوجات، وإنّما الجديد الّذي أتى به: أنّه أصلح ما أفسدتهُ الفوضى من هذه الإباحة المطلقة من كلِّ قيـد، وإنّما حسـب حساب الضّرورات الّتي لا يغفل عنها الشارِع الحكيم، فلم يُحرِّم أمراً قد تدعو إليـه

الضّرورة الحازبة. ويجوز أن تكون إباحته خيراً من تحريمه في بعض ظروف الأسرة، أو بعض الظّروف الإجتماعية العامّة»[1].

إنّ الّذين استنكروا إباحة تعدّد الزّوجات في التشريع الإسلامي، قد مارسوه فعلاً بطرق الغواية والعلاقات الأثيمة بالخليلات والعشيقات، وتجاهلوا واقعهم السيِّىء، وتحلّلهم من القِيَم الأخلاقية، كأنّما يحلو لهم أن يتنكّبوا النّهج السويّ المشروع، ويتعسّفوا الطّرق الموبوءة بالفساد.

ولو أنّهم فكّروا وأمعنوا النظر بتجرّد وإنصاف في حكمة ذلك التشريع الإسلامي، لأيقنوا أنّه العلاج الوحيد لحلِّ المشاكل والأزمات الّتي قد تنتاب الفرد وتنتاب المجتمع ويُصلحها إصلاحاً فريداً لا بديل له ولا محيص عنه.

المُبـرّرات:

ونستطيع أن نستجلي أهداف الشريعة الإسلامية في تعدّد الزّوجات على ضوء المُبرّرات التالية:

١ ـ قد تمرض الزّوجة جسمياً أو عقلياً، وتعجز آنذاك عن أداء رسالتها الزوجية، ولا تستطيع تلبية رغبات الزّوج، ورعاية الأسرة والأبناء، ممّا يفضي بهم إلى القلق والتسيّب.

ولا ريبَ أنّها أزمة خانقة تستدعي العلاج الحاسم الحكيم، وهو لا يخلو من فروض ثلاثة:

أ ـ إمّا أن يُترَك الزّوج هملاً يعاني مرارة الحرمان من حقوقه الزّوجية ويغدو عرضة للتردّي في مهاوي الرّذيلة والإثم، وتُترَك الأسرة كذلك نهباً للفوضى والتبعثر. وهذا إجحاف بالزّوج والأسرة، وإهدار لحقوقها معاً.

---

(١) عن كتاب حقائق الإسلام، للأستاذ العقّاد، ص ١٧٧ ـ ١٧٨، بتصرّف.

ب ـ إمّا أن يتخلّص الزّوج من زوجته المريضة بالطّلاق، والتخلّي عنها، ويدعها تُقاسي المرض ووحشة النّبذ والإنفراد، وهذا ما يأباه الوجدان لمنافاته مبادئ الإنسانية وسجايا النّبل والوفاء.

ج ـ إمّا أن يتسرّى الزّوج على زوجته المريضة، مُتّخذاً زوجة أخرى تُلبّي رغباته، وتلمّ شعث الأسرة، وتحيط الأولى بحُسْن الرّعاية واللّطف، وهذا هو أفضل الحلول وأقربها إلى الرّشد والصّواب.

٢ ـ وقد تكون الزّوجة عقيمة محرومة من نعمة النّسل والإنجاب، فماذا يصنع الزّوج والحالة هذه، أيظلُّ محروماً من الأبناء يتحرّق شوقاً إليهم وتلهّفاً عليهم، مستجيباً لغريزة الأبوّة ووخزها الملحّ في النّفس؟!

فإن هو صبر على ذلك الحرمان مؤثراً هوى زوجته على هواه، فذلك نُبْل وتضحية وإيثار، أو يتسرّى عليها بأخرى تنجب له أبناء يملؤون فراغ نفسه، ويكونون له قرّة عين وسلوة فؤاد. وهذا هو منطق الفطرة والغريزة الّذي لا يحيد عنه إلّا نفر قليل من الناس.

٣ ـ والنِّساء ـ في الغالب ـ أوفَر عدداً وأكثر نفوساً من الرِّجال، وذلك لأمرين:

أ ـ إنّ الرِّجال أكثر تعرّضاً لأخطار العمل وأحداث الوفاة من النِّساء، لممارستهم الأعمال الشاقّة الخطيرة، المؤدِّية إلى ذلك، كالمعامل والمناجم والمطافئ ونحوها، ممّا يُسبِّب تلفهم وقلّتهم عن النِّساء.

أضف إلى ذلك، أنّ الرِّجال أضعف مناعة من النِّساء وأكثر إصابة بعدوى الأوبئة والأمراض، ممّا يجعلهم أقلّ عدداً منهنّ.

«ويعزو علماء الحياة ذلك إلى ما تتميّز به المرأة على الرّجل بدنياً. وإلى أنّ الأمراض كلّها تقريباً تهلك من الرِّجال أكثر ممّا تهلك من النِّساء، ولذا فإنّ في

الولايات المتحدة في الوقت الحاضر (٧٫٧٠٠٫٠٠٠ أرملة)، ويتنبّأ مكتب التعداد الأمريكي بأنّ هذه الفئة سيرتفع عددها في أمريكا بمعدّل مليونين كلّ ١٠ سنين.

وأنّ الدكتورة (ماريون لانجر) العالمة الإجتماعية المتخصِّصة في استشارات الزّواج تقول: إنّ لدى المجتمع حلّين ممكنين فقط لتغطية النّقص المتزايد في الرِّجال، إمّا تعدّد الزّوجات، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرِّجال...»[١].

ب ـ الحروب: فإنّها تفني أعداداً ضخمة من الرِّجال وتُسبِّب هبوط نسبتهم عن النِّساء هبوطاً مُريعاً. فقد كان المصابون في الحرب العالمية الأولى (واحداً وعشرين مليون نسمة) بين قتيل وجريح. وكانت ضحايا الحرب العالمية الثانية (خمسين مليون نسمة).

وقد أحدث ذلك فراغاً كبيراً في صفوف الرِّجال، وأثار أزمة عالمية تستدعي العلاج الحاسم الناجع.

أمّا الأمم الغربية، فقد وقفت ازاء هذه الأزمة موقف العاجز الحائر في علاجها وملافاتها... لمنعها تعدّد الزّوجات، فراحت تعالجه عن طريق الفساد الخلقي، ممّا دنّسها وأشاع فيها البغاء وكثرة اللّقطاء، وعمّتها الفوضى الأخلاقية.

حسبكَ في ذلك النشرة الإحصائية الّتي نشرتها هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٥٩:

«لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والإحصائيات: أنّ العالم يواجه الآن مشكلة الحرام أكثر من الحلال في شأن المواليد!

وجاء في هذه الإحصائية: أنّ نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ٱرتفعت إلى

---

(١) الإسلام والعلم الحديث، عن مجلّة المختار (عدد فبراير ١٩٥٨).

ستّين في المائة. وأمّا بعض البلاد وعلى سبيل المثال (بناما) فقد جاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين فى المائة، أي أنّ ثلاثة عن طريق الحـرام من كلّ أربعة مواليـد، وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة في أمريكا اللّاتينية.

وثبّتت هذه النشرة أيضاً: أنّ نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى العدم في البلدان الإسلامية.

وتقول النشرة: إنّ نسبة هؤلاء الأطفال أقلّ من واحد في المائة في جمهورية مصر العربية، مع أنّها أكثر البلاد الإسلامية تأثّراً بالحضارة الغربية. فما الأسباب الّتي تحمي الدول الإسلامية من هذه البليّة؟

يقول محرِّر هذه النشرة الإحصائيـة: إنّ البلدان الإسـلامية محفوظة من هذا الوباء، لأنّها تتّبع نظام تعدّد الزّوجات»[1].

وأمّا الإسلام، فقد عالج ذلك علاجاً فذّاً فريداً، يُلائم الفطرة البشرية ومقتضيات الظروف والحالات. حيث أباح التعـدّد وقايـة للفرد والمجـتمع من تلك المآسي الّتي عانتها الأمم المحرِّمة له:

﴿فانْكِحُوا ما طابَ لَكُم مِنَ ٱلنِّساءِ مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ، فإن خِفْتُمْ ألّا تَعْدِلُوا فَواحِدَة﴾. (النِّساء / ٣)

وحين شرّع الإسلام التعدّد، لم يُطلقهُ إرسالاً وجزافاً، فقد ٱشترط فيه العدل والمساواة بين الأزواج صيانة لحقوق المرأة وكرامتها.

بيدَ أنّ العدل مشروط في مستلزمات الحياة المادِّية، كالمطعَم والملبَس والمسكَن، ونحوها من المآرب الحسِّية المتاحة للإنسان، والداخلة في نطاق وسعه وقدرته.

---

(١) الإسلام يتحدّى، للأستاذ وحيد الدّين خان، ص ١٧١.

أمّا النواحي الوجدانية والعاطفيـة، كالحبّ والميل النفسي، فإنّها خارجة عن طَوْق الإنسان، ولا يستطيع العدل فيها والمساواة، لوهنه ازاء سلطانها الآسِر:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّساءِ ولو حَرَصْتُم﴾. (النِّساء/ ١٢٩)

وقد يعـترض البعض أنّ المـرأة الغربيـة قادرة على ممارسـة الأعمال وكسب المعاش، فهي غنيّة عن الزّواج.

وهو زعم باطل، يُكذِّبه واقع الفطرة الإنسانية وغرائزها الراسخة في النفس. فحاجة المرأة إلى الرّجل ليست مقصورة على المآرب المادِّية فحسب، وإنّما هي حاجة نفسية ملحّة تستكمل به كيانها وتشعر بوجودها كحاجة الرّجل إليها على سواء.

٤ ـ ومن مبرّرات التعـدّد أنّه يتّصف بعض الرّجال بطاقة جنسـية عارمة، تتطلّب المزيد من التنفيس والإفضاء، وتستدعي تعدّد الأزواج، فإن تيسّر له ذلك، وإلّا نفّس عن طاقته بالدّعارة والفساد، كما حدث ذلك في الأمم الّتي حرّمت التعدّد المشروع، فابتلت بالتعدّد الموبوء من الخليلات والعشيقات.

قال (أتيين دينية) وهو رسّام عالمي مشهور، وقد أسلم، وكرّس حياته لخدمة الدِّين الإسلامي، قال في رسالته (أشعّة خاصّة بنور الإسلام)، ترجمة الأستاذ راشد رستم:

«إنّ تعدّد الزّوجات قانون طبيعي، وسـيبقى ما بقيَ العـالم... على أنّ نظريـة التوحيد في الزّوجة، وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً، تنطوي تحتها سيِّئات متعدِّدة، ظهرت على الأخصّ في ثلاث نتائج واقعيّة، شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هي: الدّعارة، والعوانس من النِّساء، والأبناء غير الشّرعيين»[١].

---

(١) أوروبا والإسلام، سلسلة الثقافة الإسلامية، للدكتور عبدالحليم محمود، ص ٥٢.

الطّلاق في الإسلام:

وهكذا انطلقت حناجر لاغية، تتشدّق بانتقاد الإسلام على تشريع الطّلاق، بأنّه يُهدِّد كيان المـرأة وسعادتها، فتغدو بنزوة من نزوات الرّجل ولوثة من لوثاتـه الغاضبة، طريدة كسيرة القلب مهدورة الكيان.

وهذا من صور التجنِّي والتشنيع على الإسـلام، إذ لم يكن هو المشرِّع الأوّل للطّلاق، ولا المتفنِّن الوحيد له، وإنّما كان شائعاً في أغلب الأمم ومن أقدم العصور، وكان آنذاك بأسلوب فوضوي يُهدِّد حقوق الزّوجة وكرامتها، ويجعلها طريدة شريدة هائمة حيث تشاء.

فقد شاعَ عند اليونانيين دون قيد أو شرط، وأباحهُ الرومانيون دينياً ومدنياً بعد أن حرّمته الأجيال الأولى منهم.

وحينما جاءت الشريعة الموسوية، قلّصت من نطاق الطّلاق وأباحته في حالات ثلاث: الزِّنا والعقم والعيب الخَلقي والخُلقي.

وأمّا الشريعة المسيحية، فقد حرّمتهُ إلّا في حالتين: اقتراف أحد الزّوجين أو كلاهما جريمة الفسق، أو في حالة العقم.

وهذا ما دفع الأمم الغربية الحديثة، بضغط الحاجة الملحّة إلى تقنين الطّـلاق المدني وجعله قانوناً ثابتاً، وإن خالف دينها وشريعتها.

ولمّا أطلّ الإسلام بعهده الزّاهر وتشريعه الكافل، أقرّ الطّلاق وأحاطه بشروط من التدابير الوقائية والعلاجية، لتقليصه وملافاة أزماته ومشاكله.

فهو أبغض الحـلال إلى الله عزّ وجلّ، ولكن الضرورة تُبيح المحـذور، فهناك حالات يتّسع الخلاف فيها بين الزّوجين ويشتدّ الخصام وتغدو الحـياة الزّوجية أتوناً مستعراً بالشّحناء والبغضاء، ممّا يتعذّر فيها التفاهم والوفاق.

وهنا يعالج الإسلام هذه الحالة المتوتِّرة والجوّ المكفهر المحموم بحكمة وتدرّج بالغين، فهو «لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدّس فيفصمه لأوّل وهلة، ولأوّل بادرة من خِلاف، إنّه يشدّ على هذا الرّباط بقوّة، ويُمْسِك به بِشِدَّةٍ، فلا يدعهُ يفلت إلّا بعد المحاولة واليأس.

إنّه يهتف بالرِّجال:

﴿وعاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوفِ، فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أن تَكْرَهُوا شَيْئاً ويَجْعَلَ ٱللهُ فيه خَيْراً كَثِيراً﴾. (النِّساء/ ١٩)

فيميل بِهِم إلى التريّث والمصابرة حتّى في حالة الكراهية.

فإن تجاوز الأمر مسألة الكره والحبّ، إلى النّشوز والنّفور، فليس الطّلاق أوّل خاطر يهدي إليه الإسلام، بل لا بدّ من محاولة يقوم بها الآخرون وتوفيق يحاوله الخيِّرون:

﴿وإن خِفْتُم شِقاقَ بَيْنِهِما فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أهْلِها إن يُرِيدا إصْلاحاً يُوفِّقِ ٱللهُ بَيْنَهُما إنّ ٱللهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾. (النِّساء/ ٣٥)

﴿وَإنِ ٱمْرَأةٌ خافَتْ مِن بَعْلِها نُشُوزاً أوْ إعْراضاً فَلَا جُناحَ عَلَيْهِما أن يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. (النِّساء/ ١٢٨)

فإن لم تُجْدِ هذه الوساطةُ، فالأمر إذن جِدٌّ، وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة الزّوجيّة، وإمساك الزّوجين على هذا الوضع محاولة فاشلة، ويزيدها الضغط فشلاً. ومن الحكمة التسليم بالواقع وإنهاء هذه الحياة الزّوجيّةِ ـ على كره من الإسلام ـ فإنّ أبغض الحلال إلى الله الطّلاق.

ولعلّ هذه التفرقة تثير في نفس الزّوجين رغبة جديدة لمعاودة الحياة، فكثيراً ما نرى حسنات الشيء عندما نُحْرَمُهُ، والفرصة لم تَضِعْ:

﴿ٱلطَّلاقُ مَرّتانِ فإ ْمساكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بإحْسانٍ﴾. (البقرة/ ٢٢٩)

وهناك فترة العـدّة في حال الدخول بالزّوجة، وعليه أنْ يُنـفِقَ عليها في هذه الفترة ولا يُقَتِّرَ. وفي خلالها يجوز له ـإن كان قد ندم ـ أن يراجع زوجه وأن يستأنفا حياتهما بلا أيِّ إجراء جديد.

فإن تُركت مدّة العـدّة تمضي دون مراجعـة، ففي ٱستطاعتهما أن يستأنفا هذه الحياة متى رَغِبا، ولكن بعقدٍ جديد.

وتلك هي التجربة الأولى، وهي تكشف لكلا الزّوجين عن حقيقة عواطفهما، وعن جدِّيةِ الأسباب الّتي ٱنفصلا بسببها، فإذا تكرّرت هذه الأسباب، أو جدّ سواها، وٱندفع الزّوج إلى الطّـلاق مرّة أخـرى، فعندئذٍ لا تبقى سوى فرصة واحـدة، هي الثالثة.

فإذا كانت الثالثة، فالعلّة إذن عميقة والمحاولة غير مجدية، ومن الخير له ولها أن يُجرِّب كلّ منهما طريقة، ومن الخير كذلك أن يتلقّى الزّوج ـان كان عابثاً، نتيجة عبثه أو تَسَرُّعِه:

﴿فإنْ طَلَّقها فلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حتّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَه﴾[١]. (البقرة/٢٣٠)

فلماذا ينقم الثرثارون على الإسلام بتشريع الطّلاق؟ أيريدون إلغاءه وتحريمه، لتشيع المآسي في المجتمع الإسـلامي، الّتي عاشـتها الأمم الكاثوليكيـة، الّتي حرَّمت الطّلاق وحرّمت تعدُّدَ الزّوجـات، ممّا ٱضـطُرَّهم إلى ٱتِّخـاذ العشـيقات والأخدان، وتعسّف مسالك الغواية والآثام الخلقية؟

---

(١) نُقل بتصرّف وٱختصار عن كتاب السلام العالمي، لسيِّد قطب، ص ٦٤ ـ ٦٧.

لقد وقع الفراغ من تأليف هذا الكتاب في شهر شوّال سنة ١٣٩١هـ، على يد مؤلِّفه مهدي بن الحجّة السيِّد علي الصّدر. ويليه الجزء الثالث في الإمامة والرّابع في المعاد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مصادر ومراجع الكتاب

إسم الكتاب	إسم المؤلف
القرآن الكريم	
بحار الأنوار	الشيخ محمّدباقر المجلسي
الوافي	الملّا محسن الفيض
سفينة البحار	الشيخ عبّاس القمّي
أخلاق أهل البيت عليهم السلام	مهدي الصّدر
حقّ اليقين	السيد عبدالله شبّر
مقارنة الأديان	الدكتور أحمد شلبي
روح الدين الإسلامي	عفيف عبدالفتّاح طباره
مبادئ الإسلام	لأبي الأعلى المودودي
الحضارة الإسلامية	= = =
رسالة التوحيد	محمّد عبده
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	للسيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
الهدى إلى دين المصطفى	الشيخ محمّدجواد البلاغي
الإنسان وأوّل الواجبات	الشيخ محمّدرضا فرج الله
البشارات والمقارنات	الشيخ محمّد الصادقي الطهراني
لماذا أؤمن بالقرآن وبمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم	هلال علي هلال
عقائد الإمامية	الشيخ محمّدرضا المظفّر

فهرس

أصول العقيدة: في التوحيد والعدل

فهرس

أصول العقيدة: في النبوّة